"عليكم قراءة وراء عينيها... إنها رواية عبقريّة"

ستيفن كينج

NETFLIX
يعرض الآن
على نتفليكس

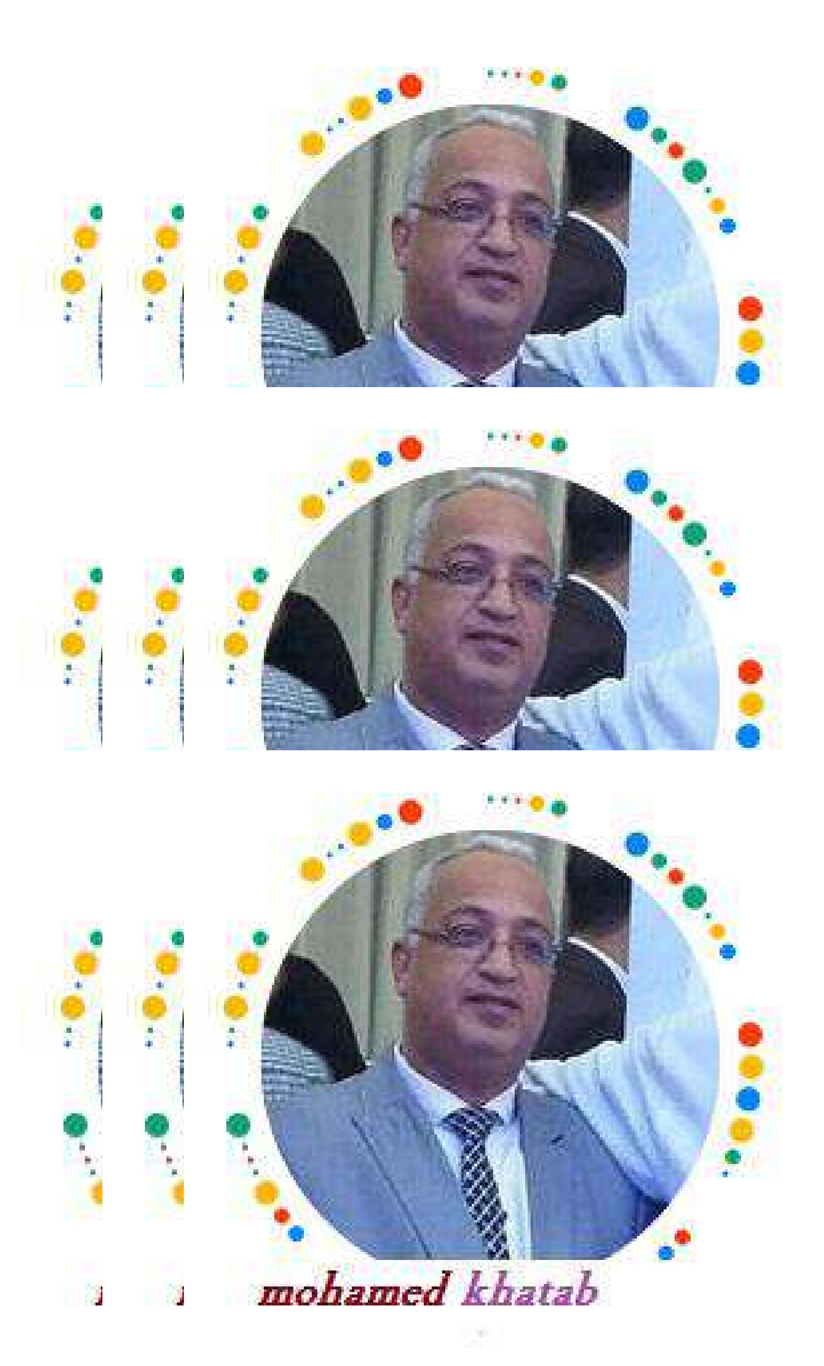
وراء عينيها

T

سارا بينبرو

ترجمة سليمان ع. يوسف




mohamed khatab

"عليكم قراءة وراء عينيها... إنها رواية عبقرية"

ستيفن كينغ



وراء عينيها

سارا بينبرو

ترجمة سليمان ع. يوسف





لتجارة الكتب

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: Behind her eyes
- العنوان العربي: وراء عينيها
- طُبِع بواسطة: Clays Ltd, St Ives plc
- طُبِع بواسطة: شركة كلايز، وشركة سانت آيفيز العامة المحدودة.
- حُقوق النشر: 2017، سارة بينبرو copyright © 2017 by Sarah Pinborough
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب
- ترجمة: سليمان ع. يوسف
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: مايو / 2022م
- رقم الإيداع: 3241/2022م
- الترقيم الدولي: 978-977-6972-03-2

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

"يمكن لثلاثة كتمُ سرٍّ إن كان اثنان منهم ميتَين".

ـ بنجامين فرانكلين.

من أجل تاشا...

لا تفي الكلمات بالغرض. لا يسعني قول إلَّا شكرًا على كل شيء والمشاريب على حسابي.

الجزء الأول

1

آنذاك

أقرصُ نفسي وأقولُ *أنا صاحٍ* مرةً كل ساعة.

أنظرُ إلى يديّ، أحصي أصابعي.

أنظرُ إلى ساعة الحائط (أو ساعة يدي)، أشيحُ بنظري، وأرجعُ به.

أحافظ على هدوئي وتركيزي.

أفكّر في باب.

2

لاحقًا

كان الوقتُ قرابة الفجر وقتما قُضي الأمر أخيرًا. مسحةٌ رماديّة تسطّر قماشة السماء، طينٌ وأوراق يابسة ملتصقة ببنطاله الجينز، وجسدهُ الضعيف يؤلمه بينما يبرد عرقه في الهواء النديّ القارس. فُعل فِعلٌ لا يمكن التراجع عنه، فعلٌ مريعٌ لازمٌ. بدايةٌ ونهايةٌ عُقدتا معًا إلى الأبد. توقّعَ أن تتغيّر ألوان العالم لتعكس ذلك، لكن الأرض والسماوات ظلّت على صبغاتها البكماء نفسها، ولم ترتعِش الأشجارُ أيّ ارتعاشة غضب. لم تهمس الريح همسًا ناحبًا، ولم تندب عروسُ بحرٍ في المدى. كانت الغابات هي الغاباتُ وحسب، والتراب محض التراب. أطلقَ نفسًا طويلًا وشعرَ براحةٍ مفاجئة. نقيّ. فجرٌ جديد. يوم جديد.

مشى في صمتٍ ناحية أطلال المنزل في القصاء، ولم ينظُر خلفه.

3

الآن
أديل

كان بعض الطين عالقًا لم يزَل تحت أظفاري وقتما عاد ديفيد إلى المنزل أخيرًا. شعرتُ بوخزهِ جلديَ المسحوج، في عمق طبقاته، وتلوّت معدتي معتصرة أعصابًا جديدةً عندما انغلق الباب الأمامي، وللحظة، لم نفعل إلّا النظر واحدنا إلى الآخر من الطرفين المتقابلين للدهليز الطويل في منزلنا الفيكتوري الجديد، وبيننا امتدادٌ من الخشبِ المصقول أحسن صقلٍ، قبل أن ينعطف، متمايلًا بعضْ الشيء، ناحية غرفة الجلوس. أخذتُ نفسًا عميقًا وانضممتُ إليه، مُجفلةً من كلِ طرقة ثقيلةٍ لكعبيّ على ألواح الأرضية. لا ينبغي أن أخاف، أنا محتاجةٌ إلى إصلاح هذا. نحنُ محتاجان إلى إصلاح هذا.

قلت، محاولة ألّا أبدو عوزاءَ أكثر مما ينبغي:

- لقد طهوتُ طعام العشاء. ستروجانوف فقط. يمكنها الانتظار حتى الغد إن كنتَ قد أكلتَ بالفعل.

كان مشيحًا بنظره عني، يحدق إلى رفوف الكتبِ التي ملأها عمّال النقل من الصناديق. حاولتُ ألا أفكر في طولِ المدة التي غابها. كنتُ قد نظّفتُ الزجاج المكسور، وكنستُ الأرضَ وفركتُها، وتدبرتُ أمر الحديقة. كلُ الأدلّة

على الثائرة السابقة قد أُزيلت، وشطفتُ فمي بعد كل كأسِ نبيذٍ شربته في غيابه حتى لا يشمّ رائحته عليّ، فهو لا يستحسن شُربي، كأسًا أو اثنتين ليس إلا وبوجود صحبة، لا بمفردي أبدًا، لكنني عجزتُ عن تمالكِ نفسي الليلة.

ولو أني لم أنظّف تحت أظفاري من التراب تمامًا، فقد استحممتُ ولبستُ فستانًا أزرقَ فاتحًا وحذاءً مطابقًا بكعبٍ عالٍ، وتبرّجت. لا أثر للدموع والشجار. أُريدنا أن نغسل كل ذلك. هذه هي انطلاقتنا المتجددة. بدايتنا الجديدة. ينبغي أن تكون.

- لا أشعرُ بالجوع.

استدار ليواجهني آنذاك، وأمكنني رؤية قرفٍ ساجٍ في عينيه، فكبحتُ جماحَ توقٍ مباغتٍ للبكاء. أظن أن هذا الخواء أسوأ من غضبه. كلُّ ما عملتُ ببالغ الكدّ لبنائه ينهار بحق. لا يهمني أنه ثملٌ ثانيةً، لا أريده إلا أن يحبّني كما كان يفعل. لم يلاحظ المجهود الذي بذلتُه منذ خرج فائرًا حتى. كم كنتُ منهمكة، كيف أبدو، كيف *حاولت*.

- سأخلدُ إلى الفراش.

لم ينظُر في عيني، وعرفتُ أنه يقصد غرفة الضيوف. مرّ يومان على انطلاقتنا المتجددة، وما زال يأبى النوم معي. شعرتُ بالشروخِ بيننا تتسع مرة أخرى، وسرعان ما سيصير واحدنا عاجزًا عن بلوغ الآخر عبرها. مشى بحذرٍ من حولي ورغبتُ بلمسِ يده لكن خوفي من رد فعله منعني. بدا مشمئزًا مني، أو ربما اشمئزازه من نفسه هو ما ينبعث ناحيتي.

قلتُ برفق: «أحبك». كرهتُ نفسي لذلك، ولم يُجِب، بل ارتقى السلالم بجهدٍ متداعيًا كأنني لستُ موجودة. وسمعتُ وقع خطواته ينحسرُ ثم بابًا ينغلق.

بعد برهةٍ من التحديق إلى الفراغ حيثُ لم يعُد موجودًا، والإنصات إلى قلبي المُرقّعِ ينكسر، عُدتُ إلى المطبخ وأطفأتُ الفُرن. لن أتركها إلى الغد، فسيكون مذاقها لاذعًا إثر ذكرى اليوم. لقد خرب العشاء، لقد خربنا. أتساءَل أحيانًا عما إذا كان يرغب بقتلي والانتهاء من الأمر كله، بالتحرّر من أعبائه. ربما يرغبُ جزء ما مني بقتله أيضًا.

أغواني احتساءُ كأس أخرى من النبيذ المُحرّم، لكنني قاومت، فالدموعُ تخنقُ عينيّ بما يكفي بالفعل ولا يمكنني مواجهةُ شجارٍ آخر. سأستبدلُ الزجاجة ولن يعرفَ أني كنتُ أشربُ البتة.

أرسلتُ نظري إلى الحديقة في الخارجِ قبل أن أنقرَ زر إطفاء الضوء الخارجي أخيرًا وأواجه انعكاسي على المرآة. إنني امرأة مليحة، وأعتني بنفسي، فلمَ لا يمكنه البقاءُ على حبي؟ لمَ لم تقدر حياتنا أن تكون كما أمِلتُ، كما أردتُ، بعد كل ما فعلته لأجله؟ لدينا المال الوفير، ولديه المهنة التي كان يحلم بها، ولم أُحاول قط إلا أن أكون الزوجة المثالية وأمنحه الحياة المثالية. لمَ لا يمكنه تجاوز الماضي؟

سمحتُ لنفسي ببضع دقائق إضافية من الإشفاق على الذات بينما مسحتُ ولمعتُ الأسطح الغرانيتية، ثمّ استجررتُ نفسًا عميقًا وجمعتُ شتات نفسي. أحتاج إلى النوم. إلى النوم كما يجب. سآخذ قرصًا وأفقد الوعي. سيكون الغد مختلفًا. عليه أن يكون. سأسامحه. دائمًا ما أسامحه.

أحب زوجي، أحببته منذ حطّت عيناي عليه، ولن أنصرف عن حبه. لن أتخلى عن ذلك. لا يمكنني.

4

لويز

لا أسماء، اتفقنا؟ ولا وظائف. لا أحاديث يوميّة مضجرة. فلنتكلم عن الأمور الحقيقية.

- أحقًا قُلتِ ذلك؟

- بلى. حسنًا، لا، هوَ مَن فعل.

توهّج وجهي. بدا ذلك رومانسيًا في الرابعة والنصف بعد الظهيرة منذ يومين مع أوّل كأس من النيجروني المحرّم، لكنه الآن يشبه مقطعًا من فيلمٍ تراجيديٍ كوميدي رومانسي رخيص. امرأة في عامها الرابع والثلاثين تدخل حانةً ويتودّد إليها رجل أحلامها الذي يتبيّن أنه ربّ عملها الجديد. أوه يا إلهي، أرغبُ بالموت من فظاعة الأمر برمّته. يا لها من فوضى.

- بالطبع هوَ من فعل.

ضحكَت صوفي وحاولَت منع نفسها مباشرة:

- لا *أحاديث يومية مضجرة*. مثلَ، أوه، لستُ أدري، الحقيقة الصغيرةُ القائلة إني متزوج.

ثم رأت وجهي:

- آسفة. أعرفُ أن هذا ليس مضحكًا من الناحية العملية، لكنه كذلك نوعًا ما. وأعرفُ أن مهارتكِ في مسألة الرجال برمّتها متبلّدة جرّاء قلة الممارسة، لكن كيف لم تعرفي من *ذلك* أنه متزوج؟ أمّا جزئية رب العمل الجديد فسأسامحكِ عليها، إنه حظٌ عاثرٌ لعينٌ وحسب.

قلتُ، لكن بابتسامة:

- إنه *حقًا* غير مضحك. بأي حال، الرجال المتزوجون ملعبُك، لا ملعبي.

- صحيح.

عرفتُ أن صوفي ستحسّن من شعوري، فنحن ظريفتان عندما نجتمع، ويكثر ضحكنا. هي تعملُ ممثلة -وإن لم نناقش قطُ كيف أنها لم تلعب أي دور سوى جثتين على التلفاز منذ سنوات- وبصرف النظر عن علاقاتها الغرامية، هي متزوجة من مدير تنفيذيّ موسيقيّ منذ وقتٍ طويل. التقينا في دروس ما قبل الولادة، وتصادقنا رغم أن حياتينا مختلفتان أيما اختلاف. سبعُ سنواتٍ مرّت وما زلنا نشرب النبيذ.

- لكنكِ بتِّ مثلي الآن، تقيمين علاقة مع رجلٍ متزوج. أشعرُ بسوء أقلّ تجاه نفسي بالفعل.

- لم أقم معه علاقة، ولم أعرف أنه متزوج.

ذاك الجزء الأخيرُ ليس صحيحًا تمامًا، فبحلول نهاية الليلة، كانت عندي فكرةٌ لا بأس بها عن ذلك. الضغط المُلحّ لجسده على جسدي ونحن نتبادل القبل، ورأسانا يدوران بفعل الجن، والإفلات المفاجئ، والشعور بالذنب في عينيه، والاعتذار: «لا يمكنني فعل هذا». كل الدلائل كانت حاضرة.

- حسنٌ يا بياض الثلج. إنني متحمّسة لاقترابك من ممارسة العلاقة ليس إلّا.

- كم مضى على ذلك الآن؟

قُلت، قبل أن أشرب المزيد من نبيذي:

- *صدقًا*، لستُ أرغب بالتفكير في الأمر، فالإمعان في إكمادي لن ينفع بفكِ ضائقتي الحالية.

أحتاج إلى سيجارة أخرى. آدمُ هاجعٌ في فراشه ومستغرق في النوم ولن يتحرك حتى ميعاد فطوره ومدرسته. يمكنني الاسترخاء، فهو لا يعاني من الكوابيس، ولا يمشي في نومه. الحمد لله على النعم الصغيرة. أردفتُ:

- وكل هذا خطأ ميكايلا على أي حال، لو أنها ألغَت الموعد *قبل* أن أصل إلى هناك، لما حدث أي من هذا.

لكن صوفي محقة، فقد مضى وقت طويلٌ منذ أن غازلتُ رجلًا حتى، ناهيك بالثمالة وتقبيل واحد. حياتها مختلفة، فدائمًا ما تكون محاطةً بأناسٍ جددٍ وشائقين، أنماط مبدعة تعيش حياة أكثر حرية، يشربون حتى وقتٍ متأخر، ويحيون مثل المراهقين. كوني أمًا عازبة في لندن تعيش على دخل ضئيل من عملها سكرتيرة طبيب نفسي بدوام جزئي لا يمنحني عددًا ضخمًا من الفرص لألقي بالحذر في أدراج الرياح وأخرج كل ليلة على أمل لقاء أحدهم، بصرف النظر عن «السيد المناسب»، ولا يمكنني احتمال تيندر أو ماتش أو أيٍ من تلك المواقع. اعتدتُ نوعًا ما على كوني بمفردي، معلّقةً كل ما سبق لفينة، فينة تستحيلُ خيارًا غير مقصودٍ لأسلوب حياة.

- ستبهجكِ هذه.

وسحبَت لفّة حشيش من الجيب العلوي لسترتها القطنية الحمراء،

- ثقي بي، ستجدين كل شيء أكثر فكاهة حالما تنتشين.

رأت التردد على وجهي وعبسَت:

- بربكِ يا لو، إنها مناسبة خاصة، فقد تفوّقتِ على نفسك، وقبّلتِ ربّ عملك الجديد المتزوج. هذا عبقري، عليّ حملُ أحدهم على كتابة فيلم. يمكنني لعب دوركِ.

- هذا حسن، فسأحتاج إلى المال عندما أُطرَد.

لا يمكنني مشاجرة صوفي، ولا أريد ذلك. سرعان ما صرنا جالستين خارجًا على الشرفة الصغيرة لشقتي الضئيلة، والنبيذ ورقائق البطاطس وأعقاب السجائر عند أقدامنا، نمرر الحشيشة فيما بيننا ونقهقه.

بخلاف صوفي، التي ما تزال بطريقة ما نصف مراهقة، الانتشاء ليس بأي شكلٍ جزءًا من روتيني المعتاد –لا يوجد وقتٌ مناسبٌ ولا مالٌ كافٍ وقتما

يعيش المرء بمفرده- لكن الضحكَ يتغلب على البكاء في أي وقت، فابتلعتُ نفسًا ملء رئتيّ من الدخان العذبِ الممنوع. قالت:

- لا يمكن أن يحدثُ هذا إلا معك، هل اختبأتِ؟

فأومأتُ برأسي، مبتسمة إزاء كوميديّة الذكرى متصوَّرةً في عيني شخصٍ آخر:

- لم يسعني التفكير في أي شيء آخر لأفعله. غصتُ إلى المرحاض وبقيت هناك، وحينما خرجتُ كان قد ذهب. لن يبدأ حتى الغد، كان الدكتور سايكس يأخذه في جولة شاملة.

- مع زوجته؟

- بلى، مع زوجته. أذكرُ كم بدَوَا جذابين معًا في لحظة الإدراكِ الوجيزة الشنيعة تلك. ثنائيٌ جميل.

- لكَم من الوقتِ بقيتِ في المرحاض؟

- لعشرين دقيقة.

- أوه يا لو.

سكتنا قليلًا، ثم انفجرنا مقهقهتَين، والنبيذ والحشيش يطنان في رأسينا، وبقينا مدةً عاجزتين عن التوقف. قالت صوفي:

- أتمنى لو كان بوسعي رؤية وجهكِ.

- أجل، حسنًا، لستُ أتطلّع إلى رؤية وجهه هو وقتما يرى وجهي.

هزّت صوفي كتفيها:

- هو المتزوّج، والعارُ عاره. لا يمكنه قول شيء لك.

برّأتني من ذنبي، بيد أنني ما زلتُ أشعرُ به ملتصقًا بي، إلى جانب الصدمة، الصفعة التي شعرتُ بها وقتما لمحتُ تلك المرأة بجواره قبل أن أسرعَ إلى المخبأ؛ زوجته الجميلة. أنيقة، داكنة الشعر وزيتونية البشرة على نحو يشبه أنجلينا جولي، يكتنفها نوعٌ من الغموض، وهيفاء هيفًا استثنائيًا. نقيضتي. صورتها مطبوعة في دماغي. لم أقدر على تخيلها تفزعُ وتختبئ

في المرحاض من *أي* شخص أبدًا. لسعني ذلك كما لم ينبغِ له أن يفعل، ليس بعد ظهيرةٍ ثِملة، وليس لمجردِ أن ثقتي بنفسي قد بلغت الحضيض.

الفكرة هي أنني أُعجبتُ به، أُعجبتُ به بحق، ولا يمكنني إخبار صوفي بذلك. كيفَ أنني لم أحظَ بمحادثة مثل تلك منذ وقتٍ طويل، وكم شعرتُ بالسعادة لمغازلتي شخصًا يردّ المغازلة، وكيف أنني كنتُ قد نسيتُ كم هيَ عظيمة تلك الإثارة الناجمة عن شيء يُحتمل أن يكون *جديدًا*. فالقاعدةُ في حياتي هي أنها لطخةٌ من روتين لا متناهٍ، إذ أوقظ آدم وأوصله إلى المدرسة. إذا كان عليّ العمل وأريدُ البدء مبكرًا، أوصله إلى نادي الإفطار، وإن لم أكُن أعمل، فقد أقضي ساعةً أو نحوها أجولُ على المحال الخيرية بحثًا عن ملابس باليةٍ لمصممين عالميين تُلائم مظهر العيادة الباهظِ على نحو مهذب. ثم لا أفعلُ إلا الطبخ والتنظيف والتسوق حتى يرجع آدم إلى المنزل، وآنذاك يأتي الفرضُ المنزلي والشاي والحمام والحكاية والنوم بالنسبة له، والنبيذُ والنوم الرديء بالنسبة لي. حينما يذهب إلى منزل أبيه لنهاية أسبوعٍ ما، أكون متعبةً إلى حد يمنعني من فعلِ أي شيء يجاوزُ الرقود في الفراش ثم مشاهدة حثالة التلفاز. إن فكرة أن هذه قد تكون حياتي حتى يبلغ آدم الخامسة عشرة على الأقل ترهبني في صمتٍ، فلا أفكر فيها. غير أن لقاء رجلِ *الحانة* ذكّرني كم كان ممتعًا *الشعور* بشيء ما، وكوني امرأة. فقد حسّسني ذلك أني على قيد الحياة، حتى إنني فكرتُ بالعودة إلى تلك الحانة لأرى ما إذا كان قد حضر باحثًا عني، لكن بالطبع، الحياةُ ليست عملًا رومانسيًا كوميديًا، وهو متزوج، وأنا كنتُ حمقاء. لستُ أشعر بالمرارة، بل بالحزن فقط، ولا يمكنني إخبار صوفي بأي من هذه الأمور لأنها ستأسف لحالي، ولا أريد ذلك، ومن الأسهل اعتبار الأمر برمّته مضحكًا وحسب. إنه مضحك فعلًا، وليس الأمر كأني أجلس في المنزل أرثي وحدتي كل ليلة، كما لو كان مستحيلًا لامرأةٍ أن تكتمل من دون رجل. على العموم، أنا سعيدةٌ إلى حد ما، فأنا بالغة، وكان ممكنًا لوضعي أن يكون أردأ بكثير. كانت هذه غلطة واحدة، ويتعيّن عليّ التعامل معها.

غرفتُ حفنةً من رقائق دوريتوس وفعلت صوفي المثل.

قلنا معًا: «البضاضةُ هي النُحلُ الجديد»، قبل أن نحشر الرقائق في فمينا ونكاد نختنق ونحن نضحك ثانية. فكرتُ باختبائي منه في الحمام، وكلّي ذعرٌ

وعدم تصديق. هذا مضحك فعلًا، كل شي مضحك. قد يكون أقل إضحاكًا في صباح الغد وقتما ينبغي لي تحمُّل العواقب، لكن في الوقت الراهن يمكنني الضحك. إذا لم يكُن بمقدور المرء الضحكُ على إخفاقاته الشخصية، فعلامَ يمكنه؟

قُلت لاحقًا، وقتما صارت زجاجة النبيذ فارغةً بيننا والأمسيةُ تُرخي ستارها:

- لمَ تفعلين ذلك؟ تخوضين العلاقات الغرامية؟ ألستِ سعيدة مع جاي؟

- بالطبع سعيدة، فأنا أحبه، وليس الأمر كأنني في الخارج أفعلها *طوال* الوقت.

هذا صحيح على الأرجح، فهي ممثلة، وتغالي في سبيل القصة أحيانًا.

- لكن لمَ تفعلينها بأيّ حال؟

على نحو غريب، لم يكن ذلك أمرًا تكلمنا عنه كثيرًا في الحقيقة، فهي تعرفُ أنه يضايقني، لا لأنها تفعله -فهذا شأنها- إنما لأني أعرف جاي وأودّه. إنه طيبٌ معها، ولولاه لهلكت، إن صح التعبير.

قالت في آخر الأمر:

- دافعي الجنسيّ أقوى من دافعه، والجنسُ ليس محور الزواج بأي حال، إنما قصدُ الزواج أن يكون المرء مع أعز أصدقائه، وجاي أعز أصدقائي، لكننا معًا منذ خمسة عشر عامًا، ولا يمكن للشهوة استبقاء نفسها. أعني، ما زلنا نفعلها أحيانًا، لكن ليس الأمر كما كان عليه، وإنجابُ طفلٍ يغيرُ الأمور، إذ يقضي الزوجان سنواتٍ عديدة يريان بعضهما فيها والدين بدلًا من حبيبين، ومن الصعبِ استعادةُ الشغف.

فكرتُ بزواجي قصير الأجَل. لَم تخب شهوتنا، لكن ذلك لم يمنعه من الهجران بعد أربع سنواتٍ ليكون مع أخرى وابننا لم يُجاوز الثانية من عمره. لعلها محقة، لا أظنُ أني نظرتُ إلى زوجي السابق، إيان، على أنه أعزّ أصدقائي قط.

- أرى الأمر حزينًا بعض الشيء.

وهو حقًا كذلك.

- هذا لأنك تؤمنين بالحب الحقيقي والسعادة الأبدية بطريقةِ الحكايا الخرافية، والحياة ليست هكذا.
- أتظنين أنه قد خانَك قط؟

لقد حظي بمغازلاته من كل بد. كان ثمة مغنية عمل معها منذ وقت طويل، وأظنُ أنهما ربما انخرطا في شيء ما لبعض الوقت، لكن مهما كان ذلك، فهو لم يؤثر علينا، ليس حقًا.

جعَلَت الأمر يبدو معقولًا جدًا، ولم يسعني التفكير إلا بألم الخيانة الذي شعرتُ به وقتما غادر إيان، كيف أثّر ما فعلهُ على نظرتي لنفسي، وكم شعرتُ بالحقارة في تلك الأيام الأولى، بالقُبح. لم تستمر العلاقة الغرامية قصيرة الأجل التي هجرني من أجلها أيضًا، لكن ذلك لم يُحسّن من شعوري. قلت:
- لا أظنُ أني سأفهمُ ذلك أبدًا.
- للكلِّ أسرارٌ يا لو، وينبغي أن يُسمح للجميع بحفظِ أسرارهم. لا يمكنك أبدًا معرفة كل شيء عن شخصٍ ما، قد تُجنّين وأنت تحاولين.

تساءلتُ، بعد أن غادرَت ورحتُ أنظف بقايا أمسيتنا، إذا ما كان جاي الذي خان أولًا يا تُرى. لعل هذا سرُ صوفي الكامنُ في قلب مواعيدها في غرف الفنادق، لعلها فعلت كل ما فعلت لتحسّن من شعورها، أو لتنتقم بصمت، من يدري؟ إنني على الأرجح أبالغ في التفكير بالأمر، فالمبالغة في التفكير تخصصي. ذكرتُ نفسي أن للناس فيما يعشقون مذاهب، فهي سعيدةٌ وهذا يكفيني.

لم تكُن الساعة قد جاوزت العاشرة والنصف إلا بقليل، لكنني مُنهكة، فرنوتُ إلى آدم لدقيقة، لأجد راحةً تبعثُ على السكينة في مراقبته في نومه المسالم وهو متضامٌ بإحكام على جانبه تحت لحاف *حرب النجوم*، والدب بادينغتون مدسوسٌ تحت إحدى ذراعيه، ثم أغلقتُ الباب وتركته لنومه.

كان الظلامُ حالًا وقتما استيقظتُ في الحمام، واقفةً أمام المرآة، وقبل أن أدركَ حقًا أين أنا، شعرتُ بالخفقة الحادة في ظُنبوبي حيثُ اصطدمتُ بسلة الغسيل الصغيرة في الزاوية أثناء مشيي. تسارعت نبضات قلبي، والتصق

العرَقُ على منبت شعري. وما إن أحاط إدراكي بالواقع حتى تبعثر الكابوس، غير تاركٍ إلا شُدفًا في رأسي، لكني عرفتُ ما كان ذلك. الحلمُ نفسه على الدوام.

مبنًى شاسع يشبه مستشفًى قديمًا أو ميتمًا، ومهجور، وآدم محاصرٌ في مكان ما بداخله، وأنا أعرف، *أعرفُ* وحسب، أنني إذا لم أستطع الوصول إليه، فسيموت. يناديني وهو مذعور، شيء خبيث قادم صوبه، فأركضُ عبر الأروقة محاولةً بلوغه، وتمتدّ الظلال من الجدران والأسقُف كما لو أنها جزء من شرٍ مروّعٍ يعيش في المبنى، وتلفّ نفسها حولي آسرةً إياي. كل ما يمكنني سماعه هو بكاءُ آدم بينما أحاولُ الفرار من الحبال اللزجة القاتمة العازمة على إبعادي عنه، على خنقي وجرّي إلى الظلام اللانهائي. إنه حلمٌ شنيع، يتشبثُ بي كما تتشبثُ الظلال في الكابوس نفسه. قد تتغير التفاصيل بعض الشيء من ليلة إلى أخرى، لكن القصة نفسها دائمًا، ومهما راودني من مراتٍ، لن أعتاده البتة.

لم تبدأ الكوابيس وقتما وُلد آدم، بل كانت تراودني دائمًا، لكن قبلهُ كنتُ أحاربُ فيها من أجل نجاتي، وبالعودة بالذاكرة؛ فقد كان ذلك أفضل، حتى وإن لم أعرف ذلك وقتها. إنها بليّة حياتي، تقتلُ فرصي بنوم لائقٍ في الليل بينما يستنزفني كوني أمًا عازبةً بما فيه الكفاية.

سرتُ هذه المرة أكثر مما فعلتُ منذ مدة. عادةً ما أستيقظ مشوشةً، واقفةً إما بجوار سريري أو بجوارِ سرير آدم، وغالبًا في منتصف جملةٍ مذعورة عديمة المعنى. يتكررُ حدوث هذا إلى حدٍ أنه لم يعُد ينزعجُ حتى إذا ما استيقظ، لكنه من ناحية أخرى قد ورِثَ عمليّة أبيه، ومن حسن الحظ أنه أخذ حسّ الدعابة عني.

أشعلتُ الضوء، ونظرتُ إلى المرآة، وأننتُ. دوائرُ سوداء تشدُ الجلدَ تحتَ عينيّ إلى الأسفل، وأعرفُ أن كريم الأساس لن يغطيها، ليس في وضح النهار. أوه هذا جيد، ذكرتُ نفسي بأن لا فرق يشكله رأي *رجل الحانة* المعروف بـــ «*أوه، اللعنة إنه رب عملي الجديد المتزوج*». آملُ أن يكون مُحرجًا بالقدر الكافي ليتجاهلني طيلة النهار. لكن معدتي ما تزال تنقبض، ورأسي يخبطُ

من كثرة النبيذ والسجائر. قلتُ لنفسي: *تحلي بالشجاعة، سيُنسى الأمر برمّته في غضون يومٍ أو نحو ذلك. اذهبي وقومي بعملكِ وحسب.*

ما زالت الساعة الرابعة صباحًا، شربتُ بعض الماء ثم أطفأت الضوء وزحفتُ عودةً إلى سريري آملةً أن أغفو على الأقل حتى يرن المنبه في السادسة. رفضتُ التفكير في شعورِ اتصال فَمَّيْنَا، وكم كان ممتعًا امتلاكُ فوران الرغبة ذاك، ولو أنه لم يدُم إلا لحظة، والشعور بتلك الرابطة مع شخصٍ ما. حدقتُ في الجدار وفكّرتُ في عدّ الخراف، ثم أدركتُ أنني متحمّسةٌ في سرّي أيضًا لأراه مجددًا، فصررتُ على أسناني ولعنتُ حماقتي. أنا *لستُ* هذه المرأة.

5

أديل

ودعتُه ملوّحةً باسمةً بينما يغادر إلى يومه الأول في العيادة، ونظرت جارتنا العجوز بعين الرضا وهي تأخذ كلبها الضئيل والهزيل على حد سواء في نزهته. دائمًا ما أبدو وديفيد ثنائيًا مثاليًا، ويروق لي هذا.

ورغم ذلك، أطلقتُ تنهيدة ارتياحٍ عندما أغلقتُ الباب وانفردتُ بالمنزل، وإن شعرتُ بأن هذه الزفرة خيانةٌ صغيرة. أحب وجود ديفيد معي هنا، لكننا ما زلنا لم نرجع إلى أيّ مُستقرٍ كنا قد بنيناه لنفسينا، والجو يعجُ بكل ما لم يُقل. لحسن الطالع، المنزل الجديدُ كبير بما يكفي ليختبئ في مكتبه وندّعي أن كل شيء على ما يرام بينما يتحركُ أحدنا بحذرٍ حول الآخر.

بأي حال، لقد تحسّن شعوري حقًا مقارنة بما شعرتُه وقتما رجع إلى المنزل ثملًا. لم نناقش الأمر في الصباح التالي، فبالطبع، النقاشُ ليس شيئًا نفعله في هذه الأيام، وبدلًا عن ذلك، تركته لأوراقه ومضيتُ لأسجل اسمينا في النادي الصحي المحلي، الباهظ على نحو مناسب، ثم تمشّيتُ في منطقتنا الأنيقة الجديدة متشرّبة إياها كلها. أحب أن أرسّخ الأماكن في ذهني، أن أقدر على رؤيتها، إذ يجعلني ذلك مرتاحةً أكثر، يساعدني على الاسترخاء.

مشيتُ قرابة الساعتين، أسجل المتاجر والحانات والمطاعم ذهنيًا حتى صارت مخزنة بأمان في رأسي، وصار بوسعي استحضارُ صورها ساعة

أشاء، ثم اشتريتُ بعض الخبز من المخبز التقليدي المحلي، وبعض الزيتون وشرائح لحم الخنزير والحمص والطماطم المجففة بأشعة الشمس من متجر الأطعمة اللذيذة –وكانت كلها باهظةً بترفٍ واستنزفت نقود التدبير المنزلي– وحضّرتُ لنا نزهة داخل المنزل لوجبة الغداء مع أن الطقس كان دافئًا بالحد الكافي لنجلس في الخارج، ذلك أنني لا أظنه يرغب بالخروج إلى الحديقة بعد.

ذهبنا البارحة إلى العيادة، وسحرتُ الشريك الرئيس الدكتور سايكس، ومختلِف الأطباء والممرضات الآخرين الذين التقيناهم، فالناس يستجيبون للجمال، ويبدو هذا تافهًا، لكنه حقيقي. أخبرني ديفيد مرةً أن احتمال تصديق المحلفين للأشخاص جميلي المظهر في قفص الاتهام أرجحُ بكثير منه في حالة العاديين أو القِباح. ليس ذلك إلا النصيبُ من العظم والجلد، لكنني تعلمتُ أنه يحمل سحرًا، ولا يحتاج المرءُ إلى الإكثار من الكلام حتى، بل إلى الإنصات والابتسام فقط، وسيشقّ الناس أنفسهم لأجله. لقد استمتعتُ بكوني جميلة، وإن قلتُ غير هذا فسيكون كذبًا، وإنني أبذلُ جهدي لأبقى جميلةً من أجل ديفيد، فكلّ ما أفعلهُ أفعلهُ من أجله.

مكتبُ ديفيد الجديد هو ثاني أكبرها في البناء بحسبِ ما أمكنني رؤيته، من النمط الذي كنت لأتوقّع أن يتسلّمه إذا ما تولّى وظيفةً في هارلي ستريت أبدًا. السجادة مخمليّةٌ كريميةُ اللون، وطاولة المكتب مبهرجةٌ على نحو ملائم، وفي الخارج ثمة منطقة استقبال في غاية البذخ. خرجت الشقراء الجذابة – إذا ما كنتم تحبّون هذا الصنف– الجالسة خلف *ذاك* المكتب مسرعةً قبل أن نتمكن من التعارف، الأمر الذي أزعجني، لكن بدا أن الدكتور سايكس بالكاد لاحظها بينما طفق يحادثني ويتورّد خدّاه ورحتُ أضحكُ على أشباه نكاته المريعة. أظن أنني أبليتُ بلاءً ممتازًا بالنظر إلى حجم الألم في قلبي، ولا بدّ أن ديفيد سُر أيضًا، ذلك أنه لانَ قليلًا بعد ذلك.

نحن مدعوان الليلة إلى عشاء ترحيبي غير رسمي في منزل الدكتور سايكس، وقد اخترتُ فستاني بالفعلِ وأعرفُ كيفَ سأصفف شعري، ذلك أنني عاقدة كامل عزمي على جعل ديفيد فخورًا بي. يمكنني أن أكون الزوجة

الطيبة، زوجة الشريك الجديد، وبصرف النظر عن كُرُوبي الحاضرة، أشعرُ بطُمأنينة أكثر مما شعرتُ به منذ انتقلنا.

رفعتُ نظري إلى الساعة التي تقطعُ تكّاتها الصمتَ العارم في المنزل. ما تزال الثامنة صباحًا، على الأرجح أنه في طريقه إلى المكتب الآن، ولن يُجري مكالمته الأولى إلى المنزل حتى الحادية عشرة والنصف، أمامي متسع من الوقت. صعدتُ إلى غرفة نومنا واستلقيتُ فوق الأغطية، لن أنام، لكنني أغمضتُ عينيّ. فكرتُ بالعيادة، وبمكتب ديفيد، وبتلك السجادة المخملية كريميّة اللون، وخشب الماهوغانيّ المصقول لطاولة مكتبه، والخدش الدقيق على الركن، والأريكتين البسيطتين، والمقاعد المتينة، والتفاصيل. أخذتُ نفسًا عميقًا.

6

لويز

قالت سو: «تبدين فاتنة اليوم»، بلهجة تكاد تبدو متفاجئة، وأنا أنزعُ معطفي وأعلقه في غرفة الموظفين، وقال آدم العبارة نفسها –بنفس اللهجة– وقد ارتبكَ وجهه الصغير بعض الشيء عند مرأى بلوزتي الحريريّة الجديدة من المتجر الخيري وشعري المُرسَل بينما حشرتُ الخبز المحمّص في يده قبل أن نغادر قاصدين المدرسة هذا الصباح. رباه، لقد بذلتُ مجهودًا بيّنًا، وأعرف ذلك. لكنه ليس من *أجله*، بل هو في الغالب ضده. إنه طلاء حربي، شيء أختبئ خلفه. وأيضًا، لم أستطِع العودة إلى النوم وكان عليّ إيجاد شيء أفعله.

عادةً في الصباحات المشابهة، آخذُ آدمَ إلى نادي الإفطار ثم أدخلُ العيادة أولًا وأبدأ بتحضير قهوة الجميع قبل أن يصلوا. لكن اليوم كان، بالطبع، واحدًا من الأيام التي استيقظَ فيها آدم نكِدًا يتأفف بشأن كل شيء، ثم لم يتمكن من إيجاد حذائه الأيسر، ثم ورغم أنني جاهزةٌ منذ أمدٍ بعيد، ظللنا في عجلةٍ هائجةٍ لبلوغ بوابة المدرسة في الوقت المناسب.

تعرّقت راحتاي وشعرتُ ببعض الغثيان وأنا أبتسم، لكنني أيضًا كنتُ قد دخنتُ ثلاث سيجاراتٍ في مشيي بين المدرسة والعيادة. عادةً ما أحاول ألا

أدخّن قبل استراحة القهوة، حسنًا، قلتُ عادةً، ففي رأسي، أنا لا أدخّن حتى وقت القهوة، وفي الحقيقة، غالبًا ما أحظى بواحدة في طريقي إلى العيادة.

«شكرًا. سيقضي آدم نهاية هذا الأسبوع في منزل أبيه، لذا قد أخرجُ لأحتسي مشروبًا بعد العمل». قد *أحتاج* إلى مشروبٍ بعد العمل. سجلتُ ملاحظةً لأرسل رسالة نصية لصوفي وأرى إذا ما كانت ترغب باللقاء. بالطبع ستفعل، وستكون متحرقةً شوقًا لمعرفة ما سيحلّ بكوميديا الأخطاء هذه. حاولتُ إبداء الأمر عاديًا، لكن بدا لي وقعُ صوتي مضحكًا. ينبغي لي التماسُك، إنني أتصرف بسُخف، إذ سيكون حاله أسوأ من حالي، فلستُ الطرف المتزوّج. قد تكون العبارات الحماسية حقيقيةً، لكنها لا تغير حقيقة أنني لا *أفعل* هذي الفعال، وأن هذا ليس عاديًا بالنسبة لي كما قد يكون بالنسبة لصوفي، وأنني أشعرُ بالتقزز بكل معنى الكلمة. أنا كتلة من المشاعر المنرفزة العاجزة عن الاستقرار على أمرٍ واحد، قد لا يكون ذنبُ الحالِ على عاتقي، لكنني أشعرُ بالرُخْص والحمق والذنب والغضب. أول لحظةٍ رومانسية محتملة أعيشها منذ ما يبدو عُمرًا يتضح أنها زائفة، ومع ذلك، رغم كل شيء، وذكرى زوجته الجميلة، أشعرُ بشذرة حماسة لاحتمال رؤيته ثانية. إنني أشبه بمراهقة غبية مرتبكة.

- كلهم في اجتماعٍ حتى العاشرة والنصف، أو هذا ما أخبرتني به إيلين في الطابق العلوي، يمكننا الاسترخاء.

قالتها ثم فتحت حقيبتها، أكملت:

- وأنا لم أنسَ أنه دوري.

وأخرجت كيسين ورقيين زَفرَين:

- شطائر لحم الخنزير المقدد ليوم الجمعة.

أراحني أن حظيتُ بإرجاءٍ لبضع ساعات، حتى إنني تقبلتُ الأمر بسعادة، وإن كانت هذه دلالة على الملل المفرط في روتين حياتي الذي يجعلُ من فطور يوم الجمعةِ عنوانًا بارزًا في أسبوعي. لكنه يظل لحم خنزير مقدد، وبعض أجزاء الروتين أقل إحباطًا من غيرها. قضمتُ قضمة ضخمة، واستمتعتُ بالخبز المُزَبّد الدافئ واللحم المالح، فأنا أكولٌ وقتما أتوتّر، وفي الحقيقة، إنني أكول أيًا كان مزاجي. لا فرق عندي بين الأكل عند التوتّر، والأكلُ

لأجل الراحة، والأكل عند السعادة. يتطلّق آخرون فيخسرون جزءًا من وزنهم، أما في حالتي فقد سار الأمر في الاتجاه الآخر.

تبدأ ساعات عملنا الرسمية بعد عشرين دقيقة، لذا جلسنا إلى طاولة صغيرة عليها أكواب شاي، وحكّت لي سو عن التهاب مفاصل زوجها والثنائي مثلي الجنس القاطن في المنزل المجاور لمنزلهما اللذين يبدوان أنهما يمارسان الحب بلا انقطاع، فابتسمت وتركتُ ذلك يتخللني محاولة ألا أقفز في كل مرة أرى ظل أحدهم يهبطُ على مدخل الباب من الرواق.

لم أرَ قطرة الكاتشب حتى فات الأوان وتلطّخت بلوزتي الكريميّة بلطخة حمراءَ فاقعة على صدري تمامًا. نهضت سو على الفور وراحت تعتني بها وتربّتها بمناديل ورقية ثم بقماشة مبللة، لكنها لم تجنِ إلا أن جعلت قطعة مديدة من الثوب شفافةً وظلت حدود باهتة للونٍ أحمرٍ شاحب موجودة. صار وجهي يغلي، والتصق الحرير بظهري. هذا نذير بقية النهار، يمكنني استشعار ذلك.

ضحكتُ كثيرًا على محاولاتها تنظيفي وذهبت إلى الحمام لأحاول حشر أكبر قدرٍ ممكن من قميصي تحت مجفف الأيدي، ولم يجففه تمامًا، لكن على الأقل لم تعُد الزركشة المخرّمة لصدريتي –التي استحالت رمادية بعض الشيء جراء الغسيل– واضحة. كان ممكنًا للحال أن يكون أسوأ.

عليّ أن أضحك على نفسي، فمن أخادع؟ لا يمكنني فعلُ هذا. إنني أقربُ إلى البقاء في المنزل ومناقشة آخر حبكة *لريسكيو بوتس* أو هوريد هنري مع آدم من محاولتي الظهور بمظهر امرأةٍ عصريةٍ متمدّنة. قدماي تؤلمانني بالفعل في حذائي ذي الكعب بطول بوصتين. لطالما ظننتُ أن هذا أمرٌ تكبر المرأة لتتقنه، تلك القدرة على المشي بطريقة مثالية في الأحذية ذات الكعب العالي وإحسانُ اللبسِ دائمًا، لكن كما تبيّن – بالنسبة لي بأي حال – فقد حظيتُ بمرحلةٍ ضئيلةٍ من هذا في سنوات ارتياد النوادي الليلية في عشرينياتي، والآن لباسي في أكثر الأحيان الجينزات والبلوزات وأحذية الكونفيرس، مسرحةً شعريٍ ذيل حصان ومتزينة بحسَد أولئك الذين ما زال بإمكانهم تجشّم عناء بذل ذلك الجهد في حيواتهم. حسدُ أولئك الذين يمتلكون *دافعًا* لبذل ذلك الجهد.

قلتُ في قرارتي وأنا أسوّي ثيابي: *أراهنُ أنها تنتعلُ أحذية الكعب العالي*. ما أحمقني لاستبدالي السراويل والأحذية المسطحة.

كانت الهواتفُ هادئةً هذا الصباح، فرحتُ أُلهي نفسي عن الساعة التي تتكُ بثبات ناحية العاشرة والنصف بتمييز ملفات القضايا على الشبكة لمواعيد يوم الاثنين، وإنشاء لائحة للتالين في بقية الأسبوع. لديه بالفعل نسخٌ عن ملاحظات بعضهم –الحالات الأكثر تعقيدًا– لكنني أريد أن أُرى بارعةً، لذا حرصتُ على تجهيز اللائحة كاملةً، ثم طبعتُ مختلِف رسائل البريد الإلكتروني التي ظننتُ أنها قد تكون قيّمة أو ضرورية أو قد أغفلتها الإدارة، ثم طبعتُ أيضًا لائحة بأرقام المستشفيات والشرطة ومختلِف المنظمات التي قد يحتاجها وجلّدتها. وجدتُ هذا مهدئًا إلى حد بعيد بالفعل، وأخذ *رجل الحانة* يتلاشى في رأسي ويحل محله رب عملي، وإن كان وجهه ينمزجُ على نحو مقلقٍ مع وجه سابقه الدكتور كاديغان، الذي استُبدل به.

عند الساعة العاشرة، دخلتُ ووضعتُ ما طبعته على طاولة مكتبه وشغلتُ آلة القهوة في الركن ليجدَ إبريقًا طازجًا ينتظره. تحققتُ من أن المنظفين قد وضعوا حليبًا جديدًا في الثلاجة الصغيرة المخفية في الخزانة مثل البارات المصغرة في غرف الفنادق، ومن وجود سكرٍ في الزبدية، وبعد ذلك، لم أقدر منع نفسي من النظر إلى الصور المؤطرة بإطار فضي على مكتبه. ثمة ثلاث، اثنتين لزوجته تقف فيهما وحدها، وواحدة قديمة تجمعهما، وجذبت هذه انتباهي فالتقطتها. بدا فيها مختلفًا، صغيرًا جدًا، لعلّه كان في بداية عشرينياته على أكثر تقدير. كانا جالسين إلى طاولة مطبخٍ كبيرة وأذرع أحدهما محيطةٌ بالآخر ويضحكان على شيء ما. بديا سعيدين، كلاهما صغيرٌ وهانئٌ أشد ما يكون. كان مثبتًا عينيه عليها كما لو أنها أهم ما في الكوكب بأسره، وشعرها طويلٌ لكنه غير مشدودٍ خلفًا ومسرح في كعكة كما هو في بقية الصور. وحتى في سروالِ جينزٍ وقميص، هي جميلةٌ من دون بذل أي مجهود. انعقدت معدتي، أراهنُ أنها لا تسكبُ الكاتشب على كنزتها أبدًا.

– مرحبًا؟

فزعتُ وقتما سمعتُ اللكنة الإسكتلندية الطفيفة حدّ أنني كدتُ أوقعُ الصورة، وعانيتُ حتى قوّمتها على المكتب وأوشكتُ أن أخل بتوازن كومة

الأوراق المرتبة وأطرحها تتشقلب على الأرض. وقف في المدخل، ووددتُ إلقاء لفّة لحم الخنزير المقدد على الفور. رباه، قد نسيتُ مدى حُسنه. أشقر الشعر تقريبًا وفيه لمعةٌ كنتُ لأقتل مقابل الحصول عليها، وطويل عند الجبهة بالحد الكافي لتمرّ الأصابع في خصلاته، لكنه مُهندمٌ رغم ذلك. عينان زرقاوان تخترقان من تنظران إليه مباشرةً، وبشرةٌ لا ترغبُ المرأة إلا بلمسها. بلعتُ ريقي بشدة، ذلك أنه واحد من أولئك الرجال، رجل خاطفٌ للأنفاس، وأخذ وجهي يتّقد.

- يُفترض بك أن تكون في اجتماعٍ حتى العاشرة والنصف.

قلتها آملةً أن تنفتح حفرةٌ في السجادة وتمتصني إلى جحيم من الخزي، فأنا في غرفته أنظرُ إلى صور زوجته مثل مترصّدة ما، يا إلهي.

قال: يا إلهي، سارقًا الكلمات من رأسي مباشرة. انسلّ اللون من وجهه واتسعَت عيناه. بدا مصعوقًا ومحتارًا ومذعورًا في آن واحد:

- هذه أنتِ.

- اسمع، ليس الأمر شيئًا يُذكر بحق، فقد كنا ثملَين وانجررنا خلف حماستنا ولم تكُن إلا قبلة، وثق بي، ليست عندي أي نية في إخبار أيٍ عنها، وأظن أنه إذا ما بذل كلانا قصارى جهده لينسى أن ذلك حدث قط فلا سبب يمنعنا من الانسجام ولن يعرف أحد أبدًا...

كانت الكلمات تنسابُ من فمي في عجلةٍ هاذرةٍ وعجزتُ عن إيقافها، وأمكنني الشعور بالعرق ينحصرُ تحت كريم الأساس بينما أهيجُ وأشتعل.

- لكن... (بدا في مكان ما بين الحيرةِ والارتياع وهو يغلق الباب خلفه بسرعة، ولا يمكنني لومه) ما الذي تفعلينه هنا؟

- أوه.

نسيتُ في خضم كل ثرثرتي أن أقول ما هو جلي:

- أنا سكرتيرتك وموظفة استقبالك. ثلاثة أيام في الأسبوع، بأي حال. أيام الثلاثاء والخميس والجمعة. كنتُ أضعُ بعض الأمور على طاولة مكتبك ورأيتُ...

أشرتُ برأسي إلى الصور، «أنا، حسنًا...» تلاشت الجملة، فمن غير المحتمل أن أقول كنتُ *أحظى بنظرة من كثب عليك وعلى زوجتك الجميلة كما قد تفعل سيدة مهووسة.*

- أنتِ سكرتيرتي؟

بدا كما لو أنه قد لُكم بشدةٍ في أحشائه، «*حقًا؟*» ربما ليس في أحشائه، بل في مكان أدنى، وشعرتُ ببعض الأسفِ لحاله بالفعل.

هززتُ كتفيّ، وافتعلتُ وجهًا كوميديًا بغيضًا من غير شك:

- أعرف، ما احتمالات ذلك؟

- كان ثمة امرأة أخرى هنا وقتما جئتُ الشهر الماضي لأكلم الدكتور كاديغان، لا أنتِ.

- أكبر سنًا، وتبدو متوتّرةً بعض الشيء؟ هذه ماريا، وهي تشغل اليومين الباقيين. إنها نصفُ متقاعدة الآن، لكنها تعمل هنا منذ وقتٍ طويل جدًا، والدكتور سايكس يحبها.

لم يكن قد تقدم كثيرًا في الغرفة. من الواضح أنه يعاني مشقة في فهم الأمر تمامًا.

قلتُ بصوتٍ أبطأ، وأهدأ:

- أنا حقًا سكرتيرتك. لستُ مترصّدة. صدقني، هذا ليس رائعًا بالنسبة لي أيضًا. لقد رأيتك البارحة وقتما دخلتَ فجأة، لوقتٍ وجيزٍ، ثم اختبأتُ نوعًا ما.

- اختبئتِ؟

توقف قليلًا، وبدت اللحظة أبديّةً وهو يستوعب كل هذا.

قلتُ: «بلى»، ثم أردفتُ مضيفةً إلى خُزيي خُزيًا: «في الحمام». ثم سكتةٌ طويلة.

قال أخيرًا:

- من الإنصاف القول إني كنتُ لأفعل المثل على الأرجح.

- لستُ واثقة أن اختباء كلينا في المرحاض كان ليقضي الغاية المطلوبة.

ضحكَ إثر ذلك، مصدرًا صوتًا قصيرًا مفاجئًا:

- لا، لا أظن ذلك. أنتِ فَكِهةٌ جدًا، أذكر هذا.

التفّ إلى خلف مكتبه ناظرًا إلى كل شيء وضعتهُ هناك، وتنحيتُ تلقائيًا عن طريقه.

- بأي حال، تلك المطبوعة العليا لائحة بالملفات التي عليكَ مراجعتها من أجل يوم الاثنين. ثمة قهوة على...

قال، رافعًا تينك العينين الزرقاوين البديعتين:

- إنني آسفٌ حقًا. لا بدّ أنك تظنينني نذلًا، *أنا* أظنني نذلًا. ليس من عادتي فعلُ... حسنًا، لم أكُن هناك *باحثًا* عن أي شيء، ولم يكن ينبغي لي فعل ما فعلتُه. ينتابني شعور فظيع، ولا يمكنني تفسير الأمر. أنا حقًا لا أفعل هذا الصنف من الفعال، ولا أعذارَ لتصرُفي.

- كنا ثملَين، هذا كل ما في الأمر. أنت لم تفعل شيئًا، ليس تمامًا.

لا يمكنني فعلُ هذا. أتذكرُ الخزي في صوته وهو يبتعدُ عني وينطلق في الشارع متمتمًا عبارات الاعتذار. لعل هذا هو السبب في عجزي عن إساءة الظن به، إذ كانت قبلةً فقط برغم كل شيء، ولم يتعدَ الأمر ذلك إلا في رأسي الأحمق:

- لقد توقفتَ، وهذا يؤخذ في الحسبان. لم يكن الأمر شيئًا يذكر، بأمانة. فلننسه، بدءًا من اليوم. فأنا حقًا مثلك تمامًا، لا أريدُ الشعورَ بالحرجِ .

- لقد اختبأتِ في الحمام.

كانت عيناه الزرقاوان حادتين ودافئتين.

- بلى، وإحدى طرق منع شعوري بالحرج هي عدم ذكرُ ذلك ثانيةً أبدًا.

وابتسمتُ ابتسامةً عريضة. ما زال يروق لي. لقد ارتكب غلطةً حمقاء وليدة لحظتها، وكان ممكنًا للحال أن يسوء أكثر. كان ممكنًا أن يرجع إلى المنزل معي. فكرتُ بذلك لثانية، حسنًا، لعلّ ذلك كان رائعًا على المدى القصير، لكنه قطعًا أسوأ على المدى الطويل.

- حسنًا، صديقان إذن.

- صديقان إذن.

لم نتصافح على ذلك، فما زال الوقتُ مبكرًا أكثر من اللازم للاتصال الجسدي:

- أنا لوين.

- ديفيد. سُررت بلقائك كما يجب.

حظينا بوهلةٍ أخرى من الحرجِ المُربك، ثم فركَ يديه ونظر ثانيةً إلى مكتبه:

- يبدو أنك تنوين إبقائي مشغولًا. أتراكِ من سكان المنطقة؟

- بلى، حسنًا، لقد عشتُ هنا أكثر من عشر سنوات إذا كان هذا يجعلني من أهلها.

- أتخالين أن بوسعك محادثتي عن المكان؟ المشكلات والنقاط الساخنة والانقسامات الاجتماعية وهذا النوع من الأمور؟ أردتُ أن أقوم بجولةٍ في السيارة في المحيط، لكن على هذا أن ينتظر، فلدي اجتماعٌ آخر هذه الظهيرة مع شخصٍ من المستشفى، ثم عشاء مبكر مع بقية الشركاء الليلة.

- يمكنني منحك مخططًا تقريبيًا بكل تأكيد. رأيُ غير متخصصٍ إن صح التعبير.

- حسنٌ، هذا ما أريده. أفكر بالقيام ببعض الأنشطة التوعوية التطوعية في بعض العطلات، لذا سيكون من الجيد أن أعاين منظور شخصٍ مقيم حول الأسباب المحتملة لقضايا الإدمان المقتصرة على هذا المكان. هذا تخصصي.

فوجئتُ بعض الشيء، فلستُ أعرفُ أيًا من الأطباء الآخرين الذين يُجرون أنشطة توعوية. هذه عيادة خاصة باهظة الثمن، وأيًا كانت مشكلات زبائننا، فهم لا يميلون إلى المعاناة من الفقر، وكل الشركاء خبراء في مجالاتهم. هم يستقبلون الإحالات بالطبع، لكنهم لا يخرجون إلى المجتمع الأكثر اتساعًا ويعملون بلا مقابل.

- حسنًا، نحنُ في شمال لندن، وهذه منطقة تعمّها الطبقة الوسطى بصورة رئيسة، لكن يوجد إلى الجنوب من مكان سكني عقار كبير، حيث ثمة قضايا واضحة هناك. نسبة مرتفعة من بطالة الشباب، والمخدرات، وهذا الصنف من الأمور.

مد يده تحت مكتبه وجذب حقيبته الجلدية، ثم فتحها وأخرج خريطة محلية:

- صُبي القهوة بينما أفسح مجالًا لهذه. يمكننا تحديد الأماكن التي أحتاجُ إلى رؤيتها.

تكلمنا لساعة تقريبًا، قضيتها أشير إلى المدارس والعيادات، وأخشنِ الحانات، والنفق حيث حدثت ثلاث عمليات طعنٍ في عامٍ واحد وحيث يدركُ الجميع أنه لا ينبغي تركُ الأولاد يمشون لأن المدمنين يتاجرون بالمخدرات ويتعاطونها هناك. تفاجأتُ بمقدار معرفتي بمكان معيشتي، وتفاجأتُ بمقدار ما يتكشّف من حياتي وأنا أحادثه عن ذلك. وبحلول الوقت الذي نظر فيه إلى الساعة وأوقفني، لم يكُن يعرفُ أني مطلقة وحسب، بل صار يعرفُ أن لديّ آدم وأيّ مدرسة يرتادُ وأن صديقتي صوفي تعيشُ في واحد من المربعات السكنية القصريّة عند زاوية أفضل مدرسة إعدادية. كنتُ ما أزال أتكلمُ وقتما نظر إلى الساعة ثم تصلّب بعض الشيء.

- أعتذر، عليّ التوقف عند هذا الحد، رغم أن ذلك كان أخّاذًا.

كانت الخريطة مغطاةً بعلاماتٍ من الحبر، وقد خربشَ ملاحظاتٍ على جذاذة ورق. خطه شنيع، شخبطة طبيبٍ بحق.

- حسنًا، آملُ أنه كان نافعًا.

حملتُ كوبي وابتعدتُ. لم أكُن مدركةً مدى اقتراب أحدنا من الآخر، وعادَ الحرجُ إلى مكانه.

- كان رائعًا، أشكرك.

ألقى نظرة أخرى إلى الساعة..

- إنني محتاج فقط إلى الاتصال بـــ... (ترددَ قليلًا): محتاج إلى الاتصال بالمنزل.

- يمكنكَ قول كلمة زوجتي، كما تعلم، (ابتسمتُ): فلن أحترقَ ذاتيًا.

- أعتذر.

كان مرتبكًا أكثر مني، وينبغي له أن يكون.

- وشكرًا لك، لعدمِ حُسبانك إياي خرءًا، أو على الأقل لعدم إظهارك ذلك.

- على الرحب والسعة.

- أتحسبينني خرءًا؟

ابتسمت:

- سأكون جالسة إلى مكتبي إذا ما احتجت إلي.

- أستحق ذلك.

فكرتُ في قرارتي وأنا أبلغُ مكتبي وأنتظرُ أن يبرد وجهي: *نظرًا لجريان الأمور، فقد كان ممكنًا أن تسلك دربًا أسوأ بكثير.* ولن أعمل ثانيةً حتى الثلاثاء. كل شيء سيكون طبيعيًا بحلول ذلك الوقت، وقد كُنسَت لحظتُنا الصغيرةُ تحت سجادة الحياة. عاهدتُ دماغي ألا أفكر فيها البتة. سأحظى بعطلة نهاية أسبوعٍ منحطّة وحدي. سأبقى في فراشي، وأتناولُ البيتزا الرخيصة والمثلجات، وربما أشاهد مسلسلًا كاملاً ما على نتفليكس.

الأسبوع القادم هو الأخيرُ في الدوام المدرسي، ثم تنتظرنا عطلة الصيف الطويلة، وستكون أيامي في معظمها مواعيد لعبٍ فظيعة، أنفق فيها راتبي على حصتي من رعاية الطفل، وأحاول إيجاد طرق جديدةٍ لإشغال آدم من دون منحه جهازًا لوحيًا أو هاتفًا محمولًا ليلعب عليه ألعابًا لا نهائية، والشعور بأني أم سيئة بينما أحاول إنجاز كل الأمور الأخرى. لكن على الأقل آدم صبيٌ خليق. إنه يضحكني كل يوم، وحتى في نوبات غضبِهِ أحبّه حبًا جمًا حدّ إيلام قلبي.

قلتُ في خلدي: *آدم هو رجل حياتي*، وأنا أنظرُ إلى باب مكتب ديفيد بفتور متسائلةً أي عباراتِ حبٍ يهمسها لزوجته. *لستُ في حاجةٍ إلى واحد آخر.*

7

آنذاك

ذكّر البناءُ أديلَ بالمنزل من مناحٍ عديدة، بمنزلها كما كان قبلًا بأي حال، في تربُعه مثل جزيرة وسْط محيط من الأراضي حوله. تساءَلت عما إذا فكر أبّهم بذلك -الأطباء ومحامو والديها المتوفيين، وحتى ديفيد- قبل إرسالها إلى هنا لشهرٍ، إلى هذا المنزل القصيّ في كبد المرتفعات. هل أخذ أبّهم بالحسبان حتى كم سيحملها على التفكير بالمنزل الذي فقَدَته؟

قديمٌ هذا المكان، ليست متيقّنة من عمره، لكنه مبنيٌ بطوب إسكتلندي أرمدٍ أصمّ يتحدى محاولات الزمان إنهاكه. لا بدّ أن أحدهم قد تبرّع به لصندوق ويستلاندز، أو لعله ملكٌ لأحد أعضاء مجلس الإدارة أو أيًا يكن. لم تسأل وليست مهتمة حقًا. لم تقدر على تصوّر أن تعيش عائلة واحدة فيه، ذلك أنهم على الأرجح لن يشغلوا أكثر من بضع غُرفٍ، مثلما فعلت عائلتها في منزلها. أحلامٌ كبيرة، وحيواتٌ ضئيلة. لا حاجة لأحدٍ بمنزل ضخم، فبمَ يمكن ملؤه؟ يحتاجُ المنزل إلى أن يُملأ بالحب، وبعض المنازل -بما فيها منزلها كما كانت حاله- لا تتقدُ في أصحابه حرارة حبٍ تكفي لتدفئتهم، لكنّ المركز العلاجي يمنح هذه الغرف غايةً على الأقل. نحّت جانبًا ذكريات طفولتها عن الركض بحرية عبر الممرات والسلالم بينما تلعبُ الغمّيضة وتضحكُ بشدة،

طفلةً نصفُ منسيّة. من الأفضل التفكير في أن منزلها كان أكبر مما ينبغي فحسب، من الأفضل التفكيرُ بالحقائق المُتخيّلة بدلًا عن الذكريات الحقيقية.

مرت ثلاثة أسابيع وما تزال في حالة ذهول. الجميعُ يخبرها بأنها في حاجةٍ إلى أن تحزن، لكن الحزن ليس سبب وجودها هنا. إنها تحتاج إلى النوم. هي تأبى النوم. كانت تجرُ نفسها عبر أيامٍ وليالٍ ملؤها القهوة والريد بول وأي منشّط آخر يمكنها إيجاده لتتجنبَ النوم قبل أن يجلبوها إلى هنا. قالوا إنها لم تكُن «تتصرفُ بصورة طبيعية» بالنسبة لشخصٍ فقد والديه مؤخرًا، وكان عدم النوم أقلّ ما في الأمر. ما زالت تعجب لتأكدهم الواثق مما كان «التصرف الطبيعي» في هذه الحالات. ما الذي جعلهم خبراء؟ غير أنهم مع ذلك، بلى، يريدونها أن تنام، لكن أنّى لها أن تُفسّر؟

النوم هو الانعتاق الذي انقلبَ ضدها. أفعًى تلدغ في الليل.

هي هنا لصالحها على ما يظهر، لكن ما يزال الأمر يعطي شعورًا بالخيانة. لم تأتِ إلا لأن ديفيد أرادها أن تأتي، فهي تكرهُ مرآهُ قلقًا، وتدينُ له بهذا الشهر على الأقل بعد ما فعله. إنه بطلُها.

لم تبذل أي جهدٍ لتنسجم مع المكان، رغم وعدها لديفيد والمحامين أن تحاول، لكنها تستغل غرف الأنشطة، وتتكلم –أو تنصت في الغالب الأعم– إلى المُستشارين، وإن كانت غير واثقة من مدى احترافهم حقًا. يبدو الأمر برمّته غبّيًا في نظرها، مشاعر مرهفة كما كان أبوها ليقول. لم ترُق له هذي الأمور في دورة علاجها الأولى قبل كل تلك السنوات، ويحسّسها مضيُّها في ذلك الآن بأنها تخذله. هي تفضّل أن تكون في مستشفًى لائق، لكن محاموها ظنوا أن تلك فكرةٌ سيئة، وديفيد كذلك. يمكن اعتبارُ ويستلاندز «ملاذًا»، لكن إرسالها إلى منشأة قد يكون ضارًا بأعمال أبيها، لذا ها هي ذي، سواء أكان أبوها ليوافق أم لا.

بعد الفطور، سيخرجُ معظم المقيمين، أو المرضى، أو أيًا يكن اسمهم، في نزهة، واليوم ملائمٌ لذلك، ليس حارًا أكثر مما ينبغي، ولا باردًا زيادة، والسماء رائقة والهواء عليل، وللحظةٍ أغرتها فكرة مرافقتهم والتسكّع وحدها في المؤخرة، لكنها حينئذٍ رأت الوجوه المتحمسة في المجموعة المحتشدة على الدرجات الأمامية وغيّرت رأيها. هي لا تستحقُ السعادة، فإلى أين أودت

بها كل سعادتها؟ وأيضًا، سيتعبها المِران، وهي لا تريدُ النومَ مدةً تزيد على حاجتها، فالنوم يراودها بسهولة زائدةٍ أصلًا.

انتظرَت لترى نظرة الخيبة على وجه قائد المجموعة مارك ذي تسريحة ذيل الحصان الذي قال: «*كلنا نستخدم الأسماء الأولى هنا يا أديل*»، عندما هزّت رأسها ثم تركتهم وشأنهم واستدارت ماشيةً ناحية مؤخر المنزل حيث البحيرة.

كانت قد أتمّت نصف دورة من التمشّي البطيء وقتما رأته، على بُعد عشرين قدمًا ربما، جالسًا تحت شجرةٍ يصنع سلسلة من الأقحوان. ابتسمت غريزيًا إزاء غرابة المشهد، هذا المراهق الطويل الهزيل بقميصه غريب الأطوار وسرواله الجينز، وشعره الداكن يتخبط فوق وجهه بينما يركّز شديد التركيز على شيء لا تُرى إلا البنات الصغيرات تصنعنه، ثم شعرت بالسوء لأنها ابتسمت. لا يجدر بها الابتسام أبدًا. ترددت للحظة وفكرت بالاستدارة والعودة من حيث أتت، ثم رفع بصره ورآها. توقّف قليلًا ولوّح لها، فلم يعد أمامها خيارٌ إلا المضيّ إليه، ولم تمانع ذلك. ذلك أنه الوحيد هناك الذي يثير اهتمامها. كانت قد سمعت أصواته في الليل، الصرخات والكلمات الهاذية التي في الغالب لا تحمل معنًى، وهذره بينما يتعثر بالأشياء، وعجلة الممرضات لإعادته إلى السرير. هي تألفُ كل هذا، وتتذكره كله. إنه الذعر الليلي.

قالت: «لم تستهوِ العناقات الجماعية فوق البراح إذن، أليس كذلك؟»

كان وجهه مجموعةَ زوايا، كما لو أنه لم يكبُر ليملأه بعد، لكنه بعمرها تقريبًا، أو أكبر بعام ربما، في الثامنة عشرة أو نحو ذلك، رغم أنه ما يزال يستخدم تقويمًا معدنيًا لأسنانه.

- لا. أأفهم أنها ليسَت هواكِ أيضًا؟

خرجَت كلماته مع بعض اللثغة.

هزّت رأسها، أمر مُربِك. لم تكن قد استهلّت محادثة، لأجل التحادث فقط، مع أي شخصٍ منذ وصولها.

- لا ألومك. ما كنتُ لأرغب بالتقرّب من مارك أكثر مما يجب. لا بدّ أن ثمة قملًا ينمو في ذيل الحصان خاصته. لقد لبس القميص نفسه لثلاثة أيام الأسبوع الماضي، وهذا ليس من فعال رجلٍ نظيف.

ابتسمَت آنذاك وتركت الابتسامة تسكنُ وجهها. لم تكُن منتويةً التأخّر، لكنها وجدت نفسها تجلس.

- أنتِ الفتاة التي ترسمُ نيرانًا، لقد رأيتكِ في غرفة الفنون.

نظر إليها، وقالت في قرارتها إن عينيه أكثر زرقةً من عيني ديفيد، لكن لعل ذلك لأن بشرته شديدة الشحوب وشعره أسود تقريبًا. علّق أقحوانة أخرى بالسلسلة:

- كنتُ أفكر في الأمر. ربما عليكِ رسم الماء بدلًا عنها، فقد يكون ذلك أكثر علاجيةً. يمكنكِ إخبارهم بأن رسومات النار تمثل حزنك وما حدث، وأن رسومات الماء إخمادٌ لكل النيران، غسل لها كلها.

كان يتكلم بعجالة، لا بدّ أن دماغه يفكّر بسرعة، أما دماغها فيبدو لزجًا كالدبس.

سألَت: «لمَ قد أرغب بفعل ذلك؟» لم يسعها تصوّر غسل كل شيء.

- ليتوقفوا عن منازعتكِ *لفتح قلبِك*.

ابتسمَ وغمزها..

- امنحيهم شيئًا وسيدعونك وشأنك.

- تبدو خبيرًا.

- لقد زرتُ أماكن كهذا من قبل. هاك، مدّي ذراعك.

فعلَت مثلما قيل لها وأزلقَ سوار سلسلة الأقحوان في يدها. لم يكن له وزن، على عكس ساعة اليد الثقيلة خاصة ديفيد التي تتدلى على معصمها الآخر. بادرةٌ لطيفة، ولثانية قصيرة نسيَت كل ذنبها وخوفها.

- أشكرك.

جلسا صامتين لبُرهة.

- قرأتُ عنك في الجريدة. يؤسفني ما أصابَ والديك.

- وأنا كذلك.

ثم أرادَت تغيير الموضوع،

- أنت الفتى الذي يعاني الكوابيس ويمشي في نومه.

ضحك بخُفُوت:

- بلى، آسفٌ بخصوص ذلك. أعرفُ أني لا أنفكُ أوقظ الناس.

سألته: «أهوَ أمرٌ حديث؟» كانت تتساءل عما إذا كان مثلها، ذلك أنها ستحبُ لقاء شخصٍ مثلها. شخصٍ سيفهم.

- لا، لطالما كنتُ في هذا الحال، طوال عُمر ذاكرتي، وإن لم يكُن سبب وجودي هنا...

شمّر عن ساعده مظهرًا آثار حقنٍ باهتة.

- عادات خبيثة.

تراجعَ متكئًا على مرفقيه فوق العشب، وساقاه ممدودتان أمامه، وفعلَت مثله. شعَرت بدفء الشمس على جلدها، وللمرة الأولى لا يجعلها ذلك تفكر بألسنة اللهب.

- يخالون أن المخدرات ونومي الغريب مرتبطان، ويواظبون على سؤالي عن أحلامي، وهذا سمجٌ للغاية. سأبدأ باختلاق الأمور.

- حُلمٌ حميمي قذرٌ فيه مارك، ربما مع تلك المرأة البدينة في المقصف التي لا تبتسمُ أبدًا.

فضحكَ وضحكَت معه، وشعرت بالراحة إزاء إجراء محادثة طبيعية مع شخص ما، شخص ليس *قلقًا* حيالها، شخص لا يحاول انتشالها.

قال وهو ينظر إليها خازرًا عينيه:

- يقولون إنك لا تريدين النوم، لأنك كنتِ نائمةً وقتما وقعت الواقعة ولم تستيقظي.

كان صوته رشيقًا، كما لو أنهما يتكلمان عن أي شيء على الإطلاق، برامج تلفزيونية، أو موسيقى، لا تلك النار التي قتلت والديها، النار التي حررت بعض الحرارة في منزلهم أخيرًا.

- ظننتُ أنه لا يُفترضُ بهم الحديثُ عنا.

وأرسلت نظرها إلى الماء المتلألئ، جميلٌ وساحر ويشعرها بالنعاس.

- إنهم لا يفهمون.

ضحكَ بخفوت ثانية، مطلقًا نخرةً قصيرة:

- لا يفاجئني ذلك. أراهم غلاظًا غُلظة روث الخنزير، يحكون حكاية واحدة للجميع. لكن ما الذي لا يفهمونه في هذه الحالة بالضبط؟

قشطَ طائرٌ الماء، وشق منقارهُ الهزيل قطعةً من سطحه. تساءَلت ما الذي كان متحرقًا إلى هذه الدرجة لالتقاطه.

قالت في آخر الأمر:

- النوم مختلفٌ بالنسبة لي.

- ما قصدك؟

جلست حينئذٍ ونظرت إليه، وفكّرت في قرارتها بأنه يعجبها. ربما ثمة طريقة مختلفة للتعامل مع كل هذا الهراء، طريقة ستعينه أيضًا. لم تقُل ذلك، لكنها ليست المرة الأولى لها في مكان كهذا أيضًا، إذ يواظبُ النوم على إعادتها إلى العلاج. في البداية كانت المشكلة سيرها في نومها وكوابيسها وقتما كانت في الثامنة، والآن بات الأمر عدم رغبتها بالنوم إطلاقًا.

النوم، النومُ على الدوام. النوم الزائف، النوم الحقيقي، شكل النوم.

وفي لجّة كل ذلك يقبع الشيء الذي لا يمكنها إخبارهم به أبدًا، فسيحبسونها إلى الأبد إن فعلت، واثقةٌ من هذا.

- اختلق لهم أمورًا وأبقهم سعداء، وسأساعدك فيما يخص كوابيسك. يمكنني مساعدتكَ أكثر بكثير منهم.

قال وقد فتنه الأمر:

- حسنًا، لكن بالمقابل عليكِ رسم بعض رسومات الماء التي لا تعنينها. سيكون من المسلي رؤية عاطفتهم تفيضُ على أنفسهم إزاء *إنقاذك*.

- اتفقنا.

- اتفقنا.

تصافحا على ذلك، وأضاءَت قلُوب الأقاحي بضوء ذهبي تحت أشعة الشمس. اتكأت خلفًا على العشب، متلذذة بدغدغة السوار ذراعها، واستلقيا جنبًا إلى جنبٍ في صمت لبرهة، مستمتعيَن بالنهار من دون وجود أي شخص يُطلق أحكامًا عليهما.

لقد كسبَت صديقًا، لا تطيقُ صبرًا حتى تخبر ديفيد.

8

أديل

كنتُ مستيقظة منذ الفجر، لكنني لم أتحرك. كلانا مستلقٍ على جانبه، وقد ارتمَت ذراعه فوقي، ومنحني ذلك شعورًا حسنًا رغم غمّي، فوزنها يشعرُ بالحماية، ويذكرني بالأيام الخوالي. بشرته ملساء وبرّاقة وخالية من الشعر حيث تتسلّق ندوبه ساعده. هو يبقيها مخفية، لكنني أحب رؤيتها، ذلك أنها تذكرني بحقيقته الكامنة تحت كل شيء: الرجل الذي تجاسر على النار لإنقاذ الفتاة التي يحب.

كانت الشمس تحزّ خطوطًا فجةً على الأرضية الخشبية عبر فجوات الستائر منذ قبل الساعة السادسة، وأعرفُ مسبقًا أنه سيكون يومًا آخر جميلًا، في الخارج على أقل تقدير. رحتُ أتأملُ البارحةَ تحت ثقل ذراع ديفيد، فقد كان عشاء الأمس مع الدكتور سايكس ناجحًا. غالبًا ما أجد الأطباء النفسيين ثقالًا ويمكن توقُّعُهم، لكنني كنتُ أخّاذة وخفيفة الظل وأعرف أنهم أحبوني جمعًا. حتى الزوجات عبّرن لديفيد عن وفرة حظه لكوني شريكته.

إنني فخورة بنفسي. فرغم أنه كان جهدًا من الصعب حشده –إذ اضطُررت إلى الركض خمسةَ أميالٍ على جهاز الركض في النادي الرياضي تلك الظهيرة، ثم قسوتُ على الأوزان لأهدئ نفسي- كنتُ في مزاج حسنٍ واضحٍ وقتما عاد ديفيد إلى المنزل، وقد زاد التمرينُ ذاك التوهجَ توهجًا. سارت الليلةَ

مع الصحبة بامتياز من غير خلل، وأودى تظاهرنا بالسعادة المُعظّمة كلينا إلى الإيمان بها مجددًا لِفَينةٍ وجيزة. مارسنا الحب البارحة للمرة الأولى منذ شهور، ورغم أنه لم يكن بالطريقة التي أحب تمامًا، أصدرتُ كل الأصوات المناسبة وبذلت قصارى جهدي لأكون دافئة ومطيعة. كان شعورًا رائعًا أن أحظى به على هذا القرب، أن أحتويه داخلي، حتى وإن لم ينظر في عينيّ البتة وكان ممعنًا في الثمالة حقًا.

التزمتُ بقاعدة احتساء كأس أو اثنتين، لكن ديفيد لم يفعل، رغم أنه ظل على الجانب الملائم من البشاشة المقبولة، حتى بلغنا المنزل حيث صب لنفسه كأسًا كبيرةً من البراندي وشربها بسرعة، ربما آملًا أنني لن ألاحظ. لاحظتُ، لكنني بالطبع لم أقُل شيئًا رغم تمتعي بكل الحق في ذلك.

كان من المفترض أن يحدّ من ذلك باعتباره جزءًا من «بدايتنا الجديدة». حتى هو يعرفُ أنه لا يمكن للمرء أن يكون طبيبًا نفسيًا متخصصًا بحالات الإدمان والوسواس إذا كان هو نفسه يعاني من مشكلة شربٍ. لكن من ناحية أخرى، أظنُ أن واحدًا منا فقط كان يحاول بحقٍ في بدايتنا الجديدة.

ديفيد هو المسيطر دائمًا على علاقتنا، ويعتني بي. قد يقول البعض، إذا ما نظروا من كثب كافٍ، إنه يخنقني، وسيكونون محقين، لكن ثمة أوقات أظن فيها أنني ربما أذكى منه. كان نائمًا مواجهًا لظهري فالتصقت به وحاولت إغواءه. اعتقدت أنه سيكون أكثر استعدادًا وهو نائم، لكن لم يحدث ذلك، والتفّ مبتعدًا حتى صار على ظهره، آخذًا نصف الأغطية معه. راح يغمغم، وكانت رقيقة وعذبةً الأصداء المتلاشية لحلمه بينما يرجعُ إلى عالم الصحو، وقاومتُ توقي إلى اعتلائه وتقبيله وإطلاق العنان لكلّ شغفي، ومطالبته بأن يحبني ثانية.

أغمضتُ عينيّ بدلًا عن ذلك، وتظاهرتُ بالنوم حتى نهض وغارَ في الرواق ثم إلى الحمام، وبعد لحظات، دبّت الحياة في السخان مع تدفق المياه في الدوش. هذا مؤلم بعض الشيء، ولا أملك فيه قولًا، مهما تمتعتُ بعزيمة جديدة لأكون قوية. لدينا حمّام داخلي مزودٌ بضغط كهربائي في غرفة نومنا، لكنه اختار أن يكون أبعدَ عني، وعندي فكرةٌ لا بأس بها عن سبب ذلك، عما يفعله هناك، فقد تحرّشتُ به موقظةً إياه، والآن، بدلًا من ممارسة الحب معي، راح

«يمتّع نفسه». إنها جملة غبية، لكن لم ترُق لي الكلمة الأخرى قط، تحليليّة للغاية، كلمة إمتاع النفس أفضل، لكن كلامًا من هذه الشاكلة لا يلائمني على ما يظهر، لذا دربتُ نفسي على تلافي الفظاظة منذ زمن بعيد والآن لا يبدو وقعها غريبًا إلا في رأسي.

كنتُ قد أعددتُ إبريق قهوةٍ وقتما نزل إلى الطابق السفلي، ووضعتُ بعض المعجنات الهلالية في المايكروويف. يخمدُ كل منا الآخر بطريقته الخاصة، وأعرفُ أنه سيحتاج إلى شيء ما يمتص أسمال خُماره، فاستدرتُ ورحتُ أضجّ حول المغسلة حتى يتسنى له الحصول على بعض الأيبوبروفين من الخزانة من دون أي حُكمٍ صامت.

قلتُ وكلي مرحٌ وخفّة بينما أنقلُ المعجنات إلى صحن: «لقد جهزتُ الطاولة الخارجية، إذ يبدو من السُخف تبديدُ صباح جميل كهذا». كان الباب الخلفي مفتوحًا والهواء دافئٌ رغم أن الساعة بالكاد تجاوزت التاسعة والنصف.

أرسل نظره بحذرٍ عبر النافذة، وأمكنني رؤية أنه يحاول تحديد مكان دفنيَ القطة في أحواض الزهور بعد أن تركني أتعامل مع الأمر وخرج ليسكَر أو أيًا يكن. ما يزال يفكر في ذلك، وأنا أحاول جعله في طيّ النسيان. إنه يتمسّك بالأمور التي لا يمكنه تغييرها، لكن ما جرى قد جرى سواء أأعجبنا ذلك أم لا.

قال، مبتسمًا لي نصف ابتسامة: «حسنًا. سيصحّيني الهواء النقي». كان يراضيني، مكافأةً ربما على حُسن أدائيَ البارحة.

لم نكثر من الكلام، لكنني استمتعتُ بصمتنا الذي كان رقيق الحاشيةِ هذه المرة. تركتُ ثوب نومي ينزلق كي تجلدَ الشمسُ ساقًا عاريةً بينما أرتشفُ قهوتي وآكل معجناتي، ثم أمَلتُ وجهي إلى الخلف. أمكنني في بعض اللحظات الشعور بأنه ينظر إليّ، وأعرفُ أنه ما يزالُ مأخوذًا بحُسني. نكاد نكون مسرورين في هذه اللحظة، ولن تدوم –لا *يمكنها* أن تدوم– لكنني أتلذذ بها حاليًا، وربما زيادةً بسبب ما قد يحدث.

ذهبتُ بعدما انتهينا إلى الحمام، وأخذتُ وقتي أتمتعُ في الماء الساخن. النهارُ مَشهدٌ فارغ، لكن له روتينه الخفي الخاص، إذ سيعمل ديفيد لبضع ساعات ومن ثم ربما يذهب كلانا إلى النادي الرياضي، وهذا نشاط يمكننا

الزعمُ أننا نقوم به معًا، لكننا بالطبع نفعله فُرادى، ثم المنزل والعشاء والتلفاز ونوم مبكرٌ على الأرجح.

كان في مكتبه بالفعل وقتما نزلتُ إلى الطابق السفلي، وناداني، وهذا مفاجئ، فعادةً ما يرغب بأن يُترك وحده عندما يعمل، ولا أمانع ذلك، فلديه معلومات حول المرضى هناك، ورغم أنه قد يسرف في الشرب، لكنه محترفٌ تمامًا في جميع النواحي الأخرى.

- لقد جلبتُ لك بعض الأشياء.

- أوه.

هذا ميلٌ عن روتيننا المُتوَقع، وقد اندهشت. غارَ قلبي وتخشّب قليلًا وقتما رأيتُ أن أوّل ما أعطانيه كان عُلبة أقراصِ دواء.

- هذه من أجل قلقِك، أظنها قد تكون خيرًا من البقية. حبة واحدة ثلاث مراتٍ في اليوم، ولا آثار جانبية لتقلقي حيالها.

أخذتها. لم يعنِ الاسمُ على واجهتها شيئًا لي، مجرد كلمة أخرى لا يمكنني تهجئتها. قلت، حائرةً: «بالطبع». المزيد من الأقراص، أقراصٌ على الدوام.

- لكنني جلبتُ لك هذه أيضًا.

كان صوته متفائلًا، ورفعتُ رأسي.. بطاقة ائتمانٍ وهاتفٌ محمول.

- البطاقة مقرونة ببطاقتي، لكنني أظنُ أن الوقت قد حان لتحظي بواحدة ثانيةً. والمثلُ بالنسبة للهاتف.

كان محض سماعةٍ قديمة، وأتصور أنه لا يدعم الوصول إلى الإنترنت ولا يحوي إلا الوظائف الأساسية، لكن قفز قلبي فرحًا. لا مزيد من الاعتماد على ديفيد ليمنحني مصروف تدبير المنزل، لا مزيد من الجلوس في المنزل منتظرة كل مكالمةٍ هاتفيةٍ مُجدوَلة. ابتسمتُ ابتسامةً حقيقيةً مئة في المئة.

قلت، غير متهيئةٍ لتصديق حظي: «أمتأكدٌ أنت؟» وتمكنتُ تقريبًا من نسيان الصدمة الأولى التي أحدثتها الأقراص.

«متأكد»، ابتسم، وقد باتَ مسرورًا لإسعاده إياي.

- بداية جديدة، أتذكرين؟

- بداية جديدة.

وقبل أن أدرك ذلك، ركضتُ إلى الطرف الآخر من المكتب ولففتُ ذراعيّ حول عنقه ويديّ ما تزالان ملآنتين. لعله يعني ذلك حقًا، لعله سيحاول بجدٍ أكبر من الآن فصاعدًا.

همستُ: «شكرًا لك يا ديفيد». امتصصتُ رائحته وقتما ردّ عناقي بمثله، امتصصتُ دفأه وملمس ذراعيه واتساع صدره المَشيق تحت بلوزته الرقيقة. كاد قلبي ينفجر أمام قُربه.

عندما تباعدنا، رأيتُ الخريطة المخربش فوقها التي كان ينظر إليها وورقة الملاحظات بجوارها، فسألتُ متظاهرة بالاهتمام: «ما هذا؟»، مستمرةً بكوني الزوجة الكيّسة في هذه اللحظة الرائعة.

- أوه، إنني أفكر في القيام ببعض الأنشطة التوعوية، أمور تطوعيّة، مع جمعية خيريةٍ أو شيء من هذا القبيل. لستُ واثقًا بعد، وهذا جزء من سبب اعتقادي أنك قد تحتاجين إلى الهاتف.

ورمقتني عيناه بنظرةٍ جانبية، لكنني ابتسمت.

- هذه فكرة رائعة، إنها كذلك حقًا.

- ذلك يعني أنني سأقضي وقتًا أطول في الخارج. في عطلات نهاية الأسبوع وفي الأمسيات. سأحاول إبقاء الأمر في حده الأدنى.

كان يستخدم جملًا قصيرة، وعرفتُ من ذلك أنه غير مرتاح، فالمرء يتعلم الإشارات الصغيرة في الزواج طويل الأمد.

- لا مشكلة، أراه شيئًا في غاية اللطف.

- أتعنين ذلك؟

والآن حان دوره ليتفاجأ. لطالما أحببتُ أن يعملَ بقدر الإمكان في القطاع الخاص، فثمة رُفعةٌ مُريحة في ذلك، بعيدًا عن سُخام العيش الشاق وذلّه. كنتُ قد دفعته إلى مزاولة مهنته في هارلي ستريت، حيث ينتمي، حيث سنحظى بالمزيد من الوقت لنا. هو نابغٌ بشهادة الجميع، لطالما كان كذلك، وينبغي أن يكون في القمة، لكن هذا يلائمني، سيلائم كلينا.

- كنتُ أفكّر بالقيام ببعض أعمال التجديد بأي حال، وسيكون ذلك أسهل من دون أن تعترض سبيلي.

وابتسمتُ لأحرص على أن يعرفَ أنني أعاكسه. لم أقترحْ أن أجدَ عملًا، فمن أين سأبدأ بأي حال؟ لم أعمل منذ سنوات ولن أحصل على شهادة مؤهلاتٍ من هناك من غير ريب.

قلتُ: «أنت رجل طيب يا ديفيد»، رغم أن ما قُلتُه شاقٌ ويبدو مثل كذبة، «أنت حقًا كذلك».

جمد الجوّ آنذاك، وحلّ ثقل لحظيّ في الغرفة، وشعر كلانا أن أسمنت الماضي نفسه بيننا مرة ثانية.

- سأذهب وأتناول واحدة من هذه، وأتركك لأعمالك.

أبقيتُ ابتسامتي معلّقة وغادرت، متظاهرة بعدم ملاحظة الارتباك المباغت، لكن رغم قبضي على الأقراص التي لا أنوي تناولها في يدي، شعرتُ بنشاطٍ متجددٍ في خطوي. هاتف وبطاقة ائتمانية، كان اليوم أشبه بعيد الميلاد.

9

لويز

بحلول ظهيرة الأحد كنتُ قد فقدتُ أي أمل «بعطلة نهاية أسبوعٍ تحررني»، وجلستُ لا أفعلُ إلا مراقبة الساعة ريثما يرجع آدم إلى المنزل. احتسيتُ مشروبًا مع صوفي بعد العمل يوم الجمعة وأضحكتها مزيدًا بخصوص *صمّام ربّ العمل* كما تسميه، على الرغم من تمكني من رؤية ارتياحها لأن شيئًا آخر لم يحدث. *لا تتغوطي حيث تأكلين*، كان هذا ما قالته، وكدتُ أشير إلى أنها تنامُ مع أصدقاء جاي أو زبائنه طوال الوقت، لكنني عكفتُ عن ذلك. بأي حال، لم يكن بمقدورها التأخر في الخارج، وسرّني بعد كأسين من النبيذ أن نتودّع، إذ كان تسلّيها بحالي يأخذ بالصيرورة منهكًا.

إن مشكلة الأزواج هي أنهم حتى وإن لم يكونوا متعجرفين بقدر ما يظنهم العُزب، هم يسقطون في ثلم الحياة ذاك حيث لا يفعلون شيئًا فعليًا إلا بصحبة أزواج آخرين. لا أحد يرغب بعجلة احتياطية تتسكع في الجوار وتعكر صفو الأعداد الزوجية. أذكر ذلك، فقد كنتُ وإيان على هذي الشاكلة، وكلما تقدم المرء في السن يجد الجميع من حوله متزوجًا بأي حال، وأولئك غير المتزوجين يواعدون على نحو مسعورٍ بغية العودة إلى الانسجام مع المحيط.

أنجزتُ الأعمال المنزلية يوم السبت، مشغلةً الراديو بصوتٍ صاخبٍ ومحاولةً جعل الأمر يبدو مرحًا لا كدحًا، ثم شاهدت التلفازَ وطلبتُ بيتزا

وشربت النبيذ ودخنتُ أكثر مما ينبغي، ثم كرهتُ نفسي لتمادياتي. ما بدا منحطًا للغاية وقتما خططتُ له، شعرتُ بحالةٍ مزريةٍ وقتما عشته.

أخفقت نيّتي عدم التفكير بديفيد أيضًا. ما الذي فعلاه في عطلة نهاية الأسبوع هذه؟ لعبا التنس؟ جلسا في حديقتهما المثالية من غير شكٍ وراحا يرتشفان الكوكتيلات ويضحكان معًا؟ أفكرَ فيّ قط؟ أثمة أي سبب ليفعل ذلك؟ ربما كان يقاسي مشكلاتٍ في زواجه. أنشأت الأفكار تتخبطُ جيئة وذهابًا بينما أشاهد التلفاز من غير تركيز وأسرف في شرب النبيذ. كنت محتاجة إلى نسيانه، لكن الكلامَ سهلٌ والفعال صعبة. مشيتُ في نومي في كلتا الليلتين، ووجدتُ نفسي واقفة في المطبخ والماء الباردُ يتدفق في المغسلة، على مقربة مرعبة من باب الشرفة، في الساعة الرابعة صباح الأحد. انتهى بي المطاف راقدة في سريري حتى الساعة العاشرة، متناولةً بقايا البيتزا الأخيرة على الفطور، ثم أجبرتُ نفسي على زيارة موقع موريسونز من أجل المتجر الأسبوعي قبل أن أجلس وأنتظر آدم ليأتي ويبعث الحياة في الشقة.

عاد آدم أخيرًا بعد السابعة بقليل. كان عليّ منع نفسي من العَدو إلى الباب، وعندما اندفع متجاوزًا إياي مثل زوبعة، وثبَ قلبي إزاء الضجة والطاقة. إنه يُرهقني في بعض الأوقات، لكنه فتايَ المثاليّ.

قلتُ بينما عانق ساقيّ: «لن نلعب، اذهب وابدأ حمامك، فقد شارف موعد النوم». قلبَ عينيه وتأوه، لكنه تثاقل المشي باتجاه الحمام.

- إلى اللقاء بنيّ.

صاح آدم: «شكرًا يا أبي»، وبالكاد كانت حقيبة ظهره معلقةً على كتفه وهو يحمل ديناصورًا بلاستيكيًا عاليًا:

- أراك الأسبوع المقبل!

- الأسبوع المقبل؟

ارتبكتُ، فأخفض إيان نظره معطيًا إياي لمحة عن بقعة صلعهِ النامية، وانتظرَ حتى صار ابننا خارج مرمى السمع.

- بلى، كنتُ أودّ الحديث معك في ذلك. انظري، لقد حصلت ليزا على عرضٍ ينطوي على منزل في جنوب فرنسا لمدة شهر، ويبدو من الغباء ألّا نستغله.

- ماذا عن العمل؟

شعرتُ كما لو أنني تلقيتُ صفعة.

- يمكنني العمل من هناك لأسبوعين ثم آخذ البقية إجازةً.

وخزه وجهه وتلوّن مثلما فعل وقتما أخبرني أنه سيهجرني. قال من غير تفكير:

- إن ليزا حامل، وهي ترى -نحن نرى- أن هذه ستكون طريقةً جيدة لتقوّي علاقتها بآدم كما يجب قبل مجيء المولود. لا يمكنها أن تعرفه معرفةً حقةً ملائمةً برؤيته مرة كل أسبوعين فقط. من أجله أيضًا، فهي لا تريده أن يشعر بالإهمال، ولا أنا أريد ذلك.

لم أسمع إلا ضوضاءً بعد كلمة *حامل*. فليزا جديدة نسبيًا، وهي في رأسي أقربُ إلى اسمٍ مُبهمٍ من شخصٍ كاملٍ قُدّر أن يكون جزءًا من حياتي إلى الأبد. لم أعرفها إلا منذ تسعة أشهر أو نحو ذلك، وكنتُ قد افترضتُ، إذا ما كان سجلُ إيان منذ طلاقنا جديرًا بالاهتداء به، أن وقتها قد نفد تقريبًا. أذكرُ جزئيًا قوله لي إن هذه المرة مختلفة، لكني لم آخذه على محمل الجد. كنتُ على خطأ، إنها مختلفة.

سيصيران عائلةً حقيقية.

مرّت الفكرةِ سكينًا في قلبي الذي استحال أليمًا وقاتمًا فجأة. سيعيشان في منزلٍ ملائم، وستجني ليزا جوائز تسلق إيان المنتظم لسلّمِ الشركة. شعرتُ أن شقتي الضئيلة خانقة. لستُ أنصفه، أعرف ذلك، فإيان يدفع قرضي العقاري ولم يجادلني فيما يخص المال البتّة، ومع ذلك، يطغى الجرح على دماغي العقلاني، وتحملني فكرة أن يأخذا آدم مني طيلة الصيف ليضيفاه إلى صورتهما الصغيرة عن النعيم التام على الاستشاطة غضبًا، كما لو أن قلبي قد انفجر وفاضت كل الدماء من عينيّ.

قلت نافثةً الكلمات: «لا، لن يذهب». لم أُهنّه، إذ لستُ أهتمُ لأمر المولود الجديد، لا يهمني إلا مولودي الذي يكبر بالفعل.

- أوه، بحقّكِ يا لو، هذا لا يشبهكِ.

اتكأ على إطار الباب وكل ما أمكنني رؤيته كان بطنه المنتفخ. كيف يمكن أن يجد شخصًا جديدًا، شخصًا جديدًا ملائمًا، وأنا لا؟ لم أنا التي تُركتُ وحيدةً، أقضي أيامي وكأنها تجديدٌ بليدٌ لفيلم *غراوندهوغ داي*؟ أردفَ إيان:

- سيقضي وقتًا رائعًا، وأنت تعرفين ذلك، وستحظين ببعض الوقت لنفسِك.

فكرتُ بالثمانية وأربعين ساعة المنصرمة. ليس بعض الوقتِ لنفسي ما أحتاج إليه الآن.

- لا، وكان حريًا بك أن تكلمني أولًا.

كنتُ على وشك دق الأرض بقدمي، وخرج صوتي مثل طفلةٍ، لكنني لم أتمكن من تمالك نفسي.

- أعرف، أعتذر منك، لكن الأمر ظهر مؤخرًا نوعًا ما. ألا تفكرين به على الأقل؟

بدا متألمًا.

- إنها عطلة المدارس، وأعرف أنها تُربكُكِ. لن تكوني مضطرة إلى القلق حيال رعاية الطفل بينما تعملين، وسيمنحك ذلك استراحة. يمكنك الخروج حينما تشائين، ولقاء أناس جدد.

يقصدُ رجلًا، أوه هذا جيد، هذا ما كان ينقصُ عطلتي تمامًا، شفقةٌ من زوجي السابق الخائن. هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير. لم أقل لا ثانية حتى، بل صفقتُ الباب بشدّة عليه جاعلةً إياه يثبُ خلفًا قبل أن يلطمه.

رنّ جرس الباب مرتين بعد ذلك، لكنني تجاهلته. شعرتُ بالدوار، بالغضب، بالضياع، والأخبث من كل ذلك كان شعوري بأنني لا أملكُ الحق في أي مما حدث. ليزا لطيفة تمامًا على الأرجح، وإيان لا يستحقُ التعاسة. لم أكُن قد ظننتُ حتى إنني تعيسة قبل القبلة الثملةِ الغبية. أرخيتُ رأسي على الباب، مقاومةً باعثي على خبطه بالخشب لإدخال بعض الصواب إليه.

- ماما؟

استدرتُ، ورأيتُ آدم يحدق من غرفة الجلوس، يا للحرج.

- أيمكنني الذهاب إلى فرنسا إذن؟

صرختُ به: «قلتُ لك أن تبدأ حمّامك»، وطفا كل غضبي عائدًا إلى السطح. ليس من حق إيان أن يخبر آدم بأمر العطلة قبل أن يكلمني، لمَ عليّ أن أكون الأم السيئة على الدوام؟

- لكن...

- إلى الحمام. وَلا، لا يمكنك الذهاب إلى فرنسا، وهذا نهائي.

زنّر إليّ بعينه آنذاك، وكأنه كرة صغيرة من سخط وكلماتي تفقأ فقاعة حماسته:

- لمَ؟

- لأنني قلتُ لا.

- هذا ليس سببًا. أريد الذهاب!

- إنه سبب كافٍ، ولا أريدُ نقاشًا.

- إنه سبب أحمق! أنتِ حمقاء!

- لا تكلمني على هذا النحو يا آدم، والآن ابدأ حمامك أو لا قصة لكَ اليوم.

لا يروق لي عندما يكون على هذي الحال، أنا لا أروق لي وأنا على هذي الحال.

- لا أريد قصة! أريد الذهاب إلى فرنسا! بابا يريدني أن أذهب! إنك حقيرة! أكرهكِ!

كان يحمل ديناصورًا بلاستيكيًا قذفني به قبل أن يندفع بعنف إلى الحمّام، وسمعتُ الباب يُصفَق. لستُ وحدي القادرة على فعل ذلك. التقطتُه ورأيتُ ملصق متحف التاريخ الطبيعي على قدمه.

لم يفعل ذلك إلا زيادة مشاعري سوءًا. مرّت عصورٌ وأنا أَعِدُه بالذهاب ولم تسنح الفرصة، فعندما يكون المرء والدًا بدوام كامل ثمة أمور كثيرة لا يتسنّى له فعلها.

كان حمّامه قصيرًا وغير مبهجٍ لكلينا. تجاهل محاولاتي شرح لمَ لا أظن العطلة فكرةٌ حسنة، وراح يعبسُ فيّ من تحت شعره المبلل، كما لو أنه حتى في سن السادسة يمكنه إدراك حقيقة هرائي. ليس الأمر أنه لم يقضِ شهرًا بعيدًا قط، وليس أني أظنُ أن أسبوعًا سيكون أفضل في حالِ شعر بالحنين إلى الوطن، وليس أن أباه وليزا قد يحتاجان إلى مساحتهما الآن والمولود في طريقه، بل ببساطة أنني لا أريدُ خسارة الشيء الوحيد المتبقي لي: هو. لن يحصل إيان على آدم أيضًا.

دمدمَ بينما لففتُ جسده الصغير المثالي بمنشفة كبيرة:

- أنت تكرهين أبي وليزا، أنتِ تكرهينهما وتريدينني أن أكرههما.

ومضى يضرب الأرض بقدميه إلى غرفة نومه، تاركًا إياي راكعةً على أرضية الحمام بملابسَ رطبةٍ، أتبعهُ بنظري مصدومةً. أهذا ما يظنه حقًا؟ تمنيتُ لو كانت نوبات غضبه أكثر تكرارًا، تمنيتُ لو كان يبكي ويصرخ وينفعل بدلًا عن التجهّم ثم بصْق هذه الحقائق اللاذعة. من *أفواه الأطفال*...

سألته حالما لبس بيجامته وعلقتُ المنشفة في الحمام لتجفّ:

- ألا ترغب *بهاري بوتر*؟

- لا.

- متأكد؟

لم ينظر إليّ، لكنه أحكم قبضته على بادينغتون، أحكمها أكثر مما ينبغي. يا لكل ذلك الحنق والجرح المكبوتين. ما يزال وجهه راعدًا، وكان الأجدر به أن يبرز شفته السفلى ويختتم الأمر.

- أريد الذهاب إلى فرنسا مع أبي. أريدُ تناول الحلزون والسباحة في البحر. لا أريد البقاء هنا والذهاب إلى المدرسة الصيفية بينما تعملين طوال الوقت.

- لستُ أعمل طوال الوقت.

لسعني غضبه وكذا فعلت كلماته، ذلك أن ثمة بعض الحقيقة فيها، إذ لا يمكنني أخذ المدة إجازةً أقضيها معه مثلما يمكن لبعض الأمهات الأخريات أن يفعلن.

- تعملين معظم الوقت.

نفخَ قليلًا والتفَّ على جانبه مُعرضًا عني، وحدّق بادينغتون -الذي ما يزال بين ذراعيه المشدودتين- إليّ من فوق كتفه تحديقة تكاد تكون معتذرة:

- أنت لا تريدينني أن أذهب لأنك حقيرة.

حملقتُ فيه للحظةٍ، وقد صار قلبي ثقيلًا فجأة. هذا صحيح، كله صحيح، سيحظى آدم بوقتٍ رائع في فرنسا، ولن يطول أكثر من أربعة أسابيع، وسيسهّل ذلك حياتي من مناحٍ كثيرة. لكن تظل الفكرةُ مثل سكينٍ في أحشائي. أسهل، بلى، لكن *أوسع خواءً*.

على الرغم من البرود القاسي لإعراضه عني، انحنيتُ فوقه وقبلت رأسه، متجاهلة توتره المنقبض وأنا أفعل ذلك. تنشّقتُ رائحة النظافة البديعةِ المختصة به، وذكّرتُ نفسي بأني سأكون أمه دائمًا، ولا يمكن أن تحلّ ليزا محلي أبدًا.

قلتُ: «سأفكر في الأمر» بهدوء بالغ من مدخل الباب، قبل أن أطفئ الأضواء. سيكون تركه يذهب الفعل الصحيح، أعرف ذلك، لكنني شعرتُ برغبة بالبكاء وأنا أصبّ كأس نبيذ وأتراخى على الكنبة. شهر كامل، يمكن للكثير أن يتغير في غضون ذلك الوقت، فسيرجع آدم أطول بكل تأكيد، وستقلّ تلك اللحظات الرائعة التي يرغب فيها بالعناق وإمساك يدي والسعادة بكونه طفلي. سيصير مراهقًا في لمح البصر، وسلوك اليوم بشيرُ ذلك. ثم يكبر ويرحل ويعيش حياته، وسأكون في الغالب في هذه الشقة البغيضة أكدح خلف لقمة العيش في مدينة لا يمكنني احتمال تكاليفها، مع ما لا يكاد يكون حفنة من أصدقاءٍ بدوام جزئي. أعرفُ أنني أضخمُ كل شيء في رثائي ذاتي، وأنني في الحقيقة ما أزال أحاول معالجة كلمة *حامل* والأثر الذي ستحمله على حياتي. لم أظنّ قط أن إيان سينجب المزيد من الأطفال، فهو لم يكن مهتمًا إلى هذا الحد في المرة الأولى.

أدركتُ أنني كنتُ زوجته *التدريبية*، كنتُ وآدم *عائلته التدريبية*. *وقتما تُنسج قصة حياته، سنكون الخيوط الأولى وحسب. لن نكون اللون.*

إنها فكرة غريبة وحزينة، ولا تروق لي الأفكار الغريبة والحزينة، فشربتُ المزيد من النبيذ، ثم رسمتُ خططًا لملء هذه الأسابيع بالمرَح. يمكنني

السفر في إحدى عطلات نهاية الأسبوع، ويمكنني البدء بالهرولة، وخسارة بعض الوزن الذي استقر في بطني وفخذيّ. يمكنني انتعالُ الكعب العالي، والصيرورة شخصًا جديدًا. هذا كثير لحشره في شهر، لكنني منتوية المحاولة، أو على الأقل منتوية المحاولة بينما تملأ نصف زجاجة من نبيذ سوفينيون بلان جَوفي. أرسلتُ رسالة نصية لإيان قبل أن أتمكن من تغيير رأيي أخبره فيها أنني موافقة على العطلة، يمكن لآدم الذهاب، وندمتُ فورًا تقريبًا، لكنني لا أملكُ خيارًا في الحقيقة. سيحتقرني آدم إن رفضت، ولا يمكنني منعه من أن يكون جزءًا من تلك العائلة أيضًا. لن تفيد محاولتي إبقائه لي وحدي إلا إبعاده. أشعرُ أنني أقوى وأنا مخمورة، وكل الفكرة تبدو حسنةً الآن.

استيقظتُ في وقتٍ لاحق في الظلمة بجوار سرير آدم، وصار نفَسي لهاثًا سريعًا بينما أخذ العالم يصفو من حولي. كان غارقًا في النوم، وإحدى ذراعيه محيطة بالدب بادينغتون الممزّق المتهرّئ خاصته، فراقبته للحظة، تاركة سكونه يسكُنني. كيف أبدو له في هذه المرات وقتما يستيقظ؟ غريبة مجنونة ما تشبه أمه؟ لا بدّ أن الأمر مزعجٌ بالنسبة لصبيّ لم تراوده أحلامٌ خبيثة قط مهما قال عكس ذلك.

ربما عليّ تلقي علاج لائق لكوابيسي، ربما سأفعل ذات يوم. *أعليّ الاستلقاء على الأريكة أيها الطبيب؟ ألا تأتي وتنضمّ إلي؟ أوه لا، بالطبع أنت متزوج. ربما علينا الحديث عن مشاكلِك أنتَ.*

لم أستطع حمل نفسي على الابتسام حتى. آدمُ سيغيب شهرًا، وليزا حامل، وعالمي يسبقني. زحفتُ بين أغطيتي المبللة بالعرق بعض الشيء وأمرتُ نفسي باستجماع قواها، فثمة مواقف أسوأ بكثير يمكن أن أكون فيها. ما حدث مع ديفيد على أقل تقديرٍ يثبت أنه ما يزال ثمة رجال أراهم جذابين، والأهم من ذلك، رجال ما يزالون يرونني جذابة. جوانب مشرقةٌ وما إلى ذلك.

على الرغم من خطابي الحماسيّ في منتصف الليل، والحُبور والحب في وجه آدم وقتما أخبرته أن رحلته إلى فرنسا ماضيةٌ على قدمٍ وساق، ظللتُ بائسةً وأنا أشاهده يركض عبر الزحام عند بوابة المدرسة من دون أن يلقي نظرة خلفه حتى. عادة ما يسعدني هذا، إذ إنني أحبُ كونه طفلًا واثقًا بنفسه، لكن بدا هذا النسيان الفوريّ اليوم رمزيًا، يمثل مستقبلي بأسره. الكل يركضُ

إلى الأمام، وأنا واقفةٌ على الجانب الآخر من البوابة، ألوّح لأناس لم يعودوا ينظرون إلى الخلف، متروكةً وحدي هناك. فكرتُ بذلك لثانية وكان أجوف حدّ اضطراري إلى الضحك على نفسي، فقد ذهبَ آدم إلى المدرسة كما يفعل في أي يوم آخر. ماذا لو كان إيان سعيدًا؟ سعادة إيان لا تعني بالضرورة أن أكون تعيسة، ومع ذلك، فإن كلمة *حامل* تجثم مثل وزنةٍ رصاصيةٍ في قلبي لا يمكنني إزاحتها، وتحكّني عيناي تعبًا، ذلك أنني لم أعُد إلى النوم بعدها.

وأنا محاطةٌ بزعقات الأطفال وضحكاتهم، وثرثرة نساء شمال لندن، تمنيتُ -رغم «أمر ديفيد»- لو أنني كنتُ ذاهبة إلى العمل اليوم. ألقيتُ نظرةً على لائحة الحوائج العاديّة التي ينبغي لي جلبها قبل نهاية المدرسة ولم يفاجئني أن فكرة تنظيف الحمّام لم تبهج مزاجي حقًا. ربما عليّ شراء بعض شورتات السباحة والملابس الصيفية لآدم كي يأخذها معه، واثقةٌ أن إيان قد اعتنى بذلك، لكنني أريدُ بعض المساهمة في هذه العطلة العائلية التي لستُ جزءًا منها.

فكرتُ بشراء بعض ملابس الأطفال هديةً لليزا، لكن ذلك مبالغٌ فيه وسابقٌ لأوانه حقًا، ولا شيء يربطني بمولودهم الجديد، فلمَ عساها ترغبُ بأي شيء من الزوجة السابقة بأي حال؟ أم الطفل الأول؟ العلاقة المنقوصة. ماذا قال لها إيان عني؟ ما مقدار ما حمّلني ذنبه؟

حالما غاب آدم في الداخل، أبقيتُ رأسي خفيضًا بينما غادرتُ منفعلةً، غير راغبةٍ بالانجرار إلى أي محادثة تخص عطلة الصيف مع أي من الأمهات الأخريات، وكنتُ مستقتلةً لأدخن سيجارة وأريدُ تجاوز الناصية قبل أن أشعلها. ربما تفوح رائحة الدخان من ملابسي بأي حال، لكنني في غنًى عن إطلاق الأحكام عند بوابة المدرسة.

شعرتُ بالاصطدام قبل أن أدرك حدوثه. خضةٌ مفاجئةٌ في رأسي، وخبطةُ جسدٍ بجسدي، وصرخة مذعورة، ثم رحتُ أتخبّط إلى الخلف. ظللتُ واقفةً رغم أن المرأة الأخرى لم تفعل. رأيتُ حذاءها أولًا، إذ كانت قدماها متشابكتين على الأرض، منتعلتين كعبًا قصيرًا لا علامات عليه. فصرتُ أتحركُ آليًا، وأمسكتها محاولةً مساعدتها على النهوض.

- إنني آسفة، لم أكُن أنظرُ حيث أمشي.

- لا، إنه خطئي.

تَمْتَمَتْ بصوتٍ كأن غزل بناتٍ أسمرِ انتثر في الهواء.

- لم أكُن أنظر.

- حسنًا، إذن كلتانا حمقاء.

وابتسمتُ، ولم أدرك هويتها، بفَزَعٍ، إلا حينما وقفت بقوامها الممشوق الأهيف. إنها هيَ.

قلت: «هذه أنت»، وخرجت الكلمات قبل أن يسعني منعها. انحدر صباحيَ على نحوٍ استعراضيٍ من سيئ إلى أسوأ، واستعرت النارُ في وجهي، فنظرَتِ إليّ بحيرة.

- آسفة، لا أظنُّ أننا التقينا قبلًا؟

استغللتُ مرور قطيعٍ صغير من عربات الأطفال القادمة من المدرسة لأغطي ارتباكي، وتدبرتُ بعد أن مرّت إبداء ما أملتُ أنها ابتسامة صادقة:

- لا، لم نفعل، لكنني أعملُ لصالح زوجكِ، بدوام جزئي ، وكنتُ قد رأيتُ صورتكِ على طاولةِ مكتبه.

- أتعملينَ مع ديفيد؟

أومأتُ برأسي، وأعجبني قولها مع ديفيد لا لصالح ديفيد.

- لقد تركته هناك للتو، ثم استهويتُ مشوارًا صباحيًا.

- إنه لعالم صغير، كما أظن.

ابتسمَت آنذاك، وكانت بالغة الحُسن حقًا. لم تنصفها اللمحة التي أخذتها عنها مسبقًا –وإن كنتُ أفرّ إلى الحمّام مذعورةً وقتها– وأملتُ أنها جميلةٌ في الصور ليس إلا، لكن لا. شعرتُ أنني كتلة مكتنزة خرقاء من الدهنِ بجوارها، وحشرتُ خصلةَ شعرٍ مجعدةٍ خلف أذني وكأن ذلك سيجعلني جميلةً فجأة.

كنتُ مرتديةً سروال جينزٍ قديمًا وكنزة ذات قلنسوةٍ ثمة بقعة شايٍ على كمها، ولم أمرر فُرشاة مسكَرَةٍ على وجهي حتى قبل مغادرة الشقة، وبدَت هيَ أنيقة من غير عناء بكعكتها السائبة وبلوزتها الخضراء الرقيقة فوق سروال من الكتان الأخضر الباهت. مشهدٌ باستيلي ينبغي أن يبدو مفرط الرقة، لكنه

لم يكُن، إذ إنها تنتمي إلى يختٍ في مكان ما من جنوب فرنسا. هي أصغر مني، ربما لم تبلغ الثلاثين بعد حتى، لكنها تبدو ناضجة، وأنا أبدو قذرة. لا بدّ أنها وديفيد يشكلان زوجًا جميلًا معًا.

قالت: «أنا أديل». حتى اسمها أجنبي.

- لويز. اعذري حالي، فالصباحاتُ مزدحمة على الدوام، وحينما لا أكون في العمل أميلُ إلى تفضيل قضاء نصف ساعة إضافية في السرير.

- كفاكِ سخفًا، تبدين مليحةً.

ترَدَدَت للحظة، وأوشكتُ استباقها ظنًا مني أنها تبحثُ عن طريقةٍ لتوديعي ومتابعة يومها وقتما أردفَت: «انظري، أعساك ترغبين باحتساء القهوة؟ متأكدةٌ أنني رأيتُ مقهًى على تلك الزاوية».

ليست فكرةً جيدة، أعرفُ ذلك، لكنها نظرَت إليّ نظرةً مفعمة بكثيرِ الأمل، وفضولي غلّاب، فهذه زوجة *رجل الحانة*. ديفيد متزوجٌ من هذا المخلوق الجميل لكنه قبّلني رغم ذلك. أمرني عقلي الحصيفُ باختلاق أعذاري والمغادرة، لكن لم أفعل هذا بالتأكيد.

- سيكون فنجان قهوةٍ رائعًا، لكن ليس في ذلك المكان، لأنه سيعجّ خلال عشر دقائق بأمهات الطلاب، وأنا في غنًى عن ذلك، إلّا إن كُنتِ مولعة بجوقات بكاء الأطفال وحليب الأثداء مع قهوتك.

ضحكَت:

- لا، لا أظن ذلك. اختاري أنتِ وأنا موافقة.

انتهى بنا المطاف في فناء مقهى كوستا مع فنجانين من الكابوتشينو وقطعتين من كعكة الجزر التي أصرت أديل على شرائها. كانت برودة الصباح تخبو، فقد قاربت الساعة العاشرة وصارت الشمس دافئة، فنظرتُ خازرةً عينيّ بعض الشيء بينما أشرقَت منخفضةً وساطعةً من فوق كتفها. أشعلتُ سيجارة وقدمتُ لها واحدة، لكنها لا تدخّن. بالطبع لا تدخّن، فلمَ قد تفعل؟ لكن لم يبدُ أنها تمانع تدخيني، وأجرينا محادثة أديبة بعد سؤالي إياها عن سير استقرارها. قالت إن بيتهما الجديد جميل، لكنها تفكر بتجديد بعض الغرف لتضفي البهجة عليها وكانت منتوية انتقاء بعض عينات الطلاء هذا

الصباح. أخبرتني أن قطتهما ماتت، ما لم يكن بداية عظيمة، لكنهما يبدآن الدخول في الروتين الآن نظرًا لعمل ديفيد. قالت إنها ما زالت تتعرف على المدينة، وتعتاد المنطقة الجديدة. كل ما قالته ساحر، يرافقه مقدارٌ ضئيل من الحياء المُسكِّن. إنسانة محبوبة، ولكم أردتها أن تكون فاجرة، لكن لم يكُن لي ما أردت. شعرتُ بفزعٍ مطلقٍ بخصوص ديفيد، وكان ينبغي لي الرغبة بأن أبتعد مئة ميل عنها، لكنها فاتنة، من صنف الأشخاص الذين لا يسعُ المرء التوقف عن النظر إليهم، مثل ديفيد بعض الشيء.

سألتها: «ألديك أصدقاء في لندن؟» ظننتُ ذلك أمرًا مضمون النتيجة، فللكلِ تقريبًا بعض الأصدقاء القدامى المتوارين في العاصمة، بقايا صحبة المدرسة أو الجامعة الذين يُرسلون طلبات الصداقة له على فيسبوك. حتى وإن لم تكُن مسقط رأسهم، هي مكان دائمًا ما ينتهي المطاف بالناس فيه.

«لا». هزّت رأسها ورفعت كتفيها بعض الشيء، قاضمةً للحظة على شفتها السفلى وهي تلقي نظرةً بعيدًا:

- لم أحظَ حقيقةً بالكثير من الأصدقاء قط. كان لي صديق مقربٌ ذات مرة...

ثم خبا صوتها حتى تلاشى، وللحظة، ظننتها نسيَت حتى إنني موجودة، ثم عادت نظرتها لتلاقي عينيّ وواصلت كلامها، تاركةً تلك القصة غير مرويّة، «لكن، تعلمين كيف هي الحياة»، وهزت كتفيها. فكرتُ بقُراضة صداقاتي الخاصة، وفهمت ما تعنيه. فالدوائر تصغر كلما كبرنا.

- لقد قابلتُ زوجات الشركاء وبدَونَ في غاية اللطف، لكنهن أكبر مني بكثير، وتلقيتُ عروضًا جمةً لأساعدهنّ بالأعمال الخيرية.

- إنني لمن أشدّ مؤيدي العمل الخيري، لكن ذلك لا يقترب من سهرةٍ ممتعةٍ في حانة.

تكلمتُ كما لو أن حياتي تفيضُ بالسهرات الممتعةِ بدلًا عن الليالي الصامتة الوحيدة، وحاولتُ ألا أفكر بآخر سهرة ممتعة قضيتها. ذكرتُ نفسي: *لقد قبّلتِ زوجها، لا يمكنك أن تكوني صديقتها.*

قالت: «حمدًا لله أنني التقيتُكِ»، وابتسمَت ثم قضمَت من كعكتها. أكلَتها متلذذةً وشعرتُ بسوءٍ أقل إزاء التهامي كعكتي.

- أتظنين أنك ستحصلين على عمل؟

وكان سؤالي أنانيًا بعض الشيء، فسينتهي أمري إذا ما أرادت العمل مع زوجها. هزت رأسها:

- أتعلمين، باستثناء عملٍ دام بضعةَ أسابيع في محل بيع زهور، والذي فشل فشلًا ذريعًا، لم أعمل في حياتي قط. ما يبدو على الأرجح غبيًا بالنسبة لكِ، وهو *بالفعل* غريب ومحرج بعض الشيء، لكن، حسنًا...

ترددَت لحظة:

- لقد عانيتُ بعض المشكلاتِ عندما كنتُ أصغر سنًا، أمورٌ حدثت وكنتُ محتاجةً إلى تجاوزها، واستغرقني ذلك بعض الوقت، والآن لستُ أعرفُ من أين أبدأ بأي شيء يقرب من كونه وظيفة. لطالما اعتنى ديفيد بي، فلدينا المال، وحتى لو حظيتُ بعمل سأشعرُ إنني أسرقه من شخص ما يحتاج إليه ويمكنه على الأغلب إنجازه بصورة أفضل مني. فكرتُ في أننا قد ننجبُ أطفالًا، لكن ذلك لم يحدث، ليس بعد بأي حال.

غريبٌ سماع اسمه من شفتيها، ولا ينبغي أن يكون، لكنه كذلك. أملتُ أنها ليست موشكة على إخباري بمقدار الجهد الذي يبذلانه ليشكلا عائلة، لأن ذلك قد يفقدني صوابي في هذا الصباح، لكنها غيرت الموضوع وسألتني عن حياتي بدلًا عن ذلك، وعن آدم. ولارتياحي بالحديث عن شيء غير متعلق بديفيد أو بالحمل، سرعان ما رحتُ أسردُ عليها تاريخي الموجز وغير الموجز بطريقتي -بكل صراحة، وبسرعة زائدة- وجعلتُ الأجزاء الأسوأ تبدو مضحكة والأجزاء الأفضل مضحكة أكثر، وأخذت أديل تضحك بينما رحت أدخن أكثر، وأشوّر وأنا أحكي بسرعة قصة زواجي وطلاقي وسيري في نومي وكوابيسي ومتعة كوني أمًا عازبة، وكل هذا عبر وسَطٍ من النوادر الكوميدية.

عند الحادية عشرة والنصف، بعد أن مرّت ساعتان تقريبًا بطريقة ما، قاطعنا صوتُ رنة هاتف نوكيا قديم، فأخرجت أديل الهاتف بعجالة من حقيبتها.

قالت: «أهلًا»، ورسمَت لي بشفاهها كلمة *آسفة*، وأكملت:

- أجل، أنا بخير. إنني في الخارج أنظر إلى بعض عينات الطلاء، وأحببتُ احتساء فنجان قهوةٍ سريع. أجل سأجلب بعضًا أيضًا. بلى، سأكون في المنزل بحلول ذلك الوقت.

لا بدّ أنه ديفيد، فمن غيره عساها تتكلم إليه؟ أبقَت المحادثة قصيرة، مميلةً رأسها إلى الأسفل بينما تتكلم بهدوء في الهاتف كما لو أنها على متن قطارٍ ويمكن للجميع سماعها. لم أدرك إلا بعد انتهائها أنها لم تذكُرني، ما بدا غريبًا بعض الشيء.

قلتُ، محدقةً إلى الطوبة السوداء الصغيرة:

- هذا ليس هاتفًا، هذا قطعة آثار من متحف ما. كم عمره؟

احمرّ وجه أديل آنذاك، ولم تشُبه بُقعٌ، بل إزهار أحمر ورديّ أنيق على بشرتها الزيتونية وحسب.

- إنه يقوم بوظيفته. انظري، علينا تبادل أرقام الهواتف، سيكون جيدًا فعلُ نشاطٍ مشابه ثانيةً.

كانت تتصرف بأدب، بالطبع، لذا تلوتُ رقمي وأدخَلَتْه بأناة. لن نفعل هذا ثانيةً أبدًا، فنحن في غاية الاختلاف. صارت أكثر هدوءًا بعد المكالمة الهاتفية، ورحنا نجمع أغراضنا معًا استعدادًا للرحيل. لم أستطع التوقف عن النظر إليها، إنها أشبه بكائن سماويٍّ هشٍ ما، حركاتها نيّقة ومتقنة، وبدَت حتى بعد سقوطها في الشارع خاليةً من العيوب.

- حسنًا، كان لقاؤكِ مُحببًا. سأحاول المرة القادمة ألا أسقطكِ، وحظًا موفقًا في تجديدكِ الغرف.

كانت لحظة تآلفنا قد مرّت، وعدنا الآن نصفَ مرتبكتين نصف غريبتين.

فقالت، ولامسَت إحدى يديها يدي فجأة:

- كان مُحببًا، حقًا، وصدقًا.

ثم أطلقَت نفخةَ تردُدٍ حادة: «وأعرف أن ما سأقوله سيبدو سخيفًا...».

بدَت خائفة، طائرًا يرفرفُ جريحًا،

- لكنني أفضل ألا تذكري لديفيد ما فعلنا، أعني القهوة. في الحقيقة، سيكون أسهل على الأرجح ألا تذكري اللقاء بأسره. يمكنه أن يكون

غريبًا بعض الشيء بخصوص الخلط بين حياة العمل وحياة المنزل. فهو...

وراحت تبحث عن الكلمة:

- يفصّل *الأمور*، ولستُ أريدُه أن.. حسنًا سيكون أسهل وحسب إن لم يُذكر الأمر.

- بكل تأكيد.

قُلتها رغم اندهاشي. إنها محقة، هذا يبدو سخيفًا فعلًا، ليس سخيفًا في الحقيقة، بل مُستَغرَبًا، لأن ديفيد هادئ وساحر للغاية، فلم عساه يهتم؟ وإن كان يفعل، فأي نوع من الزيجات هذه؟ كنت قد ظننت أنه سيُسر لكسبها صديقةً، لكنني، وبطريقة غريبة، ارتحت. فمن الأفضل لي أيضًا على الأرجح ألا يعرف، إذ قد يظنني مترصدة مهووسة ما إذا ما دخلتُ بثقة إلى العمل في الغد وقلتُ إني احتسيتُ القهوة مع زوجته. أنا كنتُ لأظن ذلك.

ابتسمَت، وأمكنني رؤية الارتياح يطفو عبرها مع استرخاء كتفيها وهبوطهما بوصةً، وعودتهما إلى التراخي مرة ثانية.

ما إن غادرَت وتوجهتُ عائدة إلى الشقة لأواجه تنظيف الحمام، حتى فكرتُ في أن لقاءها كان أمرًا جيدًا. لقد *أعجبتني*، وإنني واثقة من ذلك. هي عذبة من دون أن تبعث على الغثيان، وتبدو طبيعية، ليست متعجرفة كما توقعتُ من صورِها على الإطلاق. لعلّي لن أجد زوجها على هذا القدر من الإثارة بعد أن صرتُ أعرفها، وربما سأتمكن من الكف عن التفكير في تلك القبلة. شعرتُ بالذنب من جديد، فهي امرأة كيّسة، لكن لم يكن بوسعي إخبارها، أليس كذلك؟ زواجهما ليس من شأني، وغالبًا لن أسمع صوتها ثانيةً بأي حال.

10

أديل

كنتُ قد نسيتُ شعور السعادة. لمدة طويلة جدًا، دار كل شيء حول سعادة ديفيد –كيف أضع حدًا لحالاته المزاجية الكئيبة، كيف أمنعه من الشرب، كيف أحمله على حُبي– إلى أن تبلّدت سعادتي في مكان ما في خضم كل ذلك. حتى وجود ديفيد لم يكن يسعدني، وهذا أمرٌ لم أظنه ممكنًا قط.

لكن الآن ثمة ألعاب ناريةٌ داخلي. انفجارات واغتباط ملوّن. الآن عندي لويز. سرّ جديد. إنها ظريفة وألمعيّة، نفحة هواءٍ نقي بعد الرياح الماحلة لصحبة زوجات الأطباء اللانهائيين المحدودة. هي أجملُ مما تظُن، وستحظى بقوامٍ رائعٍ لو خسرت بعض الوزن. ليست ضامرةً وصبيانيّة مثلي، بل ممتلئة وأنثوية، وهي صلبة أيضًا؛ تضحكُ على أحداث في حياتها كان غيرها من الناس ليطلب التعاطف أو الشفقة بسببها. إنها رائعة تمامًا بحق.

ألقيتُ نصف نظرة على لطخات الطلاء التي رسمت رمزًا شريطيًا على جدار غرفة النوم، تدرجات متفاوتة من الأخضر مع أسماء باهظة تلائمها: *إو دو نيل شاحب*، *فير دو تير*، *أخضر تونسغيت*، *دخان زيتوني*، وليس بينها ما يمكن للمرء أن يخمّن لونه من الاسم وحده. أعجبتني كلها، يمكنها إذا ما صُفّت معًا أن تصير أوراقًا من شجرات في غابة، لكنني عجزتُ عن اختيار الفائز، فدماغي منشغلٌ يطنّ بكل الأمور التي يمكنني ولويز فعلها معًا إلى حد منعني من التركيز على الديكور.

لا تعمل لويز إلا ثلاثة أيام في الأسبوع، وهذا يترك وقتًا جمًا للأمور البنّاتية. النادي الرياضي ربما. بالتأكيد، يمكنني مساعدتها في خسارة نتفة اللحم الزائدة تلك وشدّ جسدها. ربما أحملها على الإقلاع عن التدخين. سيكون ذلك جيدًا، ولا يمكنني احتمال أن تفوح من شعري وملابسي رائحة الدخان، ذلك أنها ستغدر بنا، فيعرف ديفيد أنني حظيتُ بصديقة جديدة، ولن يعجبه ذلك.

يمكننا احتساء النبيذ في الحديقة معًا، أو ربما أمام واحدة من تلك الحانات الصغيرة في شارع برودواي، والدردشة والضحك مثلما فعلنا اليوم. أرغب بمعرفة كل شيء عنها، فأنا مأخوذة بها بالفعل، وقد تهتُ في المرح المُتخيَل الذي سنحظى به.

تركتُ عُلب طلائي الضئيلة ومضيتُ أحضّر إبريقًا من الشاي بالنعناع، ثم دفعتُ حبوب ديفيد في بالوعة المجلى وفتحتُ الماء لأحرص أن تُبتَلَع بالكامل.

أخذتُ شايي خارجًا إلى الحديقة وأشعة الشمس. لم يمرّ الكثير على ساعة الغداء، لذا أمامي بعض الوقت قبل اتصال ديفيد التالي وأرغب بالتمتّع بتفرُغي للتلذذ بهذه المشاعر الرائعة والتفكير والتخطيط. أعرف أن لويز لن تُخبر ديفيد بلقائنا، فهي ليست من ذاك الصنف، وتعرفُ أن هذا لن يُسدي أينا نفعًا.

كان من بالغ السهولة لقاؤها، ويعود الفضل في ذلك إلى الخريطة التي جلبها ديفيد من عمله، بعد أن حُددت عليها المواقع واضحةً بمساعدتها ومعرفتها بالجوار. رحتُ أجوبُ المنطقة بنظري بينما كنا نقودُ السيارة فيها بعد ظهر يوم الأحد، نزور كلًا من الأماكن المحددة، ونرى كيف ضاقَت المحال التجارية حتى صارت متاجر رخيصة وأغلقت واجهاتها بالألواح عند منعطفات بضعة شوارع، والأنفاق التي لن يمرُّ بها إلا مجنون أو مدمن، وكتلة المُجمعات العقارية المتداعية التي لا تبعدُ إلا ميلًا أو اثنين عن بيتنا البديع. رأيتُ أيضًا المدرسة الابتدائية والزهور مشرقة الألوان المرسومة على أسوارها، وقرأتُ ملاحظة ديفيد المُخربشَة بحذاء الموقع.

وبعد ذلك، كان الأمر بسيطًا.

غريبتان تصطدمان.

لم تشُكّ بشيء.

11

آنذاك

مرّ على انتظار ديفيد على الهاتفِ ما لا يقل عن عشر دقائق بينما وجدوها، في أعلى شجرة بجوار البحيرة، تضحكُ وَروب. بهُت وجه الممرضة مارجري العجينيّ إزاء اتزانهما الهانئ بين الفروع وهيَ تصرخُ بهما أن ينزلا حالًا. لم تكُن أديل محتاجةً أي تشجيع -فقد كان قلبها يثبُ أمامِ فكرة التكلُم إلى ديفيد- وغمغم روب شيئًا ما بامتعاض بخصوص التأمين والزبائن الذين يسقطون إلى حتوفهم، قبل أن يزيّف سقوطًا عن القشرة السميكة الخشنة دافعًا مارجري إلى الزعيق بطريقة في غاية التناقض مع هدوء أخلاقيات ويستلاندز.

سَخِرا منها مثل تلميذين شقيين، لكن أديل كانت تهتزّ هابطةً بتلهُفٍ بالفعل، غير آبهةٍ لسَحْج بطنها إثر ارتفاع قميصها. ركضت بسرعة عبر العشب إلى المنزل من غير إبطاء في الأروقة، ووجهها متوردٌ وعيناها تتلألآن، فديفيد ينتظر، وتشعرُ كما لو أن دهورًا قد مرّت على مكالمته الأخيرة.

لا يسمح المركز بالهواتف المحمولة، إذ ينبغي لأي اتصال بالعالم الخارجي أن يكون مراقبًا، وعلى الأرجح لا توجد إشارة بأي حال، لكن ديفيد يحسنُ الاتصال بانتظام، إلا أنه كان في المستشفى ثانيةً من أجل ذراعه هذا الأسبوع. عندما مدت يدها إلى المِنصَب الصغير والتقطت السماعة القديمة

الموصولة بالحائط، تدلت الساعة التي لا يمكنه لبسها من معصمها مثل سوارٍ ثخين. كبيرة ورجالية أكثر مما ينبغي بالنسبة لها، لكن لا يهمها، فلبسُ ساعته يشعرها بأنه معها.

قالت: «مرحبًا!» بنفسٍ منقطعٍ وهي تبعد شعرها المنفلت عن وجهها.

سألها: «أين كنتِ؟» كانت جملةً رديئة جعلته يبدو في غاية البُعد.

- كنتُ قد بدأت أقلق أن تكوني هربتِ أو شيئًا من هذا القبيل.

حاول جعل وقع ما قاله مازحًا، لكن ثمة جَزَع يجيش في ثناياه، فضحكَت وسمعَت دهشته اللاهثة الهادئة على الطرف الآخر. لم تضحَك وإياه منذ حدث الأمر.

- كفاك سخفًا، إلى أين سأهربُ هنا؟ كلها أراضٍ براح. وقد رأينا فيلم *مستذئب أمريكي في لندن*، أتذكر؟ لستُ بمتجولة عبر ذاك المرج اللامنتهي وحدي، فمخلوقات شتى قد تعيش هناك. كيف جرى أمر المستشفى؟ أسيجرون عملية ترقيع جلد؟

- هذا ما قالوه، لكنها لا تسبب ألمًا ممضًا بأي حال. كانت حالها أردأ عند الأطراف، وقد سكَّن ذلك كثيرًا، لا تقلقي بشأني، ركزي على التحسُّن والعودة إلى المنزل. فقد اشتقتُ إليكِ. يمكننا أن نحظى ببداية جديدة، بعيدًا عن الأمر كله إذا أردتِ.

فقالت مبتسمة:

- ومتزوجان، دعنا نفعل ذلك في أسرع وقتٍ ممكن.

فكما قال روب، ما يمنعُ أن تكون سعيدة؟ لمَ عليها أن تشعر بهذا السوء حيال كونها سعيدة؟ كان والدها قد قال: *لا يمكنكِ أن تُخطَبي في عمر السابعة عشرة، لستِ تعرفين ما تريدينه في السابعة عشرة، وهو في سنّ أكبرُ مما يجب. أيِ صنف من ذوي الاثنين وعشرين عامًا يرغبُ بإكمال حياته مع مراهقة؟*

وقد أخطأ أبوها، إذ لا يمكنها تذكُر وقتٍ لم ترغب بديفيد فيه، فكل شيء كان حاضرًا هناك في عينيه الزرقاوين منذ أول لحظة نظرت فيها إليهما، أما أمها فلم تقُل الكثير، إنما عقبَت بأن مزرعته على *شفا استرداد الدولة لها*

بفضل أبٍ سكّير تدبّر إفساد كل شيء وأمٍ غائبة، ولن يمتلكَ شروى نُقَير. لقد خرج من «سلالة فاسدة». ثمة طرق كثيرة لقول *إنه غير مناسبٍ لابنتنا المثالية* من دون قولها فعلًا، وربما كل ما قالته أمها كان حقًا، لكن أديل تعرف أن لا صلة له بحقيقة ديفيد، ولم يكن كذلك قط.

أحبته بنتًا بعمر الثامنة تلعبُ في الحقول وتراقبه يعمل، وهي تحبه الآن. سيصير طبيبًا، وليس عليه القلق بخصوص قروضه الدراسية بعد الآن، ذلك أنه سيكون زوجها، وقد ورثَت كل شيء. لم تعُد لموافقة أهلها أهمية، ولن تسمح لنفسها بالشعور بالذنب. لقد رحل والداها، و -كما يقول روب- تمني لو أنها رحلت معهما لن يغير ذلك. لا مجال للتحركِ إلا قدُمًا.

- تبدين بحال جيدة. حالٍ أحسن.

كان متسائلًا، ومحتاطًا بعض الشيء، كما لو أنه لا يثق تمامًا بهذه الانتفاضة الواضحة في المزاج، وهذا ليس مفاجئًا، فبالكاد تكلمَت بأي شكلٍ وقتما اتصل آخر مرة، لكن ذلك منذ عشرة أيام، وقد تغير الكثير منذ ذلك الحين.

- إنني أشعرُ بتحسُن حقًا، وأظنك كنتَ محقًا، سيكون هذا المكان خيرًا لي. أوه وأيضًا...

أردفت، تقريبًا كما لو أنها فكرة متأخرة:

- لقد صادقتُ أحدًا، اسمه روب، وهو في سنّي وظريف للغاية، ودائمًا ما يجعلني أضحكُ على الناس الموجودين هنا. أظننا نساعد بعضنا بعضًا.

راح كلامها يتدفّق، لكن لم يسعها تمالك نفسها، فقد كانت خائفة بعض الشيء، كما لو أن روب، وبعد كل ما حدث، خيانةٌ لديفيد بطريقة ما، وهذا غبي، لأن الحال مختلفٌ بكليّته، فمجردُ كونها تحب ديفيد لا يعني أنها لا يمكنها الإعجاب بروب.

- يجب أن تلتقيه يومًا ما. أظن أنه سيروق لك كثيرًا أيضًا.

12

أديل

ازدادَت طاقتي بعد مكالمته هذه الظهيرة. قال إنه سيرجع إلى المنزل متأخرًا، ويظهر أنه سيلتقي بمنظمتين خيريتين يمكنه عن طريقهما المساعدة في بعض حالات مرضى التعافي المجتمعيّ.

تمتمتُ كل العبارات الصحيحة ردًا على جمله المتقطعة، لكنني في رأسي أفكر بما سيظنه بالضبط أولئك المدمنون المعدمون في مجمعاتهم البرجيّة المملوءة بالقذارة وقتما يظهر ديفيد -بمظهر الطبقة الوسطى المزيف الذي عملَ عليه بجهد جهيدٍ أثناء تدريبه الطبي وصار الآن ناقعًا جلده مثله صبغة ساجيّة[1]- ليتكلموا عن مشاكلهم معه. لا يمكنني إلا تصور الضحكات التي سيفجرونها على حسابه وقتما يغادر. ومع ذلك، إنه جَلدُ توبته الشخصي، وهو يناسب مخططاتي. عندي مخططات الآن، يجعل هذا الإدراك معدتي تئزّ.

للحظة، كدتُ أشعرُ بالأسف لحاله، لكنني حينئذٍ تذكرتُ أن ذلك قد لا يكون صحيحًا حتى، فمن الممكن أنه ذاهبٌ ليسكر، أو ليلتقي أحدًا ما، أو أي شيء. لن تكون تلك المرة الأولى، ببداياتٍ جديدة أو دونها، فقد حظيَ

(1) السَّاجُ: ضربٌ من الشجر من الفصيلة الأرثدية يعظُم جدًّا، ويذهب طولاً وعرضًا، وله ورق كبير وخشبه صَلب جدًّا. (المترجم)

بأسراره من قبل، ولا وقتَ لديّ للتحرّي، ليس اليوم بأي حال. دماغي مُثار للغاية، ومُكرسٌ بكلِهِ لأشياء أخرى.

أخبرتهُ أني اخترتُ بعض الألوان لغرفة النوم وأني أظنها ستعجبه، وتظاهر بالاهتمام، وأخبرتُه أني تناولتُ أقراصي لأعفوه من الحاجة إلى السؤال. أظن أنه لو استطاع القدوم إلى المنزل ومراقبتي أبتلعها لفعل، لكنه بدلًا عن ذلك مضطرٌ إلى قبول كذبتي على أنها الحقيقة. يُريدني مِطواعًا، وقد استمتعتُ بأيامنا القليلة من شبه الرضا، لكنها لا يمكن أن تستمر، ليس إن كنتُ أريدُ إنقاذ حبنا. غير أنني في الوقت الراهن أجاريه في اللعبة. إنني أرتبُ الأمور، ولا ينقصني إلا الشجاعة، فقد فعلتها مسبقًا، ويمكنني فعلها ثانيةً.

حالما انتهَت المكالمة، عدتُ إلى غرفة النوم ورسمتُ خطوط الألوان أثخنَ وأطول على جدارها. كان ضوء الشمس يرقّشها، وبدَت من الجانب الآخر للغرفة أشبه بألوان غابة؛ أوراق شجر، بلا ريب. ربما كان يجدر بي جلبُ بعض تدرجات البني الباهت أيضًا، والأصفر، لكن فات الأوان. ستفي تدرجات الأخضر بالغرض. نظرت إلى الجدار وفكرت بالأوراق والأشجار، وكذا سيفعل هو. أظن ربما أن هذا كل ما يفكر فيه. *تائهٌ في التفاصيل*.

غسلتُ يديّ، منظفةً القطرات الناشفة المزعجة الملتصقة بجلدي، ثم هبطتُ إلى القبو. كان عمّال النقل –بتوجيهات ديفيد– قد جلبوا عدة صناديق إلى هنا مباشرةً. لم يسألني أين أريدُ أن توضَع، لكنه أيضًا يعلمُ أني لم أكُن لأهتم، ليس حقًا، فما مضى قد مضى، لم ننبش القبور على الدوام؟ مرت سنوات لم أنظرْ فيها داخل هذه الصناديق.

الجو باردٌ تحت الأرض، بعيدًا عن النوافذ وأشعة الشمس، وثمة مصباح أصفر وحيد يسطع عليّ بينما أحدّق إلى الصناديق، محاولةً إيجاد الصندوق الصحيح. لا أحد يهتم لمظهر الأقبية، لذا يجسّد سخام الجدران العارية وحصباؤها في بعض النواحي روح المنزل تجسيدًا أصدَق.

رحتُ أخطو بحذرٍ غير راغبة بأن تغبّر ملابسي. لا مشكلة بوجود بقعة طلاء، أما الغبار فقد يثير الريبة، إذ يعرف ديفيد أني لا أحب المنازل المتسخة، ولا أريده أن يسأل عن مصدر الغبار، ذلك أنني لا أريد الكذب عليه أكثر من اللازم، فأنا أحبه.

وجدتُ ما أبحثُ عنه مسندًا إلى الجدار الرطب الأقصى حيث يكافح الضوء الشاحبُ للوصول. كومة من أربع كراتين ذات لونٍ أكثر كآبة من البقية البنية الساطعة التي كنا قد خزناها هنا –كتب زائدة، وملفات قديمة، وأشياء من هذا القبيل– وتبدو جوانبها المتغضنة المرتخية أكبر سنًا بكثير. هذه الصناديق ذاتها قديمة، لم يُفرغ شيء منها قط، وكرتونها أثخن وأصلب. صناديق متينة لإخفاء آثار حيوات فيها. كل ما أُنقذ من جناحٍ محترقٍ في منزل قديم.

أنزلتُ الكرتونة العلوية بحذرٍ إلى الأرض وحدقتُ فيها: شمعدانات فضية كما أظن، وبعض الخزفيات، وصندوق مجوهراتٍ كيّس، فتابعتُ بحثي، واستغرقتُ بعض الوقت حتى وجدتُ ما أبحث عنه. كانت مخبئةً بين متفرّقات الصور والألبومات، والكتب التي تلافَت ألسنة اللهب لكن رائحة الاحتراق ما زالت تفوح منها. ليست رائحة دخان، فللدخان رائحة حلوة، إنما رائحة شيء مُدمّر؛ مسودٌ ولاذع. تجاوزتُ الصور السائبة المرتعشة بين يدي، لكنني لمحتُ وجهي في واحدة منها، كان أكثر امتلاءً، ويشعُ بالشباب، ومبتسمًا. في الخامسة عشرة ربما، وجه غريبة. تجاهلته وركزتُ على بحثي، إنها في مكان ما هنا، لقد خبأتها حيث لن يبحث ديفيد، بين هذه المخلّفات التي يعرفُ أنها لي وحدي.

وجدتها في القاع تمامًا، تحت كل الحُثالة، لكنها غير ممسوسة بأذى: مفكرتي القديمة. أسرار المهنة إذا صح التعبير. كانت هزيلة –فقد مزقتُ بضع الصفحات الأخيرة منذ سنوات، لأن بعض الأمور ينبغي أن تظل سرًا– لكنها متماسكة. حبستُ أنفاسي وأنا أفتحها، ووجدتُ الصفحات المتبقية باردةً ومُعوَجّة قليلًا إثر طول السنين في الظلمة والرطوبة، ما أسبغ عليها هشاشةً. قوامًا ورقيًا خريفيًا. كانت الكتابة على الصفحة الأولى دقيقة؛ أنيقة ومُسطّرة. إرشاداتٌ من حياة أخرى.

*أقرص نفسي وأقول **أنا صاحٍ** مرة كل ساعة.*

عندما نظرتُ إليها، شعرتُ وكأن هذه الكلمات قد كُتبت منذُ دقائق لا أكثر، وأمكنني رؤيتنا نجلس تحت الشجرة، والنسيمُ بديعٌ والبحيرة تترقرق. كانت واضحةً وحاضرة، لا ذكرى منذ عقدٍ مضى، وطعنني ألمٌ غريبٌ حادٌ في معدتي، فأخذتُ نفسًا عميقًا وحبسته.

أعدتُ الصناديق إلى ما وجدتها عليه تمامًا وأخذتُ المفكرة إلى الطابق العلوي، قابضةً عليها كأنها نص قديم واهٍ ما قد يتفتت بين يديّ إذا ما أصابه الضوء، لا دفتر أنشطةٍ رخيصٍ مأخوذٍ من ويستلاندز منذ كل تلك السنين. وخبأتها في الجيب الخارجي ذي السحّاب المغلق لحقيبة النادي الرياضي حيثُ لن تُرى.

إنها ما تحتاج لويز إليه. لا يسعني الانتظار حتى أشاركها إياها. هيَ سرّي، وقريبًا سنحظى بسرّنا.

لم يتأخر كثيرًا في العودة إلى المنزل بالنهاية، إذ دخلَ من الباب في السابعة وخمس دقائق، وكونَ المطبخ مترعًا بروائح الطبخ –فقد أمضيتُ وقتي في انتظاره أحضّر الكاري التايلندي اللذيذ– جررتُه إلى الطابق العلوي ليلقي نظرةً على الألوان في غرفة النوم.

– ما رأيك؟ لا يمكنني الاختيار بين *أخضر أوراق الصيفِ* على اليسار و*غشاوة الغابة* على اليمين.

ولم يكن أيها الاسم الحقيقي، لكنه لن يعرفَ أبدًا. كنتُ قد ارتجلتها ارتجالًا، ولعل ذلك إسرافٌ أو فرط حماسة، لكنني غير واثقة أنه يسمعني حتى بأي حال. راح يحدق إلى الأشرطة الساطعة تحت ضوء الشمس المحتضر، قادرًا على رؤية كل ما رأيته فيها.

– لمَ هذه الألوان؟

وكان صوته فاترًا، رتيبًا، ميتًا، ثم التفَت لينظرَ إليّ، ورأيتُ كل شيء في عينيه الباردتين، كل شيء يجثم بيننا.

هذا جيد، قلتُ في خلدي، بينما أحصّن نفسي أمام ما يُحدق من ثورانٍ أو صمت، أجهز أشواكًا موجعةً أقاتل بها.

والآن يبدأ الأمر.

13

لويز

كان ديفيد في مكتبه من قبل أن أصل إلى العمل حتى، وعندما مضيتُ أعلق معطفي، رفعت سو حاجبيها وهزت رأسها:

- يبدو أن أحدهم متعكّر المزاج هذا الصباح.

للحظة ظننتها تقصدني، إذ لا بدّ أنني أبدو كليلة ونكِدة، فقد أيظقتني كوابيسي، ثم استلقيتُ في السرير أفكر بحمل ليزا -لا يمكنني التفكير فيه على أنه طفل إيان الجديد بعد- والشهر الذي سيغيبه آدم، وبينما حلّت الساعة السابعة صباحًا كنتُ قد شربتُ ثلاثة فناجين قهوة وسيجارتين وبلغتُ أرذل المزاجية. لقد أعاد حملُ ليزا هذا بطريقة ما كل المشاعر المريعة التي مررتُ بها وقتما هجرني إيان، وبدَت سعادته مثل خيانة حديثة، وأدركُ أن هذا غبي، لكنني أشعرُ به رغم ذلك. بيد أن سو لم تقصدني، بل قصدت ديفيد.

واصلَت بينما تصبّ لي الشاي:

- لم يقُل صباح الخير حتى، وكنتُ أظنهُ فاتنًا بكل معنى الكلمة قبل اليوم.

- لكلٍّ منّا أيام رديئة. لعله ليس من محبي الصباحات.

- إذن ليس عليه المجيء مبكرًا إلى هذا الحد. يبدو أنه حل محلك بدور الطائر المبكر.

إنها محقة. هززتُ كتفيّ وابتسمت، لكن قلبي كان يخفق. أأخبرتهُ أديل باحتسائها القهوة معي؟ أهو جالسٌ هناك يُشخّصني بأنني مترصدة مهووسة ما ويتجهز لطردي؟ كدتُ أتلوّى شعورًا بالذنب، وبصرف النظر عما إذا *كانت* قد أخبرَته أم لا، عليّ إخباره، فلدي الكثيرُ المزيدُ من هراء آخر يجري في حياتي إلى حد يمنعني من حفظ سرٍ لزوجته. ليس الأمر وكأني أعرفها حقًا، وهو ربُ عملي، ولم يكُن أمامي خيارٌ واقعًا إلا احتساء القهوة معها. فقد *طلبَت* مني ذلك، ما يفترض بي أن أقول؟ تذكرتُ وجهها، القلِق والمُحرَج، وهي تطلب ألا أذكرَ شيئًا بخصوص لقائنا، وساورتني لحظة شك. كانت ضعيفة، لكن عليّ إخباره، *عليّ* ذلك. سيتفهّم، بالطبع سيفعل.

كنت محتاجة إلى مواجهة الموقف بصلابة وإزاحة الحمل عن كاهلي، لذا بدلًا عن تدقيق الملاحظات التي تركتها ماريا من البارحة، المكتوبة والمطبوعة بأناقة كما هي العادة، مضيتُ وطرقتُ بابه، وقلبي في فمي. فتحتُ الباب من غير انتظار ردٍ ودخلتُ بلا مبالاة. الثقة بالنفس، هذا هو الحل لمواجهة الأمر.

- ثمة أمر أريدُ أن...

صاح مقاطعًا إياي:

- تبًا!

كان يشدّ الغطاء المعدني الثخين عن علبة من القهوة الباهظة -ليست قهوة العيادة العادية، إنما شيء جلبه معه من المنزل- وعندما استدار، صفعَ رشَاش بُني سطح خزانة القهوة.

- يا لجحيم الربِ اللعين! ألم يكن بوسعكِ الطرق؟

لستُ واثقة من رؤيتي أحدًا يحملق بغضبٍ من قبل، لكنني فعلتُ الآن، وشعرتُ أني صُفعتُ بالعنف والغضب في لهجته.

تمتمتُ:

- لقد فعلت. آسفة، سأجلب خرقة.

فانفجر في وجهي بينما جذب بعض المناديل الورقية من علبة على طاولة مكتبه:

- سأفعلها أنا، الخرقة المبللة تزيد الحال سوءًا.

حاولتُ أن أبدو مبتهجة:

- لم تنسكب على السجادة على الأقل، لا جدوى من التحسر على القهوة المسكوبة.

- أكنتِ تريدين شيئًا؟

راح يحدق إليَّ آنذاك، وكان مثل شخص غريب؛ باردًا وبعيدًا، بلا أيٍ من ذينك السحر والدفء الطبيعيين السابقين. ثارَت أعصابي وضاق حلقي. لا يمكن أن أخبره بخصوص القهوة مع أديل الآن، ليس وهو في هذا المزاج. لا يمكنني تذكُر آخر مرةٍ أغضبتُ أحدًا فيها إلى هذا الحد من دون أن أفعل شيئًا البتة. أهو جانبٌ آخر منه؟ راحت دودةٌ من الأفكار تسعى في دماغي. أهذا سبب إبقاء أديل أمر أصدقائها سرًا؟

قُلت، محاولةً الوقوف باستقامة:

- قدمتُ لأرى ما إن كنتَ تريدني أن أجهز القهوة، لكن يبدو لي أنك اعتنيتَ بذلك.

ثم استدرتُ ومشيتُ متصلبةً، وأغلقت الباب خلفي بهدوء. هذا أقربُ ما أمكنني فعله من الاندفاع خارجًا مع الحفاظ على عملي، لكن بحلول وقت جلوسي كنتُ أرتجف غضبًا. لم أفعل شيئًا خاطئًا، كيف يجرؤ أن يكلمني بتلك الطريقة؟ أن يرهبني بذلك الشكل؟

تلاشى أي ذنبٍ شعرتُ به إزاء شربي القهوة مع أديل كالبخار. وما الذي جرى مع ديفيد في الحقيقة بأي حال؟ قبلة غبية؟ هذا كل شيء، ومع كل يوم ينقضي يستحيل أقرب إلى حلمٍ حول شيء لم يحدث قط. خيال. وكنتُ وأديل لنلتقي على الأرجحِ في وقتٍ ما. في حفلة عيد الميلاد أو شيء من هذا القبيل. إذن ما الفرق إن كنتُ قد التقيتها صدفة بالفعل؟

قالت سو:

- لقد أخبرتكِ.

بينما جاءَت إلى مكتبي ووضعت شايِيَ المنسيّ.

- لا تأخذي الأمر على محملٍ شخصي، فأنتِ تعرفين طبيعة الرجال، كلهم أطفالٌ نزقون في صميمهم.

وانحنَت ناحيتي: «ولا سيما المدللين حسني المظهر»، فضحكتُ، رغم أني ما زلتُ مجروحةً من معاملته لي.

حدثتُ نفسي وأنا أشغل الحاسوب وأبدأ النهار: *أخفضي رأسكِ لوين، واستهلّي عملكِ. لن تسمعي صوتَ أديل ثانية بأي حال، وديفيد ربُ عملكِ وحسب.*

وصلت عائلة هوكينز بعد الظهر، وبدا جليًا أن المريض، أنتوني هوكينز ذا الحادي وعشرين عامًا، لا يرغب بأن يكون هنا. كان والداه رزينين من طبقة بين الوسطى والعليا، وبين منتصف خمسينياتهما ونهايتها، وترافقهما غمامة من الروائح: بودرة وجهٍ باهظة وعطرٌ وبارفان. كانا مُهندَمَين، هو مُرتدٍ حلة رسمية، وهيَ تلبسُ لآلئ مع بلوزتها وتنورتها المُصممة خصيصًا، لكن أمكنني رؤية الإرهاق حول عينيها. أخذتهم إلى غرفة الانتظار، التي تشبه صالون الاستقبال في نادٍ خاص، حيث جلسَت هيَ في كرسيٍ مجنح، جاثمة على حافته، وظل زوجها واقفًا ويداه في جيبيه، وشكرني بصوتٍ عالٍ. على الرغم من كياسته المفرطة في الاعتداد، لا تزيدُ رغبته في أن يكون هنا عن رغبة ابنه.

كان أنتوني هوكينز نحيلًا، نحيلًا أكثر مما يجب، يختلجُ وينتفض، وتفيضُ عيناه بغضب دفاعيٍ بدائيٍ ما، وبدا غير متزنِ العقل. كانتا مثل تينك العينين المتهزهزتين اللتين توضعان على بعض ألعاب الأطفال، ترجّ قليلًا في حين لا تبدو مركزة، على الأقل ليس على أي شيء يمكن لسائرنا رؤيته. لم ينظر إليّ البتة، وحتى لو لم أعرفُ أنه مدمنُ هيروين، لم يكُن تخمين ذلك ليتطلب عبقريًا. كان بوسع أنتوني هوكينز أن يكون صبيّ ملصقِ الإدمان. بدا مستعدًا للانفجار، بيد أني تمكنتُ من رؤية أن ذلك خوف بصورة رئيسة، لكنني أبقيتُ مسافة أمان رغم ذلك، إذ لا يمنع الخوفُ العنف، ودائمًا ما أكون أكثر حذرًا مع المرضى الذين تحيلهم المحكمة.

غمغم وقتما خرج ديفيد ليناديه إلى مكتبه:

- لا أريدُ فعل هذا، لستُ أعاني أي مشكلة لعينة.

كانت لهجةُ أنتوني هوكينز لهجة مدارسَ حكومية قُحة.

قال ديفيد:

- يمكن لوالديك الانتظار هنا.

كان لطيفًا لكنه حازم، ولا أمارة على مزاجه الأقذع السابق، لكنه لم ينظر إليّ البتة رغم ذلك.

- لن تكون إلا ساعة، ولن تضرّك.

هز كتفيه قليلًا ومنح أنتوني ابتسامته المُسكّنة الساحرة:

- ولنأمل أن تبقيك خارج السجن.

ركز أنتوني عليه آنذاك، وكانت عيناه المدمنتان المحترزتان المتهزهزتان مرتابتين، لكنه تبعه مثل رجلٍ محكومٍ إلى حبل المشنقة.

عندما أُغلق الباب خلفهما، رأيتُ كتفي السيدة هوكينز تتدليان إثر استسلام مظهر القوة المزيف خاصتها، وشعرتُ بالأسفِ لحالها، فأيًا كان ما فعله أنتوني أو لم يفعله فقد ناء بحمله على والديه، ومنذ وقتٍ ليس ببعيد كان محض صبي مثل آدم. وما يزال في الغالب كذلك في عيني أمه. حضرتُ فنجانَي شاي لكليهما -بالخزف المخصص للعملاء، لا بأكواب الطاقم- وأخبرتهما أن الدكتور مارتن يحظى باحترام كبير. لم أبلغ مبلغ القول إنه سيساعد ابنهما -فلا يمكننا قطع وعود- لكنني أردتُ قولَ شيء ما، وكان بوسعي رؤية الامتنان في عيني المرأة الأخرى، كما لو أنها تضم كلماتي إلى صدرها لتطمئنها.

جعلني غموض الحياة أفكر في آدم، وفي لحظة من الارتياب الأمومي، قلقتُ فجأة أن تكون مشكلة ما حدثت في المدرسة أو في نادي ما بعد المدرسة وكانت خطوط العيادة مشغولة، فرحتُ أنبشُ حقيبتي وأتفقد هاتفي، لكن لم أجد مكالمات لم يُرد عليها -وكل هذا حسنٌ من الناحية الروتينية بالطبع- لكن ثمة رسالة نصية واردة، إنها من أديل. اللعنة، لمَ لم أخبره؟

أترغبين بفعلِ شيء ما إن لم يكُن لديكِ عمل في الغد؟ كنتُ أفكر في الذهاب إلى النادي الرياضي، ما رأيك؟ لديهم حجرة ساونا ومسبح لذا قد

يكون ذلك استجماميًا. يمكنني أن أحصل لك على اشتراكِ يومٍ. سيكون من اللطيف وجود الصحبة! أ. إكس.

حدقتُ إليها. تبًا. ما أفعلُ بحق الجحيم؟ لم أتوقع أن تتواصل معي قط. راحَت أصابعي تحوّم فوق المفاتيح، ربما عليّ تجاهلها، على الأرجح عليّ تجاهلها، لكن هذا سيكون فظًا، وسأشعرُ بالارتباك بالقرب من *كليهما*. تبًا تبًا تبًا. كدتُ أرسل رسالة لصوفي أطلب نصيحتها، ثم لم أفعل، ذلك أنني أعرف ما ستقوله، وإذا ما أخبرتها بشأن صداقتي مع أديل فلن يمكنني *التراجع* عن ذلك، وسترغب بمعرفة ما سيحدث تاليًا. لا أريدُ لحياتي أن تصير تسليةً لها.

أعدتُ قراءة الرسالة. يجدر بي الإجابة، يجدر بي الموافقة. أعني، كان أمر ديفيد برمته زلّة ثملة، مرّت وانتهينا منها. غلطة غبية من كلا الطرفين. ربما يمكن لأديل أن تكون صديقة جديدة. أشعرُ أنها في *حاجة* إليّ. إنها وحيدةٌ حتمًا، وكان هذا يتقشّر عنها في موجاتٍ البارحة. وهي ليست الوحيدة في ذلك، رغم كرهي الاعتراف بهذا، فأنا وحيدة أيضًا، وفزعة جدًا من أن يكون هذا كل ما في الأمر للمستقبل المنظور من حياتي. كل الأسابيع تذوبُ في واحدٍ.

أديل وأنا وحيدتان، ومهما كانت فاتنة وآسرة، يعلمُ الله ما طبيعة زواجهما إن كان يخرجُ ويثمل ويلثم نساء أخريات. لقد *قال* إن ذلك ليس من عادته، لكن كلهم يقولون ذلك، أليس كذلك؟ وما غيرُ ذلك يمكنهم قوله؟ كان لزامًا علينا العمل معًا، الأمر الذي لم يكُن أينا يتوقعه آنذاك. وبلى، كان ديفيد رائعًا في ذلك اليوم، لكنه أبدى فظاعة اليوم. ألعله كان يتصرف بلطفٍ ليحملني على إخفاء كل شيء عن الدكتور سايكس؟ بالتفكير في الأمر، ينبغي لي أن أتخذ جانب أديل في المسألة، فأنا أعرفُ ما شعورُ أن تعيش المرأة مع رجلٍ خائن، أعرفُ كيف كسرني الإعلان، وأكره كوني الآن السبب المُحتمل لألم كذاك.

لعلي لا أعرفها حق المعرفة، لكن أديل عذبة، وهي تروق لي. ومن اللطيف وجود شخص يراسلني لنفعل شيئًا ما بدلًا عن أن يكون العكس. يجدر بي لقاؤها، هذا من التهذيب، وإذا ما انسجمنا، أخبر ديفيد فيما بعد. سأقول إني كنتُ منتوية إخباره بلقائنا، لكنه كان نزقًا إلى درجة منعتني. هذا حل جيد، أشعرُ بتحسُنٍ بالفعل.

ليس لديّ إلا تحفظٌ واحد: لمَ لم تقترح وجبة غداءٍ وكأس نبيذ في مكان ما؟ إن فكرة النادي الرياضي تجعلني أرغب بالاختباء، ذلك أنني لم أمارس أي تمرينٍ منذ عصورٍ فيما عدا الركض خلف آدم، وقد صار في السادسة الآن لذا لم يعُد ثمة الكثير من هذا حتى. من الواضح أن جسد أديل رشيق، ولا يمكنني إلا الاستحياء من نفسي بجوارها. لستُ واثقة حتى من أن لديّ ملابس نادٍ جيدة، لا شيء مما قد يلائم مقاسي بأي حال.

كنتُ موشكة على اختلاق عذرٍ واهٍ ما والانسحاب خوفًا، لكنني آنذاك توقفتُ قليلًا. تذكرتُ ما عزمتُ عليه وأنا ثملة أشفقُ على نفسي في العطلة من خسارة الباوندات في غياب آدم، وعيش حياتي، فرحتُ أكتبُ رسالةً قبل أن أحظى بوقتٍ لمنع نفسي.

بالطبع، لكنني في غاية انعدام اللياقة، لذا لا تسخري مني!

شعرتُ بالرضا التام تجاه نفسي. سحقًا لديفيد، لستُ أفعل شيئًا خاطئًا، وجاءني الردُ مباشرة.

عظيم! أعطني عنوانك وسأقلّك. نحو الظهيرة، ما رأيك؟

جعلت فكرة وجود أديل البهيّة في شقتي معدتي تنقبض بشدةٍ أكثر من فكرة النادي الرياضي تقريبًا.

أجبت: *أيمكنني لقاؤك هناك؟*

كفاكِ سخفًا! سآتي بالسيارة.

وفي غياب أي مهرب، كتبت عنواني بتبرُمٍ، وسجلتُ ملاحظة ذهنية لأرتب المنزل وأشفط زواياه بالمكنسة الكهربائية. هذا غبي بالطبع، فأنا أم وحيدة تعيش في لندن –وينبغي لأديل معرفة أني لا أقطن قصرًا- لكنني أعرف أنني سأشعر بالحرج. ربما لن يكون نفس قدر الحرج الذي سأشعر به في النادي الرياضي، لكن بلى، سيكون كل ذلك اختبارًا لمعرفة ما إذا كانت هذه الصداقة قادرة على الاستمرار، إضافة لأنه سيلعب دور المسمار الأخير في نعش هذا *اللاشيء* بيني وبين ديفيد. قلتُ لنفسي: إنه يوم واحد، وسيمرّ على خير حال. فما الذي قد يُمنى بالفشل؟

تجاوز لقاء آل هوكينز موعده بنصف ساعة، لكن كان أنتوني أهدأ وقتما خرج من المكتب أخيرًا. ما يزال يرتعش، لكن ثمة *استرخاء* قطعيّ فيه. وبينما راح ديفيد يحادث عائلته ويرافقهم إلى الخارج، ظلّ أنتوني يرنو إليه، وسطع إعجاب مرتبك من وجهه رغم محاولته إخفاءه عن والديه. عجبتُ فيما قاله ديفيد له ليحمله على فتح قلبه بهذه السرعة، لكني حينئذٍ ذكّرتُ نفسي- منزعجةً بعض الشيء- بشعوري في تلك الحانة. لقد جعلني أشعرُ بأنني في غاية التميُز. كنتُ مكانه، ويمكنني فهم ذلك. أنتوني وأنا ضعيفان أمام مغريات ظواهر الأشياء.

تظاهرت بكتابة رسالة وقتما جاء إلى المكتب، ورغم أنه بدا أهدأ أيضًا، كما لو أن يومًا من التعامل مع مشكلات الآخرين قد ليّن مصاعبه، أبقيتُ تعابيري باردة. لستُ أعرفُ لمَ تركته يضايقني، وتمنيتُ لو أنه لم يعُد يشعرني بالنرفزة والقشعريرة، إذ أصيرُ في غاية الخرَق عندما يقترب مني.

- لقد حجزتُ لأنتوني هوكينز جلسة أخرى يوم الجمعة، في الوقت نفسه: الرابعة إلا ربعًا، وأدخلته إلى نظام الحاسوب.

أومأت برأسي:

- هل أسجلُ أجرًا لقاء نصف الساعة الإضافية التي حظي بها؟
- لا، هذا خطئي، إذ لم أُرِد إيقافه حالما بدأ الكلام.

ما سيكون رأي الدكتور سايكس بذلك؟ ربما يرغب ديفيد بالقيام ببعض العمل الخيري، لكن هذا بعيدٌ عن الأعمال الخيرية. أغفلتُ الأمر، فقد فعل شيئًا لطيفًا، وأربكني ذلك بعض الشيء. إنه رجل متناقض.

مضى يرجعُ إلى مكتبه، ثم استدار وعاد موسعًا خطاه بعجالة.

- انظري لويز، إنني آسفٌ بحقٍ على فظاظتي الزائدة هذا الصباح، لقد كنتُ في مزاجٍ مُزرٍ ولم يجدُر بي صبُ جام غضبي عليكِ.

بدا صادقًا، فحاولتُ البقاء متحفظة.

- لا، لم يجدُر بك، لكنني لستُ إلا سكرتيرتك لذا لا يهمّ حقًا.

خرجَت الكلماتُ أبرَد مما انتويت، وأجفلَ بعض الشيء، فأخفضت ناظري إلى عملي بينما راح قلبي يضرب صدري، ووخزني عرقٌ مزعجٌ في راحتيّ.

- حسنًا، أردتُ الاعتذار.

غابت الليونة من صوته، ثم مضى مبتعدًا عني. كدتُ أناديه ليرجع، ذلك أنني ندمتُ مباشرةً على شكاستي، وفكرتُ بغباء الأمر في حين ينبغي أن نكون صديقين، ثم تذكرتُ أنني سألتقي أديل في الغد، وحُصرتُ في ذلك السر الذي لم أخبره به بعد. أعلي إخباره الآن؟ حدقتُ في بابه المُغلق؛ لا، كما أظن، سألتزم خطتي، وإذا ما بدا أن صداقتي بأديل ستستحيلُ أمرًا مستتبًا، فأخبره آنذاك.

أحتاج إلى القهوة. *أحتاجُ* إلى شيء أقوى، لكن يجب على القهوة أن تفي بالغرض الآن. كيف أصبحَت حياتي بهذا التعقيد؟

14

أديل

- رباه، إن هذا لشعور جيد. يمكنني البقاء هنا إلى الأبد.

بجواري، أراحَت لويز رأسها على الخشب وأطلقَت زفيرًا راضيًا. كنا جالستين على الدرجة العليا في غرفة البخار، يبتلعنا ضباب مُعطّر، وجلدنا زلقٌ بفعل قطرات الماء والعرق.

- لا يمكنني تدبُر البقاء أكثر من عشر دقائق أو نحو ذلك، لا بدّ أنك تحبين السخونة.

لكنه من الرائع أن يذوب كل التوتّر بينما لا يملكُ جسدي خيارًا إلا الاسترخاء، لقد مرّت ساعتان بديعتان. كانت لويز مرتبكة ارتباكًا عذبًا وقتما وصلتُ إلى شقتها، وعرفتُ أنها لم تردني حقًا أن أدخل -فقد وضعَت حقيبتها جاهزة بجوار الباب- لكنني أصررتُ على جولةٍ بتوجيهها. لم يكُن بوسعها الرفض، فهي ذات سماتٍ كثيرة، لكن الفظاظة ليست بينها، وهذا جيد، لأنني أردتُ رؤية الداخل.

غمغمَت ونصفُ ابتسامة تعلو وجهها:

- هذا أقربُ ما بلغته من العطلة لهذا العام.

كنتُ قد أغمضتُ عينيّ أيضًا، ورحتُ أتفقد في ذهني كتالوج غُرف منزلها. غرفة الجلوس: فيها تلفاز واحد، وكنبة كريمية اللون عليها غطاء بيجيّ يسترُ الطراريح القديمة، وحرقُ سيجارةٍ طفيف على ذراعها اليسرى. وفيها سجادة زرقاء شديدة التحمل، ومزودة بحماية للأطفال. غرفة النوم الرئيسة صغيرة، لكن مساحتها تكفي سريرًا مزدوجًا، وثمة ورق جدران مخصص على الجدار خلف السرير، وخزانة جدارية بيضاء، وخزانة ذات أدراج يعجّ سطحها بمستحضرات التجميل وكتلة متشابكة من المجوهرات الرخيصة تفيض من حقيبة صغيرة (من النوع الذي غالبًا ما يُعطى مجانًا مع كريمات الوجه أو مع أطقم الهدايا). وثوب نومٍ معلق على ظهر الباب، ثوبٌ كان أبيض مُنفّشًا ذات مرة، أما الآن فخشنٌ وكليلٌ من كثيرِ الغسيل وثمة بقع قهوة أو شايٍ على كُمّيه.

تعلمتُ أن أُحسنَ الانتباه إلى التفاصيل، فالتفاصيل مهمة وقتما يريدُ المرء رؤية مكان بحق. إنها شقة مضغوطة. وجدتُ غرفة آدم -ولم أتقصّها بجدية- أصغر وأكثر اكتظاظًا بالألوان، لكنها دافئة بكل تأكيد. مأهولة.

واصلَت لويز، وأوليتها اهتمامًا بعد أن تأكدتُ أن كل شيء مُسجلٌ في ذهني:

- وأيضًا، فإن هذا الجلوس الساكنَ أخيرٌ دائمًا من النادي الرياضي. سوف أتألم في الغد.

فأردفتُ:

- لكنك ستشعرين بتحسُن رغم ذلك.

- أظنني أشعرُ بتحسنٍ بالفعل، أشكركِ على مساعدتي، وعلى عدم الضحك.

شعرتُ بموجة تحنان ناحيتها، فقد أحسنَت صنعًا إلى حد كبير بوجه الإجمال، حاولَت على أي حال. لم أركض بنفس السرعة أو لنفس المسافة التي أركضها عادةً، لكنني لم أرغَب بتثبيط عزيمتها. كانت غاية اليوم إقناع لويز بفكرة النادي الرياضي، لا تمريني الشخصي، وبعد قضائي طيلة البارحة تقريبًا في سريري، تيبّست مفاصلي وكان جيدًا لي أن أحركها، حتى وإن لم تكُن الحركة مُجهدة. قمنا ببعض التمارين الهوائية الخفيفة ثم أخذتها في

جولة حول آلات الأوزان المختلفة، وجرَّبَتْها كلها بجُرأة بعد أن صممتُ لها بضع دورات من شأنها أن تبقي فضول عضلاتها مُثارًا.

قلت، وكأنها أول مرةٍ تمرُ فيها الفكرةُ في بالي:

- أتعلمين، سأحبُ أن أحظى برفيقٍ نادٍ ثابت، لمَ لا تأتين معي في الأيام التي لا تعملين فيها؟

سكتُّ قليلًا، ثم أخفضتُ رأسي وصوتي:

- وفي نهاية الأسبوع إذا ما جئتُ بمفردي، أعني، من دون ديفيد.

نظرت إليّ آنذاك، ورأيتُ مزيجًا من الجزع والفضول، لكنها لم تسأل عن سبب التكتُم، وأعرفُ أنها لن تفعل، فلسنا مقربتين بالحد الكافي لذلك.

قالت بعد برهة:

- سيكون ذلك مستحبًا، فهذا الشهر سيمرُ طويلًا. آدم ذاهبٌ إلى فرنسا مع أبيه، وأعرفُ أنه سيقضي وقتًا رائعًا وإلى آخره، ويبدو كلامي على الأرجح غبيًا، فهو ينهكني معظم الوقت وينبغي أن أكون مستعدة لفعل أي شيء مقابل فرصة أن أحظى بشهر لنفسي، لكنني أشعرُ بالضياع بعض الشيء بالفعل.

ثم خرج كلامها منفعلًا:

- ينتهي الفصلُ الدراسيّ غدًا في ساعة الغداء ثم سيقلّه أبوه في الخامسة والنصف. لقد نُظم كل ذلك بسرعة فائقة، ولم أستوعبه فعلًا بعد.

ثم جلسَت فجأة، وقد فغر الإدراك عينيها:

- أوه اللعنة! كنتُ منتوية طلب يوم عطلة ونسيتُ تمامًا. سأضطر إلى الاتصال والتوسل إليهم.

- هوّني عليك.

لقد نسيَت بالطبع، فقد كان عقلها منشغلًا بأمور أخرى.

- خذي إجازة مرضية، لمَ خسارةُ يومٍ مدفوع؟

اكفهرّ وجهها:

- لستُ موقنة بذلك.

ونظرَت إليّ:

- كان زوجكِ في مزاج بغيض البارحة، ولا أريد إنكاءه.

خفضتُ بصري إلى ركبتيّ، وقلت: «يمكنه أن يكون كذلك»، بصوتٍ يكاد يكون مُحرَجًا، ثم رفعت رأسي ورمقتها بابتسامة ليّنة،

- لكن طلب إجازة مرضية لن يغيّر ذلك، وليس إلّا يومًا واحدًا يعني لك الكثير ولا يعني شيئًا لهم.

- صحيح، ربما سأفعل.

جلسنا صامتتين لفَينة، ثم سألَتني:

- كم مضى على زواجكما؟

سؤال لا ضير فيه، وفي صداقة عاديةٍ كانت لتسأله قبل الآن، لكن ما بيني وبين لويز ليس عاديًا بالطبع.

- عشر سنوات، مذ كنتُ في الثامنة عشرة. أحببته منذ وقعت عيناي عليه. كان الشخص المنشود، عرفتُ ذلك.

- كنتِ صغيرةً للغاية.

- ربما. أتعرفين أنه أنقذ حياتي؟

- أنقذ ماذا؟

على الرغم من الحرارة المُنعّسة، صارت كلها آذان مصغية الآن:

- أتتكلمين حرفيًا أم مجازيًا؟

- حرفيًا. كان ذلك في ليلة وفاة والديّ.

- رباه، إنني آسفة جدًا.

بدَت صغيرة للغاية، وكانت خصلات شعرها المموجة الشقراء مُنحّاة عن وجهها وتقطر فوق كتفيها، وفكرتُ في أنها حينما تخسرُ بعض الباوندات ستكون بُنيتها العظمية شيئًا يستحقُ الموتَ لأجله.

- لا عليك، جرى ذلك منذ أمدٍ بعيد.

- ماذا جرى؟

- في الحقيقة، لستُ أذكرُ أي شيء عن تلك الليلة على الإطلاق. كنتُ في السابعة عشرة، قرابة الثامنة عشرة، وكنتُ نائمة في منزل والديّ في عزبتهما الواقعة في بيرتشاير.

- امتلك والداك عزبة؟ أي عزبة ريفية حقيقية؟

- أجل، كان اسمها بيتُ فيرديل.

أمكنني الشعورُ بأنني أزدادُ سحرًا في عيني لويز: أميرةٌ مليحةٌ معطوبة.

- قلتُ لكِ إنني لستُ محتاجة حقًا إلى الحصول على عملٍ. بأي حال...

وهززتُ كتفيّ كما لو كنتُ مُحرجة:

- لم تكُن غرفة نومي قريبة جدًا من غرفتهما. كنا نفضل أن يحظى كلٌ بمساحته الخاصة، أو على الأقل، هما *فضّلا* ذلك. لقد أحباني، لكنهما لم يكونا مُحبَين على وجه التحديد، إن كان هذا يبدو منطقيًا بأي حدّ. وحالما بلغتُ سنًا مناسبةً، صارت المساحة بيننا أمرًا حسنًا، فقد اقتضَت أنْ صار بوسعي تشغيل الموسيقى بالصخب الذي أريد وتمكنتُ من تهريب ديفيد إلى المنزل ليلًا من غير علمهما، لذا كانت مناسبة.

- ومن ثم؟

كانت تنصتُ مستغرقةً، لكنني عرفتُ أنها تريدُ بلوغ بيت القصيد: ديفيد. ويسعدني ذلك، فلا ذكريات لديّ عن الحريق بأي حال. كل ذلك ثانوي.

- خلاصة الموضوع أن والديّ استضافا بعض الناس، وتظن التحريات أن كليهما كان بالغ الثمالة بعد مغادرة الضيوف، وفي وقتٍ ما من الليل، شب حريق وانتشر أيما انتشار. وبينما اقتحم ديفيد المنزل في نحو الساعة الثانية صباحًا وبلغ غرفتي وجرّني خارجًا، كان قد انتشر عبر نصف البناء، النصف الذي عشنا فيه في الأكثر. كنتُ فاقدة الوعي، ورئتاي متضررتين بفعل الدخان، وأُصيب ديفيد بحروق من الدرجة الثالثة في ذراعه وكتفه. اضطُر إلى إجراء عملية ترقيع جلد. أظن أن هذا كان جزئيًا سبب دخوله الطب النفسي بدلًا من الجراحة، فأعصابه متضررة. وبرغم حروقه، حاول العودة من أجل والديّ، لكن ذلك كان مُحالًا. لولاه لكنتُ ميتة أيضًا.

- واه! هذا مذهل، أعني فظيع بالطبع، لكنه مذهل أيضًا نوعًا ما

وسكتت قليلًا

- ما الذي كان يفعله هناك في منتصف الليل؟

- جفاه النوم وأراد رؤيتي، كان عائدًا إلى الجامعة في غضون بضعة أيام. حالفني الحظ ليس إلا، على ما أظن. بأي حال، أحاول ألا أفكر بكل ذلك كثيرًا.

ما زالت تائهة في القصة، وأظن أن ذلك لاذع بعض الشيء، ويشعرها بأنها الثانية في الأفضلية. لعلها معتادة على الشعور بأنها الثانية في الأفضلية، فهي تتمتع ببريق طبيعي حتى لو لم تكن مدركة له، والناس ميالون دومًا إلى إخماد ذلك. لكنني عازمةٌ بكُلّي على صقله من جديد، قلت:

- سأذهبُ وأبرّد نفسي لدقيقة في المسبح.

فقد جعل كل هذا الحديث عن النار البخارَ لا يحتمل.

- ما رأيك أن نجلب سلطةً من المطعم بعد ذلك؟ إنها رائعة: صحيّة ولذيذة.

- بالطبع. على هذا المنوال ستعيدينني إلى لبس بنطالي الجينز من مقاس عشرة قبل أن أدرك ذلك.

- ولمَ لا؟

- أجل، لمَ لا؟

رمَقتني بابتسامة متّقدة أثناء خروجي إلى الهواء البارد المُسعِد، وشعرتُ بالسعادة. إنها تعجبني، تعجبني حقًا.

رحتُ أركلُ بقوة وسرعة في الماء البارد برودةً شهيّة على جلدي، وبينما تشق جذفتي الماء في مسافاتٍ طويلة هزيلة، أعوض بعض التمرين الذي فاتني. إنني محتاجة إلى الاندفاع الذي يصحب التمرين، أحب الاندفاع.

كنا متجهتين إلى المقهى بوجهينِ نضرين وشعور ناشفة، وقتما ألقيتُ نظرة إلى الساعة على الجدار ورأيتها الثانية تمامًا.

قلت في ذعرٍ مباغت:

- أهذه هي الساعة؟ انتظري.

وجلستُ القرفصاء لأنبش في حقيبتي.

سألت لويز:

- أألنت بخير؟ أنسيتِ شيئًا ما في غرفة التبديل؟

«لا، ليس هذا»، وعبستُ، شاردة الذهن:

- إنه هاتفي، لقد نسيتُ هاتفي. لستُ معتادة على حيازة واحد، كما ترين، لكنها الثانية تمامًا وإن لم أُجِب...

صار دوري لتخرج الكلمات مني منفعلة. رفعتُ رأسي ورسمتُ ابتسامةً بالإكراه، ولم تكُن مقنعة للغاية.

- انظري، لمَ لا نقصد منزلي لتناول الغداء؟ السلطات هنا جيدة، لكن لدي بعض الأشياء الممتازة من متجر الأطعمة اللذيذة في الثلاجة، ويمكننا الجلوس في الحديقة.

همّت تقول: «حسنًا، لستُ...»، ومن الواضح أنها غير تواقة لدخول منزلي -منزل ديفيد- لكنني قاطعتها.

- سأوصلك إلى المنزل عقب ذلك.

وابتسمتُ ثانية، محاولةً أن أكون مغويةً ومُشرقة وجميلة، «سنتسلّى».

قالت بعد برهة، رغم أنها ما تزال تالهةً:

- حسنًا. فلنفعل ذلك إذن، لكن لا يمكنني البقاء طويلًا.

إنها تروق لي. قوية ودافئة وظريفة.

وسهلة الانقياد أيضًا.

15

لويز

حاولتُ إجراء محادثة في السيارة، فأخبرتها أنني لا يمكنني المكوث إلا ساعة أو نحو ذلك، إذ يصلُ آدم إلى المنزل من ألعاب ما بعد المدرسة في الخامسة، لذا عليّ العودة بحلول الرابعة والنصف بالحد الأقصى، لكنها لم تُنصت. غمغمَت الأصوات المناسبة، بيد أنها ظلّت تنظرُ إلى الساعة على التابلوه بينما تقود بسرعة تزيد على ما يناسب طُرُق لندن الضيقة. ما سببُ عجلتها هذه؟ أي مكالمة مهمة ستفوتها؟ لقد صيّر القلق جبهتها أخاديد متراصّة، ولم تسترخِ إلا بعد عبورنا الباب الأمامي، وهذه مفارقة ساخرة، ذلك أن فعل تجاوزِ العتبة جعلني أشعرُ ببعض الاضطراب. لا يجدر بي أن أكون هنا، على الإطلاق.

قالت مبتسمة:

- معنا عشر دقائق زائدة، ادخلي.

كان منزلًا جميلًا، فخمًا تمامًا. تمتدّ أرضياته الخشبية -ألواحُ بلوطٍ سميكة وفاخرة، لا صفائح رخيصة- على طول الردهة، وترتفعُ السلالم بأناقة على أحد الجانبين. منزلٌ يمكن للمرء التنفس فيه، هواؤه منعش، وجدرانه الطوبية قديمة ومتينة. لقد صمد هذا المنزل لأكثر من قرن، وسيصمدُ بسهولةٍ لقرن آخر.

ألقيتُ نظرة داخل إحدى الغرف ووجدتها مكتبًا. فيه طاولة بجوار النافذة، وخزانة ملفّات، وكرسيّ مجنّح، وكُتبٌ تبطّن الرفوف، كلها مجلدات ذات أغلفة سميكة، لا مكان للقراءات الترفيهية هنا. ثم غرفة جلوس جميلة، أنيقة من غير ازدحام، مُضاءة ومُهوّاة. وكل شيء أصليّ. كان قلبي يدقّ بشدّة جعلَت رأسي ينبض، وشعرتُ أني متطفّلة. ما الذي سيظنه ديفيد إذا ما عرفَ أني كنتُ هنا؟ فاحتساء القهوة مع زوجته شيء، أما دخول منزله فشيء آخر. ربما سيظن أن الأمرين على نفس القدر من الجنون. ستظن أديل ذلك أيضًا إذا ما عرفَت بما حدث مع ديفيد. ستكره نفسها لدعوتها إياي إلى منزلها، وستكرهني. أسوأ ما في الأمر هو أنني هنا، حيث أشعرُ أني في مكانٍ أبعد ما يكون عن مكاني، يهمّني أمرُ رجل *الحانة*، لا أريده أن يكرهني. سأضطر إلى إخباره، سأضطر إلى مصارحته بكل شيء.

رباه، يا لي من حمقاء، لم يجدُر بي ترك الأمور تبلغ هذا الحد مع أديل، لكن ما يُفترض بي فعله بخصوص ذلك الآن؟ لا يمكنني الخروج وحسب، علي البقاء للغداء كما اتفقنا. وهي تروق لي، إنها طيبة، ليست متحفظةً أو مغرورة البتة.

- ها هو ذا!

تبعتها إلى المطبخ، الذي يعادل حجمه حجم شقتي بكاملها تقريبًا، وبنفس التكلفة على الأرجح. كان للأسطح الغرانيتية بريق مصقول، ولم أرَ حلقةَ كوبٍ أو بقعةَ قهوة واحدة، وكانت أديل حاملة هاتفها النوكيا الصغير الأسود، الذي بدا غير متوافق أبدًا مع هذا المنزل الفاخر. لمَ تمتلكُ هاتفًا رديئًا كهذا؟ وفيمَ هلعها لبلوغ المنزل؟

سألتها:

- أأنتِ على ما يرام؟ ما الخطب الجلل في تفويت مكالمة؟ أهو أمر مهم؟

- أوه، سيبدو هذا غبيًا.

تقوّست كتفاها قليلًا، وركزت على ملء الإبريق من كوز التصفية لتتفادى النظر إليّ:

- إنه ديفيد، فهو يقلق وقتما لا أجيب اتصاله.

داهمتني الحيرة..

- وما أدراكِ أنه سيتصل؟

- لأنه يتصل في الأوقات نفسها كل يوم. إنه يقلق، وهذا كل ما في الأمر.

تبخر انزعاجي من كوني في منزلهما ودفقة مشاعري بشأن ديفيد في آن معًا وأنا أحدق إليها. هذه الشابة الأنيقة الجميلة تهرع إلى المنزل مذعورة لتجيب مكالمة من زوجها؟

- عليكِ أن تكوني في المنزل وقتما يتصل بك؟ كم مرة يتصل؟

قالت، وعيناها تستعطفانني:

- ليس الأمر كما يبدو، إنها بضع مرات في اليوم فقط، ولدي الهاتف المحمول، لذا لستُ مضطرة إلى أن أكون في المنزل.

أهو هلعٌ ما تشعر به أم خوف؟ إنه كصفعة على الوجه. ما الذي أعرفه عن ديفيد في الحقيقة بأي حال؟ أمسية ثملة واحدة، ومنها بنيتُ له شخصية كاملة، وَهْم. تذكرتُ مزاجه الرديء في الأمس. لم يكن ذاك جزءًا مما تخيلته عليه، لكن لم يكن زواجه كذلك أيضًا.

قلتُ وأنا أعقدُ ذراعيّ:

- جيد، لأن ذلك يبدو مبالغًا في الجنون والتسلّط.

احمرّ وجهها ووضعت بعض ظروف الشاي بالنعناع في إبريق خزفي:

- يحب أن يعرف أنني بخير، هذا كل شيء.

- لمَ؟ أنت امرأة بالغة.

راح الهاتفُ يهدرُ وأجفلَت كلتانا بعض الشيء.

- ربما عليك تجاهله. اتصلي به لاحقًا.

نظرَت إليّ آنذاك، بتحديقة ملؤها الأعصاب المرتعشة، وشعرتُ بالسوء. هذا ليس من شأني. فابتسمت:

- إنني أمزح فقط، سأبقى ساكتة.

هرعَت إلى الرواق والسماعة مرصوصة إلى أذنها بالفعل، وعندما أتمت الغلاية غليانها سكبتُها في الإبريق. لم أكن قادرة على سماع كل الكلام، لكن

عندما أصختُ السمع أمكنني التقاط بعضه. الآن صرتُ أشعرُ أنني متطفلة حقًا، لكن لم أستطع منع نفسي. ساورني فضول كبير. الأمر غريب للغاية. قد يكون ديفيد أكبر منها ببضع سنوات، لكن ذلك ليس كافيًا ليحيله شخصية أبويّة من صنف ما. ثم تناهى صوتها إلى مسمعي.

«لم أنسَ. سآخذها الآن. لقد عدتُ للتوّ من النادي الرياضي، هذا كل شيء. لا، كل شيء على ما يرام. إنني أحضر الشاي. أحبك».

ما الذي يشوبُ صوتها؟ أهيَ خائفة؟ جيدة؟ مُرتبكة؟ من بالغ المشقة الجزم في ذلك. ربما هذه طريقة كلامهما المعتادة. كنتُ أفكر في فتح الباب الخلفي والخروج لتدخين سيجارة سريعة وقتما عادت. لم أسمع ضحكة واحدة أثناء كلامها على الهاتف، لكن بدا بالها أكثر ارتياحًا.

- لقد ملأتُ الإبريق.

- عظيم.

لم تنوِ مواصلة الحديث عن المكالمة، ولم أسأل.

- اجلبي بعض الصحون من تلك الخزانة هناك، وثمة حفنة من الحمص واللحوم الباردة وبعض الفلفل المحشو البديع في الثلاجة.

بينما كنتُ سارحةً في وفرة اللذاذة المُكدّسة في إبريقهم الكهربائي الضخم من طراز سميغ، جلبت بعض الخبز العربي من سلة الخبز ثم فتَحَتْ خلسةً الخزانة أعلاها، فنظرتُ من فوق كتفي ثم توقفت.

- واه، يا لها من خزانة أدوية!

- أوه، إنني أعاني من بعض مشاكل القلق.

أغلَقَتْها بسرعة..

- أظنني عصبية بطبيعتي، ولهذا أهوى النادي الرياضي هذا الهوى. إنه يساعدني على استنزاف عصبيتي كلها.

- كم منها تأخذين في اليوم؟

كان ثمة الكثير من علب الدواء المكدسة، ولم يسعني إلا التفكير في أن هذا الكم من الأدوية لا يسدي أحدًا خيرًا.

- واحدة أو اثنتين لا أكثر، أيًا كان ما يصفه ديفيد. سآخذها لاحقًا. بعد تناول بعض الطعام.

إنني أضايقها، لكن طالما كان وجهي كالكتاب المفتوح. تبدو طبيعية تمامًا بالنسبة لي، أما ما لا يبدو طبيعيًا فالمكالمات الهاتفية والأقراص، وقد وصفها لها زوجها؟ لستُ حتى واثقة من أخلاقيات ذلك. فجأة، لم أعد أرغب بالبقاء هنا البتة. لم يكن أي من هذا فكرة حسنة. تصورتُ أنهما يعيشان حياةً زوجيةً مثالية رائعة، لكن الآن، وحتى بعد رؤية هذا المنزل الجميل، لستُ أحسدهما. لستُ حتى أحسدُ أديل بحسنها وأناقتها، ليس حقًا. بدا المنزلُ قفصًا مطليًا بالذهب. ما عساها تشغل نفسها به طيلة النهار؟ لعل حياتي دورة منهكة من الأعمال الروتينية، لكنني مشغولة على الأقل.

- لنأخذ كل هذا خارجًا ونستمتع بأشعة الشمس.

واستنتجتُ أن الحديث قد انتهى في الوقت الراهن.

كان الطعام لذيذًا، وكنتُ أتضوّر جوعًا بعد النادي، وأفضل ما في الأمر أن أديل لا تأكلُ مثلما تخيلتُها. تصورت أن تكون واحدة من أولئك النسوة اللاتي يقلن «أوه لقد امتلأ بطني» بعد ثلاث لقيمات من السلطة، لكنها تأكل بنهم وحماسةٍ مثلما أفعل. لم نستغرق وقتًا طويلًا حتى أتينا على معظم ما خرجنا به، واضطرت أديل إلى الدخول لجلب المزيد من الخبز.

- لمَ لم تُنجبا؟

أطلقتُ السؤال من غير تفكير، ذلك أنني عجزتُ عن رؤية المانع، فلديهما المال، وليست تعمل، وهما معًا منذ وقت طويل.

ارتشفت أديل شايها قبل أن تجيب:

- أظننا لم نرغب بالأطفال في الوقت نفسه. كان ديفيد يرغب بهم في البداية، ولم أكن جاهزة، والآن انقلبت الأدوار.

- أبدأت ساعتك البيولوجية عملها؟

- ربما، بعض الشيء.

هزّت كتفيها.

- لكننا شديدا التركيز على حياة ديفيد المهنية.

- قد يكون هو كذلك، لكن لا بدّ أنك تشعرين بالملل.

لستُ أدري لمَ أسأل كل هذه الأسئلة، ولستُ أدري لمَ أريد مساعدتها، لكنني أريد ذلك. ثمة شيء مُستضعَفٌ فيها.

- أطبخ وأنظف المنزل بنفسي. أكره فكرة أن يأتي شخص ما ليفعل ذلك. أخال أنني أحب أن أكون زوجة تقليدية. أحب أن أسعده وحسب.

لم أعرف حقًا ما أقوله في ذلك، وشعرتُ بالعرق يخزني تحت فخذيّ. بينما هي في المنزل تطهو وتنظف وتذهب إلى النادي لتحافظ على مثاليتها، يخرج هو ويثمل ويلثم أمهات عزباوات ممتلئات مثقلات القلوب.

- أوه يا إلهي، لقد نسيت!

نهضَت واقفة وانطلقت إلى الداخل برشاقة غزال، وتساءلتُ: ماذا الآن؟ أفاتها شيء آخر من أنظمة ديفيد المغروسة في ذهنها؟ ما الذي يجري في هذا المنزل بحق الجحيم؟ لكنها من ثم خرجَت ثانية، متهللةً، وقابضة على دفتر تمارين قديم.

- أردتُ إعطاءك إياه في النادي، لكن أمر الهاتف غيّبه عن بالي. إنه لمساعدتك بشأن ذعرك الليلي.

كيف تذكرته بحق السماء؟ لقد ذكرته أثناء احتسائنا القهوة، بلى، لكن بصورة عابرة لا أكثر. عائدة إلى ذعرها:

- اعتدتُ أن تراودني كذلك. كوابيس مريعة. حاول ديفيد مساعدتي بطريقته الخاصة، وأعطاني كتابًا من متجر خيري يتكلّم عن قوة الحُلم، لكن انتهى بي الأمر بأن اضطررتُ إلى الخضوع لعلاج كامل.

- عندما توفي والداك؟

دهمتني وخزة إدراك بغيضة.

- لا، قبل ذلك. عندما كنتُ طفلة صغيرة. عانيتُ بعد وفاة والدي من مشكلات أخرى في النوم، لكن هذه قصة مختلفة تمامًا. منذ متى تراودكِ؟ أرأيتِ مختصًا بشأنها؟

شعرتُ بأني لُكمتُ لكمة خفيفة في أحشائي. رباه، ها أنا وأديل: نعاني من الكوابيس نفسها، ولنا نفس الذوق السقيم في الرجال.

قلتُ، مجبرة نفسي على الابتهاج:

- مُذ صغري، وعلى مثال حالك، كما أظن، أخذتني أمي إلى الطبيب، لكن على ما يبدو كان يفترض بي أن أتخلص منها مع التقدم في العمر، وعوضًا عن ذلك، اعتدتُ عليها وحسب. لقد أنهكَتني من ناحية العلاقات الغرامية. كنتُ أتجول بعينين مفتوحتين مثل شخصٍ مخبولٍ من فيلم رعب، وعندما يحاولون إيقاظي أضربهم وأنفجر في نوبات دموع فظيعة.

ابتسمتُ، وإن لم تكُن الذكريات بهذه الفكاهة. رأى إيان الأمر مرهقًا، وما زلتُ أظن أنه قد يكون جزءًا من سبب انفصالنا.

- عدتُ لرؤية طبيب بالفعل، لكنه قال إنها لا يمكن أن تكون كوابيس حقة لأنني تذكرتها، لذا لم يبقَ أمامي إلا تدبر أمري معها. ساعدتني الحبوب المنومة قليلًا، لكنها كانت تمنحني شعورًا مزريًا في اليوم التالي، ولا أحبذ تناولها إن كنتُ قد شربتُ بعض النبيذ.

لم أُردف: *وإنني أشربُ* بعضه *كل* يوم. ليست محتاجة إلى معرفة ذلك، وليس الأمرُ أنني *أثمل* كل ليلة، إذ لا ضير حقيقي في كأس أو اثنتين مهما قيل. لا يرى الفرنسيون مشكلة في ذلك. لا أريدُ التفكير في فرنسا. *حامل*.

قالت أديل:

- كان الطبيب على خطأ، فبعض الناس يتذكر كوابيسه. أناس مثلي ومثلك، أتعرفين كم نادرتين نحن؟

لم أرها على هذا القدر من الحيوية من قبل. كانت مركزةً عليّ. منكبّة، وظهرها مشدود، فهززتُ رأسي. لم أكُن قد فكرتُ في الأمر كثيرًا في الحقيقة. إنه جزء من كياني وحسب.

- أقل من واحدٍ في المئة من البالغين يعاني الكوابيس، ونسبة ضئيلة فقط من هؤلاء تتذكرها. أناس مثلي ومثلك.

ابتسمَت بسعادة محضة..

- كم هو استثنائي أن يجد شخصان في هذه النسبة الطفيفة بعضهما بعضًا!

بدَت مبتهجةً حدّ أنني شعرتُ بموجة أخرى من الذنب. علي أن أرجع إلى المنزل، أن أعود إلى حياتي الخاصة وأخرج من حياتها. لا أريد مساعدتها. لكن ينتابني الفضول، فقد قالت إنها تعاني من مشكلات مع القلق، لا مع النوم. لو أنها مثلي، أظن أن النوم سيكون في رأس قائمة أولوياتها. نظرتُ إلى المفكرة الرقيقة على الطاولة بيننا.

- إذن كيف ستساعدني هذه؟

- عليكِ تعلم السيطرة على أحلامك.

ضحكتُ حينئذٍ، لم أستطع تمالك نفسي. بدا كلامها مثل هراء تأمُّل العصر الجديد، وأنا وُلدتُ ساخرة:

- أسيطر عليها.

- هذا ما فعلتُه. أعرفُ أنه يبدو سخيفًا، لكنه غير حياتي. خذي المفكرة، واقرئيها. ثقي بي، إن بذلتِ الجهد اللازم فلن تري مزيدًا من الكوابيس، بل أحلامًا مشرقةً مذهلة من *اختيارك*. الحلم الواعي.

التقطتُ المفكرة وألقيتُ نظرة على الصفحة الأولى. كانت الكلمات مطبوعةً بإجادة ومُسطّرة.

*أقرصُ نفسي وأقولُ **أنا صاحٍ** مرةً كل ساعة.*

أنظرُ إلى يديّ، أحصي أصابعي.

أنظرُ إلى ساعة الحائط (أو ساعة يدي)، أشيحُ بنظري، وأرجعُ به.

أحافظ على هدوئي وتركيزي.

أفكّر في باب.

- أهذه لكِ؟

رحتُ أتصفحها سريعًا. رأيتُ بعض الصفحات الممتلئة بالكتابة المخربشة. من الواضح أن الإجادة ضاعت بعد تلك الصفحة الأولى، ثم بالقرب من آخرها كانت صفحات كثيرة قد مُزّقت. لم تلقَ عنايةً حقة.

- لا، كانت ملكَ شخص عرفتُه فيما مضى، لكنها جزء مني. كنتُ حاضرةً وقتما تعلّم كيف يفعلها.

16

آنذاك

- أقرص نفسي وأقول إنني صاحٍ؟ كل ساعة؟ أتريدينني أن أجوب هذا المكان وأنا أفعل هذا؟ وكأنما لسنا محاطين بعدد كافٍ من الذين يظنوننا مجنونين.

- إذن لن يشكل فرقًا.

- كما تشائين.

- وما قصة الأصابع؟

صارت الرقعة بجوار النهر تحت الشجرة تخصهما، وطالما يحافظ الطقس على سحره، يقضيان وقت فراغهما هناك، متكاسلين بسعادة في الدفء تحت الأغصان.

- تبدو يداك مختلفتين في الحلم. تعلمتُ كل ما يخص ذلك في كتاب أعطانيه ديفيد عندما كنتُ صغيرة. أخذه والداي مني -قالا إنه كان زبالة، وأظن أن ديفيد قال ذلك أيضًا بطريقة أو بأخرى- لكنه لم يكُن. لقد علمني كل ما سأعلمك إياه.

كانت قانعة تقريبًا، ورغم أن اللحظات المشابهة تمرّ خاطفةً وما تزال مترعة بمشاعرِ أسًى وذنبٍ لم تعالجها بعد، باتت أكثر ترددًا حتمًا. لقد أنقذتها مصادقتها روب من نفسها. إنه يعيدها إلى الحياة.

قال روب:

- إنهم محقون بشأنك. أنت مخبولة.

ضربَته بعنفٍ وضحكَت:

- هذه حقيقة. سترى. ونفس الأمر بالنسبة للوقت. لا يتّسق الوقت في حُلمٍ أبدًا. تسير الساعات بسرعة أكبر.

- إنني صاحٍ.

ابتسم لها..

- أترين؟ إنني أفعلها.

راح يهزهز أصابعه ويحدق إليها.

- لست مضطرًا إلى فعل كل شيء في الآن نفسه.

- إن كنتُ سأظهر بمظهر المجنون، فإنني أعتزم الظهور بمظهر مجنون حقيقيّ.

نظرَت أديلُ إلى يديها: طلاء أزرق جافٌ تحت أظفارها، ووجه ساعة ديفيد يومض تحت أشعة الشمس. كان روب محقًا، والممرضات مسروراتٍ برسوماتها المائية الجديدة -إذا كان بالإمكان إطلاق هذه التسمية عليها- لكن ذلك ليس يعينها في دفن عائلتها. بدلًا من ذلك، وجدَت نفسها تتخيل البئر القديمة المهجورة في الغابة خلف منزل والديها. ترى نفسها واقفةً بجوارها تصبُ ماضيها فيها. ربما ستجدها يومًا ما ممتلئة مجازيًا، وحينذاك يمكنها تغطيتها والمضيّ قدمًا. ربما ستنام. كما اعتادَت أن تفعل. إنها تفتقدُ ذاك الوقتَ وراء عينيها. إنه جزء منها، والذنبُ ليس كافيًا لوقفه تمامًا.

- افعلها وحسب روب، ستشكرني.

- حسنًا حسنًا، لكن من أجلك فقط.

غمزها وابتسمَ واحدهما للآخر، ولوهلة، لم يكُن الدفء نابعًا من أشعة الشمس فقط، بل من داخلها أيضًا.

17

لويز

تلاشى شعوري بالذنب إزاء أخذي إجازة مرضية زائفة كله في موجة الحزن المدّية التي غمرتني وقتما غادر آدم لقضاء الشهر، وأسرع مغادرًا الشقة مُنزلًا الجرح العرضيّ الذي لا يمكن إلا للأطفال إنزاله في معرض حماستهم. حالما أُغلق الباب من خلفه، شعرتُ أن شقتنا الضئيلة صارت كبيرة وخاوية أكثر مما يجب. كأن الجميع انتقلوا منها وتركوني خلفهم. لم أعرف ما أفعل بنفسي. رحت أتجول في الشقة حتى لم يعُد بوسعي تجاهل إغواء قنينة النبيذ، وعندما مددتُ يدي أتناول البرّامة رأيتُ أنني ألقيتُ المفكرة التي أعطتني إياها أديل في الدرج، فحدقتُ إليها برهةً طويلة قبل أن أخرجها.

في أقصى الزاوية العلوية لغلاف الكتاب الداخلي، ثمة اسمٌ مطبوع بعناية: روبرت دومينيك هويل، وقد أثارت هذه الكلمات اهتمامي أكثر من لائحة التعليمات على الصفحة المقابلة: «*أقرص نفسي وأقول* ***أنا صاحٍ*** مرة كل *ساعة*». تجاهلتُ هذه حاليًا –لكنها على الأقل أشياء بوسعي فعلها في المنزل– وحدقتُ إلى اسم الغريب. لطالما أحببتُ الكتب المحتوية أسماء مكتوبة بخط اليد فيها، مثل التي يُعثر عليها في المتاجر الخيرية وكانت ذات مرة هدية تحملُ تحيات مخربشة داخلها. قصة كاملة مخبأة خلف بضع كلمات، وهذه

الحالة ليست مختلفة. من هذا الصبي؟ أما زالت أديل وديفيد صديقَيه؟ أتراه ظنّ هذا الأمر برمته غبيًّا مثلما فعلتُ وقتما حاولت أديل مساعدتي أول مرة؟

قلبتُ الصفحة وتوقعتُ وجودَ تعليمات أكثر، لكن الشخبطات –الكتابات المتراصّة ذات النتوءات، المكتوبة بقلم الحبر، والتي لا تحافظ تمامًا على مكانها بين السطور– أكثر من ذلك. سجل محاولات كما أظن. فتحتُ قنينة النبيذ، وصببتُ كأسًا كبيرةً، واستقررت في مجلسي يحدوني الفضول حيال كبسولة الكتابة الزمنية هذه، هذه القصاصة من ماضي أديل، وبدأت القراءة.

إذا واصلتُ على قرص نفسي هكذا مثل أخرق فستتكدم ذراعيّ حدّ أن الممرضات سيظنن أنني أتعاطى مجددًا (أتمنى ذلك وحق السماء)، لكنني على الأقل أشطبُ الساعات التي تمر في هذا المكان القذر. مر يومان من إحصاء أصابعي والنظر إلى الساعات وقرص نفسي حد إنهاكها ولم ألقَ نتيجة. تقول أديل إنني يجب أن أكون صبورًا. تقولها مبتسمةً على الأقل. ولستُ بارعًا في الصبر، لكنني بارع في إضحاكها. وهي تضحكني أيضًا. الشكرُ اللعين لأديل، فمن دونها كان هذا المكان الذي يحاول فعل خيرٍ لا ينفع ليحملني على إلقاء نفسي في البحيرة من الملل. لقد ذهبتُ إلى مركز إعادة التأهيل اللعين. لستُ أعرف لم كان عليهم إرسالي إلى هنا ومعاقبتي مرتين. فعل في غاية التقليدية من إيلسا القذرة. إنه مجاني لذا افْعَلْها. أنا واثق أنها أقنعت الطبيب بإحالتي كي لا أملأ الشقة عليها، فيصير بوسعها مُجامعة من تشاء متى تشاء.

أديل مختلفة. لستُ أحاول هذا الهراء إلا لأجلها، فالأحلام لا تزعجني حقًا، بل إنها وعلى نحو مُختلّ تروق لي أحيانًا. إذ تُشعرني بأني حيّ أكثر مما تفعله حياتي الحقيقية. يبدو الشعور أحيانًا كالمشي في الماء. الكل أبله، الكل مُتوَقَّع، الكلّ منكبّ على نفسه. وأنا مثلهم، لكن من ناحية أخرى، ما الذي يتوقعه الناس؟ أرأوا في أي مكان نجس أعيش؟ الناس لا محالة خراء ويستحقون أن يُعاملوا على هذا الأساس. باستثناء أديل. أديل جميلةٌ بمعنى الكلمة قلبًا وقالبًا. بالطبع بعد أن كتبتُ هذا، لن يكون بمقدورها رؤية هذا الكتاب أبدًا. لا أريدها أن تسخر مني. قد أكون ظريفًا وذكيًا لكنني أعرف أيضًا أنني هزيل وأرقط وأحمل هذا التقويم الغبيّ على أسناني. لن تفهم.

ستظن أنني أريدُ مُجامعتها (ولستُ أريدُ حقيقةً). أظن أن معظم الناس لا يروقون لي وحسب. معظم الناس غير موجودين حتى بالنسبة لي، ليس بأي معنى حقيقي، لكن أديل تعجبني. أحب وجودي بجوارها. أسعدُ بجوارها ولا يحكّني جلدي كثيرًا رغبة بالانتشاء عندما أكون معها. إننا صديقان، وأظن أننا على الأرجح صديقان مقربان. لا يمكنني تذكر آخر مرة حظيتُ فيها بصديق مقرب. أديل رذرفورد كامبل هي صديقتي المقربة الأولى، وهذا شعور في الحقيقة –وبغرابة– جيدٌ كل الجودة.

وقتما رن جرس الباب، نهضتُ بسرعةٍ كدتُ معها أسقطُ ما تبقى في قنينة النبيذ بجوار قدميّ. نسيتُ المفكرة على الفور وأنا أندفع خارجةً من غرفة النوم. إنه آدم، يجب أن يكون آدم. لقد غير رأيه. لا يريد الذهاب لشهرٍ رغم كل شيء، وطالب إيان –وهو يبكي ويركل– بأن يعيده إلى المنزل. إليّ. أمه. ماما. محور كونه. بصرف النظر عن زعقاته مفرطة الحماسة التي أطلقها وقتما غادر في الخامسة والنصف، وذراعه القابضة على بادينغتون، كنت قد أقنعتُ دماغي الثمل بأني سأجده عائدًا إلى المنزل إلى درجة أنني وقتما فتحتُ الباب لم يسعني إلا التحديق بارتباك.

- أوه، هذا أنت.

- مرحبًا.

ليس آدم. إنه ديفيد. ديفيد واقفٌ عند بابي الأمامي، متكئ على الإطار كما لو كان يسنده. عيناي تريانه، لكن عقلي يكافح لتصديق ذلك. ديفيد هنا.

- لقد طلبتِ إجازةً مرضية، ففكرتُ في الاطمئنان عليكِ.

بدا مُحرجًا، لكن ذلك جعله أوسمَ بطريقة أو بأخرى، وصرتُ فجأة مدركة أشد الإدراكِ كأس النبيذ التي في يدي. ما الذي يفعله هنا بحق الجحيم؟ لمَ عساه يأتي إلى هنا؟ لمَ لم أتبرّج؟ لمَ شعري خبيصة؟ ولمَ –مثل حمقاءٍ– أهتم؟

- كان صداعًا. أشعرُ بتحسنِ الآن.

- أيمكنني الدخول؟

راح قلبي يخفقُ بشدةٍ ووجهي يحمرّ. أبدو مقرفة. وليسَ أنه ينبغي لذلك أن يشكل فرقًا. إنه لا يشكل فرقًا. أشعرُ أيضًا أن كذبتي على رب عملي قد كُشفَت، وتحت كل ذلك يقبع السر الغبي الذي حاصرتُ نفسي فيه. مرحبًا، *أنا وزوجتك صديقتان!*

- بالطبع.

تنحيتُ جانبًا، ولم أدرك إلا حينذاك أنه نفسه ليس صاحيًا تمامًا. ليس مفرطَ الثمالة، لكن ثمة ضبابية في عينيه، وليس ثابتًا على قدميه كما ينبغي له أن يكون. تلكّأ قليلًا في المطبخ فوجهته إلى غرفة الجلوس ريثما جلبتُ كأسًا أخرى وقنينة جديدة من الثلاجة وانضممتُ إليه. كانت المفكرة التي أعطتني إياها أديل البارحة على الطاولة الجانبية بجوار الكنبة، فأزلقتها بسرعةٍ على الأرض عند جلوسي حيث لا يمكنه رؤيتها. شعرتُ ببعض الغثيان. ما الذي يفعله هنا بحق الجحيم بأي حال؟ أسأُطرد من العمل؟ بأيّ حالة مزاجية هو؟

كان جالسًا على حافة الكنبة، في غير محلّه ضمن فوضى حياتي، وتذكرتُ مساحة منزله وأناقته، وانكمشتُ بعض الشيء. ثمة غبار على التلفاز حيث لم أمسحهُ منذ أمدٍ بعيد، وإعصار آدم المستمرّ ما زال واضحًا في دماه المهجورة وحاملة ألعابه المدلّاة في أحد الأركان. ناولته الكأس والقنينة الجديدة بينما ملأت كأسي ببقايا القنينة التي كنتُ قد أنهيتها تقريبًا. سأعاني الخُمار غدًا في العمل، لكن أشكّ أنني سأكون وحيدة في ذلك. وسيكون يوم الجمعة، وعلى الأقل ليس عليّ القلق بشأن إيقاظ آدم من أجل المدرسة. جعلني ذلك أشعر بالخواء، وشربتُ جرعة إضافية.

- كيف عرفتَ أين أسكن؟

شعرتُ بالغرابة إزاء الجلوس بجواره على هذا النحو، وشعرتُ بأن جسدي بأكمله مكهرب، يخونني حتى في محاولتي البقاء رزينة.

- كنتُ قلقًا من أن يكون غيابك بسببي.

لم ينظر إليّ..

- كما تعلمين، لأنني كنتُ بغيضًا للغاية معكِ. قالوا إنك لا تطلبين إجازاتٍ مرضية أبدًا.

هذا الجزء صحيح. إنها وظيفة جيدة، وقريبة من المنزل، وإني لأفضل جرّ نفسي وأنا مصابة بالزكام على المجازفة بخسارتها، إضافة لكونها استراحة رائعة من أمهات المدارس والأولاد. شركةُ بالغين لثلاثة أيامٍ في الأسبوع. شعرتُ بالذنبِ لاحتيالي بخصوص الإجازة المرضية. كان يجب أن أصدُق، لكن أديل جعلتْ الأمر يبدو معقولًا جدًا، ولأقول الحق، ليس الأمر وكأن لا أحد غيري في البلاد يفعلها بين الحين والآخر.

- حصلتُ على عنوانكِ ورقم هاتفك من ملفك، لكنني ظننتُ أنك ستغلقين الخط إذا ما اتصلت.

رمقني بنظرة جانبية؛ دفاعيٌ وحزين وثمل. بهيّ. من صنف الرجال الذي ترغب المرأة بمداواته. من صنف الرجال الذي ترغبُ بأن يداويها. من هو بأي حال؟ لمَ يهتمّ بيوم إجازتي حتى؟ ولمَ عسايَ أغلق الخط في وجه رب عملي؟ فكرتُ بخزانة الأدوية والمكالمات الهاتفية وابتسامة أديل الطيبة. أيحاولُ السيطرة عليّ أيضًا؟ أم أنه دماغي الذي يرى السلوك المريب في كل الرجال بسبب غضبي على إيان لكونه سعيدًا مع غيري وحسب؟ أف، أكره إفراطي في التفكير.

- ربما ينبغي لك الذهاب إلى المنزل.

قطّب جبينه ونظر حوله، كما لو أنه لاحظَ فجأةً غيابَ شيء ما:

- ابنك في سريره؟

- لا، إنه مسافر مع أبيه لمدة شهر. لقد غادرا اليوم.

اجترعتُ جرعة نبيذ أخرى رغم أن رأسي يعوم بعض الشيء، بالرغم من دفقة الأدرينالين التي داهمتني عند وصول ديفيد.

قال: «آها». قد يكون ثملًا بعض الشيء، لكنه ليس غبيًا، وأمكنني رؤية أنه فهمَ إجازتي المرضية أخيرًا. مع ذلك، ليس ثمة الكثير مما يمكنه فعله حيال ذلك الآن، إلا إذا أراد إخبار الدكتور سايكس أنه كان في شقتي يشرب النبيذ، وهذا سيبدو مستغربًا حتمًا.

- لا بدّ أنه شعور عذبٌ أن يحظى المرء بعائلة.

- كنتُ أحظى بعائلة.

وبدا صوتي مريرًا أكثر مما انتويت. ليزا *حامل*.

- أما الآن فأنا أم عزباء في لندن، حيث لا يسهل دائمًا على المرء تشكيل صداقات جديدة في ثلاثينياته.

رفعتُ كأسي..

- أعيش حياة النجومية. بأي حال، بوسعكما الإنجاب، فكلاكما شابٌ بالحد الكافي.

قلتُ ذلك بلكنة هجومية تقريبًا، تذكيرٌ قاسٍ بأنه متزوج، تذكيرٌ لي بقدر ما هو له، لجسدي العاجز عن الانضباط بوجوده على هذه المقربة منه.

ابتلع كأسه بسرعة وصب لنفسه المزيد، وحتى في حالتي الخاصة البعيدة عن الصحو ظننتُ أنه خبيرٌ بذلك أيما خبرة. أشُربه هذا جزء من مشاكلهما؟ كم يتكرر بلوغه هذه الحال؟

- أتساءل عما إذا كان ذلك قدرًا، أقصد لقاءنا في الحانة.

كدتُ أضحكُ بصوتٍ عالٍ، لكنها خرجَت قهقهةً حذرة بدلًا من ذلك:

- أظنه كان محض حظٍ عاثر.

نظر إليّ آنذاك، نظر إليّ بكل معنى الكلمة، في عينيّ تمامًا، ولم يبدُ عليه ملاحظة أن شعري فوضى ووجهي خلوٌ من مساحيق التجميل وأنني في مظهرٍ مزرٍ أساسًا.

- أهكذا ترينَ الأمر؟

أزّت معدتي بعض الشيء. لم أستطع كبح جماح نفسي. إنه *يفعل* شيئًا ما بي. كأن دماغي وُضعَ في صندوقٍ وتولى جسدي زمام السيطرة.

- حسنًا، بأخذ كل شيء في الاعتبار، لم يسِر الأمرُ في دربِ سَعدي، فقد التقيتُ أخيرًا برجل يعجبني بحقٍ وتبين أنه متزوج.

إنه كلامٌ مغازل. نصفُ فتحةٍ شبهُ ثملةٍ للباب. كان بوسعي القول إنها غلطة لن تتكرر. كان يجدر بي ذلك، لكنني لم أفعل.

- لم أشعر بهذا الارتياح بصحبة أحدٍ منذ وقت طويل، لقد ضحكنا بحقٍ، أليس كذلك؟ ينبغي للناس أن يكونوا قادرين على إضحاك بعضهم بعضًا. يجب أن يستمر ذلك دائمًا مهما حدث.

حملني كلامه على التفكير في ما قالته صوفي بخصوص كون المرأة أعز أصدقاء زوجها، وشعرتُ بالحزن والضياع. ما الذي يريده مني؟

انتبه إلى حرَجي:

- هذه الشقة فيّاضة الدفء. تُعطي شعورًا بأنها مأهولة. تعرفين ما أقصد، أن عائلة تعيش هنا.

- أظن أن الكلمة التي تقصدها هي غير مرتبة.

- لا أكف عن التفكير بكِ.

قالها والندمُ بادٍ عليه، لكن وثبَ قلبي رغم ذلك. إنه يفكر بي. تساءلتُ من فوري عن تواتر تفكيره وأوقاته وفحواه، وضميري يهمس طوال الوقت: *أنت تعرفين زوجته، تعجبك زوجته، ولديه تقلبات مزاجية غريبة وزواجه غير مألوف*. لكن معدتي انقبضت رغم ذلك وشعرتُ بتهافتِ الدفء والاشتهاء.

قلتُ، وكلّ أعصابي تخزُني وأشعرُ بالارتباك بجانبه:

- ليسَ بي ما يميزني. زوجتك في غاية الحسن.

- بلى، بلى هي كذلك.

وشربَ مزيدًا من النبيذ وفعلت مثله. إلى أين يتجه هذا؟ أيتجه إلى حيث أظنه يتجه؟ عليّ حمله على المغادرة، أعرفُ هذا، لكن بدلًا عن ذلك جلستُ هناك أزدرد ريقي بشدة، وكل جسدي خَفَقَان أعصاب. «لكنكِ...» نظرَ إليّ آنذاك، ورغبتُ بأن أذوب، «لكنكِ *فاتنة*».

- كم مرّ على ارتباطكما؟

احتجتُ إلى تهدئة الجو. إلى تهدئة نفسي. كان ينبغي لي إخباره بأنني أعرفها، لكنني لم أفعل، فإخباره سيضع نهاية للأمر، أيًا كانت ماهيته، ولا يمكنني فعل ذلك بعد. ولا شيء يحدثُ في الحقيقة.

قال وهو يحدق إلى قدميه:

- وقت طويل. أبديّة في الحقيقة.

فكرتُ في طريقة سردها لقصتهما، وإنقاذه إياها من الحريق، لم لستُ أرَ حبه ذاك لها هنا؟ لكن من جانب آخر، لمَ عساه يظهره لي؟

سألت: «أهي طبيبة أيضًا؟» كذبات وحقائق واختبارات.

- لا. لا ليست طبيبة. لست واثقًا من ماهيتها. لكنها لا تعمل.

ما زال لا ينظر إليّ، بل دوّر نبيذه في كأسه قبل أن يجرع بلعة طويلة.

- ولم تُضحكني منذ أمدٍ بعيد.

نظر إلي حينذاك، ووجهه قريبٌ من وجهي حدّ أنني ظننتُ قلبي سينفجر في صدري.

- فيمَ البقاء إذن؟

كلماتي هذه خيانة جسيمة لأديل، لكنني أردتُ الضغط عليه، لأرى إن كان سيثور أم ستملؤه الندامة ويغادر أو شيئًا من هذا القبيل. فالعزيمة التي عقدتها -أيًا كانت- تتداعى، وإن ظل هنا وقتًا أطول فسأجعل من نفسي أضحوكة مرة ثانيةً. قلت:

- إن كنتَ تعيسًا فربما يجدر بكما الانفصال. ليسَ الأمر بهذه الصعوبة حالما تفعله.

صدح بضحكة قصيرة كما لو كان هذا أكثر ما سمعه جنونًا طيلة اليوم، في يوم مترع بالإنصات للأفكار المجنونة، ثم سكت لبعض الوقت وراح يحدق إلى كأسه. من هو هذا الرجل الذي يخبئه تحت ستار الجاذبية والحصافة؟ ما سببُ هذه الكآبة الثملة؟

قال أخيرًا:

- لا أريدُ الحديث عن زواجي. لا أريد التفكير في زواجي.

لمسَ شعري آنذاك، ولفّت خصلة سائبة نفسها حول إصبعه، وشعرتُ كما لو أن شخصًا ما أضرمَ النار فيّ. النبيذ، ومغادرة آدم، والوحشة، والشعور المريع بالنصر لوجوده في منزلي، كلها فتيلٌ يقدح شهوتي. أريده. لا يمكنني منع نفسي. وهو يريدني أيضًا. انحنى إلى الأمام، ثم راحت شفتاه تطفوان فوق شفتيّ، بخفة فراشةٍ في مداعبتها الفتّانة، ولم يعُد بوسعي التنفس.

- أحتاج إلى...

وأومأتُ بحرَجٍ ناحية الرواق، ثم نهضتُ ومضيتُ إلى الحمّام.

استخدمتُ المرحاض ورششتُ الماء على وجهي. لا يمكنني فعل هذا. لا يمكنني. وحتى في أثناء تفكيري بذلك، اغتسلتُ بسرعة وحمدتُ الله أنني حلقتُ شعر جسدي قبل رحلتي إلى النادي مع أديل. إنني ثملة. لستُ متزنة الفكر. سأكره نفسي في الصباح. كنتُ أفكر في كل هذه الأمور، لكن ثمة موجة ضوضاء بيضاء وشهوة ثملة تغرقها. آدم رحلَ شهرًا. ليزا حامل. لمَ لا يمكنني أن أحظى بهذا الأمر الوحيد؟ رأيتُ وجهي محتقنًا في المرآة.

قلت لنفسي: الليلة فقط. لن تتكرر ثانيةً أبدًا. ربما ذهب إلى المنزل بالفعل. أدركَ خطيئة المجيء إلى هنا وعاد إلى منزله المثالي وزوجته المثالية. قلتُ في قرارتي: سيكون *ذلك* حسنًا، وإن كان جسدي يفضح زيف هذه الفكرة. لا يمكنني *فعلها*. لا يجدر بي *فعلها*.

وقتما فتحتُ الباب، وجدته واقفًا أمامي ينتظرني، وقبل أن يسعني قول أي شيء، شدّني إليه وقبلني وتسارعت الكهرباء من أصابع قدمي حتى فروة رأسي. أظنني تمتمتُ أننا يجب أن نتوقف، لكنني كنتُ في الآن نفسه أجذبُ ملابسه، ورحنا نتخبط في ثمالتنا باتجاه غرفة النوم. أحتاجُ إلى فعلها مرة. ثم أخرج الأمر من تفكيري. ينبغي ذلك.

لاحقًا، بعد أن استعدنا أنفاسنا ولم نعرف تمامًا كيف نكون مع بعضنا، ذهب ليأخذ حمامًا سريعًا بينما لبستُ ثوب نومي الرث ومضيتُ أرتب فوضى الكؤوس والقناني في غرفة الجلوس. لست أعرف ما شعوري. لستُ أعرف كيف ينبغي لشعوري أن يكون. رأسي يؤلمني، وقد اجتمع الجنس والنبيذ على إثمالي أكثر مما يجب. *كان يغسلني عنه*.

حاولتُ ألا أفكر بأديل وهي تنتظره في المنزل وقد وضعَت طبخةً منزلية ما في الفرن. ما زال جلدي خدرًا بملمسه رغم شعوري بجَوَفِ قلبي. مر وقت طويلٌ إلى حد شعرت معه وكأن جسدي قد استفاق للتو. لم يكُن الأمر عظيمًا -فكلانا تمنعه ثمالته الزائدة من ذلك- لكنه حميمي ودافئ، وكان يراقبني ونحن نمارس الحب، ينظرُ إليّ بحقّ، وكان رجل *الحانة*، لا رب عملي زوج

أديل، ولم أسمح لعينيّ أو يديّ أن تتلكأ على الندوب التي أصابته جراء إنقاذه زوجته من حريق.

عندما جاء إلى المطبخ، كان مرتديًا ثيابه وعاجزًا عن النظر في عينيّ تمامًا، وشعرتُ أني رخيصة. أستحق ذلك. لقد استحم من دون أن يبلل شعره، ثم غار الواقي في مرحاضي، وغُسلَت كل الأدلة على الخيانة.

- يجب أن أذهب.

فأومأتُ برأسي وحاولتُ الابتسام، لكنها خرجت أقرب إلى كشرة.

- سأراكَ في الغد.

توقعته أن يفتح الباب ويندفع خارجًا، وللحظة، بدا أنه سيفعل، ثم استدار عائدًا وقبّلني.

- إنني آسف. أعرف أن هذا سيئ.

فكرتُ بابتسامة أديل العذبة وأردتُ إخباره أنني مذنبة بقدره بخيانتها، لكنني عجزت.

- انسَ الأمر. لقد حدث ما حدث، ولا يمكن إلغاؤه.

- لا أريد إلغاءه، لكن الأمور...

تردد قليلًا، «صعبة. لا يمكنني التفسير».

أردتُ القول: ليست بتلك الصعوبة، فالناس يخونون طوال الوقت، والأسباب دائمًا أنانية ورذيلة، أما الأمر المعقد فهو الأعذار التي نتذرع بها. لكنني بقيتُ صامتة. رأسي ينبض ومشاعري في فوضًى عارمة.

- عليكَ الذهاب.

ودفعته ناحية الباب. لم أُرِده أن يقول شيئًا آخرَ يزيد مشاعري سوءًا.

- ولا تقلق، لن أحمل معي شيئًا مما حدث إلى العمل.

بدا مرتاحًا:

- جيد. فهي بعض الأوقات... لستُ أدري كيف...

لم يكُن كلامه مفهومًا، لكنني تركته يكمل.

- لا أحب أن... يجب على الأمور أن تبقى خارج المكتب.

هو يفصّل *الأمور*. هذا ما قالته أديل، ويا ليتها تعلمُ إلى أي حد.

كررتُ: «اذهب»، وهذه المرة ذهب.

رحت أفكرُ بعد أن انغلقَ الباب تاركًا إياي وحدي فجأة وأشعرُ بوحشة مريعة: حسنًا، *قُضي الأمر إذن*. بلغتُ انحطاطًا جديدًا. حتى صوفي لم تكُن لتفعل هذا. رغم كل مخاوفي حيال معاملته أديل مارستُ الحب معه عند أول فرصة حظيتُ بها.

صببتُ كأس ماء وجلبتُ بعض الأيبوبروفين ورجعتُ أجرّ قدميّ إلى سريري. لا أريد التفكير في الأمر. لا أريد التفكير فيهما. لا أريدُ التفكير فيّ. أريد النوم وحسب.

استيقظتُ في المطبخ والصنبور مفتوحٌ وذراعي تلوحان حول وجهي، تدحران أحلامي. كنتُ ألهث، ورأسي مترع بالحرارة، وكان الصبح قد طلع بالفعل، ووقفتُ أرمشُ وأزفر بسرعة، ظانة للحظة أن سيل أشعة الشمس المبكرة ألسنةُ لهبٍ حولي، ثم اتضح العالم من حولي ببطء، لكن ظل الحلم جليًا. الحلم نفسه كالعادة. آدم ضائع، والظلام ينهضُ حيًا ليحاصرني. غير أن هذه المرة اختلفَت بعض الشيء، إذ كلما اقتربتُ من صوتِ آدم وفتحتُ بابًا في المبنى المهجور، وجدتُ إما أديل أو ديفيد في غرفة تحترق، وكلاهما يصيح فيّ شيئًا لم أقدر على سماعه.

كانت الساعة السادسة صباحًا، وأشعرُ بحالة مزرية، ومعدتي تخضّ من آثار السُكر والذنب والجمر من الحلم، ومُنهكة. فات الأوان على العودة إلى النوم، ولثانية قصيرةٍ فكرتُ بطلب إجازة مرَضية ليوم ثانٍ، لكنني أبيتُ أن أصير ذلك الشخص. لا بدّ أن سو قد لاحظت بالفعل أنني لستُ أصلُ مبكرًا كل يوم كعادتي، وإجازة مرضية أخرى ستقلقها. وأيضًا، أريدُ إعادة الأمور إلى طبيعتها، والتظاهر بأن ليلة البارحة لم تحدث قط. إنني شخصٌ قذر، لكن حتى وأنا أفكر في ذلك، أشعر ببعض الدغدغة عند تذكري الجنس. لم أبلغ الذروة -إذ لا أبلغها في المرة الأولى أبدًا- لكنه أيقظ جسدي، وسيستغرق بعض الوقت قبل أن يستكين ثانية إلى حياتي الخالية من الجنس.

حضّرتُ القهوة وذهبتُ إلى غرفة الجلوس ورأيتُ المفكرة راقدة على الأرض. جعلتني أشعر بالذنب من جديد. أديل تحاول مساعدتي، وأنا أقمت علاقة جسدية مع زوجها. كيف تركتُ هذا يحدث؟

عليّ وضع ما حدث مع ديفيد في صندوق في رأسي، منفصل عن أديل، لأنني بخلاف ذلك قد أفعل شيئًا غبيًا مثل إخبارها لأشعر بحال أفضل. ولن أشعر بحال أفضل، بل ستشعر هي بحال أسوأ. فكرتُ بصوفي وعلاقاتها، وكيف لا يخبرُ أحدٌ الزوجةَ أبدًا، وكيف أن حيوات الجميع في الغالب فوضى من الأسرار والكذبات وقتما تُختصر. لا يمكننا رؤية حقيقة شخصٍ ما المخفية تحت جلده أبدًا. قرصتُ نفسي تضامنًا مع أديل بطريقة ما.

قلت: «أنا صاحية»، وشعرتُ بالغباء لدى سماعي الكلمات بصوتٍ عالٍ في شقة خالية. الأمر برمته غبيّ، لكنني واظبت. نظرتُ إلى يديّ وأحصيتُ أصابعي. لم أجد الرغبة في النهوض والنظر إلى الساعة في المطبخ، فارتأيتُ أنني قد أفعل هذا الجزء في العمل. لكن هذا ليس كفّارةً حقيقية، ليس لما فعلتُه. لا يكادُ كوني تلميذةً نجيبةً يعوّض عن هذه الخيانة. رباه، رأسي يؤلمني. ديفيد وأديل، لستُ أعرفُ حقًا ما مكانتهما بالنسبة لي. أصار عشيقًا الآن؟ صديقة جديدة؟ ولا واحدة منهما؟ إنني مسحورة بهما –زوجًا وفرادى– لكن ربما هذا كل ما في الأمر حقيقةً، فيما عدا معمعةٍ تنتظر الحدوث. لا يمكنني المحافظة على كليهما. لا يمكنني ذلك. يجب أن أختار.

بدأ هاتفي –الذي ما زال في غرفة النوم– يرن، وأخذ قلبي يخفق.

قال آدم بالفرنسية: «بونجوغ *ماما*»، ثم طفق يقهقه.

– مرحبًا ماما! أنا في فرنسا ولم أتناول الحلزون بعد لكن بابا قال إني يجب أن أكلمك قبل ذهابك إلى العمل...

في تلك اللحظة، وأنا أستمع إلى ثرثرته الصباحية المتحمسة اللاهثة التي جعلت عينيّ تدمعان قليلًا، كان بإمكاني تقبيل إيان. هو يعرف، في أعماقه، كم كلّفني ترك طفلي يذهب معهما، ولا سيما الآن، ولا سيما *والحملُ* بيننا. يعرف كم يهمني أن أسمع صوته من دون أن أضطر إلى أن أكون المتصل. يعرفُ أنني لا أريدُ أن أشعر أنني متطلبة، وإن كان آدم ابني وسيبقى ابني دائمًا. يعرفُ أنني شمّاء وقادرة على قطع يدي لأرمي خصمي بها وقتما

أتعرض لأذى. هو يعرفني. قد أكره طريقة معاملته لي، وقد أكره أنه سعيد، لكنه يعرفني. وهذا عزاء غريب بعد الليلة الماضية مع ديفيد.

ضحكتُ مع فتاي لبضع دقائق ثم انطلق إلى مكان ما، وأخبرني إيان أن كل شيء على ما يرام والطقس بديع ولم تحدث أي تأخيرات. كانت المحادثة المهذبة المعتادة، لكنها جعلتني أشعر بتحسُّن تجاه الأمور. هذه حياتي الحقيقية، وإن كنتُ الآن أشعرُ بالتقلقلُ عند حواشيها. هذه هي الحياة التي عليّ التصالح معها.

وقتما تنفجرُ هذه الفوضى المريعة التي أصنعها -إذا انفجرَت- فعلى الأقل سيظلّ عندي آدم وإيان بطريقتنا الخاصة. إن ابننا يربطنا معًا.

بحلول وقت إغلاقنا الخط، صرتُ أشعرُ بتحسُّن، وأزال الحمّام أسوأ آثار ثمالتي. خفضتُ نظري إلى يديّ تحت مرشّة المياه وأحصيتُ أصابعي. قرصتُ نفسي وقلتُ أنا صاحية. حاولتُ ألا أفكر في الجنس مع ديفيد حتى أثناء غسلي إياه عنّي. لبستُ بنطالًا ووضعتُ القدر الأدنى من مساحيق التجميل اليوم. أيًا كان ما حدث ليلة البارحة لا يمكن أن يتكرر. لا يمكنه ذلك حقًا. عليّ فعل الشيء الصحيح. واختيار ديفيد ليس الصحيح.

18

أديل

اشتريتها مستخدمةً البطاقة الائتمانية أثناء تسوقي في السوبرماركت. عادةً ما أحافظ على كل إيصالات التسوق احتياطًا في حال سأل عنها، لكنه لم يفعل ذلك منذ سنتين، وحتى إن عاد لفعلها الآن، سأدّعي أني فقدتُ ذاك الإيصال. لن أقدر على شراء كل ما سأحتاجه بهذه الطريقة، لكن للبطاقة الائتمانية منافعها في الوقت الراهن. ولم يعُد بوسعي التخفيف أكثر من مصروفات تدبير المنزل الزهيدة لأنني استخدمتُ ما يكفي منها لدفع اشتراك شهرٍ للويز في النادي الرياضي وسأضطر إلى ضبط مصاريفي طبقًا لذلك، كما تقول عبارة ديفيد المفضلة.

ومع هذا، فكل ما يعنيه ذلك هو أنني سأضطر إلى القيام ببعض التضحية على حساب ذائقتي في الطعام. دجاجة معلوفة ذُرة من السوبرماركت ليوم الأحد بدلًا عن واحدةٍ من القصّاب الطبيعي. لن يلاحظ ديفيد الفرق بأي حال، رغم أنه ما يزال فتى مزرعة في صميمه، تحت كل الطبقات التي يختبئ خلفها. يمكنه التمييز بين بيضة طازجة من مزرعة وأخرى من السوبرماركت قادمة من المنطقة الحرة، لكن هذا كل ما في الأمر. أنا الطرف الذي يستمتعُ بالانحطاط في الطعام، وهو يسمح لي بذلك.

نظرتُ إلى السيجارة الإلكترونية والبطارية الاحتياطية والخراطيش الإضافية. هي في الغالب ليسَت في حالة شعورية تسمح لها بمحاولة الإقلاع الفوريّ الآن، لكنها ستجرب هذه. أعرف أنها ستفعل، فهيَ شخص يحب إسعاد الناس. شعرتُ بدفقة أخرى من المرارة، شخص ضئيل بدين يحب إسعاد الناس، ونازعتُ توقي إلى رمي الجهاز الثمين ناحية الحائط.

جعلني التفكير فيها أبكي مرة ثانية عندما جلستُ في المطبخ، وأشعة الشمس تتدفق عبر الباب الخلفي والمخاط يسيل من أنفي. لم أنظر في المرآة اليوم حتى. لا أريد رؤية الوجه الجميل الذي خذلني. استقرّت قهوتي على الطاولة، باردةٌ ولم تُذق، ورحتُ أحدق ببصرٍ أغبش إلى الهاتف المحمول بين يديّ، ثم أخذتُ نفسًا عميقًا وتمالكتُ نفسي قبل أن أكتبَ بسرعةٍ الرسالة النصية التي حضرتها في ذهني.

آملُ أنكِ بخيرٍ وتتعايشين مع غياب آدم. جلبتُ لكِ هديةً تروّحين بها عن نفسك! ما رأيك بالذهاب إلى النادي يوم الاثنين؟ ثم نتناول الغداء؟ فلنجهز جسدينا للبيكيني حتى وإن كنا لا نحظى بعطلات! أ. إكس.

لم أذكر شجاري مع ديفيد ليلة البارحة، أو خروجه غاضبًا، أو تظاهري بالنوم وقتما تسلل أخيرًا ومضى إلى الغرفة الاحتياطية. لم أخبرها أنه دخل غرفتي في منتصف الليل ووقف فوقي يحدّق إليّ بصمتٍ، وأني كنتُ قادرةً وأنا راقدة هناك راصّة جفوني على الشعور بكل كراهيته وغضبه يشعان من جسده الموتور المنقبض، وأني بالكاد قدرتُ على التنفس حتى غادر. لم أخبرها أنني لم أنهض حتى لأودعه قبل أن يذهب إلى العمل، وأنني بدلًا عن ذلك تسطحتُ أبكي في وسادتي وأحاول ألا أتقيأ، وأنني ما زلتُ أحاول ألا أتقيأ.

لم أخبرها بأيّ من هذه الأمور لأنني، ورغم غضبي، لا أريدها أن تشعر بسوء أكثر مما تشعر به بالفعل. لا أريد خسارة صديقتي الجديدة حتى وإن كانت قد خانتني وصدري ممتلئ حنقًا وحسدًا تجاهها. عليّ إزهاق ذلك، فهو لن يسديني أي خير ولن يجعل ديفيد يحبني.

لقد باغتني الأمر فقط. لم أتوقع أن تتطور علاقتهما بهذه السرعة. كنتُ قد فرضتُ الشجار الليلة الماضية، لكنه لم يكُن صعبًا، فلدينا الكثير مما يجيشُ

تحت ظاهرنا: جدران غرفة النوم ذات اللون الأخضر الغابيّ، والقطة، والأمر الذي حدث قبل انتقالنا، ودائمًا، دائمًا، السر في ماضينا الذي يحكم وثاقنا أكثر مما ينبغي. ظننتُ أنه قد يخرج ويثمل في مكان ما، لكنني لم أتوقعه أن يذهب من حانة إلى عتبة باب لويز. ليس بعد. ليس الليلة الماضية.

انسكبَت الدموع فيضًا. بداخلي منها بئرٌ لا قرارة لها، وحاولتُ التنفس العميق للسيطرة عليها. كنتُ أعرفُ أن هذا سيكون صعبًا. إنني في حاجة إلى قمع الأمر. على الأقل حاولت لويز الرفض. إنها طيبة القلب. إنها شخص طيب. لقد ذكرتني وحاولت إرساله إلى المنزل، وكانت هي نفسها ثملة. من السهل فقدان السيطرة وقتما يكون المرء ثملًا، كلنا مذنبٌ بذلك. أكرهُ أنها أقامت علاقة معه، وأكره الألم الذي يسببه ذلك لي، لكن لا يمكنني لومها عليه حتى. لقد التقتهُ قبل أن تلتقيني، وكان فتيل شهوتها قد أُشعل بالفعل. هي على الأقل لم تحاول التمادي في ذلك في العمل رغم أن تلك الليلة الأولى في الحانة لا بد وأن أشعرتها بالتميُز في حياتها المحدودة الحزينة. يعجبني ذلك فيها. بالطبع هي متيّمة به. كيف عساني أغضبُ منها لرؤيتها إياه فاتنًا، في حين أحبّه كل هذا الحب؟

جرى الأمر أسرع مما توقعت. إنها تروق له أكثر مما ظننتُ، وقد ضيّق ذلك صدري.

يجب أن أتحلى بالقوة. لقد لينتني السنين. لويزُ تسعدُ ديفيد وهذا كل ما يهم على الرغم من رغبتي بالذهاب إلى العيادة وجرها من شعرها إلى الشارع والصراخ عليها لكونها بهذا الضعف، إقامة علاقة بهذه السهولة مع زوجي الخائن. ذكرتُ نفسي أنني في حاجةٍ إلى أن تسعده وأنني في حاجة إلى استعادة رباطة جأشي وخطّ خطة.

ارتشفتُ قهوتي الباردة وأجبرتُ نفسي على الخروج إلى الشمس. كان الهواء العليل لطيفًا على وجهي المحترق. ما زال الوقتُ مبكرًا وبرودة الفجرِ متلبثةٌ في أشعة الشمس. أملتُ أنني لم أكُن مخطئةً تمامًا. أملتُ أن إيماني بلويز ليس في غير محلّه. أملتُ أنها كلّ ما أظنها عليه. وإن لم تكُن كذلك، فقد يصير كل هذا في غاية التعقيد. لم أترك نفسي حبيسة هذه الأفكار، فعليّ التفكير بإيجابية.

أولًا وقبل كل شيء عليّ النوم. عليّ النوم كما يجب. إنني متعبة، شعوريًا وجسديًا، لكن كلما أغمضتُ عينيّ لا أرى إلا هما. حزنه المثير للشفقة وهو جالسٌ على أريكتها المتداعية. لقائهما الثِمل. دموع الإشفاق على الذات في الحمام بعد أن أرسل الواقي في المرحاض. الطريقة التي فركَ جلده بها مستخدمًا جل الاستحمام السفريّ الذي يحمله في جيب سترته، ذاك الذي يطابق الصنف الذي يستخدمه في المنزل تحسبًا في حال شممتُ بعض رائحتها العالقة من الطرف الآخر من الرواق. شعورها بالذنب والاشتهاء. شعرتُ بالغثيان من جديد.

الجزء الثاني

19

لويز

سألته:

- لمَ صرتَ طبيبًا نفسيًا؟

لم يسعني تصديق أنني مستلقية بين ذراعيه فعلًا. هذه أول مرةٍ يبقى ويحادثني بدلًا عن الإسراع لغسل ذنبه في الحمام ثم المغادرة. تحدثنا الليلة بحق، عن طلاقي، وكوابيسي، والمواعيد الغرامية السخيفة التي حاولت صوفي زجي بها عبر السنين. ضحكنا، وكان صوتًا يحسنُ سماعه منه.

- أحقًا تريدين أن تعرفي؟

- نعم.

أومأتُ برأسي فوق دفء صدره. بالطبع أريد أن أعرف. أريد أن أعرف كل شيء عنه. على الرغم من تعهُدي بألا يحدث هذا مجددًا، هذه ثالث مرةٍ يحضر إلى شقتي خلال عشرة أيام. كانت إحداها في عطلة نهاية الأسبوع، وعلى الرغم من أنني في كل مرةٍ أطلب منه الذهاب إلى المنزل وأخبره أننا لا يمكننا مواصلة هذا، فإنني أدخله من الباب وإلى سريري، ويبدو أنني عاجزة عن منع نفسي، كما لو أن عزيمتي تذوب وقتما أراه. والأسوأ من ذلك أنني أتوق في الحقيقة لمرآه. نشرب، ونتضاجع، وينظر إليّ بحزن يفطر قلبي. هذا غبي، ومخبول، لكنه يسرِّع نبض قلبي. يجعلني أَخِفق. يسمح لي بإطلاق العنان

لنفسي لبعض الوقت. أحاول ادِّعاء أنه رجل *الحانة* كي لا أشعر بسوء مزيد، لكنني أعرفُ أنني أخادع نفسي. ثمة شيء ما يجذبني إلى كليهما.

كان يجدر بي إخبار ديفيد عن معرفتي بأديل، لكن اللحظة المناسبة لقول شيء ما قد انقضَت منذ وقت بعيد، وإن أخبرته الآن فسأبدو مخبولة. لكن لا يمكنني حمل نفسي على إنهاء صداقتي بأديل أيضًا، فهي ضعيفة جدًّا، وتريني جانبًا آخر من ديفيد يفتنني بقدر ما تفتنني هي نفسها تقريبًا. في كل يومٍ أقرر أن على أحدهما الرحيل، وفي كل يوم أتحاشى اتخاذ القرار.

إنني بالفعل واقعة في حب أديل بعض الشيء بطريقة غريبة، إذ إنها في غاية الحُسن، ومأسوية، وأخَّاذة، ولطيفة في تعاملها معي. ومن ناحية أخرى ثمة ديفيد: لغزٌ بهيم. هو رفيق ومُتَّقدٌ في السرير، لكنه لا يتكلم أبدًا عن زواجه، والذي أعرف أنه سامٌّ على صعيد ما. أعرفُ أنني يجب أن أتخلى عن أحدهما، لكنني عاجزةٌ عن حمل نفسي على ذلك. أشعرُ كما لو أنني مَجدولة حول كليهما وكلاهما مجدول حولي. كلما غرقتُ في حب ديفيد أكثر، ازداد افتتاني بأديل. إنها لحلقة أثيمة.

كنتُ قد بدأت محاولة تفصيل الأمور، مثلما يفعل، ففصلت بينهما: أديل صديقتي وديفيد عشيقي، لا زوجها المسيطر. ليس حلًّا مثاليًّا، لكنه في الوقت الراهن يُجدي تقريبًا. ثمة أيام أديل، وليالي ديفيد. ربما أراه أكثر مما تراه هي، ولا يروق لي الشعور الذي يمنحه ذلك، يكاد يكون شعورًا بالانتصار.

قال ديفيد:

- عندما كنتُ مراهقًا في المزرعة، كانت ثمة تلك الفتاة الصغيرة التي اعتادَت تتبُّعي. كانت وحيدة، وكان والداها ثريين -امتلكا أرضًا كبيرة- ودلَّلاها، لكنهما أهملاها أيضًا، إن كنتِ تفهمين قصدي. كانا أناسًا مشغولين، وفي بعض الأحيان كانا مشغولين إلى حدٍّ يمنعهما من قضاء أي وقتٍ فعليٍّ معها. بأي حال، اعتادت الثرثرة بينما أعمل، مخبرةً إياي بكوابيسها التي تحرمهم جميعًا النوم. بعد إدراكي أنها كانت حقيقةً في غاية القلقِ حيالها، عثرتُ على كتابٍ عن النوم والأحلام في متجر خيري وأعطيتها إياه.

تخشَّبتُ بعض الشيء لدى تذكري ذكر أديل للكتاب، وكان واضحًا أنها البنتُ الصغيرة التي يتكلم عنها. شعرتُ بذنبٍ لحظيٍّ بالإضافة إلى الفضول. لم لا يقول إن زوجته اعتادَت رؤية أحلامٍ سيئة؟ ليس الأمر وكأني لا أعرفُ أنه متزوج. لمَ لا يشيرُ إليها *أبدًا*؟

- هل أسدى نفعًا؟

- لا أظن ذلك. كان من مؤلفات العصر الجديد إلى حد مبالغ فيه إذا أسعفتني الذاكرة، ومليئًا بالأشياء المجنونة، كان أيضًا قديمًا إلى حد يجعل فهمه كما يجب صعبًا عليها. أظن أن والديها أخذاه منها في النهاية، وأرسلاها لتخضع إلى علاجٍ ما بدلًا عن ذلك. كانت في الثامنة أو التاسعة فقط آنذاك. كان والدي مزارعًا. في الحقيقة، كان أبرع في الثمالة من الفلاحة، وكنتُ متى ما واجهته حادثة مع الآليات صلَّحتُ له الأمور. لطالما عرفتُ أنني أريدُ أن أصير طبيبًا من نوع ما، وإن بدت أوهامًا حينها، لكنَّ مَنْحَ تلك الفتاة كتاب الأحلام ذاك كان المرة الأولى التي أردتُ فيها مداواة باطن رأسِ شخصٍ ما. الأجزاء التي لا يمكن للمبضع بلوغها.

ضمَّني أكثر إليه حينذاك، وعلى الرغم من أنه لم يخبرني بالكثير عن نفسه حقًّا، شعرتُ أنه بذل جهدًا لمشاركتي هذا.

تابع كلامه:

- وهو عملٌ شائق: دخول رؤوس الناس ورؤية الدوافع وراء سلوكياتهم (أخفض نظره إليَّ) لم تعبسين؟

قلت:

- لست أعبس.

- بلى. إما هذا أو أن جبهتكِ قد أسنَّت على نحو مباغت للغاية.

غضَّن جبهته على نحو هزلي، ما لطَّف اللحظة التي لا ينبغي لها أن تُشعِر بثقل، لكنها بطريقة ما تفعل.

قلت:

- لا أعرف. أظنُّ أنه ينبغي لرؤوس الناس عمومًا أن تُترك وشأنها وحسب. لا أحب فكرة أن يعبث شخص ما بعقلي.

هذا ما أظنه فعلًا، لكنني أعبس بسبب أديل أيضًا، وسرده القصة من زاوية واحدة: فتاة صغيرة كان يعرفها. ليست كذبة، لكنها ليست الحقيقة الحقة أيضًا.

ابتسم لي، ولم يسعني إلا الاستمتاع بمتانة صدره الواسع تحت رأسي بينما صعدتُ بنظري. ابنُ مزارع. ربما يتحاشى ذكرها رأفة بمشاعري، لكن ليس الأمر وكأنني فتاة ساذجة لا تفهم الموقف. سألني:

- أواثقة من أنك تعملين في المكان المناسب؟ إن العبث بالرؤوس مهنتنا.

- لهذا أبقى خلف طاولتي ولا أصعدُ على الأريكة.

- أراهن أنني قادرٌ على إقناعك بالصعود على أريكتي.

- لا تعتدّ بنفسك، لا يلائمك هذا.

ونكزته في أضلاعه وضحك كلانا.

ثم قال بعد برهة:

- لكن بجدية، إن كنتِ تريدين المساعدة بخصوص كوابيسك يمكنني وعدكِ بأنني لن أعطيكِ كتابًا خرافيًّا محتالًا ثم أتركِكِ تكملين وحدك. إنني متدربٌ بصورة أفضل الآن.

قلت:

- هذا مدعاة راحة.

محاولةً أن أبدو خليَّة البال، لكنني أفكر بالمفكرة التي أعطتني أديل إياها، وفيما سيظنه ديفيد إن علم بذلك. كدتُ أتمنى لو أنه نهض وغادر.

تمتمتُ:

- ربما يجدر بك البحث عن تلك الفتاة الصغيرة، ومعرفة إن كانت ما تزال محتاجة إلى مساعدتك.

لم يقل شيئًا بعد ذلك.

20

آنذاك

كان المطر يخبط بشدَّة على النافذة ويشعِرُ أديل بالنعاس وهي مستلقيةٌ في سريرها مع روب بعد جلسته العلاجية. ينبغي أن تكون في غرفة الفنون، لكنها سئمت الرسم. ذهبت إلى جلسة اليوغا لتُطمْئن الممرضات -إذ يظهر أن ذلك يجب أن يساعد في إراحتها، وقد فعل، بسبب بلادته في الدرجة الأولى- لكنها في الحقيقة ترغبُ في أن تكون في الهواء الطلق مع روب، ربما خارجًا في الأراضي البور من باب التغيير عن البحيرة. وعلى الرغم من أنهما لا يفترضُ بهما الخروج دون "قائد مجموعة"، يمكنهما على الأرجح التسلل بعيدًا ولن يلاحظ أحد. وهنا يكمن جمال حياة الهيبيين، كما يقول روب، فهم ممتلئون ثقة، لا يوصدون البوابة حتى في النهار.

قال روب بجوارها:

- أنا صاحٍ (وهو يقرص نفسه)، لكن بشقِّ الأنفُس. هذا كلُّه كئيب للغاية.

قهقهَت وتنهَّدَت. كانت قد أمِلَت أن تنقي العاصفة الهواء تمامًا، لكن بدلًا عن ذلك خبَت الضراوة إلى هذا الانهمار الرمادي المستمر، وهو محق، "كئيبٌ" هي الكلمة الصحيحة.

سألها:

- متى سيفلح هذا؟ لقد سئمتُ للغاية من إحصاء أصابعي. أظنُ أنني سأرى أحد عشر واحدًا يومًا ما.

قالت:

- جيِّد، إذا فعلت فستعرفُ أنك تحلُم، ومن ثم يمكنك تصور الباب وفتحه ليأخذك إلى أي مكانٍ تتخيله. بأيِّ حال، لم يمرّ إلا بضعة أيام. صبرًا أيها الجيداي[1] الشاب.

- إن كان كل هذا محض مخادعةٍ فسيكون انتقامي حلوًا وشنيعًا.

قالت:

- إلى أين ستأخذ أحلامك وقتما تتمكن من خلق الباب؟

من المريح الاستلقاء هنا بجواره، فالحالُ لا يشبه الحالَ مع ديفيد، لا توجد حرارة شغفٍ كتلك، ولا قصف في قلبها، بل شيء مختلف. شيء هادئ ومطمئن.

- أستذهب إلى المنزل؟

ضحك آنذاك، ولم تكُن ضحكته الدافئة المُعدية، بل الوَقوَقة القصيرة المخصصة للتهكُّم. باتت تعرفُ هذه الأمور الآن.

- لا والجحيم. على الرغم من أنني قد أحلم ببعض الطعام المحترم. هذا المكان محتاج إلى تعلم إضافة بعض النكهة إلى وجبات غدائه حقًّا. همم.

كان يحاول حرف المحادثة عن مسارها، وانتبَهت إلى ذلك. لطالما ظنَّت أنه لا يتكلم عن عائلته من أجلها، لأنها لم تعُد لديها عائلة. وفجأةً، شعرَت بأنها صديقة سيئة، فقد دار الكثير حولها، حول خسارتها، وكيفية انتشالها نفسها، والمضي قدمًا، إلى درجةٍ أدركَت معها أنه لم يفتح قلبه فيما يخص عالمه الخاص قط. سلَّاها بحكايا عن تعاطيه، لكن هذا كل ما في الأمر، لا شيء حقيقي، لا شيء عاطفي.

- أهو بهذا السوء؟

كانا مستلقيَين على ظهريهما يحدقان إلى السقف، لكنها حينئذٍ استدارت على جانبها ورفعَت نفسها على مرفقها.

---

(1) الجيداي: منظمة رهبانية وروحانية وأكاديمية واستحقاقراطية قديمة خيالية تظهر في سلسلة أفلام ومسلسلات حرب النجوم.

- ألهذا تعاطيتَ الهيروين؟

ابتسَم:

- لا. لقد تعاطيتُ لأنه يمنح شعورًا جيدًا. أما بالنسبة إلى عائلتي، حسنًا، أنا أعيش أساسًا مع أختي، أيلسا، هي في الثلاثين (رأى ردَّ فعلها إزاء فارق السن)، أجل، كنتُ فكرةً متأخرة، وهذه في الحقيقة طريقة مهذبة لقول: غلطة. بأي حال، إنني أعيش معها الآن. وهي فاشلة، إنما بطريقة مختلفة عني، لكنها تظنُ أنها هبة الله اللعينة. الأمر كلُّه مقرفٌ بعض الشيء، ولست تريدين معرفة تفاصيله حقًا.

قالت، وهي تنكزُ أضلاعه النحيلة:

- أنت صديقي. غالبًا صديقي الحقيقي الوحيد فيما خلا ديفيد. بالطبع أريد معرفة تفاصيله.

- حسنًا، أنتِ، يا أميرتي الحسناء النائمة المُحزنة، أكثر جاذبيةً مني بكثير.

- هذا بَدَهِيٌّ.

احمرَّ وجهها بعض الشيء. تحب أن يناديها بذلك، وإن لم يكن ينبغي لها، فوالداها ميتان، ويكاد ذلك يبدو سخرية منهما.

تنهَّدَ بشدَّة:

- رباه كم أرغب في الانتشاء!

قالَت:

- لم أتعاطَ المخدرات قط، ولا حتى الحشيش.

صار دوره في الاندهاش:

- كفاكِ مزاحًا!

- لا، لستُ أمزحُ أبدًا. نحن نعيش -*كنا* نعيش- في منتصف اللامكان. حافلةٌ تقلني إلى المدرسة وحافلة منها، ومن ثم وقتما عانيتُ من مشكلاتي دُرِّستُ في المنزل لمدَّة.

- كل طبقةٍ تحت بشرتكِ الخالية من العيوب تزيدُكِ تشويقًا. دُرِّستِ في المنزل؟ رباه، لا عجب أنكِ وقعتِ في حب صبيٍّ ريفيٍّ.

تركَت الوكزة الصغيرة تمرُّ. هي تعرفُ أنه يظنها بالفعل خاضعةً أكثر مما ينبغي لديفيد، وهذا واضحٌ فيما لا يقوله بقدر وضوحه فيما يقول.

قال:

- سنُضطرُ على الأرجح إلى تصويب ذلك. ستحبين الأمر.

أطلقَت ضحكةً صادحة. يجعل روب المخدرات تبدو وكأنها الشيء الأكثر عاديةً في العالم، وهي تخمِّن أنها كذلك نوعًا ما بالنسبة إليه، وهو ليس سيئًا للغاية.

- بعض الحشيش على الأقل.

قالت مجاريةً إياه:

- حسنًا، أنا مستعدة لذلك.

وكانت مستعدة حقًا في لحظتها، لكنها تعرفُ أيضًا أن حدوث ذلك في ويستلاندز ليس مرجحًا بالضبط. يمكنها أن تشعرُ بالحرية والجموح مثل روب دون أن تضطر إلى فعلها حقيقةً. لكنها تفكر، وعلى نحو ثوريٍّ، بأنها ربما يجدر بها فعلها. ربما يجدر بها التصرف مثل مراهق عادي لبعض الوقت.

ما سيكون رأي ديفيد؟ حاولت قمع السؤال، فهي تعرف الإجابة، لن يسعَدَ ديفيد. لكن أيجب أن تكون أولى خواطرها حيال أي قرار التساؤل عما سيريدها ديفيد أن تفعل؟ لا يمكن لهذا أن يكون طبيعيًا. ربما يجب أن تتشبه قليلًا بروب؛ عاق، مستقل. يبدو مجرد التفكير في ذلك مثل خيانة؛ ديفيد يحبها وهي تحبه، ديفيد أنقذ حياتها.

فكَّرت بأي حال: ربما يمكنها فعلها دون إخباره، لن يكون سرًّا كبيرًا، بل مجرد لحظة مرحٍ تحتفظ بها لنفسها، قد لا تعجبها حتى. ثم أخفضت نظرها إلى ساعة ديفيد المتدلية من رسغها، لقد بلغت الثانية.

قال روب:

- سأُلزمكِ بذلك. سنفقد عقلينا انتشاءً معًا، وسنقضي وقتًا رائعًا.

كانت قادرة على رؤية دماغه يعمل بالفعل، يتساءل كيف يمكنه جعل هذا واقعًا. تساءلَت كيف سيكون لو أنه عاش حياتها. ربما كان في جامعة عظيمة ما الآن، في بعثة دراسية. ربما كان الابن الذي أراده والداها حقًا.

قالت:

- عليَّ الذهاب.

ورفع بصره، متفاجئًا.

- لا تقولي ثمة جلسة أخرى.

هزَّت رأسها بارتباك. لم تكن قد أخبرته بهذا:

- لا، إنَّ محاميَّ قادمون. أريدُ التكلم معهم فيما يخص بعض الأشياء، كما تعرف، أمور الميراث (ليست تعرفُ لمَ تشعرُ بهذا الاضطراب، لكنها تشعر به)، وأرى كيف سارَت أمور إصلاح الضرر في المنزل، وأطلب من فنيِّي الحماية تنصيب أجهزة إنذار وأشياء أخرى حول الأرض.

- هم قادمون من أجل هذا؟ (كادت تتمكن من سماع دماغه يعمل).

تركَت شعرها يخيِّم على وجهها وهي تنهض:

- أجل. الأمر معقد.

وأخيرًا رمقته بابتسامة مُغرِّرة، ابتسامة تذيب القلوب، ابتسامة تقول إن كل شيء على ما يرام.

- ركز أنتَ على قرص نفسِك. إن لم تقبض على زمام ذلك قريبًا، فسأظن أنك تزيِّف كوابيسك.

ردَّ ابتسامتها:

- حسنًا يا يودا[1]. لكن من أجلكِ فقط. إلا أنني قد أستمني أولًا.

- يا للقرف!

ابتسم كلاهما وهي تغادر، وأسعدها ذلك. هي تعرف أن روب يقلق. تعرفُ أنه يظنُّ ديفيد مهيمنًا عليها أكثر مما يجب، وتعرف أنه لن يكون سعيدًا البتة بما هي مقدِمة على فعله.

---

(1) يودا هو أحد أسياد الجيداي الأقوياء في عالم حرب النجوم.

21

لويز

مرت عشرة أيام منذ أعطتني أديل مجموعة السيجارة الإلكترونية للمبتدئين، وأسبوع منذ دخنتُ آخر سيجارة حقيقية، ولا يمكنني منع نفسي من الشعور ببعض الغطرسة المتعجرفة وأنا أدسها في حقيبتي وأمشي إلى العمل. كان يجب أن أجربها في وقتٍ أسبق حقًا. رأيتها من قبل في كل مكان، غير أنه ومثل أي بندٍ آخر على قائمة مهامي الشخصية، دائمًا ما انتهى الأمر بإقلاعي عن التدخين مؤجَّلًا إلى اليوم التالي. لكن لا يمكنني ألا أجربها بعد أن أنفقت أديل المال عليها، ولا سيما في ضوء كل شيء. لم أتوقع أن تروق لي، لم أتوقع أن تجدي نفعًا، لكن من المبهج أن أستيقظ وشعري لا يعبق برائحة الدخان، ونفس الأمر بالنسبة إلى ثيابي. سيسعد آدم أيضًا، وإيان، وليس أن ذلك يهم حقًّا، لكنني في الوقت نفسه لا أريدُ أن أكون من صنف الأمهات اللاتي يمكن للزوجة الثانية إطلاق الأحكام عليهن لأنهن يدخنّ على الرغم من كونهن أمهات أطفال. والآن لستُ أدخن. صحيح أنني ربما أستخدمها زيادةً -فمن السهل جدًّا استخدامها في الشقة- لكنني عاهدتُ نفسي أنني سأعاملها معاملة السيجارة الحقيقية وقتما يرجعُ آدم إلى المنزل وأخرج إلى الشرفة وقتما أرغب فيها.

ضجت خطوتي بالحيوية وأنا أتنشق هواء الصيف الصباحي، وشعرتُ بالسعادة. لا يجدر بي ذلك، فكل شيء، من نواحٍ كثيرة جدًّا، فوضى تامة، وكله ذنبي، لكنني بطريقة ما أتدبرُ تجاهل ذلك. حتى إنني أستمتعُ استمتاعًا مُذنبًا بعض الشيء ببُعد آدم. أشتاق إليه وإلى آخره، لكنني أتمتعُ بحرية أوسع الآن. يمكنني أن أكون امرأة لي كياني بدلًا عن كوني *أم آدم* وحسب.

انخفضَت إبرة الميزان هذا الصباح لتُشير إلى خسارة أكثر من كيلوغرام، وليس هذا اليوم العاشر من استخدامي للسيجارة الإلكترونية وحسب، بل إنه اليوم العاشر أيضًا من مقاطعتي المعكرونة والبطاطا والخبز، ولا يسعني تصديق كم تحسن شعوري إزاء الأمر بالفعل. كانت أديل على حق: الكربوهيدرات من عمل الشيطان، فاتركيها لأيام المتعة. إضافةً لأن اتِّباع حمية في غياب آدم عن المنزل أسهل بكثير. ثمة وفرة من شرائح اللحم والسمك والسلطات، وبيضٌ للفطور. لستُ حتى أشعرُ بكثيرِ الجوع، لكن من جهة أخرى فمردُّ هذا جزئيًّا إلى انعقاد معدتي شهوةً وذنبًا لمعظم الوقت. ربما سأخسر الوزن الزائد في النهاية، حتى إنني قللتُ من شرب النبيذ، وما أشربه أحسبه ضمن سعراتي الحرارية لليوم. محتاجةٌ الآن إلى أن يبدأ أمر الحلم عمله حتى أحظى بنوم هانئ في الليل. عليَّ تطبيق الروتين كل ساعة اليوم بدلًا من البدء بصورة جيدة ثم التراخي. إنني عازمة على المحاولة بجد أكبر. أشعرُ وكأنني، بعد كل ما تساعدني أديل فيه، أخذلها، وأعرفُ كم يبدو هذا مجنونًا.

وصلتُ مبكرًا -لمرةٍ يتيمة في هذه الأيام- وقررتُ التجول حول المجمع السكني والتمتُّع بالصباح الجميل بدلًا من الدخول مباشرةً. سيُضيف هذا أيضًا إلى عدَّاد خطواتي، التطبيق الجديد على هاتفي الذي يصرُّ بصمتٍ على بلوغي العشرة آلاف خطوة خاصتي. وهذه واحدة أخرى من أفكار أديل. إنها صديقة طيبة، وأسوأ ما في الأمر أنني، إذا ما انتهى المطاف بما يجري يومًا في برنامج حواريٍّ ما على التلفزيون الشعبي، فسأظهرُ عاهرةً بحق. ربما أنا عاهرة، إذ إنني أتصرف مثل واحدةٍ بأي حال. أعرف ذلك. لكن لا شيء يبلغ هذه الدرجة من الوضوح أبدًا، أليس كذلك؟ تروق لي أديل حقًّا، هي أفضل صديقة حظيت بها منذ عصور، وهي مختلفة جدًّا عن سواها من الناس؛ بالغة

الكياسة والعذوبة ومهتمة بي. في علاقتي بصوفي أشعرُ وكأنني أتوسلُ أن أُحشَر في تقويمها الاجتماعي. وليس الأمر هكذا في علاقتي بأديل. بالكاد أرسلتُ رسالة لصوفي منذ تعرفتُ على أديل. يجب أن تكون صداقتها كافية، أعرف ذلك، لكنها غير كافية. ربما لستُ آكلُ كثيرًا هذه الأيام، لكنني ما زلتُ طماعة؛ أديل وديفيد. أريدُ كليهما، وهذا سبب آخر لعدم تكلمي مع صوفي. كانت لتوبخني أيما توبيخٍ على ذلك. نبشتُ السيجارة الإلكترونية ورحتُ أنفخُ بينما أتمشّى.

بأي حال، قلتُ لنفسي عندما عادَت العيادة إلى مرمى البصر إن الجنس لن يدوم، فسفر آدم لن يطول إلا أسبوعين إضافيين أو نحوهما، ولن أسمح بدخول ديفيد ليلًا بعد ذلك. ما الذي سيحدثُ إذا ما التقى آدم أديلَ يومًا ما؟ ما الذي سيحدثُ إذا ما تكلَّم عن ديفيد؟ وأي أمٍّ تريد أن تضرب مثالًا كهذا لابنها؟ أن تقول إنه من المقبول لرجل متزوج أن يأتي، وينكح، ثم يغادر؟ حاولتُ إقناع نفسي أن هذا هاجسي الرئيس، لكنني كنت أخادعها، فهمي الرئيس هو أن صغر سن آدم يمنعه من حفظ الأسرار، وإذا ما حدث وأوصله باص المدرسة إلى العيادة بعد المدرسة لسبب ما، فإن آخر ما أرغب فيه هو أن يتعرف إلى الرجل الذي يزور ماما في بعض الليلات. الأمر برمته دنيء للغاية، والأسوأ من ذلك أنه فعل غبي وأناني أفعله. لكن حينما يلمسني ديفيد، تدبُّ فيَّ الحياة. أعشق ضحكته، أصيرُ أشبه بمراهقة في وجوده. وعندما أكون مع أديل أشعرُ أن *لي أثرًا*، أنني أهُمها.

أمكنني الشعور برباط سروالي يتحرك بعض الشيء بينما مددتُ يدي لأجلب مفاتيح مكتبي، إنني أنحُلُ من غير شك. لعل ديفيد وأديل يعيدانني إلى الحياة فيما بينهما.

قالت سو، وقد غلَى الماء في الإبريق ووقفَت ممسكة بلفيفة لحم خنزير مقدد:

- لم أكُن واثقة من رغبتكِ في واحدة (كان بوسعي رؤية الكاتشب يُزيِّت الورقة)، لا مشكلة إن كنت لا ترغبين، إذ يمكنني دائمًا إيجاد موطن في مكان آخر لها (وابتسمَت)، أو، بالطبع، آكلها أنا.

قلتُ:

- لا، أشكرك (وقد أسعدني كسرُ روتين آخر)، غدًا يوم المتعة.

كنتُ أشعرُ بالجوع بعد الليلة الماضية، لكن لدي بيضتين مسلوقتين في علبة الطعام خاصتي، وسأتناولهما عوضًا عن ذلك. الاستعداد نقطة أساسية في الحمية، علمتني أديل هذا أيضًا، فصرتُ أسلق البيض في السادسة صباحًا وأحفظه في الثلاجة. رائحة اللحم المقدد شهية، لكن ثمة متعة غريبة في رفضه، كما لو أنني مسيطرة على شيء *ما* على الأقل. وليس اللحم المقدد المتعة التي ينبغي لي رفضها، لكنها بداية. قلت:

- آسفة، كان يجدر بي الاتصال بك وإخبارك. سأعطيك ثمنها.

- لن تفعلي شيئًا كهذا (وضعَت شايي أمامي)، تبدين في خير حال الآن. تكادين تشعين (ورمقتني بنظرة فضولية).

- لستُ حاملًا إن كان هذا سؤالك!

على الرغم من التحسُّن الأخير في مزاجي، فإن كلمة *الحمل* تلك لا تفارق ذهني أبدًا.

- في الحقيقة كنتُ سأسألُ عما إذا كان ثمة رجل جديد في حياتك.

- سيكون ذلك من حسن حظي.

ضحكتُ حينذاك، وركزتُ على تقشير بيضتي.

قالت:

- حسنًا، واصلي على هذا المنوال وستُضطرِّين إلى إبعادهم بالقوة. لا ينبغي لامرأة جميلة مثلكِ أن تكون عزباء. لقد آن أوان عودتكِ إلى ساحة المواعدة.

قلتُ:

- ربما، لكنني في الوقت الراهن مركزة على نفسي وحسب.

بقيتُ مبتسمة، على الرغم من أنني شعرتُ ببعض الغثيان وأنا أتصور محاولة شرح الأمر كله لسو ذات الزواج طويل الأمد والنهوج الراسخة. ستظن أنني مجنونة ومخطئة، وهذا صحيح، لكنني أيضًا سعيدة للمرة الأولى منذ ما يبدو عصورًا، فهل هذا فظيع كل هذه الفظاعة حقًا؟ ما دام لا يتأذى أحد! كلنا

لديه أسراره. أديل، وأنا، وديفيد. ما دام يظل الأمر في هذا المجرى، ألا يمكنني أن أحظى به؟ ألا يمكنني أن أحظى بكليهما؟

ما زالت سو تنظر إلي، ولا يمكنني لومها على ذلك. فأنا أخفي شيئًا ما بالطبع. أعرفُ أن عينيَّ تتلألآن وثمة حيويةٌ في خطوي كانت مفقودةً منذ مدة.

أنهيتُ البيض وخفضتُ بصري إلى يديَّ أحصي أصابعي. آملُ أن أديل على ما يرام. هل تشاجرا في الأمس؟ ألهذا جاء؟ أم أنه ادعى التأخر في عمله التوعوي لينجو بفعلته؟ أحيانًا أفكر فيهما أكثر مما أفكر في نفسي. لقد شرب، لكنه لم يكن ثملًا وقتما غادر، وأرجح أنه تمكن من تغطية الأمر. بدأ الظن بأنه ماهر للغاية في تغطية شربه يراودني، وربما يجب أن أحاول محادثته بخصوص ذلك. أترى شربُه هو عيبُ زواجهما؟ فأديل لا تشرب البتة. وقتما تناولنا الغداء، ربما شربتُ كأس نبيذ، لكنها لم تشرب. عليَّ تخفيفه أكثر أيضًا. سيساعدني الإقلال من النبيذ حتمًا في خسارة وزني الزائد بصورة أسرع.

تركتُ سو لِلَفيفة لحم الخنزير المقدد الثانية ومضيتُ إلى مكتب ديفيد لأشغل آلة القهوة. بطريقة غبية، يشبه الأمر التظاهر بلَعِب بيت بيوت[1] معه. شعرتُ بدغدغةٍ في بطني وعجزتُ عن لجم الحماسة. لطالما أحببتُ عملي، لكن الآن ثمة إثارة مضافة إليه. ولا أنفك أجد نفسي أنظر إلى يديه وهو يوقِّع الوصفات والرسائل وأتذكر كيف لمستاني، وأين كانتا.

ما زلتُ أفكر أحيانًا في هلَع أديل وقتما ظنت أنها قد تفوِّت مكالمة، وكل تلك الأقراص في خزانتهما، لكن أتراه في الحقيقة لا يوجد شيء خبيث في ذلك؟ ربما هي عصبية المزاج بالفعل، حتى إنها اعترفَت بوجود مشكلات في ماضيها. أمن الممكن أن سلوك ديفيد حمائيٌّ وليس متسلطًا؟ من تراه يعرف حقًّا ما يحدث خلف الأبواب المغلقة؟ لا يمكنني سؤاله عن ذلك بأي حال، ليس

---

(1) بيت بيوت: لعبة تقوم على شخصين أو أكثر حيث تجلب مجموعة من الفتيات والفتيان كل ما يمتلكونه من ألعاب وعرائس وأدوات المطبخ وبيوتِ لُعبة، ثم يبدؤون بتمثيل أنهم يعيشون حياة الكبار متمثلين بعرائسهم حيث يمارسون الروتين اليومي من الاستيقاظ من النوم إلى تناول الإفطار ثم الخروج والتلاقي.

دون إفشاء سر معرفتي بأديل، وحينذاك سيظن حقًا أنني مترصدة مخبولة، وأكون قد خنتُ أديل. الأمر برمَّته فوضى عارمة. أعرف أنه كذلك، لكن لا يمكنني كفُّ قلبي عن القصف في صدري وقتما يظهرُ في المدخل.

قلتُ:

- صباح الخير.

- وصباحُ خيرٍ لكِ.

بدا متعبًا، لكن ابتسامته دافئة وصادقة، وعيناه الزرقاوان تومضان من أجلي فقط، وهرعَت الحرارة إلى وجهي على هيئة بُقع. هذا سخيف، فنحن نعمل معًا كل يوم، وينبغي أنني اعتدتُ مرآه بحلول هذا الوقت، لكن هذا الصباح مختلف، فقد تغيَّر شيء ما ليلة الأمس بينما استلقينا في السرير نتحدث، ولم يستمر بالطبع، فسرعان ما استقر الشعور المألوف بالذنب بين جسدينا الآخذين بالبرود. الرجال غريبون، كما لو أن الخيانة تكمُن في الضحكِ والقُرب لا في الجنس، لكنني من ناحية أخرى أظن أنها كذلك، إذ إن تلك الفكرة هي أكثر ما آذاني وقتما خان إيان، حالما كففتُ عن هوسي بأمر الجنس، ربما لأن تفصيل الضحك إلى فصول مستقلةٍ أصعَب.

كل ما يحدث خيانة شنيعة، هذا ما أردتُ قوله له وقتما غادر، كل ما يحدث، لكنني عجزتُ عن حمل نفسي على الكلام، وأنى لي ذلك وأنا التي لا تريدُ انتهاءه؟ هذه هي الحقيقة الحقة البغيضة. أريدُ سلَّتي ملأى. أريدُ عشيقي وصديقتي الفضلى الجديدة.

قلتُ:

- أنت في مزاجٍ جيد.

كان موشكًا على الإجابة، نصفُ ابتسامة على فمه المفتوح، ويداه محشورتان في جيبي بنطاله بطريقة تذيب قلبي لسببٍ ما، وقتما دخل الدكتور سايكس.

- ديفيد، أيمكنني محادثتك على انفراد؟

ابتسمتُ وغبتُ عائدة إلى مكتبي، وأغلقتُ الباب عليهما. ضاعت شبيهة اللحظة الضئيلة تلكَ بيننا، وربما هذا أفضل. إنني محتاجة إلى تمالك نفسي،

فمهما كان ما يجري، لا يمكنه الاستمرار، ولا يجب أن أتعلَّق؛ إنها شهوة وحسب، وستمرُّ. لا يمكن للأمر التطور أكثر، ولن أسمح له، لكن الكلمات تبدو فارغة، وسرعة خفقان قلبي تكذِّبها.

بحلول وقت الغداء، كنتُ أجيبُ المكالمة السادسة من أنتوني هوكينز، وفي كل منها كان يزداد هياجًا وأحاول قصارى جهدي البقاء هادئة بينما أحمله على إنهاء المكالمة.

- كما قلتُ سابقًا يا سيد هوكينز، سأحوِّل مكالمتك للدكتور مارتن حالما يفرغ. إن كانت هذه حالة طوارئ، أنصحك بـ...

- أريدُ التكلم إلى ديفيد، إنني في حاجة إلى التكلم إليه.

- إذن سأحرص على أن يكلمك حالما يقدر.

كان يتنفس بسرعة في أذني:

- ومتأكدة قطعًا أن رقم هاتفي الصحيح معك؟ لا أريده أن يتصل بالرقم الخاطئ.

ردَّدتُ له الرقم الظاهر على الشاشة، وأغلق الخط أخيرًا. أضفتُ هذه المكالمة الأخيرة إلى لائحة الرسائل التي سأعطيها لديفيد وحثثته على الخروج من اجتماعه ليأخذ أنتوني عن عاتقي، ولأقول الصراحة، كنتُ قلقة بعض الشيء، لأن جلساتهما، بحسب معرفتي، تسير على خير ما يرام، وثمة جلسة أخرى محجوزة لأنتوني يوم الاثنين، ذلك أنه يحظى باثنتين أو أكثر في الأسبوع نزولًا عند إصراره الشخصي، وأملتُ أنه لم يعانِ ارتكاسة سبَّبت هذه الحاجة المباغتة إلى الحديث مع ديفيد قبل نهاية الأسبوع.

أخيرًا، خرج الأطباء وحوَّلتُ لائحة المكالمات لديفيد.

- أعرف أنه وقت الغداء، لكنني أظن أن عليك مكالمته؛ بدا بالغ الاهتياج.

- أكان كلامه متداخلًا؟

راح ديفيد يفحص أوقات المكالمات.

- لا. لا أظن ذلك.

- سأتصل به الآن، وهل يمكنك أن تحضري لي أرقام والديه ومحاميه؟ وطبيبه الجسماني؟

أومأت برأسي. عدنا إلى حالة رب العمل والسكرتيرة، والتي لا تُعد مثيرة البتة على الرغم من الكليشيهات.

- سأرسلها لك عبر الإيميل.

- أشكرك.

ظل يحدق إلى اللائحة بينما يدخل مكتبه، وأملتُ نوعًا ما أن ينظر خلفه ويبتسم لي أو شيئًا من هذا القبيل، لكنه لم يفعل. كان دماغه مركزًا بكله على أنتوني، وأحب ذلك فيه، فثمة أطباء هنا -بصرف النظر عن براعتهم في أداء عملهم- قادرون على سلخ أنفسهم تمامًا عن مرضاهم. ربما تلك هي الطريقة الأفضل والأكثر مهنية، لكنني لا أظن أن ديفيد هكذا، بيد أنني من ناحية أخرى أشك أن هؤلاء الأطباء يشربون كل ليلة أيضًا. إنه شخص غريب، وأتساءل، مثلما أفعل دائمًا، أي عفاريت تقوده؟ كيف يمكن لشخص على هذا القدر من البراعة في الإنصات إلى الآخرين وانتشالهم أن يكون بهذه الرداءة في التحدث؟!

أكلتُ السلطة خاصتي على مكتبي وتركتُ هدوء ظهيرة الجمعة ينسّم عليَّ. اتصل أنتوني مرتين إضافيتين، وإن أكّد على أنه تكلم مع ديفيد للتوّ. قال إنه نسي شيئًا ما ومحتاج إلى محادثته ثانية، فأنهيتُ المكالمة بتهذيبٍ، غير راغبة في الانجرار إلى محادثة لستُ مؤهلةً للتعامل معها.

عند الساعة الثانية والنصف رأيتُ الضوء يدبُّ في الزر المخصص للخط الأول في هاتف ديفيد. لم تطُل المكالمة إلا دقيقة أو نحو ذلك، وعرفتُ أنها مع أديل. كنتُ قد حاولتُ ألا أتعقب مكالماته بهذه الطريقة، لكني عجزتُ عن منع نفسي. في الحادية عشرة والنصف وفي الثانية والنصف كل يوم، مكالمتان وجيزتان لا يتّسع وقتهما لتهذيبِ محادثات العمل، وتذكرني في كل يوم بهلَع أديل للعودة من النادي الرياضي، وقد أمضيتُ معها من الوقت ما يكفي لأرى هذه المكالمات من الجانب الآخر، وإن كانت تختفي على الدوام في غرفة أخرى أو تغيب في الرواق لتجيبها. من بين كل مشكلات حالي، وكل ما ينبغي أن يمنحني مشاعرَ فظيعة، هذه المكالمات هي أكثر ما يقضّ مضجعي. ما خطب هذين الاثنين؟ ما نوع الحبِّ بينهما؟ أهو حبٌّ في المقام الأول؟ شعرتُ بطعنةِ حسدٍ في معدتي.

في نهاية اليوم، بعد أن غادر آخر المرضى، وصارت نهاية الأسبوع مستعدة لتحصدنا، خرج ديفيد من مكتبه لابسًا سترته وحقيبته في يده. لم أتوقعه أن يتلكأ عند المكتب -إذ لم يفعل قبلًا وسيكون غريبًا إن فعل- لكنني شعرتُ على الرغم من ذلك بلذعةِ إحباط صغيرة.

سألته:

- هل أنتوني بخير؟

نصفُ قلقةٍ ونصفُ راغبة في محادثته. لا يمكنه إعطائي تفاصيل، أعرف هذا، لكنني سألتُ على الرغم من معرفتي.

قال:

- اختصري أي اتصال يجريه. لقد منحته رقم خطٍّ مباشر للوقتِ الراهن بديلًا مؤقتًا، لكن إن لم يقدر على الاتصال به فقد يتصل بخطِّك. لا تنخرطي في أي نقاش شخصي معه.

أومأتُ برأسي محتارةً بعض الشيء. ما الذي جرى بحق الجحيم؟

- حسنًا.

لكن وجهي ظل يطفحُ تساؤلًا، وبإمكانه رؤية ذلك.

- إنه شخصٌ وسواسيٌّ. أتصوَّر أن تعاطي الهيروين حرره من ذلك، لكنه صار وسواسًا بحدِّ ذاته. كنتُ آمل أنه لن يطوِّر تعلُّقًا بهذه السرعة، لكنني أخطأت.

فكرتُ بالمكالمات جميعها:

- أهوَ متعلِّق بك؟

- جائز. بيد أنني لا أريد أن ينتقل ذلك إليكِ في حال عجزَ عن الوصول إلي. ليس الأمر أنه يظنني مميزًا بصفة خاصة، إنما لديه ماضٍ من التعلق بالأشخاص الجدد، وأنا جزء من ذلك النسق.

قلت:

- يمكنني تدبر أمر المكالمات.

أردتُ إيضاح أنني ماهرة في عملي بالفعل، لكن يروق لي أيضًا أنه قلق بشأني، على الرغم من كوني أكثر قلقًا حياله.

- أهو خطِر؟

قال مبتسمًا:

- لا أظن ذلك. هو مضطربٌ بعض الشيء ليس إلا. لكن عملكِ لا يقتضي هذه المجازفة.

كانت سو في المطبخ، ويمكنها رؤيتنا من حيث تشطفُ الأكواب لتضعها في جلاية الصحون، لذا لا أستطيع سؤاله عن خططه لنهاية الأسبوع -على الرغم من أنني لا أريد أن أعرف حقًا، فأديل بيننا على الدوام حتى لو لم تُذكَر قط- والآن بعد أن انتهت دردشة العمل، تمنى لي -بغرابة- نهاية أسبوع جيدة واتجه ناحية الباب.

نظر إلى الخلف وهو يخرج، لمحةٌ سريعةٌ من فوق كتفه، نظرة أخيرة جعلَت معدتي تجيش بدفقة سعادة، ثم تتلوَّى غيرةً. إنه ذاهبٌ إلى المنزل، إليها، لنهاية الأسبوع. أيفكر بي بأي شكلٍ في هذه الأيام؟ أعرف أنه لا بدَّ يفعل لأنه ظهر في بابي ذاتَ سببٍ، لكن كيف يفكر بي؟ أيفكر بتركها من أجلي؟ أتمنى لو كنت أعرفُ مكانتي عنده. إلى أين يتجه هذا، إن كان يتجه إلى أي مكان في الأصل؟ بالطبع ينبغي أن يتكلم عن ذلك بحلول هذا الوقت، صحيح؟ فلسنا أطفالًا. شعرتُ بالرخص من جديد وتراخيتُ في كرسيِّي. عليَّ إنهاؤه، أعرف أن عليَّ ذلك.

نظرتُ إلى الساعة ووجدتها قد قاربت الخامسة، فأشحتُ بنظري وعدتُ به وظلت الساعة على حالها. عليَّ تنظيف القهوة، وإنهاء بعض الأمور الإدارية لأتركها ليوم الاثنين، ثم يحين وقت ذهابي إلى المنزل.

فكرتُ بالهرولة هذا المساء، لكنني متعبة من نومي المتقطع حدَّ معرفتي أن ذلك لن يحدث. قرصتُ نفسي، وتمتمت: "أنا صاحية".

22

أديل

على الرغم من أننا أمضينا الأمسية في المنزل مثل أي زوجين آخرين -عشاء ومشاهدة تلفازٍ ومحادثة وجيزة-، نام ديفيد في الغرفة الإضافية الليلة الماضية. ألقى اللوم في ذلك على الطقس الدافئ، لكن هذا المنزل كبير، والجدران السميكة تُبقي الغرف المهواة باردة نسبيًّا. لم ينظر إليَّ وهو يتجه إلى فراشه، ولم يكن هذا مفاجئًا تمامًا، لكنني شعرتُ على الرغم من ذلك أني طُعنتُ في أحشائي بشظية من قلبي.

وقتما سمعتُه يتحرك هذا الصباح، نهضتُ ومضيتُ إلى النادي الرياضي لأتحاشى مواجهته في ساحة الشرم الخفي المرير لزواجنا. كان عليَّ إطلاق بعض من مشاعري الحبيسة، فركضتُ بعنف على آلة الركض ثم مارستُ تمارين أقسى مما فعلتُ على الآلات الأخرى، لكنني لم أحصِّل أي متعة من ذلك. بدا الأمر برمَّته مضيعةً للوقت. فيمَ يهُم؟ فيمَ أهمُّ *أنا* بعد الآن؟

رجعتُ إلى المنزل في الوقت المناسب لأحضِّر لكلينا وجبة غداء خفيفة، ثم غادر. مضى إلى عمله التوعوي، وأقلّه رجلٌ بليدٌ رديء الملبس بسيارة قديمة. يبدون كلهم على نفس الهيئة. فاعلي خير، وهذا أمر لم يتغير منذ أيام ويستلاندز، كما لو أن رداءة الملبس تجعلهم أكثر جدارة بطريقة ما. على

الأقل، فإن العمل التوعوي ليس كذبة تامة الأركان، على الرغم من معرفتي أنه قد تعذر به ليرى لويز مرةً على أقل تقدير.

بعد أن غادر، فكرتُ بإرسال رسالة لها لأرى ما إن كانت ترغبُ في احتساء القهوة في مكان ما -إذ شعرتُ فجأة بالوحشة في المنزل- لكنني قررتُ ألا أفعل، فلستُ أعرفُ إلى أين يذهبُ في هذه الأيام، وعلى الرغم من أننا نعيش في منطقة نشِطة، لا بدَّ من حدوث المصادفات. لا يمكنني المجازفة بكل شيء أمام احتمال أن يرانا من سيارة ما لأنني أشعرُ بالإحباط وحسب.

بدلًا من ذلك، قضيتُ ساعة أو اثنتين أنظف المنزل، فركتُ الحمامات حتى ائتلقَت وانقطَع نفسي، ثم قاطعتني جلجلة بريد يوم السبت -المتأخر كما العادة- عبر صندوق الرسائل.

وقتما رأيتُ الظرف، وخاتم الشركة المألوف في ركنه والعنوان المكتوب بخط يد أنيق، سرَّني أنني لم أبدأ شجارًا اليوم، إذ سيكون مبالغًا فيه ولا داعيَ له. هذا سيكفي لتعكيره. في عين عقلي، أرى الماضيَ رمالًا متحركة وديفيد عالقٌ فيها، يغرق رويدًا رويدًا. أحزنني ذلك ثانية.

فتحتُ الظرف ورحتُ أحدق إلى أعمدةِ البيانات والتكاليف وألقيتُ نظرة على رسالة الإحالة. ليس فيها شيء مفاجئ أو غير معتاد، لكن من ناحية أخرى فهذا لا يحدث أبدًا. لم نرجع إلى بيت فيرديل ولم يعِش أحد هناك منذ احترق الجناح. أعدتُ قراءة الرسالة: أُجريت بضعة إصلاحات للبناء الرئيس، وصيانة للأسيجة، وعادت كل كاميرات المراقبة للعمل، ولم تصَب المقتنيات بأضرار جديدة. ما زالت تمديدات الغاز والكهرباء سليمة، والفواتير مدفوعة، وشبكة التصريف بخير حال، وإيجارات الحقول البعيدة تُدفَع. دائمًا ما يكون التقرير الصيفي أقل كلفةً من التقرير الشتوي، إذ لا حاجة لتشغيل التدفئة كثيرًا لدرء البرد الإسكتلندي، وللأمانة، أظن أن معظم الناس قد نسوا وجود العزبة: قلعة الحسناء النائمة خلف الأسيجة الشجرية.

وضعتُ الرسالة والفاتورة في جانب المطبخ حيث سيراها ديفيد. وضعتها بحيث يبدو أنني ألقيتها هناك عرضيًّا، فهذا سيزعجه أيضًا. لم يجدر بي فتحها. كان ينبغي لي وضعها على مكتبه وقتما رأيتُ خاتم الشركة. إنها

موجَّهة لكلينا، لكن الجميع يعرفُ أنه المسؤول الماليُّ، وأنا لستُ إلا الدمية الحلوة: الزوجة البائسة المحتاجة إلى الرعاية.

كف المحامون عن سؤالنا عما إذا كنا سنبيع العزبة. لا يمكننا بيعها أبدًا. لكن على الرغم من ذلك، ربما، في المستقبل... انتفضَت معدتي إزاء احتمالية كل شيء. إزاء إمكانية أن يشيع سرنا ويتفتَّت إلى غبارٍ ثم لا شيء. إزاء التحرر منه. الفكرة مدوِّخة، لكنها تقوِّيني.

نظرتُ إلى الساعة ووجدتها الثامنة والنصف، وكان النهار الصيفيُّ في الخارج يأخذ بالخبوِّ. لن يرجع ديفيد حتى العاشرة، ولم يُرد أن أجهز العشاء له، لذا ليس علي القلق حيال ذلك. ثمة مكان ينبغي لي الذهاب إليه بأي حال، ولا جدوى من تأجيله أكثر. عليَّ أن أتجهز. عليَّ أن أستعد. وبشكلٍ أو بآخر، فإنني في الحقيقة أتطلع إليه.

عليَّ أن أكون حذرةً فقط، حذرةً للغاية.

23

لويز

- يا صاح! أأنتِ منتشية أو شيء من هذا القبيل؟ أعني، لقد ورطتِ نفسكِ في موقفٍ أسوأ من السوء نفسه. حتى أنا يمكنني رؤية ذلك، وتعلمينَ أنني أحبُ الفوضى الجيدة.

جاء استنكار صوفي واضحًا وصريحًا عبر الهاتف، وتمنيتُ لو أني لم أقُل شيئًا.

- بمَ كنتِ تفكرين؟ ولمَ لم تُخبريني قبلًا؟

تمتمتُ:

- كنتُ منشغلة.

ما الذي يعطيها الحق لتطلق الأحكام؟ ليست في موقعٍ يسمح لها.

- دون مزاح، وبمعزل عن موضوع رب العمل؛ هذا ليس جيدًا، فعلى الرغم من سعادتي الجمة لانطلاقكِ في حياتك، ليس هذا ما كان في بالي.

حاولَت تلطيف وجهة نظرها بالظرافة، لكنني بقيتُ أحمرُ خجلًا وأنا أذرع المنزل. لم تتصل بي إلا لأن خططها للأمسية فشلَت وظلت في المنزل عالقةً مع إيلا. وعلى الأرجح أنها لم تنتبه حتى إلى أنني لم أكن أراسلها.

قلت:

- أعرف، أعرف، وسأنهي الأمر.

- تنهين أيهما؟ أمره أم أمرها؟ أشعرُ وكأنك تضاجعين الاثنين (توقفَت قليلًا)، أتضاجعين الاثنين؟

ابتسمتُ قليلًا على الرغم من انزعاجي منها:

- لا! بالطبع لا. الأمر أنه... لا أعرف، كلما حاولت إنهاء أحدهما، عجزتُ.

قالت صوفي:

- أتريدين نصيحتي؟ (قبل أن يقاطعها صوتٌ خفيض في الخلفية) انتظري قليلًا لويز.

همد صوتها بعد أن ابتعدَت عن مكالمتنا، ثم قالت بانفعال:

- ماذا؟ لقد أخبرتكِ يا إيلا، ماما تتكلم على الهاتف. اذهبي واسألي بابا. حسنًا، اسأليه مجددًا.

عادَت إلى أذني:

- آسفة يا لو. الأطفال اللعناء...

ضاق حلقي. لستُ واثقة من أنني أريد نصيحتها. ما أريده منها حقًّا هو أن تضحك وتخبرني بأن كل شيء على ما يرام، وأليس ذلك شائقًا للغاية؟ شعرتُ أن هذا لن يحدث، وكنتُ محقة.

تابَعت كلامها:

- إن كنتِ تريدين نصيحتي يا حبي، فاهجري كليهما. لا يمكنكِ أن تكوني صديقتها لأنك ضاجعتِ زوجها وهذا مُزرٍ، ولا يمكنكِ أن تكوني عشيقته لأنه متزوجٌ من امرأة كنتِ صديقتها، وهذا مزرٍ أيضًا. إقامة علاقة غراميةٍ سرٌّ جلل بما يكفي، سرٌّ لا أظنكِ أهلًا له، وهذا مديح. أنت أفضل من هذه الأفعال يا لو. ادخلي تطبيق تِندَر أو شيئًا ما. ثمة الكثير من الرجال في الخارج، ثقي بي. رجال عازبون من كل الصنوف. قسمًا بالله، إن لم تجهزي حسابًا شخصيًّا بينما نلتقي المرة القادمة، ستكونين في ورطة. اتفقنا؟

قلت:

- حسنًا.

كاذبةً بكل ما يحمل الكذبُ من معنى لأسعدها وأتخلص منها.

- عليَّ الذهاب يا لو، فإيلا موشكة على الانهيار. لكن فلنبقَ على اتصال، أنا هنا إذا ما احتجتِ إليَّ.

أغلقَت الخط، لكنني ظللتُ أسمع صدى كلماتها في رأسي. *اهجري كليهما*. من السهل عليها قول ذلك بحياتها الممتلئة وعائلتها وعلاقاتها الغرامية. صوفي لا يعوزها الاهتمام ولا الصحبة أبدًا.

في الغالب لن أراها قبل أن يرجع آدم، وآنذاك سأضطر إلى هجرِ ديفيد، لذا سيكون كل شيء محسومًا. وليس أنني محتاجة إلى فعل أي شيء لإرضاء صوفي. وقتما تخبرني بأمر علاقاتها، أنصتُ وأهزُّ رأسي وأبقي أحكامي لنفسي. لمَ لا يمكنها فعل المثل؟ تظن أنها تعرفُ ما الأفضل، لكنها لا تعرف. لا يمكنني تصور أن تخبرني أديل بما ينبغي لي فعله بمثل هذه الطريقة أبدًا. أديل ستنصتُ وتكون داعمة، مثل صديقة حقيقية.

أدركتُ كم يبدو هذا مجنونًا، بالنظر إلى الموقف، لذا أخرجتُ صوفي بحزمٍ من رأسي وصببتُ كأسي الثانية من النبيذ، وأضفتُ بعض الثلج لأطيلَ بقاءها. لم أشعر بسوء مزيد لسماحي بالسعرات الحرارية، وللصراحة كان جائزًا أن تكتنفني حالٌ أسوأ اليوم. من الصعب المحافظة على الحمية في نهايات الأسبوع، لكنني أشعرُ بالفرق الآن، إذ يزداد الأمر سهولةً بعض الشيء. لم أهرول لأن نومي خذلني ولم أقدر على مواجهة ذلك، لكنني خرجتُ في مشوارٍ طويل، وعلى الرغم من اشتهائي المفرط للخبز، تناولتُ السمك والخضار فقط على العشاء قبل اتصالي بآدم وإيان وسماعي الأشياء الشهية التي كانا يتناولانها، ما جعل معدتي تقعقع أكثر.

لذا، لن أجلد ذاتي بشأن النبيذ. يجب على المرء تحصيل بعض المرح، وليس الأمر أن الثمالة قد تقودني عبر الممر المظلم إلى فرط الأكل. فالخزائن خاوية، وكسلي الشديد يمنعني من الخروج في هذا الوقت من الليل. إنني محتاجة إلى النبيذ لأنام بأي حال. واثقة أن كوابيسي صارت أخبث، لكنني من ناحية أخرى لا أظن هذا مفاجئًا كوني أضاجع زوج صديقتي الجديدة. قلتُ الكلمة بقسوة في رأسي، فأجفلت. أجل، لا عجبَ أن نومي مضطرب.

رحتُ أقلِّب المحطات بحثًا عن إلهاء ما. ثمة برنامج مواهب مريعٌ يُعرض، لكن هذا كل ما في الأمر. حلقة قديمة من مسلسل *أ تاتش أوف فروست*. لا شيء يجذبني. شربتُ المزيد من النبيذ، وشطَّ ذهني عائدًا إلى ديفيد وأديل. ثمة دائمًا جزء من دماغي يفكر بديفيد وأديل. أهو يفكر بي؟ *أهي تفكر بي؟* كدتُ أضحك. كم فاسدٌ هذا؟ يجدر بي النوم مبكرًا، فعلى الأقل يمكنني البقاء في السرير غدًا إن كان نومي مزريًا.

مضيتُ إلى المطبخ وأترعتُ كأسي. إذا ما توقفتُ الآن، فسيظل في القنينة أقل من نصفها بقليل، وهذا أفضل من المعتاد بكثير. أترى ديفيد في المنزل يشرب؟ أم أنهما خرجا ليتعشيا؟ أيمارسان نوعًا ما من جنس المصالحةِ المُذنِب؟ أيقارنُ بين جسدينا؟ رباه، آمل أنه لا يفعل. راحت الأسئلة تطنُّ في رأسي وكففتُ عن محاربتها.

تناولتُ المفكرة من درج المطبخ. إنها صلة وصلي بهما، وإذا ما كانا سيحضران في رأسي، إذن لا بأس إن غصتُ عَودًا في ماضي أديل، وإن كان من المجهد استنتاج الكلمات المشخبطة الملخبطة. وأيضًا، فقد تحسنتُ جدًّا في الروتين خلال اليومين الماضيين، وربما سيساعدني هذا في إتقانه حقًّا.

أطفأت التلفاز وأخذتُ كأس نبيذي إلى غرفة النوم. انتابني طنين يانع مُتعَب على الرغم من أنني لم أشرب كثيرًا. لقد حوَّلتني الحمية إلى شخص رخيص الثمالة، وحاولت ألا أفكر في قدر رخصي الفعليِّ، بالنظر إلى كل شيء.

أبقيتُ قميصي وألقيتُ بقية ملابسي على الأرض وصعدتُ إلى السرير. كانت عيناي ثقيلتين بالفعل، وابتلعتُ جرعة كبيرة من النبيذ. لم أفرِّش أسناني، سأفعلها عندما أفرغ من الشرب -فالنعناع والنبيذ ليسا مزيجًا حسنًا- لكن الاحتمال الأرجح هو أنني في الغالب سأغط في النوم أولًا ثم أفرِّشها عندما توقظني أحلامي الخبيثة بعد بضعِ ساعات. قلتُ في قرارتي: "إنني في قمة حياة النجومية"، نصفُ مبتسمةٍ إزاء مناقضتي لحياة النجومية، فأنا في سريري قبل العاشرة، ثم نقرتُ المصباح الجانبي وفتحت المفكرة. آلَمت الكتابة الدقيقة الشائكة عينيَّ في البداية، لكنني اعتدتُ شكلها رويدًا. ماضي

أديل وديفيد. قال لي هاتفي[1]: "نومكِ، أنت تقرئين هذا لتُحسني نومكِ". فأجبتُ نفسي: "نعم، هذا صحيح". وكلانا يعرفُ أنها كذبة.

... بدأ كما العادة: أركضُ وكلهم يركضون خلفي. تجار المخدرات من القرية، أمي عديمة الفائدة الراحلة منذ أمدٍ بعيد، أيلسا، الفتى الذي أوسعته ضربًا في الزقاق ذات مرة دون أي سببٍ إلا حك جلدي، عوزي إلى الانتشاء وكل غضبي الجيَّاش. إنهم هم، أعرفُ أنهم هم، لكنهم ليسوا هم أيضًا، إنما نُسخٌ شنيعة من أنفسهم، كما أراهم في الحقيقة: أعين غائرة، وجلدٌ مترهِّل، وأسنان مدببةٌ مدمّاة جراء مصِّ كل شيء مني عبر وجودهم المستمرّ. لديَّ ندوب على ذراعيَّ حيث أمسكتني أمي وأيلسا وعضتاني قبل أن أتحرر. لستُ بحاجةٍ إلى رئيس أطباء ليخبرني بفحوى هذا. سيسمونه شعورًا بالذنب، شعور بالذنب تجاه عادتي وأثرها على عائلتي. لا فكرة لديهم عمَّا في رأسي. الندوب والعض ومص دمائي ناجمة عن إرسالهم لي إلى مركز إعادة التأهيل وإجبارهم إياي على تركِ الشيء الوحيد الذي أستمتعُ به في هذه الحياة الموحشة.

كنتُ أركضُ عبر البرجِ السكني، ليس الذي أعيش فيه مع أيلسا، بل الذي تقاسَمَته أمي و "شانكس"، حبيبها المتحرش بالأطفال، والمسمى حقيقة بتيري، قبل أن يختفي. كان قديمًا وتفوح منه رائحة بولٍ آسنة في المصاعد إلى درجة تجعلني حتى وهيَ تعملُ أقول في قرارتي تبًّا لهذا وأتخذ السلالم. في الحلم، كنتُ على السلالم وقادرٌ على سماعهما خلفي، ينادياني، يُهينانني. أمي تزعق: "إننا نعلم سرك! لا تظنَّن أننا لا نعلم!" صوتاهما رطبان، إذ ثمة أسنان حادة أكثر مما يجب في فميهما. أمكنني سماع صلصلة المعدن على الدرجات الخرسانية وشعرتُ وكأن قدميَّ تتحركان في بركة دبس، فلا يمكنني الإسراع بأي شكل. وصلتُ إلى إحدى بسطات الدرج ونظرتُ خلفي. كانا على بُعد طابقين تحتي لكنهما يتحركان بسرعة في فريق ممسوسٍ نصف بشريٍّ نصف وحشيٍّ، ولأيديهما سكاكينُ طويلةٌ حادة حيث يفترضُ أن تكون الأصابع، تجرُّ خلفهما. قادمان ليقطِّعاني إربًا ثم يأكلاني. منعني تعبي الشديد من مواصلة العَدْو صعودًا على السلالم ونظرتُ ناحية الباب بين

---

(1) الهاتف: صوتٌ باطنيّ خفيّ.

بيت السلَّم وصف الشقق الرديئة. موسيقى هيب هوب تصدح من مكان ما، وثمة لوح زجاجي وسخ في الباب رأيتُ عبره شانكس، وليس شانكس شخصًا ينبغي إهماله أبدًا. حدَّق إليَّ من الجانب الآخر للزجاج القذر ورفع إصبعًا سكينيًّا وهزهزها كأنه يوبِّخني.

كنتُ عالقًا. سيمسكان بي، أعرف ذلك. ستمزقني أصابعهما. هنا أتجمدُ عادة في الحلم ولا أستيقظ إلا عندما تصل أيلسا إليَّ. لكن ليس في هذه المرة. في هذه المرة عاشت نفسي الحُلميَّة لحظتها.

أبواب.

أصابع.

خفضتُ نظري إلى يديَّ، ورأيتُ إصبعًا إضافية صغيرة في اليمنى، فوقفتُ هناك على البسطة وكدتُ أضحك. كنتُ أحلمُ وأعرفُ ذلك. تلاشى صوتُ خدش المعدن عندما ركزت، ونظرتُ إلى باب البسطة، لكنني عرفتُ أنه ليس الباب الذي أريد. فاستدرتُ إلى الجدار حيثُ رُشت بعض اللوحات الجدارية القبيحة الهاوية بتراخٍ، وأعدتُ ترتيب الخطوط ذهنيًّا لأشكّل بابًا صغيرًا له مقبض مدوَّر يشبه ما يرسمه الأطفال.

دنا الوحشان خلفي مني، لكنني تجاهلتهما ومددتُ يدي لأفتح بابي الجديد. فكرتُ في شاطئ، ليس شاطئ العطلة الرديئة التي حظينا بها في بلاكبول حيث أمطرت السماء كل يوم تقريبًا وظلت تنتاب أيلسا نوبات غضبِ المراهقين لأنها لم تقدر على جلب حبيبها الأرقط المخنث، إنما شاطئ فخمٌ كالذي يُرى في نوافذ وُكلاء السفريات.

برمتُ يدي وخطوتُ عبره.

اختفى كابوسي، وصرتُ على شاطئ أبيض، وثمة نسيم دافئ في شعري، ورملٌ ساخنٌ بين أصابع قدميَّ بينما تتراكبُ المياه عليهما. كنتُ لابسًا سروالًا قصيرًا وقميصًا، وهادئًا، وأرغبُ في الضحك. أردتُ أن ترى أديل هذا، فظهرَت فجأة: أديلٌ حُلميَّة. المياه زرقاء زرقة غير طبيعية، لكنها مثلما تخيلتُ مياه المحيط دائمًا. أضفتُ دلافين، ونادلًا يسيرُ ناحيتنا بكأسي كوكتيل طويلتين، تبدوان غريبتين. لم أشرب كوكتيلًا قط، لكن طعمه مثل شراب الفراولة المثلج، كما أفكرُ أنه يجب لطعمه أن يكون. كدتُ أضيفُ إبرةً وجرعة، لكنني لم أفعل.

ضحكتُ في الحلم ثم ضحكت أديل الحلميَّة ثم لم يعُد بوسعي المحافظة عليه أكثر واستيقظت.

***لكنني فعلتها**. لا يمكنني والجحيمُ التصديق أنني فعلتها. فعلتُها تمامًا! يمكنني أن أكون ملكَ أحلامي الخاصة. ستكون المرة القادمة أفضل. أعرف ذلك. منعتني حماستي الزائدة من العودة إلى النوم. الساعة الرابعة صباحًا والكل نائم لكن قلبي يخفق بشدة. لم تراودني مشاعر بهذه الروعة تجاه أي شيء منذ أمدٍ بعيد. كان أشبه بالسحر. سحرٌ حقيقي، لا انتشاء مخدرات. صار جسمي يحكُّني لأذهب وأخبر أديل، لكن الفتيات في النصف الآخر من المنزل ولا يمكنني المجازفة بأن يُقبض عليَّ هناك. سيطردونني. وقتما وصلتُ إلى هنا لم يكُن لديَّ مشكلة في ذلك، لكن ليس الآن. إنني أطنُّ بكلِّي. أبتسمُ مثل مخنثٍ إزاء كتابة هذا وحدها. لن أخبرها أنني تخيلتها معي على الشاطئ، وأنها ظهرتْ مباشرةً وكأنما كان ذلك مقدرًا. كما لو أنني عاجزٌ عن تصوُّرِ السعادة دونها. يخيفني ذلك بما فيه الكفاية، ومن يعلمُ كيف ستشعرُ هي إزاءه؟*

بلغنا نصفَ مدة إقامتنا تقريبًا. ما سيحدثُ وقتما نغادر؟ لا يمكنني تخيُّل أن يرغب الدكتور ديفيد في وجودي. تقول أديل إنه سيحبني، لكنها لا تعرفُ الناس مثلما أفعل، وهو يبدو لي مهووسَ تسلُّط.

ما زلتُ أتساءل عن فحوى هراء المحامين ذاك. لم أضغط عليها لتخبرني، لكنها كانت غريبة بعده. ستخبرني في آخر المطاف، فأنا بارعٌ في حمل الناس على الكلام. صرتُ أنصتُ أكثر مما أتكلم في الجلسات الآن. الكل يرغبُ في التكلم عن نفسه، وهذا بَدَهِيٌّ. ربما ينبغي لي الحصول على عمل لعين هنا. (أمزح).

الطيور تستيقظ في الخارج. ما زلتُ عاجزًا عن تصديق أنني فعلتها. أتى كل القرص وإحصاء الأصابع أكله. لقد تحكمتُ بحلمي اللعين. لا يمكن لديفيد فعلُ ذلك. هذا شيء يخصني وإياها...

غُشيت عيناي ووجدتُ نفسي أقرأ السطر الأخير مرتين، إذ شوَّش النبيذ رأسي. فأغمضتُ عينيَّ، لثوانٍ فقط، وانسلَّ الكتابُ من يدي. فكرتُ، بإبهامٍ، في أنني محتاجة إلى تفريش أسناني، ثم غططتُ في النوم.

24

أديل

إنه شنيع، شنيع وحسب. لا توجد كلمات أخرى تصفُ هذا الصباح. لقد توقف الصراخ، لكن هذا الصمت المميت أسوأ. أشعرُ بالغثيان. أرتعش. لستُ أعرفُ ما أقول في الحقيقة، أو إن كان ثمة أي شيء ينبغي لي قوله، أو يمكنني قوله. كل هذا من صنع يدي.

- سأنتقل إلى الغرفة الاحتياطية للوقتِ الراهن، لبعض الوقت. أظن أن هذا في صالح الجميع. إلى أن نقرر ما سنفعله.

كان صوته هادئًا على نحو احترافيٍّ، لكنه مهتاج. إنني أعرفه. لم أُرِد إلا البكاء، لكنني لم أفعل، بل أبقيتُ وجهي فاترًا متغطرسًا، فلستُ أريده أن يعرف كم يجرحني.

سألني، بعينين ميتتين:

- أين البطاقة الائتمانية؟

بدأت الأغراض التي طلبتها من محطة التسوق بالوصول في الثامنة صباحًا، وبحلول التاسعة كانت كلها هنا. لقد وقَّتُّ كل شيء بصورة مثالية، ودفعتُ زيادةً لقاء فترة زمنية محددة. لم يستغرق الشراء إلا ساعة أو نحوها من الجهد المُخصَّص، لكن حساب أميريكان إكسبريس خاصة ديفيد يلهثُ الآن إزاء تكلفة مشترياتي العشوائية. آلة قهوة جديدة من أجود طراز، وصانعة

خبز جديدة من أجود طراز أيضًا، وبعض الجواهر، وكاميرا باهظة للغاية، وآلة تقطيعٍ وفرمٍ وتدخين مع كامل ملحقاتها، وتُحفة *المجموعة*: واحد من أفضل وأغلى أجهزة المشي في جيله.

ضاعَت آلاف الجنيهات.

مثل طفلة، أخذتُ حقيبة يدي المعلقة على ظهر أحد كراسي المطبخ ومررتها له، ثم رحتُ أراقبه بينما يخرجُ البطاقة النفيسة من المحفظة ويقصُّها.

قال:

- كنتُ أظن أن هذه بداية جديدة كما يُفترَض.

وهو يلقي الأرباع البلاستيكية في سلة المهملات. بدا في غاية البرود. أردتُ إخباره أن كل شيء سيكون بخير وأن يثق بي، لكنني عجزت. لقد بدأتُ المضيَّ في هذا الطريق، فعلُ أشياء تبعده عني وتدفعه ناحيتها، وعليَّ البقاء فيه. لا يمكنني أن أضعف. عليَّ الإيمان بلويز وبي وبديفيد لأُنجِحَ هذا.

غمغم قائلًا:

- ظننتُ أننا فرغنا من كل هذا منذ زمن بعيد.

وراح يحدق إلى الردهة حيث بدا وكأننا قد انتقلنا ثانية للتو، صناديق في كل مكان.

- سأرتبُ إعادة كل شيء (وتوقف قليلًا)، يمكنكِ الاحتفاظ بجهاز المشي إن شئتِ.

عرفتُ فيمَ يُفكِّر: يمكنه حبسي في المنزل لقسم أكبر من وقتي بذلك، فقلت:

- يمكنك إرجاعه.

لا يمكنه إلغاء اشتراك النادي الرياضي بأي حال، فقد دفعنا أجرة العام. كان ذلك أرخص، وكنتُ أحاول إسعاده آنذاك. *بدايتنا الجديدة*.

حدقتُ إليه. أيحملُ ولَو حتى قبس حبٍّ لي داخله؟ لا بدَّ أنه يحمل. لا بدَّ. عاد إلى حقيبتي وأخذ مفاتيح المنزل خاصتي.

- عليّ الذهابُ إلى المركز التوعوي. ليس أمامي أي خيار. لقد نظموا عيادةً، لكنني لن أغيب إلا ساعتين.

بالطبع عليه الذهاب، فالعمل أولًا. دائمًا ما يرغب في مساعدة الناس، باستثنائنا، باستثنائي، ذلك أنه استسلم من هذه الناحية. بالنسبة إلي، لا يوجد حل إلا الأقراص والأقراص والمزيد من الأقراص. لم أفهم لمَ أخذ مفاتيحي حتى ذهب إلى باب المطبخ وقفله ووضع المفتاح في جيبه، فأطلقتُ نصف ضحكة مزعجة، لم أقدر على منعها.

- أتحبسني؟

لم أصدق ذلك. زواجنا يبدو مثل سجنٍ منذ بعض الوقت، وكلانا شعر بذلك، لكن أيستحيلُ إلى سجّاني الآن؟

- هذا لمصلحتك.

تحلَّى على الأقل باللياقة الكافية ليحمرَّ وجهه ويتحاشى النظر في عينيَّ.

- لهذا الصباح فقط. لا يمكنني أن... لا يمكنني أن... (كان يكافح لإيجاد الكلمات) لا يمكنني أن أتشتت (أشار بضعفٍ إلى الرواق ثم إلى وجهي) بكل هذا، (ثم أشاح بوجهه، لا يمكنه تحمُّل النظر إليَّ) استريحي قليلًا، ربما سنحتاج إلى تغيير أدويتك ثانية. سأعدِّلها في الغد.

علقت في رأسي كلمة *أتشتت*. يقصد أنه لا يمكنه التشتت بالتساؤل أين أنا وماذا أفعل. حتى روتين مكالماتنا البسيط لا يكفيه.

ربما يجدرُ بك إنهاء مشتتاتِك بعدم مضاجعة موظفة استقبالكَ البدينة، هذا ما أردتُ صراخه في وجهه، لكنني لم أفعل. الأقراص التي جعلني أبتلعها أمامه بدأت عملها، وبدأت أشعرُ ببعض النعاس. ولستُ أمانع في الحقيقة، فبعض النوم سيسديني خيرًا.

رنَّ هاتفه ووصلَت وسيلة نقله. لم يأخذ هاتفي مني -سواء أكان عمدًا أم لأنه ما يزال يترنَّح تحت تأثير كل الأمور الأخرى ونسيَه- وأراحني ذلك. كنتُ قد خبأته تحسبًا، لكنني أخوض مخاطرات كافية، وربما سابقة لأوانها، بالفعل. الهاتفُ لوقتٍ آخر.

قال وهو يتجه إلى الباب:

- سنتحدث أكثر لاحقًا.

كانت كلماته فارغة، فالتحدث شيء لا نفعله حقًا. لا نتكلم عنا ولا نتكلم عن *هذا*. توقف ونظر إلى الخلف، وظننتُ أنه سيردف شيئًا، لكنه لم يفعل.

حدق أحدنا إلى الآخر لوهلة مديدة، كنا عاشقين ذات مرة، والآن صرنا محاربين صامتين، ثم ذهب.

سمعتُ المفتاح يدور في القفل السفليّ وشعرتُ أني مدفونة في منزلنا. من الغريب جدًّا معرفة أنني عاجزة عن الخروج، ولم أشعر بهذا القدر من العجز منذ وقتٍ طويل. ماذا لو شبَّ حريق؟ ماذا لو بدأ المنزل بالاحتراق وأنا نائمة بعد أن نعَّسني الدواء؟ ماذا لو وضعتُ مقلاةً على النار لتغلي ونسيتها؟ أفكِّر في أيٍ من هذه الأشياء؟ وقد شب حريق من قبل. ربما يظن أنني ماكرة بالحد الكافي في هذه الأيام لأخرج نفسي. ولأقول الحق، سيكون كسر النوافذ سهلًا بالحد الكافي إذا ما قررتُ ذلك.

وقفتُ صامتة وحدقتُ إلى الزجاج وفكرتُ بألسنة اللهب وراح دماغي يعجُّ بالأفكار، ثم أعادني الخفقان في وجهي إلى الحاضر. لقد أخذت كل أقراصه، لكن ما أريده حقًّا هو بعض الأيبوبروفين.

ابتلعتُ قرصين مع الماء ثم هبطتُ إلى مرحاض الطابق السفلي وأشعلتُ الضوء، وانحنيتُ فوق المغسلة لأعاين وجهي في المرآة. الكدمة واضحةٌ تمامًا، تتورَّد عاليًا فوق عظم وجنتي. كان جلدي متورمًا بشدة، ونكصتُ وقتما لمستها بلطف. في الليلة الماضية، لم تكُن إلا محضَ وهجٍ أحمر، أما اليوم فهي تطالب بحصتها من وجهي. لكن عيني ليسَت منغلقة، وهذا مريح. ستزول الكدمة في غضون أسبوع، واثقة من ذلك.

أكره ذلك. اختفى قلقه حيال الكدمة الآخذة في الاتساع في باكر الصباح وقتما بدأت أغراض تسوقي بالوصول، وكانت تلك نهاية الأمر. ثم المزيد من الغضب ونفس الأسئلة المتطلّبة من ليلة البارحة والتي ما زلتُ أرفض إجابتها. أراد معرفة أين كنت، ولمَ كنتُ خارجًا وقتما عاد إلى المنزل، وماذا كنتُ أفعل.

من الواضح أني عاجزة عن إخباره بمكاني الحقيقي -لقد خططتُ للوصول إلى المنزل قبله، لكنَّ توقيتي السيئ كان خطأً آخر في فشل الليلة الماضية الذريع- لكن ربما يجدر بي منحه شيئًا ما. أو لا. قد أكون الشخص

الحبيس، لكنَّ ما يريدُ معرفته حبيسٌ في رأسي، وسأرضى بهذا، غير أني على الرغم من ذلك، شعرتُ بالإرهاق بعد أن صرتُ وحدي.

ليسَ وجهي فقط ما يؤلمني، بل ذراعي وساقي تؤلمانني أيضًا. عضلاتي تصرخُ من فرط إجهادها، وحتى أضلاعي تؤلمني قليلًا.

إنني محتاجة إلى حمَّام، محتاجة إلى نقع كل شيء والتفكير. صعدتُ السلالم على مهل، يثقلني احتقاري لنفسي وإشفاقي عليها، وبعد أن فتحتُ الماء، نقلتُ قمصانه من خزانتنا إلى الخزانة الأصغر في غرفة النوم الاحتياطية. علقتها بالترتيب حسب اللون، مثلما يحب، ولمستها بكل الرقَّة التي لم يعُد بوسعي لمسه بها، ثم أحكمَ عدم الثقة في النفسِ قبضته عليَّ وشعرتُ بوحدة مفرطة.

أخرجتُ هاتفي من علبة الحذاء في مؤخرة الخزانة، المخبأة تحت زوجين ساتانيَّين من أحذية جيمي تشوز، ثم نزعتُ ملابسي وأنزلتُ نفسي في الماء الساخن الفقاعيّ. أبقيتُ الهاتف في متناول يدي، على غطاء المرحاض. ربما سيحاول الاتصال بي. لعله آسف. لعله سيخبرني بأنه يرغب في تحسين كل شيء، لكنها أفكار عقيمة، فقد قطعنا شوطًا بعيدًا في هذا الطريق الطويل.

أغمضتُ عينيَّ وتركتُ الماء يهدِّئ عضلاتي، فخفق نبض قلبي في وجهي في إيقاع ثابت لطَّفه أيًا كان الدواء الذي أجبرني على أخذه، ومنحني ذلك شعورًا سارًّا بطريقة غريبة. كنتُ موشكة على الاستغراق في النوم وقتما خضتني أزَّة ارتجاج حادة منهِضة إياي. كانت رسالة نصية من لويز، فحدقتُ إلى الشاشة، ذلك أنها لا تراسلني أبدًا في نهايات الأسبوع.

لقد فعلتها!

حدقتُ إلى الكلمات، ثم ابتسمتُ، على الرغم من الألم في وجهي. لقد فعلَتْها، لقد فعلَتْها بالفعل. تسارع قلبي، وراح يدق إيقاعَه في صدري وعظمي وجنتي. أحب لويز، أحبها حقًّا. كان بوسعي الانفجار اعتزازًا.

وفجأة، لم أعُد أشعر بالنعاس.

25

آنذاك

كان الدخان قويًا وحلوًا، وعندما أصاب رئتيها، شعرَت بصدمةٍ جعلتها تُعيده إلى الخارج في سعالٍ حتى أدمعت عيناها وراح كلاهما يضحك، على الرغم من أنها شعرت في صدرها مثلما شعرَت في الأيام اللاحقة للحريق.

استعاد روب السيجارة وأخذ بسلاسةٍ نفسًا عميقًا ملء رئتيه، ونفخَ دوائرَ دخان، ثم قال بلكنة أنيقة زائفة:

- وهذه، يا عزيزتي، هي الطريقة المثلى لفعلها.

- من أين جئت بهذه القذارة؟

حاولَت ثانية، وهذه المرة تدبرت محاربة باعثها على الاختناق. كان الطنين مباشرًا إلى حد ما، وشعرَت بدوخةٍ دافئة مدغدغة. راق لها الأمر.

هزهز حاجبًا لها:

- لديَّ وسائلي الخاصة التي لا يمكن مقاومتها.

- بجدية، من أين؟

روب بالنسبة إليها طاقة محضة. تحبه بعض الشيء، وتعرفُ ذلك. إنه مختلف للغاية. لم تلتقِ من قبل أحدًا على قدرٍ أكبر من اللامبالاة تجاه الأمور التي ينبغي للمرء أن يراها مهمة. كوجود خطة، أو مهنة. روب مثل الريح؛

هنا، وهناك، وفي كل مكان. والوجهة مجهولة. لا بدَّ أنه من الرائع للمرء أن يكون هكذا.

- مِن أحد الممرضين. أقنعته أن يأتيني به.

حدَّقت إليه:

- أيُّهم؟

لا يمكنها حتى تصوُّر كيف ستبدأ الحديث عن ذلك.

قال، مرسلًا بصره إلى الليل:

- أيشكِّل ذلك فرقًا؟ كلهم على قدم المساواة في البلادة. واحد منهم وحسب.

كانا مقفلَين أحد الحمامات عليهما، النافذة ذات الإطارين المنزلقين مفتوحة عن آخرها، ومحشور واحدهما في الآخر بينما يتكئان عليها ويدخنان. ذهبَت أديل إلى جناح الصبية على الرغم من تطوُّع روب للمجيء إليها. أرادت فعلها. أرادت المجازفة. الشعور بشيء ما. وقد كان الزحف عبر الأروقة إلى الدرَج المركزي، والتسلل من أمام الضوء الوحيد لمحطة الممرضين الليلية في الأسفل، ثم الصعود إلى الجناح الآخر المحظور في ويستلاندز -مُنعشًا. عندما وصلَت إلى هناك، كان نفسها منقطعًا والقهقهة تفيضُ منها، والآن ينتابها شعورٌ متوقِّدٌ بعد أن أحرقت الحشيشةُ رئتيها.

تساءَلت من أي ممرضٍ حصل عليها ولمَ رفض إخبارها. هل لأنها لم تخبره بسبب مجيء المحامي؟ هو لم يسألها، لكنها تعرفه بالقدر الكافي لتعرف أن ذلك ليس لقلة فضوله. بالطبعِ يحدوه الفضول، ذلك أنه أذكى شخص تعرفه، فيما عدا ديفيد ربما. أخذت السيجارة منه وجرَّت نفسًا. هبَّ نسيم بارد رفع شعرها وشعرت وكأنها تطير. ضحكَت بعض الشيء أيضًا، بلا سبب. إنها تطير. ربما ستخبر روب بأمر المحامي، فلديهما سرهما الخاص الآن بأي حال. ثم بدأ روب الكلام كما لو أنه ينطق بالتناغم مع تفكيرها.

- إلى أين تذهبين في حلمك؟ أعني، ماذا يقبع في الجانب الآخر من بابِكِ؟

قالت:

- أماكن مختلفة.

وهذا التفاف على الحقيقة، فالتفسير أصعب بالنسبة إليها، ذلك أن وقتًا طويلًا قد مرَّ على بابها الأول، والأمر مختلفٌ الآن، هو كذلك منذ بضع سنوات، وروب جديد على كل هذا.

- حسب حالتي المزاجية.

قال:

- إنه لفي غاية الغرابة. غريب، لكنه رائع.

مرَّت خمس ليلات منذ تمكَّن روب من الأمر، ومذ ذاك الوقت وهو أشبه بشخص موهوب بالفطرة. هي تعرفُ أنه لا يكذب -وليس أنها تظنه قد يفعل- لأن كل المعالجين يرون حالته آخذة في التقدُّم، وكلهم معتد بنفسه، فهو الصبي الذهبي في ويستلاندز الآن لأنه بات ينام دون صراخ؛ يظنون أنهم عالجوه، ويظنون أنهم ساعدوها أيضًا. يا ليتهم يعلمون أنهم لا علاقة لهم بالأمر. ثمة أبواب في الذهن يجب فتحها، لكن ليس كما يظنون على الإطلاق. كيف سيتعايشون مع الحقيقة؟ سيحتاجون إلى علاج نفسي على الأغلب. قهقهت بصوتٍ عالٍ إزاء تلك الفكرة. إنها تبدأ بالتفكير مثل روب.

قال:

- إنه أشبه بوجود العالم في متناول يديكِ.

أومأت برأسها:

- أجل. ولا مزيد من الكوابيس.

قال:

- نسأل الله هذا.

ومرر لها الحشيشة. كانا قد أنهياها تقريبًا، لكنها لا تمانع ذلك، فرأسها يعومُ وتظن أن المزيد قد يشعرها بالغثيان، بيد أن شعور الغرابة في جلدها يروق لها، وليست ترغب إلا في الضحك. كل شيء مضحك. ابتسمَت لروب ابتسامةً عريضة وردَّها لها ولم يحتاجا إلى قول أي شيء. بعد برهة، أرخَت رأسها على ذراعه، كانت نحيلة وهزيلة، مختلفة جدًّا عن كتف ديفيد العريضة وعضلات ذراعه التي قوَّتها المزرعة. ستتدلى ساعة ديفيد من معصم روب

بنفس ارتخاء تدليها من معصمها. لكن الاتكاء على روب يُعطي شعورًا طيبًا، تشعرُ بالأمان.

لا يمكنها أن تعيش هذه اللحظة مع ديفيد أبدًا، وهذا يحزنها بعض الشيء. بالكاد يحلمُ ديفيد، ناهيكَ بأن تراوده كوابيس. لم ينصت ديفيد وقتما حاولت إخباره. لن يقدر ديفيد على فعل ما فعله روب أبدًا، وتلك حقيقة بسيطة، لكنها لا تمنعها من الشعور بالروعة لأن ثمة أحدًا ما يمكنه، صديق يمكنه، شخص ما يمكنها مشاركته معه، بعضه على الأقل.

26

أديل

لقد وفى بوعده، ولم يغِب إلا ساعتين. كنتُ وديعةً وقتما عاد إلى المنزل، وعلى الرغم من أن رسالة لويز قد رفعت معنوياتي، ظلت أحداث الليلة الماضية وفشلي التام تطاردني، فقد وثقتُ بنفسي أكثر مما يجب، وباتت ثقتي الآن متقلقلة بالكامل وأشعرُ بوحشةٍ شديدة.

قلتُ بصوتٍ خفيضٍ وقتما وجدني في المطبخ، مذعنة إذعانًا ملائمًا:

- نقلتُ ثيابك إلى الغرفة الاحتياطية.

أعاد مفتاح باب المطبخ إلى القفل، وتحلى على الأقل باللياقة الكافية ليبدو متضايقًا إزاء حجزي هنا. ظل مديرًا ظهره لوهلة ثم استدار، وكانت حميَّة الشجار قد غادرت كلينا، وهبطَت كتفاه بقدر هبوط كتفيَّ.

- لمَ طليتِ غرفة نومنا وردهتنا بهذه الألوان؟

سألني هذا السؤال مراتٍ عديدة بالفعل، لكنني أحب قوله "نا"، كما لو أننا ما زلنا "نا" بطريقة أو بأخرى.

قلت:

- إنها مجردُ ألوان يا ديفيد (مرددةً نفس الإجابة التي منحته إياها في كل مرة)، وأنا أحبها.

رمقني بتلك النظرة ثانية، كما لو أنني مخلوق فضائي من كوكب آخر لا فرصة أمامه في فهمه أبدًا. فهززتُ كتفيَّ؛ هذا كل ما لديَّ.

- لا تطلي الغرفة الاحتياطية.

أومأتُ برأسي:

- آملُ أن يكون نومك هناك مؤقتًا.

هذا هو حديثنا. هذا اللاتواصل التام. ربما هو مَن يحتاج إلى كل تلك الأدوية، بدلًا من قضاء الأيام في شرب يودي بدماغه إلى البلادة. ذلك ليس في صالحه، ليس في صالح المستقبل، وعليه أن يتوقف. لكنني لست في موقفٍ يسمحُ لي بالتصرف بحزمٍ الآن. ربما سيكُفُّ عنه وقتما ينتهي كل هذا، ربما سيسمح لي بمساعدته حينذاك.

مضى واختبأ في مكتبه، مغمغمًا بشيء ما يخص العمل، وانتهت المحادثة للوقت الراهن. افترضتُ أن النظر إليَّ جعله يرغب في كأس من البراندي ولم أُرد تحليل أسباب ذلك.

تركته يذهب ولم أواجهه بحقيقة معرفتي بامتلاكه عدة قنانٍ من المشروبات الكحولية في مكتبه وبأنني ربما لست الوحيدة التي تخفي أسرارًا في هذه الزيجة، مهما كان يظن نفسه مُحسِنًا إخفائها عني. فعلتُ بدلًا من ذلك ما أبرعُ بفعله، وبدأت بتحضير لحم الضأن المشوي للعشاء. ثمة شيء ما يدفئ القلوب في العشاء المشوي، ويحتاج كلانا إلى ذلك.

تبَّلت اللحمَ بالروزماري والأنشوفة التي حشرتها في الجلد الدسِم، ثم قطَّعتُ وقليتُ وطهوتُ أطباقي الجانبية من البطاطا والخضار، وجعلَ البخار كدمتي تخفق. كنتُ قد غطيتها بمساحيق التجميل، وديفيد لا شكَّ يظنُّ أنني فعلتُ هكذا لإخفائها عنه، لكنه سيكون مخطئًا إن فعل، فذلك لأخفيها عن نفسي. إنني مترعة بالعار إزاء ضعفي الشخصي.

مددتُ طاولة العشاء مستخدمةً أفضل أطقم عشائنا وأشعلتُ الشموع وفرشتُ كل الأطباق بيننا قبل أن أدعوه، ثم صببتُ له كأس نبيذ على الرغم من أن كأسي مملوءة بمياه سان بيليغرينو المعدنية فقط. لستُ واثقة مما إن كنتُ

فعلتُ كل هذا لأرضيه، أم لأسلّي نفسي بعد بشاعة الليلة الماضية، وانتظرتُ أمارة استحسانٍ ما، لكنه بالكاد أدرك جهودي.

كان طبقانا ممتلئين، لكن لم يأكل أيُنا حق الأكل. حاولت الدردشة وسؤاله عن عمله التوعوي -وكأنني أهتم- لكنه قاطعني.

- ما الذي يجري يا أديل؟

رفعتُ بصري إليه، ومعدتي في ضيقٍ مزعج. لم يكُن قلقًا، بل لا مباليًا، والأمر كله جزء من خطتي، لكنه ليس ما أريد. وإنني بالتأكيد لا أريده بعد. حاولتُ التفكير بشيء أقوله، لكن قحلت كلماتي. لم آمل إلا أن أبدو مليحة تحت ضوء الشموع، على الرغم من الكدمة الموشاة التي يحاول ألا يراها. ثم وضع شوكته وسكينه.

- ما حدث قبل انتقالنا، كان...

- كان خطأك.

تمكنتُ من الكلام الآن، وإن كان صوتي شبه منتحب، مثل جرِّ أظفار على سبورة.

- أنت تعرف ذلك. أنتَ قلتَ ذلك.

- قلتُ ذلك لأهدئكِ. لم أعنِه. أردتِ بدايةً جديدة وحاولتُ منحكِ واحدة.

لا يمكنني تصديق أنه يتمتع بالوقاحة الكافية لقول ذلك. إنه يضاجع موظفة الاستقبال لديه! يا لها من بداية جديدة! أنزلتُ سكيني وشوكتي، ووضعتهما بعنايةٍ على حافة صحني. ستضيعُ الجهود التي بذلتها من أجل العشاء هباءً.

قلت:

- أعترفُ بأنني ارتكبتُ بعض الأخطاء، وإنني في غاية الأسف. أنتَ تعرفُ أنني لستُ سليمة، وأظن أن الانتقال أربكني.

هزَّ رأسه:

- لم أعد قادرًا على السيط... لم أعد قادرًا على الاعتناء بك. سأسألك مرة أخرى: إلى أين ذهبتِ ليلة البارحة؟

السيطرة. هذه هي الكلمة التي أراد قولها. لم يعُد قادرًا على السيطرة عليَّ.

قلت:

- خرجتُ لأتمشى، ولم أشعر بالوقت.

حدق واحدنا إلى الآخر وحاولتُ الظهور بمظهر البريئة، لكن ذلك لا ينطلي عليه.

أردفتُ:

- صدقًا.

وندمتُ على ذلك من فوري. إنها الكلمة التي يستخدمها الجميع عندما يكذبون. *صدقًا، إنها صديقة* وحسب؛ هذا ما قاله ديفيد عندما كنا نعيش في بلاكهيث. وحسنًا، لعله لم ينكحها، لكنها كانت أكثر من مجرد صديقة.

قال:

- لا يمكن لهذا أن يستمر.

أهو يتكلم عنا أم عني؟ أيريدني حبيسةً في مكانٍ ما؟ دار إقامة أخرى حيث يمكن للناس *مساعدتي*، لكن هذه المرة على المدى الطويل؟ بينما يهيم على وجهه بمالي وحريته؟ يهيج هذا فيَّ الرغبة في البكاء.

قلت:

- لعلّي فوتُّ بضعة أقراص.

وهذه مخاطرة، إذ لا أريده أن يرجع من العمل ليحرص على أخذي إياها، فأنا محتاجة إلى ذهنٍ صافٍ ودماغي يعمل جيدًا بأي حال.

- سأسوِّي الأمر. أنت تعرفُ ذلك.

وكأن الأيام الخوالي تكرر نفسها، لكنه الآن لا يتمتعُ بوفرة الحبِّ التي أقاتته ريثما لملمتُ شتات نفسي. لقد جفَّت تلك البئر.

قلت:

- أنت تعرف أنك عاجز عن هجري أبدًا يا ديفيد (من الجيد نطق اسمه جهارًا)، أنت تعرف ذلك.

وكان تهديدًا، لطالما كان تهديدًا.

وها هوَ الماضي، يجلس بيننا بجوار كُراثي المُحمَّص والمدهون وجزراتي اللماعة وثلاثة صنوف من البطاطا، وأعرف أنني -على الرغم من كل شيء- أقوم بالفعل الصحيح لأنقذ زواجي.

قال، وهو يدفع كرسيه خلفًا:

- أعرف. أعرف (لم ينظر إليّ بينما مشى ناحية الباب)، سآخذ حمامًا ثم سأنام مبكرًا.

قلتُ لألَيّن كلماتي الأخيرة:

- سأعيد طلاء غرفة النوم، إن رجعتَ إليها.

ألقى نظرة ناحيتي ثم أومأ برأسه إيماءة لا تكاد تُلحَظ، لكن الكذبة في عينيه. ثمة سرير واحدٌ يريد أن ينام فيه، وذاك ليس سريري. تساءلتُ عما تفعله لويز. تساءلت عما إذا كانت تفكر بي أم به. تساءلت عما إذا كان كل تخطيطي سيذهب أدراج الرياح.

لقد انتهى العشاء على ما يظهر. راقبته يغادر، ثم ما إن سمعتُ الخطو الثقيل على السلالم حتى نهضتُ وابتلعتُ نبيذه. نظرتُ إلى الأطباق، بقايا الطعام، هذه الحياة التي حاربت بشدة من أجلها. وراحت كدمتي تخفق بعنف بينما أقاوم الدموع، ثم أخذتُ نفسًا عميقًا مرتجفًا. لم يكن البكاء من عادتي البتة. لستُ أدري ما الذي أصابني. لقد تغيرتُ. كدتُ أطلق ضحكةً بكّاءة على ذلك. على الأقل ما زلت محافظة على حس دعابتي.

كنت أنقع مقلاة التحميص وقتما رن جرس الباب، دقة قصيرة حادة. ذهبتُ إلى الردهة وألقيتُ نظرة إلى الدرج، لكن مياه الحمام جاريةٌ وديفيد لم يسمع. شعرتُ بانقطاع النفس. من قد يكون الطارق؟ لسنا معتادين الزوار العابرين، وليس لدينا أصدقاء، إلا لويز، ولويز لن تأتي إلى هنا. أيمكن أن تأتي؟ ليس هذا أوان اعترافها. سيُعقّد ذلك كل شيء.

فتحتُ الباب بوصة أو اثنتين لأنظر عبر الفُرجة. كان الشابُ واقفًا بأعصابٍ متوترةٍ على الدرجة الثانية للباب الأمامي، كما لو كان خائفًا تقريبًا من الصعود.

سألته بهدوء بينما وسّعتُ فتحة الباب:

- أيمكنني مساعدتك؟

قال:

- هل الدكتور مارتن موجود؟ أنا أنتوني، أخبريه أن أنتوني هنا. أنا أحد مرضاه.

كان مخفضًا ناظريه، لكنه حينذاك رفعهما وألقى نظرة ناحيتي، ورأيتُ نفسي كما لا بد رآني: حسناء واهية بعينٍ مكدّمة. فجأة، وجدتُ

استخدامًا لليلة الماضية، فنظرتُ من فوق كتفي، كما لو أنني خائفة، قبل أن أجيب.

أبقيتُ صوتي خفيضًا:

- لقد خلدَ إلى الفراش إثر صداع أصابه. أعتذر منك.

سرَّني أنني لم أتأنق زيادةً هذا المساء، إذ كنتُ لأبدو -على الرغم من الكدمة- متحفظة أكثر مما ينبغي، بعيدة المنال. كنتُ أرتدي فستانًا صيفيًّا طويلًا ذا رباطين، وشعري مُرسل. ظلَّت عيناه متعلقتين فيَّ، وأعرفُ تلك النظرة، رأيتها في أعين رجالٍ كُثر قبلًا: اندهاش وتعطُّش وشهوة. لي هذا التأثير عليهم. وأظنه نسي أمر ديفيد بالفعل.

قلت:

- أنا زوجته (ومن ثم -من باب الإضافة- أردفتُ) يمكنني محادثتك.

كانت يدا الصبي النحيل داكن الشعر ترتعشان، وإحدى قدميه تنقرُ الدرجة، لكنه ليس مدركًا لذلك. كان مرتديًا قميصًا أسود، وأمكنني رؤية آثار علامات تعاطٍ على ذراعيه. تعرَّفتُ ماهيته.

مِلتُ إلى الخارج وهمست:

- عليك المغادرة (عارفةً خير معرفةٍ أني بانحنائي إلى الأمام بعض الشيء منحته نظرةً مثيرة إلى صدري) أرجوك (ورفعتُ يدًا إلى وجهي تقريبًا، حيث تشوه الكدمة المتنامية بشرتي) هذا ليس وقتًا مناسبًا.

سألني:

- أأنتِ بخير؟

وكانت لهجته واضحة الانتماء إلى الطبقة الوسطى، على خلاف مظهره.

كررتُ:

- ارحل أرجوك، أظنه قادمًا.

حرصتُ على وجود لمحة إلحاحٍ باهرةٍ في صوتي، ثم أغلقتُ الباب. رأيتُ عبر الزجاج أنه تلكأ بضع لحظات إضافية ثم اختفى شبحه الداكن.

اتكأتُ على الخشب. أنتوني. اسمه مثل غذاء الخلود الحلو بين شفتيَّ. ارتخت كتفاي مع تلاشي فشل الليلة الماضية أخيرًا. ربما سيتكلل كل شيء بالنجاح بعد لأي.

27

لويز

قلتُ مشدوهةً:

- ما الذي حدث بحق الجحيم؟

اليوم الأربعاء وهذا أول لقاء لي بأديل هذا الأسبوع، والآن بتُّ أعرفُ لمَ.

كنتُ أظنُّ أنها لا شكَ ستكلمني صباح الاثنين، لا لأن النادي الرياضي قد صار جزءًا من روتيننا الجديد إلى حد ما وحسب، بل أيضًا لأنني كنتُ متحمسةً للغاية للتحكم بأحلامي، وعلاوةً على ذلك، ظننتُ حقًّا أنها ستكون متحمسةً أيضًا. ظننتُ أنها سترغب في سماع كل شيء. لكنها ظلت صامتة. فكرتُ بإرسال رسالة أخرى لها، غير أنني لم أُرد أن أبدو عائزة، كما أنني أرتاد النادي الرياضي بموجب عضويةٍ ضيفٍ دفعَت أجرها هيَ ولم أُرِد أن أظهر وكأنني أعدُّ ذلك واقعًا مستمرًّا.

في البداية، كنتُ منزعجةً بعض الشيء فقط، لكن بحلول مساء الاثنين، وقتما بقيتُ جالسةً وحدي في المنزل ولم يظهر ديفيد أيضًا، تحوَّل ألمي إلى قلق. أتراني أوقعتُ أديل في ورطة برسالتي التي أرسلتها نهاية الأسبوع؟ أترى ديفيد رآها؟ لكن لو رآها لأتى حتمًا وأراد معرفة ما يجري. من الممكن أنها سجَّلت رقمي تحت اسم زائف، وربما فعلَ كذلك. لكن إن كان هكذا، إذن لمَ لم تُكلمني؟ أأخذ هاتفها؟

البارحة، كان ديفيد هادئًا في العمل، ولم نتشارك أيًّا من الابتسامات وتورُّدات الوجوه التي كنا نتبادلها مؤخرًا، وعندما خلدتُ إلى السرير الليلة الماضية بعد أمسية ثانية قضيتها وحدي، شعرتُ أن كليهما هجرني، واحتجتُ إلى كامل قوَّتي لئلا أراسله لأطمئن أن كل شيء على ما يرام. كان شعوري بخواء حياتي دون وجود أيهما فيها غريبًا، وأقلقني ذلك أكثر. كنتُ *في* حاجة إليهما. آلمني مرأى ديفيد يتفاداني، وعدم مكالمة أديل إياي أضرم النيران في مخيلتي. هل أخبرا بعضهما بعضًا بشأني؟ هما وأنا، دائمًا هما وأنا، مهما شعرتُ أنني محشورة بين اثنينهما. محشورة أو محاصرة. واحدة من الاثنتين.

أما الآن، فأديل أمامي، ويمكنني أن أرى لمَ لم تُرد اللقاء في وقتٍ أبكر. شعرتُ ببعض الغثيان. كانت قد حاولت تغطية الكدمة الآخذة في التلاشي بمساحيق التجميل، لكنها ما تزال واضحة. تدرجات أرجوانية وخضراء داكنة كئيبة على عظم وجنتها المثالي. بطريقة ما، جعلها كريم الأساس أكثر بروزًا، متكتِّلًا ومتقشرًا فوق الألوان.

قالت، مركزة على القيادة، أو متظاهرةً بالتركيز كي لا تضطر إلى النظر إليَّ:

- أوه، لا شيء يُذكر، حادث سخيف. فتحتُ باب الخزانة ليرتطمَ بوجهي، مثل البلهاء.

حاولَت أن يشي صوتها بخلوِّ بال، لكنني لم أصدقها، وتعرَّقت ساقاي على مقعد السيارة الساخن. شيء ما قد حدث. أمعنتُ النظر إليها بينما شغلَت الغمَّاز وانعطَفَت؛ بدَت متقلِّصة، ومُعذَّبةً حتى. كان شعرها فاقدًا بريقه، وشعرتُ للمرة الأولى أنني أنا المشرقة، لا هيَ. لقد غيرتني بضع ليلات من النوم الهانئ، وصرت أشعر بالتجدُّد والنشاط. لم أشعُر بهذه السلامة منذ سنين، إن كنتُ قد شعرتُ بها قط. أشعرُ وكأنني نسخة جديدة مني، وأريدُ الاحتفال بذلك مع صديقتي، لكن الآن، بعد أن رأيتها بهذه *الضآلة*، أكادُ أشعرُ بالذنب حيال بهجتي.

تابعَت:

- كنتُ أفكر في أننا قد نتخلى عن النادي اليوم، فلستُ في المزاج الملائم له حقًّا، وإنه لنهار بهيٌّ، فلنتناول الغداء في الحديقة ويمكنكِ إخباري عن أحلامك.

ابتسمَت حينذاك ورأيتها تجفل بعض الشيء. ارتعاشة، لكنها كافية لأعرف أن الكدمة ما زالت تؤلمها.

قلت:

- بالتأكيد.

ودماغي يعمل مثل محركٍ. من يفتح باب خزانة ليرتطم بوجهه؟ بهذا القدر من القوة؟ أذلك ممكن حتى؟ مكالمات *هاتفية. أقراص. كدمات.* كلها تجعل معدتي تنقبض بشدة، كل الدلائل التي أستميتُ لتجاهلها على أنَّ ديفيد يعاني مشكلة جدية. أديل تعشق النادي، فلمَ لا ترغبُ في الذهاب؟ ألديها مزيد من الكدمات على جسدها تخشى أن أراها في غرفة تبديل الملابس؟

أردتُ أن أقول شيئًا ما، أن أطمئن من أنها بخير، ثم رنَّ هاتفها الراقدُ في جيب المفاتيح، ولم أحتَج إلى السؤال عن المتصل.

قالت بعد أن أجابت:

- إنني ذاهبة إلى النادي فقط (بدت شبه متأسفة) بلى، هذا صحيح. لا، سأذهب إلى المنزل مباشرة. أعدُك. حسنًا، سأكلمك آنذاك. إلى اللقاء.

قُلت بجفاف:

- حسنًا، كان ذلك شاعريًّا.

وفتحتُ النافذة، فقد كان الجو حارًّا في السيارة وشعرتُ ببعض الغثيان بعد رؤية الكدمة وسماع المحادثة. انتابني شعور مريع. غاضبة، منزعجة، مشوشة. لم يتحاشَ ديفيد فراشي لإعادة إحياء زواجه، وهذا مؤكد.

- أخضتما جدالًا؟

لم أستخدم كلمة شجار، إذ لا أريدها أن تظنني أسألُ عما إذا كان ديفيد ضربها، على الرغم من أن هذا هو ما أسأل عنه *بالضبط*، وإن كنتُ عاجزة عن تصور ذلك فعلًا. ليس ديفيد خاصتي بأي حال. ديفيد أديل شخص غريب.

قالت:

- أوه لا (لكنها لم تنظر إليَّ وهي تركن السيارة) لا، لا شيء من هذا القبيل. إنه الزواج وحسب، كما تعلمين.

أدركتُ أنني لستُ أعلم. لستُ أعلم شيئًا عن زواجهما، لكنه يبدو مختلفًا للغاية عن معظمها، وحتمًا عما كان بيني وبين إيان. كنتْ وإيان متدبرين حياتنا معًا، قبل علاقته الغرامية، مثل أي زوجين آخرين. وعلى الرغم من الخلاف العجيب، لم أخَف منه قط. لا يشبه ديفيد وأديل ذلك في شيء. المكالمات الهاتفية، وهلعها، وتقلباته المزاجية، والأقراص، والآن هذا. كم يفترض بي أن أتجاهل لأنه يبدو مختلفًا معي؟ إنني أحب أديل، لقد منحتني القدرة على النوم كما يجب في الليل، وهذا أفضل الأشياء على الإطلاق. لا أريدها أن تكون تعيسة ومجروحة، لكن مشاعري تجاه ديفيد حقيقية أيضًا. أأتصرف بحماقة؟ أهو مُعنِّف؟ أسأكون صاحبة العين المكدَّمة قريبًا؟ كل ذلك يبدو سرياليًّا.

رحتُ أفكر وأنا أخرج من السيارة *"أيمكنُ أنه قد ضربها؟ حقًّا؟"* بالتأكيد لا. لعل أديل تقول الحقيقة وقد تعرضت لحادث غبي في المنزل ليس إلا. لعل هذا هو سبب عدم مجيئه إليَّ؛ كان يعتني بها. أيشعرُ بالذنب؟ انسلَّ التوترُ من معدتي بعض الشيء بينما تشبثتُ بهذا التفسير وتبعتُ أديل إلى الباب الأمامي. حادث، وهذا كل ما في الأمر.

كان ثمة جهاز مشيٍ مُعلَّب في الردهة، وضحكَت أديل وقتما رأيتُه، مصدرةً صوت تكسُّر زجاج رنَّان. قالت إن ديفيد اشتراه لها هديةً، لكنهما سيرجعانه، إذ لم تُرد ترك النادي.

اكتأب مزاجي ثانيةً بينما أخذ رأسي يضيف القطع الجديدة للأحجية. أكان القصدُ منها أن تكون هدية لطيفة، أم ثمة دافع أكثر خبثًا خلفها؟ هل يحاول ديفيد غلَّها إلى المنزل أكثر لأنها إن لم تذهب إلى النادي، فستنقصُ أسباب خروجها والتقائها أناسًا جددًا؟ ربما سبَّب ذلك شجارًا. أحاولَت إثبات وجودها فلكمها؟ والآن، بدافع الشعور بالذنب إزاء سلوكه، رقَّ قلبه وسيرجع الجهاز؟ لكن إن كان غيورًا إلى هذا الحد من كيفية قضائها وقتها وقتما يكون في العمل، إذًا لمَ ينام معي؟ لم ليس في المنزل معها طوال الوقت؟ ولمَ ليس غيورًا فيما يخص مكاني وقتما لا أكون معه؟ ربما ما يزال الوقت مبكرًا لنبلغ

بعلاقتنا ذلك المبلغ. لقد رأيتُ تلك الأفلام حيث يكون الرجال أخّاذين تمامًا في البداية، ثم يخرجُ العنف. مجردُ التفكير بديفيد والعنف في الجملة نفسها يعطي شعورًا غريبًا. لعله ببساطة لا يهتم لأمري بالحد الكافي ليرغب في معرفة كل تحركاتي. حاولتُ محادثة نفسي: "*ربما لم يضربها على الإطلاق*".

سألتها عندما صرنا في المطبخ:

- أي خزانة؟

كان جزء من دماغي يأمرني بالصمت وإهمال الموضوع، لكن فضولي يمنعني، فنظرَت إليَّ بِحيرة وهيَ تجلب الصحون وتأخذ بعفويةٍ بتحضير وجبة غداء من الأطباق الخفيفة التي لا يبدو أنها تنطوي على ترك سلطة الكولسلو والحمص في علبها وإلقائها على الطاولة مثل الناس الطبيعيين.

- أي خزانة؟ أقصد...

ولوحتُ بيدي حول وجنتي.

قالت:

- أوه! أوه ذاك.

مرَّت عيناها بهياج على صف الخزائن للحظة.

- تلك، فوق الغلاية. يا للسخف حقًّا، أردتُ قرص أيبوبروفين وكان الإبريق يغلي فداهم بعض البخار عينيَّ، لذا عجزتُ عن رؤية ما كنتُ أفعل. في غاية الغباء.

أومأتُ برأسي وابتسمتُ، لكن أخذ قلبي يضربُ بعنف وعرفتُ أنها تكذب. لقد اختارت بعشوائية، وبحسب ما أرى، فإنني واثقة من أنها يجب أن تكون منحنية قليلًا ليضرب حرف باب الخزانة وجنتها. لم يسعني تصوُّر كيف يمكن أن يضربها في وجهها مباشرة إن كانت هي مَن فتحته. وإن حدث ذلك، فلن يكون بقوة كافية لتسبب تلك الإصابة. إنها كدمة آخذة في التلاشي، لذا لا بد أنها موجودة منذ بضعة أيام.

اقتربتُ جدًّا من طرح السؤال الذي كان يطنُّ بيننا -*أكان ديفيد مسببها؟*- لكنني جبُنت. لا أظن أنني أريد أن أعرف، ليس هنا وليس الآن. ليس في المكان الذي لا يمكن السيطرة على ردة فعلي فيه. سيظهر شعوري بالذنب،

وسينتهي بي المطاف أخبرها بما كنتُ أفعله معه، ولا يمكنني فعل ذلك. لا يمكنني؛ سأخسر كليهما. وبأي حال، هي أكثر هشاشة من أن تتحمل ذلك الآن، على الأرجح أنه سيكسرها.

بدلًا من ذلك، تناولتُ -وما زلتُ أشعر بالغثيان- قنينة مياه إلدرفلاور الفوارة وكأسين وأخذتهما خارجًا إلى الهواء الطلق. لأول مرة منذ عصور أشتهي سيجارة حقيقية، واندفعتُ أخرج سيجارتي الإلكترونية من حقيبتي بأقصى سرعتي.

قالت حالما انضمت إليَّ حاملة صحنين مليئين، ما بدا رائعًا على الرغم من أنني لا أشعر برغبة في الأكل البتة:

- إذن، أخبريني! أفعلتِها حقًّا؟

- أجل.

نفثتُ شعاعًا طويلًا من الدخان، تاركة النيكوتين يهدئني قليلًا. للمرة الأولى اليوم، رأيتُ سعادة حقة في وجهها، وصفَّقَت بيديها مرحًا مثل طفل.

- كنتُ أعرفُ أنك قادرة على فعلها. كنتُ أعرف.

ابتسمتُ. عجزتُ عن تمالك نفسي، وأخرجتُ ديفيد من أفكاري آنيًا. كنتُ *أفضِّل الأمور*. ما يجري الآن يخصني وأديل، أما زواجهما فليس من شأني. وأيضًا، بأنانية، كنتُ أتحرقُ شوقًا لأخبرها منذ استيقظتُ صباح يوم الأحد.

قلت:

- أشعر بالكثير من الارتياح. لم أعرف قط كمَّ الفرق الذي يمكن لبضع ليلات من النوم الهانئ إحداثه في حياتي. صار عندي طاقة إضافية جمة.

- حسنًا، أخبريني بحقك! كيف فعلتِها؟

هززتُ كتفيَّ:

- لقد حدث الأمر وحسب. كان سهلًا بحق. غططتُ في النوم وأنا أقرأ المفكرة التي أعطيتِنيها، وفيها كان روب قد وجد باب أحلامه، لذا لا بدَّ أن ذلك تسرَّب إلى عقلي الباطن. إذن، كنتُ في كابوسي المعتاد: آدم ضائع في ذاك المنزل الكبير القديم المهجور ويناديني وأنا أحاول

العثور عليه بينما تتحرر تلك المحاليق[1] الداكنة من الجدران وتحاول القبض على حلقي...

شعرتُ بالسخف وأنا أحكيه لأنه يبدو غبيًا، لكن أديل مستغرقة.

- ثم توقفتُ عن الركض وفكرتُ: "ليس لزامًا عليَّ أن أكون هنا، هذا حلم"، ثم رأيته على الأرض أمامي.

قالت:

- باب؟

أومأت برأسي:

- باب بيتي الدُّمية القديم وقتما كنتُ طفلة، ورديٌّ ومزينٌ بفراشات مرسومة، لكنه أكبر، وكأنه كبُر معي. وقد بزغ هناك وحسب، من اللامكان. أعادت رؤيته ذكرى المنزل الذي كبرتُ فيه قبل أن يغرُب والداي إلى أستراليا ليحاولا إنقاذ زواجهما البائس، ومن ثم جثوت وفتحتُ الباب، وتركتُ نفسي أسقط، فصرتُ هناك، عدتُ إلى ذلك المنزل، مثلما كان بالضبط وأنا صغيرة.

- وما حدث للباب؟

- نظرتُ إلى الأعلى، وإذا به لم يعُد موجودًا. فعرفتُ أنني فعلتها.

- ولم تستيقظي؟ وقتما أدركتِ أنك كنتِ تسيطرين على كل شيء؟ استغرق روب عدة مرات قبل أن يتدبر البقاء في الحلم، كما أظن.

- لا، كنتُ على ما يرام.

أخذت معدتي تستريح وأكلتُ حبة فلفلٍ أخضرِ محشو بالريكوتا قبل أن أتابع، مستمتعةً بمشاركة تجربتي:

---

(1) محلاق: فرع أو ورقة متحورة في النباتات المتسلقة لمساعدتها في التسلق. -المعجم عربي عامة. (المترجم)

المِحْلاقُ من الكَرْم ونحوه: الحالِق. والجمع: مَحَالِقُ، ومحَالِيقُ. -المعجم المعجم الوسيط. (المترجم)

- تجولتُ في المنزل، وأكلتُ بعضًا من فطيرة التفاح التي تعدها أمي والتي كانت في الثلاجة، ثم صعدتُ إلى غرفتي القديمة، ومضيتُ إلى سريري ونمت.

- نمتِ؟

حدجتني بنظرة ما بين الشكّ والضحك.

- كان بوسعكِ اختلاق أي مكان لتذهبي إليه ونمتِ؟ أوه يا لويز!

هزت رأسها وضحكت، ولم تجفل هذه المرة. لقد حسَّنتُ من حالها أيضًا.

قلت:

- لكن رباه، يا له من نوم رائع! لقد مرَّت بضع الليلات السابقة مذهلة. أظن أن بوسعي القول بأمانة إنك غيرتِ حياتي. لم أكُن مدركة كم كنتُ متعبةً طيلة الوقت.

ألقَت بقطعة صغيرة من الخبز والحمص في فمها وهزَّت رأسها بينما مضغتها، وما يزالُ التمتُّعُ رفيقها:

- مضيتِ إلى السرير.

- أعرف...

حان دوري لأضحك.

قالت:

- ستشعرين بنفس القدر من الراحة مهما فعلتِ، ثقي بي في ذلك. يمكنك الذهاب أينما تريدين مع من تريدين. إنه حلمك، وأنت المسيطرة.

- هممم، تقولين أينما أريد ومع من أريد، صحيح؟ (هزهزتُ حاجبًا) يخطر روبرت داوني جونيور في بالي، لكن سينطوي ذلك على سرير أيضًا.

ضحكت كلتانا، وشعرتُ بموجة عاطفة تجاهها، إنها صديقتي، وأنا عاهرة. ليس لديها الكثير من الأصدقاء، وتلك التي كانت تساعدُها، تنامُ مع زوجها، الذي يعاملها بالقدر الكافي من السوء أصلًا. جعلتني مساعدتها لي أفكر بروب صاحب المفكرة.

قلت:

- ذهب روب إلى شاطئ في حلمه، وتخيلك هناك.

كنتُ قلقة بعض الشيء حيال ذكر المفكرة في حالِ تذكرت كمَّ التفاصيل فيها وأرادت استعادتها، لكنني أقوم بالكثير من الخطأ إلى درجة تجعلني أرغبُ في فعل شيء صحيح *واحد* على الأقل. لا أريدُ قراءة المزيد إلا إن كانت لا تعارض ذلك:

- أواثقة أنت من أنك لا تمانعين قراءتي إياها؟ تبدو شخصية للغاية، وأشعرُ ببعض الغرابة إزاء القراءة عن ماضيكِ مع شخصٍ آخر.

قالت بلين:

- كان ذلك منذ وقت بعيد.

ولوهلة، مرت غمامة فوقنا وألقَت بظلٍّ داكنٍ لشيء حزين على وجهها الجميل، لكنها أشرقت بسرعة.

- عرفتُ أن القراءة عن شخص آخر يفعلها ستكون خيرًا من محاولتي الشرح. إنني رديئة في شرح الأمور.

تذكرتُ أول مرة رأيتها قبل أن أهرع وأختبئ في المرحاض، وظننتُ أنها في بالغ الكياسة والسيطرة، بعيدة جدًّا عن هذه المرأة المضطربة المستنكرة لذاتها. من الغريب كم يبدو كلنا مختلفًا عن حقيقته. كيف تراني؟ أتراني شقراء بدينة وضيعة في نظرها؟ أم أنني شيء آخر؟

- لستِ تمانعين إذن؟

هزَّت رأسها:

- لا. في الحقيقة، يمكنك الاحتفاظ بها. كان يجدر بي رميها منذ قرون. فهو وقت نحاول ألا نفكر به.

يمكنني فهم ذلك. كانت قد فقدت والديها في حريق للتو، ولا بدَّ كان ذلك رهيبًا. لكن الحياة بين تلك الصفحات ما زالت تستميلني.

سألتها:

- أما زلتِ وروب صديقين؟

هي لا تذكره أبدًا، وبدا ذلك غريبًا بالنظر إلى وثاقة صلتهما وقتما كانا في ويستلاندز.

قالت وهي خافضة نظرها إلى صحنها، ولم يكن ثمة حاجة إلى غمامة لتلقي بظل على وجهها هذه المرة:

- لا. لا. لم يحبه ديفيد حقًا، ولا أعرف مكانه الآن.

في الداخل، رنَّ جرس الباب، فهرعت أديل بطريقة اعتذارية لترى من الطارق، وانقطعت اللحظة. *لم يحبه ديفيد حقًا*. أمارة أخرى على سلوك ديفيد المتسلط عليَّ إيجاد طريقة لدماغي ليتجاهلها. لكن من ناحية ثانية، ربما لستُ مضطرة إلى التفكير به بعد الآن، فهو لم يقرع بابي هذا الأسبوع، ولم يولِني أي اهتمام في العمل. ربما انتهى الأمر. أكره مقدار الألم الذي يسببه ذلك.

عادت أديل، وكانت تتمتمُ بشيء ما بخصوص بائع مناشف أطباق قائلةً ما يشبه: *"أليسوا في كل مكان في هذه الأيام؟ يا لهذا الاقتصاد المريع"*، ولم أضغط عليها بخصوص روب. لم أرغب في قول أي شيء قد يحملها على استعادة المفكرة، ففهمي لهذين الشخصين اللذين صارا مهمين جدًا في حياتي قليلٌ بالحد الكافي دون أن أفقد هذه اللمحة على ماضيهما. وإن كانت أديل لا تمانع، فلا ضير في ذلك بالتأكيد، صحيح؟

28

أديل

قلت:

- أوه، بصدق، حقًّا؟ أهذا سؤال جدي؟

كانت ضحكتي جلجلةً بهيجةً في الهاتف وكدتُ أسمعُ الدكتور سايكس يسترخي قليلًا على الطرف الآخر. تابعت:

- آسفة، أعرف أنه ليس موضوعًا مضحكًا ولستُ أضحك عليه، لكن ديفيد؟ هذا مضحك. بلى، لدي كدمة على وجهي، لكنها نتيجة خطئي السخيف. لحظة خرقاء في المطبخ. لا بد أن ديفيد قد أخبرك بذلك، صحيح؟

للأمانة، شعرتُ بالتسلّي بكل معنى الكلمة إزاء ثرثرة الدكتور سايكس في أذني. كم هو طبيعيٌّ للمدمن أن يبالغ، وبالطبع أنتوني يريدُ *إنقاذي*، لذا بهرَجَ ما رآه. ويا لذلك من مثاليٍّ على نحو رائع. أخبرتُ ديفيد بظهور أنتوني في الباب مساء الأحد، أخبرته بالطبع، إذ كان مرجحًا أن يكتشف بأي حال إذا ما حضر الصبي جلسة، لكنني لم أخبره بمنحي إياه انطباع أنني خائفة. ولم أخبره أن أنتوني عاد مرة ثانية، وكاد يتسبب بموقف محرج في أثناء وجود لويز هنا. تخلصتُ منه بسرعة، لكن ليس دون الإلماح إلى سروري بمرآه. كان قلقًا حيالي على ما يبدو. ما ألطفه!

ربما يجدر بي البدء بتناول الغداء مع لويز في البلدة بدلًا من هنا، تحسبًا من أن تراه يتسكع هنا عند بابنا.

ذهب ديفيد إلى العمل يوم الاثنين ووصى على الفور بمعالجٍ جديد لأنتوني، منزعجًا للغاية من أنه لا بدَّ قد تبع ديفيد إلى المنزل في وقتٍ ما ليعرف أين يعيش. وربما أكثر من مرة. ربما قضى عدة ليلات يدرس منزلنا من زاوية الشارع، محاولًا استجماع الشجاعة ليقترب. بحسب ديفيد، فأنتوني مدمنٌ لأنه وسواسيٌّ فقط، وقد طوَّر تعلُّقًا به. بالكاد يمكنني لوم الصبي على ذلك، فأنا أحب ديفيد بجنون أيضًا، وقد فعلتُ مذ وقعت عيناي عليه، لكن يبدو أن وساوس أنتوني أكثر تقلقلًا، إذ انتقل وسواسه إليَّ إثر نظرة واحدةٍ على وجهي الجميل المُكدَّم. والآن ها أنا على الهاتف أدافع عن زوجي المسكين ضد ادعاءات ضرب زوجته.

لأقول الحق، بدا الدكتور سايكس منزعجًا أشد الانزعاج لاضطراره إلى فتح هذا الموضوع معي، وقد شغَّل المكالمة على مكبر الصوت، ذلك أنني تمكنتُ من سماع الصدى الطفيف في جودة المكالمة. أكان ديفيد ينصت؟ لا يمكنني إلا تخيُّل وجهه وقتما قررا الاتصال بي: مذعورًا تمامًا. لم يكن ليرغب في حدوث هذا، لم يكُن ليعرف ما قد أقول، ويسخطني ذلك بعض الشيء. يجب أن يثق بي أكثر، فلن أضرَّ بحياته المهنية أبدًا، ولم عسايَ أفعل؟ أريده أن يكون ناجحًا. أعرفُ أهمية ذلك بالنسبة إليه.

قلت:

- لأكون واضحة، لم يحدث شجار، ولم نكُن لنتجادل أمام شخص غريب أبدًا. وبالتأكيد ليس أمام مريض.

نتجادل. بدا صوتي على القدر الصحيح تمامًا من السخط. كلنا من الطبقة المتوسطة جدًّا في النهاية، والدكتور سايكس أكثرنا. لا بدَّ أنه صار يشعر بالخجل الآن.

- لقد جاء الشاب إلى الباب وسأل عن ديفيد بينما كنتُ أرتِّب المطبخ بعد العشاء، وأخبرته أن ديفيد قد خلد إلى السرير إثر صداع وهذا كل ما في الأمر. لا بد أنه رأى كدمتي واختلق قصة تكتنفها. ربما كان يشعر بالرفض من ناحية زوجي وأراد عقابه بطريقة ما، من يدري؟

أعرف ذلك الشعور حق المعرفة، إنه شيء أشتركُ وأنتوني هوكينز به.

قال الدكتور سايكس:

- هذا ما ظننتُه، لكن من الواضح أنه عندما أخبر والديه أنه رأى... حسنًا، ما *قال* إنه رآه، شعرا بالتزام أخلاقي بمتابعة الأمر.

بدا مرتاحًا. ربما كانت تساوره بعض الشكوك، ولن يفاجئني ذلك، فمن بالغ السهولة بذر هذه البذور في الناس. ليس فينا من يعرف الآخر بحق في النهاية.

قلت:

- بالطبع، وأرجو أن تشكرهما على اهتمامهما، لكن ليس ثمة ما يستدعي القلق هنا حقًا. إلا خرافتي ربما.

ضحكتُ قليلًا ثانيةً حينذاك، كما لو أن الأمر برمته ما زال يسليني، ثم قلت:

- يا لديفيد المسكين، إنه آخر رجل على قيد الحياة يمكن أن يضرب امرأة أبدًا. أرجوك أخبر عائلة الفتى أني آمل أن يتلقى المساعدة التي يحتاج إليها.

قلتُ في قرارتي بينما توادعنا وأغلقنا الخط: "يمكن أن يسديني هذا أيما نفع". سيرتاح ديفيد إزاء حسن تعاملي مع الأمر، وآمل أنه سيمنحني بعض المساحة الإضافية ويرجع إلى أمسياته القذرة مع لويز المراوغة. إن تابع خنقي، يمكنني دائمًا التهديد بإخبار الدكتور سايكس بأنني كنتُ أكذب وأنه ضربني بالفعل، وسيكون تهديدًا فارغًا -بالمقارنة مع التهديدات الأخرى التي يمكنني رميه بها- حتى وإن لم يدرك ديفيد ذلك، فلم عساي أبطش به؟ بلى، نمتلك الثراء، لكن لطالما رغب ديفيد في أكثر من ذلك، ويمكنني سلبه مهنته، وهذا، من بين كل الأمور، سيدمره.

والأهم من ذلك، بأي حال، هو أن بوسعي الاستفادة من أنتوني، فسيداهمه شعور مريع لأن والديه ذهبا إلى العيادة ليبلغا عن الأمر، وشعوره بالذنب إزاء احتمال وضعي في درب الأذى مع زوجي العنيف أمر يمكنني استخدامه

لأحمله على جلب ما أرغب فيه لي، والإضافة الجميلة هي أنه حتى وإن أخبر أيَّ شخص، فسيُنبذ كلامه بعدِّه توهُّمًا آخر. لن ينصت إليه أحد.

أرسلتُ رسالة نصية بسرعة لديفيد:

أأنت بخير؟ ذاك الفتى بحاجة إلى المساعدة! أ. إكس

أعرفُ أنهم في الغالب ما يزالون في نفس الغرفة جميعًا، ومن المرجح أن يراها سايكس. إثبات إضافي على البراءة إن لزم الأمر، وتذكير أيضًا لزوجي بأننا فريق عندما يسوء الحال وسنظل فريقًا على الدوام. لن يصلِح ذلك زواجنا بالنسبة إليه -حتى أنا أعرف أنه تجاوز ذلك منذ زمن- لكنه سيليِّنه ناحيتي.

رن جرس الباب، ثلاث رنات حادة، مسعورة. لقد جاء الفتى المسكين يحبو، كما أتصور.

كل شيء يجري خير مجرى.

29

لويز

صببتُ كأس نبيذ قبل أن أضع حقيبتي حتى. كانت أعصابي تتشاحنُ وأشعر كما لو ثمة نمل محصور في رأسي. لستُ أعرفُ بمَ أفكر.

كنتُ قد خرجتُ أتمشى في ساعة الغداء لأمطط ساقيَّ المتألمتين إثر الهرولة ليلة البارحة ولأصفي ذهني بعض الشيء، وقد أتعبني النظر إلى باب ديفيد ومحاولة حثه على الإرسال في طلبي ليشرح لي ما الذي يجري بحق الجحيم. عشتُ على أعصابي طيلة النهار. ظل يتجاهلني كما لو أننا مراهقان لا بالغين راشدين، ولم أفهم لمَ لا يمكنه *إخباري* إن لم يعُد راغبًا في مواعدتي، فهو من بدأ كل هذا بالنهاية، لا أنا. لم لا يمكنه محادثتي وحسب؟ انعقدت معدتي انعقادًا شديدًا يمنعني من الأكل حتى لو رغبت فيه.

قررتُ أنني بعد مشواري سأمضي وأسوّي الأمر معه -سواء أكان ذلك مهنيًا أم لا- لكنني وقتما رجعتُ لم يكُن في مكتبه، وأخبرتني سو وهي تتقدُ حماسةً بأن والدَي أنتوني هوكينز جاءا، وكانا في الداخل مع ديفيد والدكتور سايكس.

- يقول أنتوني إنه رأى الدكتور مارتن يضرب زوجته. على وجهها مباشرة!

كانت سو قد قالتها ببهجةٍ مهموسةٍ أشعرتني كما لو أنني تلقيتُ لكمةً بنفسي. الأمر لقلقةٌ بالنسبة إليها، وأقربُ إلى معضلةٍ عابثة بالعقل بالنسبة إلي. لم أرَ ديفيد بعد ذلك. جلستُ إلى طاولتي، ذهني غشاوة من أفكار ومخاوف نصف مكتملة، وأرغب في الخروج من هناك، وهو ما فعلته، في الخامسة تمامًا. أردتُ كأس نبيذ. أردتُ أن أفكر.

ومع ذلك، لستُ أعرفُ بمَ أفكر. كان النبيذ باردًا وحادًا، فأخذت سيجارتي الإلكترونية وخرجتُ للجلوس على الشرفة، تاركةً الهواء العليل يدخل الشقة المزكومة. تقول أديل إنها ارتطمت بخزانة، لكن أنتوني يقول إن ديفيد ضربها. لم عسى أنتوني يكذب؟ وإن كان ذلك صحيحًا، فكيف رآه أنتوني؟ أكان يسترق النظر عبر النوافذ؟ أحال ديفيدُ أنتوني إلى طبيب جديد يوم الاثنين، وظننتُ أن ذلك بسبب تعلقه المفرط، لكن ربما السبب أن أنتوني رأى شيئًا لم يرده ديفيد أن يراه.

شعرتُ بالغثيان، وشربت المزيد من النبيذ، وكان رأسي يطنُّ قليلًا بالفعل. لم آكل كثيرًا اليوم، والآن فقدتُ شهيتي تمامًا.

رن جرس الباب مرتين قبل أن أسمعه، وذلك لتيهي البعيد في أفكاري الخاصة، فهرعتُ إلى الداخل.

- مرحبًا.

إنه هو، بالكاد بلغت الساعة السادسة مساءً وهو في بابي للمرة الأولى هذا الأسبوع. ظننتُ أنه لن يرجع أبدًا، ولجمتني دهشتي من قول أي شيء بينما أفسح له الطريق ليدخل. كان يحمل قنينة نبيذ، ففتحها من فوره وجلب كأسًا أخرى من الخزانة.

تمتمتُ:

- عُد نفسك في بيتك.

ودوَّامة من المشاعرِ تعصفُ بي.

قال:

- أتمنى لو كان بإمكاني.

راسمًا نصف ضحكةٍ ملأى بالأسى -أو برثاء الذات، لا يمكنني الجزم- وابتلع كأسه وأعاد ملأها، ثم قال بعدما أمال رأسه إلى الخلف وأطلقَ آهة:

- يا له من يوم لعين. يا لها من حياة لعينة!

إنه يسرف في الشرب، بتُّ أدرك ذلك الآن بعد أن قللتُ من شربي كثيرًا. أهو سكّير وضيع؟ أهذا ما يحدث؟ نظرتُ إليه، ورأيتُ شجارًا، وقبضةً، ووجهًا. قال:

- لا يمكنني البقاء طويلًا (ثم مد يديه ناحيتي وجذبني إلى صدره) لكن كان عليَّ رؤيتك. أظل آمر نفسي بالتوقف، *وأعدها* بأني سأتوقف، وأعجزُ عن ذلك.

- أنت تراني طيلة النهار.

تيبستُ بين يديه. أهذا براندي الذي أشتمُّه؟ داهمتني فكرة شنيعة: أيشربُ في المكتب؟ قبّل تاج رأسي، والتقطتُ تحت الخمر والكولونيا رائحته، ولا يمكنني منع نفسي عن الإعجاب بها، بل إنني أشتهيها لأقول الصدق، وقتما أكون وحدي في الليالي. لكن إن كان يظن أننا سنذهب إلى السرير مباشرة الآن، أو إلى السرير بأي حال، فهو مخطئ. بالكاد نظر إلي منذ أيام، والآن يدخلُ ببساطة وحسب. ابتعدتُ بجسمي وتناولت كأسي. تبًّا له. نظرتُ إلى يده الملتفة حول كأس نبيذه: قوية، وضخمة، وتراءَت لي الكدمة على وجه أديل. لمرة واحدة، سأكون الصديقة التي تظن.

قال:

- لكن ليس على هذا النحو، ليس حينما يمكننا أن نكون على طبيعتنا.

"نا"، بدَت الكلمة جامدة عندما رددتُها، "بالكاد ثمة نا، أليس كذلك؟" اتكأتُ على طاولة المطبخ بدلًا عن أخذه إلى غرفة الجلوس أو غرفة النوم كالعادة. لم أكلم آدم اليوم، ولن أفوّت ذلك، ليس من أجل رجلٍ خائن وربما معنف لزوجته. شعرتُ بالتعب فجأة. سيرجع آدم إلى المنزل في غضون أسبوع، لذا سيُضطرُ كل هذا الجنون إلى التوقف بأي حال. ربما سيكون ذلك فَرَجًا.

عبَس قليلًا بعد أن أدرك مزاجي السيئ:

- أأنتِ بخير؟

هززتُ كتفيَّ، وأخذ نبض قلبي يتسارع. أكرهُ النزاع، وإنني مريعة فيه. أميلُ إلى العودة لكوني مراهقة جهومة صامتة بدلًا عن المجاهرة بالمشكلة. تجرَّعت نبيذي ثم أخذتُ نفسًا عميقًا. تبًّا لذلك. هذه هي الفرصة الوحيدة التي ستسنح لي للتحدث عن زواجهما. هذا أمر يمكنني معرفته شرعًا.

- لقد أخبرتني سو بما حدث، بخصوص والدَي أنتوني هوكينز. ماذا قالا؟

قال:

- لقد أوضِح ذلك والحمد لله. لم أكن في حاجة إليه اليوم.

ثم نظر إلي، ورأى ارتيابًا شكًّاكًا، وظهرت علامات الخيبة عليه.

- واهٍ يا لويز.

- ماذا؟

بدا صوتي دفاعيًا، وشعرتُ بذلك أيضًا. الآن وهو حاضر هنا أمامي، شعرتُ بالغباء لشبه تصديقي أنه قد يفعلها. حتى أديل لم تقُل إنه ضربها. لكن ثمة الكثير من الأمور غير المعقولة تجري، ولا يمكنني فهم أيها.

- أتظنين بجديةٍ أنني ضربتُ زوجتي؟

قلت:

- لستُ أعرف ما أظنه. أنت لا تتكلم عن زواجك وزوجتك البتة، وتفعلُ *هذا* (وأشرتُ بيدي إلى شقتي الصغيرة المثيرة للشفقة كما لو أنه يضاجعها هي لا أنا) وقتما يلائمك ذلك على الأقل. نتحدث، لكنك لا تتحدث عن زواجك أبدًا. تقطع الحديث في كل مرة أحاول سؤالك أي شيء، ودائمًا ما تبدو تعيسًا إلى حد أعجزُ معه عن فهم سبب بقائك هناك. *معها*. تطلقا بحق الجحيم!

كانت كل حيرتي وألمي المتراكمَين يتدفقان مني، ويجيشان حنقًا ثائرًا على شفتيَّ. رأيتُ كدمة أديل، وأعرفُ مدى هشاشتها، وأعرف بأمر المكالمات الهاتفية، ولا يمكنني قول أي شيء عن هذه الأمور، مهما رغبتُ في أن يفسرها لي، لذا كل ما يمكنني فعله هو ردُّها إلى الفوضى التي نشكِّلها. الفوضى التي يعرفُ نصفها فقط.

كان يحدق إليَّ كما لو أنني طعنته، لكنني واصلتُ:

- أعني، هذا ليس منصفًا تمامًا لها أيضًا، أليس كذلك؟ ما الذي تفعلُه؟

اختصر كل هرائي:

- أأنتِ مضطرة حقًا إلى سؤالي عما إن كنتُ ضربتُها؟ أتعرفينني بأي شكل يا تُرى؟

كدتُ أضحكُ على ذلك:

- أعرفك؟ وكيف عساي أعرفكَ أبدًا؟ أنت تعرفني، فأنا كتاب مفتوح، تعرفُ كل شيء عني تقريبًا، نحن نتكلم عني، لكن أنت؟ لا أعرفُ ما رأيي فيك.

- بالطبع لم أضربها (ارتخى في مكانه، وغادرته الحياة) تقول إنها فتحت خزانة في المطبخ ولطمَت وجهها. لستُ أعرف إن كان ذلك حقيقةً، لكنني أعرف أنني لم أضربها.

خدَّرني فيضٌ من الارتياح. على الأقل كلاهما يعطيني التفسير نفسه.

تابع كلامه:

- جاء أنتوني ليراني ليلة الأحد، لكنني كنتُ في الحمام. لا بدَّ أنه رأى وجهها واختلق القصة لينال اهتمامي، أو ليؤذيني أو لأي سبب كان.

لعل هذا صحيح. يبدو صحيحًا. والآن ينتابني شعورٌ فظيعٌ لشكي به، لكن ما يفترض بي فعله وقتما تكون كل هذي الأسئلة حبيسةً داخلي؟ عنهما، عنا، عن وجهة ما يجري؟

سألته:

- لمَ لا تحادثني أبدًا؟ تحادثني كما يجب؟ عن حياتك؟

راح يحدق إلى كأس نبيذه، وقال:

- لم أكن لأعرف من أين أبدأ حقًا، وليس من شأنكِ. لا أريده أن يكون من شأنكِ. لا أريدُ أن... (تريَّث بينما يبحث عن الكلمة المناسبة) لا أريدُ تلويثكِ بذاك كله.

سألته:

- وماذا يعني ذلك أساسًا؟ انظر، لستُ أتوقعُ منك أن تهجرها من أجلي، أعرف أنني لستُ مهمةً بالنسبة إليك...

قاطعني:

- لستِ مهمة بالنسبة إليَّ؟ أنتِ الشيء الجميل الوحيد في حياتي. *لهذا* عليَّ أن أكون في غاية الحذر، لهذا لا أريدُ التكلم عن زواجي أو حياتي. لا أريدُ لأي من ذلك أن يدخل بين *ثنايانا*.

ابتلع كأسه في عدة جرعات مديدة. كيف يمكن لأي شخص الشربُ بهذه الطريقة دون أن يشعر برغبة في التقيؤ؟ الكأس تلو الأخرى، بسرعة مفرطة. رثاؤه لذاته ليس جذابًا، لكن عَوزي يحب أنه يراني مهمة. جعلني ذلك أشعر أني أقوى.

قلت:

- أخرجني من المشهد لدقيقة. من الواضح أنك تعيس في المنزل، غادر إذن. هذا ما فعله زوجي، ولم يقتلني ذلك، لقد آلَمني، لكنني تجاوزته. الحياة لا تقف (*وإيان سينجبُ طفلًا من بديلتي، وأنا أشبه بشبحٍ في حياتي الخاصة.* احتفظتُ بتلك الفكرة لنفسي) لستُ أرى ما المشكلة.
- من غير الممكن أن تري ماهية المشكلة. يجب أن تعرفينا، أن تعرفينا حق المعرفة، ليتسنى لك ذلك، ولستُ واثقًا حتى من أننا عدنا نعرف بعضنا بعضًا.

كان يشعر بالمرارة، وخرجَت كلماته وخّازةً بفعلها بينما يحدق إلى كأسه، ثم قال أخيرًا:

- لكن على شيء ما أن يتغير (وأخذت كلماته تتداخل بعض الشيء) لكنني في حاجة إلى اكتشاف كيفية فعلها، كيفية التخلص منها *بأمان*.

قلت:

- ربما يجدر بك التكلم إليها (محاولةً أن أكون على أعلى قدر ممكن من الإخلاص لأديل في هذه اللحظة الخؤون بكل ما فيها) إنها زوجتك. لا بدَّ أنها تحبك.

ضحك آنذاك، بمرحٍ مباغتٍ أولًا، ثم صار الصوتُ لاذعًا:

- أوه، هي تحبني، إن كان لذلك قيمة.

فكرتُ بصديقتي الهشة، المسرعة للرد على المكالمات وأخذ الأقراص وطبخ وجبات العشاء، وغضبت. كيف يمكنه معاملتها على هذا النحو؟ بهذا *الاحتقار*؟ إن كان لا يحبها فيجب عليه إطلاق سراحها لتحب شخصًا آخر، شخصًا يعاملها المعاملة الحسنة التي تستحق.

قلت بفتور:

- اذهب إلى المنزل. اذهب إلى المنزل ورتّب هراءك مع زوجتك. لا يمكنني التعامل مع هذا الآن.

لم ينطق بكلمة، لكنه حدق إليَّ وقد بدأت عيناه تلتمعان بفعل الكحول. أسيقود سيارته؟ لا يهمني، قررتُ ذلك، إنها مشكلته، أما الآن فأريده أن يرحل. كررتُ:

- اذهب، وكفّ عن الشرب. إنك لفوضى لعينة.

- أردتُ البكاء، عليه، وعلى أديل، وعلى نفسي. على نفسي في الأكثر. لا أريدُ مشاجرته. أريدُ فهمه.

لم أنظر إليه وهو يغادر، ولم أردّ اعتصاره يدي في أثناء مروره.

غمغم من مدخل الباب:

- سأصلح الأمر، بطريقة ما. أعدك.

لم أرفع رأسي. لم أعطه شيئًا. لعلي عاهرة ومراوغة، لكن طفح الكيل. أريده، لكن ليس بهذا الشكل. لا يمكنني مواصلة هذا. لا يمكنني حقًا. هو وأديل يمزقانني إلى نصفين.

بعد أن رحل، صببتُ كأس نبيذ أخرى وحاربتُ باعثي الغبي على البكاء بالاتصال بآدم. وحتى بهجته الجيَّاشة عجزت عن رفع معنوياتي، وبينما أخذ يحكي لي عن يومهم في المتنزه المائي والزلّاقات التي زارها وإيان، كان جزء من دماغي يعيد تشغيل محادثتي مع ديفيد. أصدرتُ كل الأصوات المناسبة، ومن الممتع الإنصات لطفلي، لكنني ارتحتُ أيضًا وقتما قال إن عليه الذهاب. أحتاج إلى الهدوء. أشعرُ بالخواء والإرهاق والحزن وكومة كاملة من أشياء

أخرى لا أريدُ سبر أغوارها. إنه جدالنا الأول وربما الأخير. وأدركتُ أيضًا، بعد فوات الأوان، أنني لا أظنه ضرب أديل. ليس في أعماقي. ليس بعد الآن.

على الرغم من أن الساعة لم تبلغ التاسعة بعد، أخذتُ نبيذي وزحفتُ إلى تحت اللحاف. أردتُ نسيان الأمر برمَّته لبعض الوقت، تبديده بالنوم. ربما في الصباح سيكون كل شيء أفضل بطريقة أو بأخرى. شعرتُ بالخدر، لكن ظل جزء مني يكرهني لإبعادي إياه في حين كان بوسعنا أن نكون في السرير معًا. في السرير مع ديفيد *خاصتي*، لا ديفيد أديل. ظللتُ أرى نظرتَهُ وقتما أدرك أنني كنتُ أتساءل عما إن كان ضرب زوجته، تلك الخيبة البغيضة، لكنني من ناحية أخرى ظللتُ أرى الكدمة على وجه أديل أيضًا. كل خوفها وتكتمها ظاهر للعيان في تلك الألوان الخضر الباهتة والزرق الصامتة. سواء أكان ضربها أم لا، ثمة شيء غير طبيعي في زواجهما. لكن من جانب آخر، لا شيء في هذا طبيعي، وأنا على الأرجح أسوأ الثلاثة.

شعرتُ أنني محاصرة، ولا أعرف ما يُفترض بي أن أفعل، ففعلتُ الفعل الوحيد الذي باستطاعتي، ألا وهو ابتلاعُ كأس نبيذي، وراح رأسي يطنُّ بفعل الكحول، ثم أغمضتُ عيني. سيرجع آدم إلى المنزل قريبًا، ومن ثم يمكنني شرنقةُ نفسي به، في أماننا. ركزتُ أفكاري على فتاي، الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أحبه بلا ذنبٍ ولا اتهام. ونمتُ.

هذه المرة، وقتما امتدَّت المحاليق اللزجة ناحيتي وفتحتُ باب بيتي الدمية، لم أذهب إلى بيت طفولتي، بل إلى البيت الذي سكنتُه وإيان في بداية زواجنا. وقتما كان كلانا ما يزال سعيدًا. كنتُ في الحديقة والنهار مشمس على نحو مثالي: ليس حارًا أكثر مما ينبغي، بل دافئ دفئًا جميلًا، وكنتُ ألاعبُ آدم. لكنه في السادسة؛ عزيزي آدم كما هو الآن، لا الطفل الضئيل الذي كانه وقتما عشنا هناك، وكنا عند البركة نحاول الإمساك بالشراغف. أقدامنا موحلة ومبللة، لكن كلينا يضحك بينما نغمسُ شباكنا ونحشر برطماناتنا في سطح المياه اللزج.

طفَت رائحةُ لحمٍ يُشوى في الهواء، وحتى قبل أن أفكر فيه إراديًا، سمعتُ ديفيد يصيحُ قائلًا إن البرغر جاهز. استدرنا وابتسمنا، وركض آدم إليه. كنتُ موشكة على اللحاق به وقتما لمحتُ بطرفِ عيني شيئًا يتلألأ في البركة.

شكلٌ ما تحت السطح. أخذت أطرافه تومض بينما يتضح شكله، وميض فضيٌ تقريبًا تحت المياه الداكنة، فعبستُ وقد داهمتني الحيرة. هذا حلمي -أنا أتحكم به- ومع ذلك لا أعرف ما هذا. خطوتُ إلى سطح الماء، ورحتُ أمشي فوقها مثل المسيح -كدتُ أضحك على ذلك، أنا ربُ أحلامي- حتى صار بوسعي الجثوم بجواره. غمستُ يدي في السائل مرقرقةً إياه، لكن الشكل المتوهِّج ظل في مكانه. أدركتُ أنه بابٌ آخر، وتوهَّجت أطرافه أكثر كما لو أنها تؤكدُ أفكاري. بحثتُ عن المقبض، لكن لم أجد واحدًا. باب دون مقبض لم أتخيله عن عمد. لا أعرف سبب وجوده هنا.

أطلتُ التحديق لوهلة، ثم ناداني ديفيد ثانية، وآدم كذلك. إنهما ينتظرانني لنأكل معًا، وأريد أن أكون معهما. تلاشى الباب المشع، ثم لا شيء تحتي إلا البركة.

أفقتُ مبكرًا، بعد الخامسة بقليل، شاعرةً بالجفاف من النبيذ وبخيبة الأمل تجاه نفسي. كان الحلم الذي ابتدعتُه في غاية المثالية: ثلاثتنا نلعب لعبة العائلة السعيدة. وعلى الرغم من العطش، أشعرُ بالراحة، مثلما قالت أديل إني سأفعل. عضَّني اشمئزازي من نفسي بعض الشيء. كان يجب أن أتخيل أديل في الحلم، يجب أن يكون ولائي لها، فهي لم تعاملني بغير اللطف، في حين أن ديفيد سكّير خائن غير جدير بالثقة ويعلم الله ما به من صفات أخرى، لكن على الرغم من ذلك، وإن كان حلمي شيئًا يُهتدى به ولو قليلًا، فأنا أريده بجنون. لعلي لم أدعه يضاجعني في سريري، لكنني سمحتُ له في سريرتي. وليس مضاجعةً وحسب أيضًا، بل جعلته في حلمي يحبني وأحببته وكنا عائلة، دون أمارة على وجود أديل في أي مكان، مسحتُها عن الوجود.

تأوهتُ ونهضتُ لأشرب الماء وشغلتُ الغلّاية. كنت صاحية تمامًا بعد نومي المبكر، ولا جدوى من محاولة العودة إلى النوم لساعةٍ فقط أو نحوها. بينما غلَت الغلاية وحاولتُ نفض زهاء حياتي الحُلُميَّة عن عينيَّ، نظرتُ إلى غرفة نوم آدم وغمرني فيضُ حماسةٍ لأنه سيرجع إلى المنزل قريبًا، الأمر الذي ربما يجدر بي تخفيفُ صداقتي بأديل بعده، والأخذ بنصيحة صوفي: التحرر من كل من أديل وديفيد وهذه الخبيصة المفرطة في الغباء التي ورطتُ نفسي بها.

أخذتُ حمامًا لأغسلَ ثُقل خُماري المهادن، ثم لبستُ ثيابي وتجهزتُ للعمل، لكن بحلول وقتِ جلوسي برفقة كأس شاي ثانية لم تكُن الساعة قد جاوزت السابعة صباحًا. أومضَ شعاع الشمس على شاشة التلفاز المغبَّرة، ومرَّ الباب الثاني -البابُ المتوهِّج الذي رأيته في البركة- في بالي. جلبتُ المفكرة من بيتها في درج المطبخ، فربما رأى روب واحدًا كذلك. تسارعت نبضات قلبي، إذ لا ينبغي لي قراءة المزيد بعد ليلة البارحة، ذلك أنني أحدث ضررًا كافيًا دون التنقيب في ماضيهما، لكن لا يمكنني منع نفسي. أريدُ أن أعرفهما، والباب الثاني ذريعتي.

الأمر في بالغ السهولة. يمكنني الذهاب حيثما أشاء. أذهبُ في أكثر الأحيان إلى أماكنَ مُتخيلةٍ لأنني لم أزُر أي مكانٍ لعينٍ قط ويستحيلُ أن أختار الذهاب إلى المنزل. لكن أينما كنتُ، تكُن أديل. لا أتخيلُها حقًّا في المكان، لكنها تظهرُ وحسب. ربما لأنني دائمًا ما أفكر فيها. ليس تفكيرًا نابعًا عن رغبة في مضاجعتها، بل شيء أحسن بكثير من ذاك. شيء أنقى. ننتشي كثيرًا في أحلامي، وهذا أكثر ما أحبه تقريبًا، إذ يمكنني الانسطالُ بالقدر الذي أريد دون عواقبَ وآثار انسحاب.

عادَت أديلُ تنامُ كما يجب، وكل من في ويستلاندز بات يحبنا شديد الحب الآن كما لو أن لهم علاقة بتعافينا، إننا أشبه بمرضاهم الذين يحتلمون في أثناء نومهم. لكنني سعيد بذلك، بأنها تنام. أعرفُ أنها ليست تكذبُ لأنني أتسلل إلى غرفتها أحيانًا وأنظرُ إليها لبضع دقائق في معظم الليلات. يا رجل! كم أبدو مخيفًا وأنا أعيد قراءة ذلك. لكنها كالحسناء النائمة وأنا أحرسها. الأمر مسالمٌ بعض الشيء ولم أعُد محتاجًا إلى الكثير من النوم بعد أن تعافيتُ من إدماني وصار النوم الذي أناله لا يعجُّ بالكوابيس، إذ لا توجد إلا في البداية قبل أن أتحكم بها. أختار أحيانًا البقاء لبعض الوقتِ من أجل التشويق، كركوب الأفعوانية. أعرف أنهم عاجزون عن إيذائي لأنني المُسيطر.

أجل، من الجيد أنها تنامُ كما يجب. لديها الكثير لتعوِّضه بعد أسابيع من محاولة البقاء مستيقظة، وهي في حاجةٍ إلى طيِّ صفحة كل ذلك الهراء. شعورٌ غريب أن يقلق المرء حيال شخص ما. إنني قلقٌ على أديل ولم أكن قد قلقتُ على أحدٍ قبلًا. لا على عائلتي القذرة، وبالكاد على نفسي. كان الجميع

أغبش قبل أديل، ليس فيهم من يهم. لم أظن قط في الحقيقة أنه من الممكن لشخص ما أن يهُم. أهذا هو الحب؟ لعلي أحب أديل بطريقتي الخاصة.

أتتخيلني في أحلامها؟ أم أنه دائمًا ثقيل الظل الأسطوري المدعو ديفيد؟ إن ديفيد أكثر ما يقلقني. لستُ أعرف سبب تعلقها الشديد به، ولا أظنها قادرة على رؤية حقيقته. تقول إنها **تثق** به. هه، بلى. أراهن أنه مغرمٌ بذلك. تثق به إلى حد أنها وقَّعت له صكًّا بالتنازل عن أموالها وأغراضها. ثروة لعينة وهو المفوَّض بها كلها. هذا ما كان محاموها يفعلونه هنا. لقد أخبرتني أخيرًا، وكنتُ أعرف أنها ستفعل، فهي لا تحب الأسرار. لكن ما القذارة الحقيقية؟ هي أن ديفيد هناك في الجامعة الداعرة يحصِّل شهاداته المتواصلة ويعيش حياة الترف بينما هي في مستشفى الأمراض العقلية هذا، وقد سلمَته السيطرة على كل العزبة والمال وكل شيء.

لا يمكنني تصديق ذلك. كدتُ أصرخ عليها لكنها بدَت مُحرَجةً من إخباري إلى حدٍّ منعني. وقد قضي الأمر الآن. قالت إنه مؤقتٌ لأنها لا ترغب في التفكير في تلك القضايا وإنهما سيتزوجان بأي حال، لكن من يمنح كل ماله لشخص آخر بحق الجحيم؟ حتى وإن كان لفترة قصيرة؟ أعني، لمَ عساها تفعل ذلك؟ ثمة حُب وثمة غباء. هي لا تفهم الناس مثلما أفعل. كانت تتلقى الحماية طيلة حياتها، وما لم تكتشفه هو أن الجميع يرعى مصالحه. لستُ حتى ألوم ديفيد حقًّا على أخذه المال، فعلى الأقل هذا فعلٌ على قدرٍ أقل من **البلاهةِ** من جانبه، لكنني أكره أنها سمحت له. المال يخرب عقول الناس، وديفيد واحدٌ من أولئك الناس الذين حصلوا على قدرٍ جيدٍ تقريبًا من المال من المزرعة، ومن ثمَّ بدده أبوه كلهُ شُربًا وثمالة. من المضحك كيف حصل على الكثير منه بأي حال، والشكر لأديل.

أراهن أنه لن يوقِّع معيدًا لها الصك عندما نخرج من هنا. أراهن أنه سيختلق أعذارًا. ديفيد: ابن المزارع الفقير الذي صار يمتلك ثروة طوع بنانه الآن. في الحقيقة، يحركُ فيَّ الأمر رغبة الضحك لأنه جنونيٌّ. أبلغ من الغضب حدًّا يمنعني من العودة إلى النوم وقتما أصحو ليلًا، حدًّا حملني على التفكير أيضًا: ما الذي حدث لوالدَي أديل حقًّا؟ أعني، كيف كان مارًّا بسيارته في

الجوار في الوقت المناسب لينقذها في منتصف الليل؟ أكان مارًّا بسيارته في الوقت المناسبِ ليضرم النار أيضًا؟

فقد عاد هذا عليه بنتائجَ ممتازةٍ بحسب منظوري. كاد وقتنا هنا ينتهي، لكن إن كانت أديلُ تظنُّ أنني سأنساها وأنسى كل هذا، فهي مخطئة، لن يحدث ذلك. سأعتني بها، لأنني لا أظنُّ ولو للحظةٍ لعينةٍ واحدةٍ أن ديفيد...

قال:

- أنا آسف.

كنا في مكتبه، تفصل طاولته بيننا، وكنتُ أرتعش، أرتعشُ منذ وضعتُ المفكرة هذا الصباح.

واصل كلامه:

- أعرفُ أنني كنت أشربُ، لكنني عنيتُ كلامي عندما قلتُ إنني سأسوِّي الأمور.

كان هادئًا، ومستغرقًا في التفكير، وفي حالة خُمار على الأغلب.

- أعرف أن زواجي سيئ، أعرف ذلك. ولا يجدرُ بي العبثُ بك هكذا. ما قُلتِه ليلة البارحة...

قُلتُ ببرودٍ مقاطعةً إياه:

- لم آتِ لأتكلم عن ليلة البارحة.

شعرتُ كما لو أنني قد غُمّستُ في مياهٍ متجمدة. كنتُ أتحرَّق شوقًا للقاء أديل ومعرفة ما إن كانت شكوكي صحيحة.

- أحتاج إلى اتخاذ الظهيرةِ إجازةً، فالسخَّان في المنزل لا يعمل بكفاءة وقد اتصل السباك للتو وقال إن بوسعه المجيء بين الثانية والسادسة. تقول سو إن ظهيرتها خفيفة الانشغال ويمكنها تسجيلُ مرضاكَ والعمل على طاولتي.

لديه أربعة مواعيد محجوزة وقد سرَّني ذلك، إذ لن أقلق حيال قدومه إلى المنزل ورؤيته إيانا معًا.

راسلتُ أديل حالما وصل إلى العمل هذا الصباح، عارفةً أنها ستكون وحيدةً وآمنة. لم أقُل ما كان الفرضُ الحقيقي، فلم أردها أن تشعرُ أنها في موقفِ دفاعي أو أن تقلق، لذا أرسلتُ:

كان ثمة باب ثانٍ غريب في حلمي الليلة الماضية. دون مقبض! وعجزتُ عن فتحه! أحدث ذلك معكِ من قبل؟ لقد اتخذتُ الظهيرة إجازةً إن كنتِ ترغبين في تناول الغداء.

بكل خفةٍ وهوناء، على الرغم من ارتجاف يدي وأنا أكتب. ردَّت بالإيجاب مباشرةً، مقترحةً مطعمًا صغيرًا يضمُ مقاعد خارجية؛ ليس على مقربةٍ زائدةٍ من العيادة وبعيدٌ قليلًا عن الطرقات الرئيسية في حيٍّ أقرب إلى السكني. فهي لا تريدُ أن يُقبض عليها كذلك.

قال:

- بالطبع.

أخذت راحتاي تتعرقان وهو ينظر إليّ، وبدا للمرة الأولى شخصًا غريبًا. ليس ديفيد خاصتي، ولا ديفيد أديل، بل ربما ديفيد ديفيد، الشخص الذي دائمًا ما ينال ما يريد. رددتُ في قرارتي الشكر الألفَ لأن أديل وافقت على الغداء، فلم أكُن لأقدر على الانتظار حتى الاثنين. عليَّ أن أعرف، وهي الوحيدةُ التي يمكنها إخباري. بدأتُ أكملُ أحجيةَ الصور المقطَّعة خاصة زواجهما المعتوه، ولا تروق لي الصورة التي تكشفُ عنها.

قال:

- آملُ ألا يكون أمرًا جللًا زيادةً، فقد تبلغ السخانات أسعارًا باهظة (ثم رفع رأسه) إن احتجتِ إلى أي...

قاطعته ثانية:

- لديَّ صفقة تأمين.

أكان يريد أن يعرض علي المال حقًا؟ ومال من؟ ماله أم مال أديل؟

- حسنًا.

تكلَّم باختصار؛ لقد أصابَ برودي المستمر وترًا حساسًا. بدا مجروحًا، لكنني لستُ واثقة من مدى اهتمامي.

- شكرًا.

اتجهتُ إلى الباب، وأطرافي تتحركُ بخُرقٍ لمعرفتي أنه يراقبني أغادر.

- لويز.

استدرتُ ونظرتُ إليه. كان حاشرًا يديه في جيبيه، وذكرني ذلك بأول مرةٍ تكلمنا فيها في هذه الغرفة، بالتوترِ المكهربِ بيننا. ما يزال موجودًا، يجذبني ناحيته، لكنه الآن مغطى بالشك والريبة.

قال:

- إنني أهتم لأمرك حقًّا، أعني... بكل معنى الكلمة. أفكر فيكِ طيلة الوقت، ولا يمكنني منعُ نفسي. كما لو أنني أعيش حياة مستقلة معكِ في رأسي.

كانت الكلمات تفيضُ منه ولم يسعني التفكير إلا في أنني لستُ محتاجةً إلى هذا، ليس الآن، ليس قبل أن *أعرف*.

- أظن... أظن أنني أقعُ في غرامِك، وأعرفُ أن عليَّ ترتيب حياتي. عليَّ ترتيبُ هذه الفوضى. يُبقيني التفكيرُ في كيفيةِ فعلها صاحيًا طوال الليل، وأعرفُ أنك لا تفهمين ذلك، ولستُ أساعدك على فهمه، لكنه شيء عليَّ تسويته وحدي. لكنني سأبدأ اليوم. وأعرفُ أنك محقةٌ في انزعاجكِ مني. أردتُ قول ذلك، وهذا كل شيء.

اندفع الدم إلى وجهي وقدميَّ وإلى كل مكان فيما بينهما كما لو أنه يسرعُ في شراييني محاولًا إيجاد طريقة للفرار من جسدي. الآن؟ الآن يقول هذا؟ رأسي مقلوبٌ بالفعل، وهو يرميني بهذا. يقعُ في غرامي؟ يا إلهي. لستُ أعرفُ بمَ أفكر، لستُ أعرفُ بمَ أحس. لكن أديل تنتظر وأحتاجُ إلى معرفة بعض الحقيقة على الأقل منها قبل أن أقدر على مجرد التفكير في هذا. أحتاج إلى معرفةِ أي صنفٍ من الرجال هو، في حقيقته، تحت حُجُبه، في رأسه.

أومأتُ برأسي وبلعتُ ريقي بشدة وتركته واقفًا هناك، ثم أخذتُ حقيبتي من تحت طاولتي وهرعتُ إلى الهواء الطلق دون حتى أن أخبر سو أنني خارجة.

30

أديل

جلستُ تحت أشعة الشمس ورحتُ أرتشفُ كأسًا من نبيذ سانسير المحرم وأنتظر لويز. لويز، إنه لمذهلٌ كيف يمكن لهذه المرأة الرائعة التأثير على مزاجي. ليلة البارحة، وقتما ذهب ديفيد إلى شقتها الضئيلة الحقيرة بعد العمل مباشرة، آلمني ذلك حدَّ أني أردتُ قتلها، على الرغم من أنها بذلت قصارى جهدها المثير للشفقة لتدافع عني وترسله إلى المنزل. كان أقل مما ينبغي ومتأخرًا أكثر مما يجب لأقول الصدق، والأسوأ من ذلك كان قرار ديفيد الذهاب إليها مباشرة بدلًا عني، بعد كل ما فعلته من أجله مع الدكتور سايكس. كان بوسعي تحطيمه، لكنه لم يأخذ ذلك في الحسبان. لم يُظهِر أي امتنان. ثم عاد إلى المنزل وثمل في مكتبه قبل أن يذهب متعثرًا إلى السرير. لا أرى ذلك قريبًا من الشكر.

أُحب ديفيد. بحق، وجنون، وعمق، مهما بدا كلامي رخيصًا، لكنني أقوى منه. بلى، على الأمور أن تتغير، لكنني أنا من سيضطر إلى توسيخ يديه في ذلك. بيد أنني ابتلعتُ قلبي الليلة الماضية، دفعتهُ إلى أعماقي حيث لا يمكنه لمسي، لأننا لا نطيقُ جدالًا آخر. ليس بعد. ومن ثم، ومثل معجزة، تلقيتُ رسالة لويز. الباب الثاني، فابتسمتُ وأنا أشربُ نبيذي، على الرغم من أنني وحدي وأبدو غاضبة بعض الشيء لأي عابرٍ. لقد رأت الباب الثاني، الآن. وهذا

يغير كل شيء. يجبُ أن تستوي كل الأمور في مكانها الصحيح قبل أن تفتحه، قبل أن تعرف.

وخزتني الحماسة عندما رأيتها تلفُّ الزاوية وتهبط الشارع. بدَت جيدة، جيدة بحق، وشعرتُ بأني فخورةٌ بها كل الفخر. حتى إنها باتت تمشي مرفوعة الرأس وقد صارت أنحل جسمًا وأحسن صحةً، وعظما وجنتيها –على الرغم من أنهما لن يبلغا الرشاقة القططية لعظميَّ أبدًا- ضوءان خفيفان على وجهها الجميل. كانت عضلاتي تؤلمني من قلة التمرين، وظهري متيبِّس بفعل التوتر. كنتُ أذوي بينما تُزهِر. لا عجب أنَّ ديفيد يقع في غرامها. الفكرةُ لذَّاعة. ستظل الفكرة لذَّاعةً دائمًا.

قالت:

- نبيذ؟

وابتسمَت. بدت مضطربة، وانزلقت حقيبتها على الأرض بعد أن حاولَت تعليقها على ظهر الكرسي.

- لمَ لا؟ إنه نهار جميل، وإن هذه لمفاجأة سارَّة.

رأيتُ عينيها تتعلقان على وجهي حيثُ ما تزال بقايا الكدمة موجودة، وقد صارت تتلاشى بسرعة الآن، كما لو أنها تُدرك بطريقة ما أن عملها هنا انتهى، فأشرتُ للنادل أن يجلب كأسًا أخرى.

- كيف حدث وأخذتِ إجازة؟

قالت بحيويَّة:

- أوه، ثمة مشكلة في سخَّاني، والسبَّاك قادمٌ لاحقًا، لكنني قررتُ التشجُّع وأخذ الظهيرة.

إنها كاذبة مريعة، وهذا حقًّا مُحببٌ للغاية، نظرًا لكونها تضاجع زوجي منذ بدء صداقتنا. ظهر النادل بسرعةٍ حاملًا مشروبها وقائمتي طعام، وتظاهرت كلتانا بتفحصها بينما ابتلعَت عدة رشفاتٍ سريعة من النبيذ.

- رأيتِ بابًا آخر إذن؟

سألتها وأنا أنحني ناحيتها بصورة تآمرية على الرغم من أننا الوحيدتان اللتان نتعشى في الهواء الطلق، أردتُها أن تشعرَ بالقُرب مني.

- أين؟ كيف كان شكله؟

- في بركة منزلي القديم. كنتُ هناك... (احمرَّ وجهها قليلًا) مع آدم، نلعب، ثم هممتُ أستديرُ لأرجعَ، وظهرَ تحت سطح الماء، متوهجًا.

ليست تخبرني حقيقة حُلمها الكاملة -لا بدَّ أن ديفيد كان هناك، يمكنني معرفةُ ذلك من الاحمرار- لكنني لا أهتمُّ البتة. لم أكُن لأهتم حتى لو تخيَّلت ثلاثة ديفيدات ينكحونها جمعًا. إنه الباب، هو ما يهُم.

أردفَت:

- مثل فضةٍ وامضة، ثم اختفى. أحدث معك ذلك قبلًا؟

هززتُ رأسي، محتارةً:

- لا. كم هذا غريب! ما غايته يا تُرى؟

هزَّت كتفيها:

- ربما كان دماغي يعاني خللًا فنيًّا.

- ربما.

راح قلبي يعدو، ورحتُ أفكرُ مسبقًا بما عليَّ إنجازه قبل أن تفتحه.

رجعَ النادلُ ليسجِّل طلباتنا، وأحدثتُ هرجًا ومرجًا حول كوني غير جائعة، ذلك أنني لم أُرِد إلا الخروج من المكان، ومن ثم رأيتُ وجهها، رأيتُ القلقَ العميق فيه، وعرفتُ طول الشوطِ الذي قطعته في المفكرة. عرفتُ ما الغرضُ الحقيقي من هذا الغداء. واضطُررتُ إلى التركيز بشدةٍ حتى لا أبتسم وأضحك إزاء الكمال العبقريِّ لهذا اليوم وحُسن تخطيطي لكل شيء.

- عليكِ تناولُ شيء ما يا أديل، إنكِ تنحلين أكثر مما ينبغي. بأي حال، (وأردفَت بلا مبالاة زائدة) الغداء على حسابي.

اندفعتُ قائلة:

- أوه شكرًا لك، إنني محرَجة أفظع الإحراج، ذلك أنني أدركتُ بعد وصولي أنني جئتُ بلا محفظتي. إنني لصاحبة فكرٍ مشتت.

طلبَت طبقين من رافيولي الفطر -آخذة زمام المبادرة بطريقة لم تكُن لتفعلها أبدًا وقتما التقينا أول مرة- ثم انتظرَت مغادرة النادل حتى تكلَّمت.

- أجئتِ بلا مالٍ حقًّا، أم أن ديفيد يتحكمُ بما تنفقينه؟

إنها فظةٌ لويز، أقرُّ لها بذلك. ارتبكتُ، كما لو كنتُ أحاول إخفاء شيء ما، ورحتُ أتذمَّر من مدى سخافة ذلك الاقتراح، حتى اقتربَت وأخذَت واحدةً من يديَّ المرفرفتين بين يديها. دليل تضامن، وصداقة، وحب. أصدِّق فعلًا أنها تحبني. ليس بقدر رغبتها في زوجي، لكنها تحبني حقًّا.

تابعَت كلامها:

- لقد قرأتُ شيئًا ما في المفكرة أصابني بقلق طفيف، ولا تتحرَّجي من إخراسي وإخباري أنه ليس من شأني وكل ذلك، لكن أحقًّا وقعتِ صك تنازل عن كل ميراثك له؟ بعد الحريق؟ وإن فعلت، فأخبريني أرجوك، حبًّا بالله، إن ذلك كان مؤقتًا وحسب.

قلتُ:

- أوه، لا يقلقنَّك ذلك.

وأعرفُ أنني أبدو كغزالٍ جريحٍ يحدق إلى منظار بندقية قنَّاص. الضحية النموذجية التي تدافع عن ظالمها.

- فديفيدُ أفضلُ مني بكثير في الأمور المالية، وكان ثمة أمور جمةٌ ينبغي تدبرها، ويا إلهي، هذا محرج جدًّا...

اعتصَرَت يدي:

- كفاكِ سُخفًا، ولا يقربنَّك الحرَج، فأنا أقلقُ حيالك. لكنه وقَّع صك إعادتها إليكِ صحيح؟ بعد أن خرجتِ من ويستلاندز وعدتِ إلى سابق عهدك؟

كانت يدها رطبة. لها مصلحة خاصة في هذا، أعرف ذلك.

دمدمتُ:

- كان مقبلًا على ذلك، حقًّا، لكنني تعرضتُ لنكسةٍ صغيرة بعد بضعة أشهر، وقررَ *-قررنا-* أنه من الأفضل أن يظل مسؤولًا عن كل شيء. ومن ثم تزوجنا وصار المالُ *مالنا* بأي حال.

- واه.

تراخَت في كرسيها وابتلعَت جرعة نبيذٍ طويلةٍ بينما فهمَت الأمر تمامًا وتأكدَت شكوكها.

قلتُ، بلينٍ ودفاعية:

- يبدو ذلك أسوأ مما هو عليه. هو يمنحني مصروفًا وميزانية للطعام، ولم يكُن المالُ على قدر كبيرٍ من الأهمية بالنسبة إليَّ قط.

اتسعَت عيناها:

- ميزانية للطعام؟ مصروف؟ ما هذا؟ أنحن في الخمسينيات أو شيء من هذا القبيل (توقفَت قليلًا) الآن صارَت المكالمات الهاتفية الكريهة مفهومة.

- لا أهتمُّ لأمر المكالمات أيضًا، بحقٍّ يا لويز، لا يهمني، فأنا سعيدة، وأريدُ أن يكون ديفيد سعيدًا.

ربما تكون خطوةً مبالغًا بها أكثر من اللازم ناحية المُثير للشفقة، لكن دائمًا ما تكون الحقيقة قابلة للتصديق، وقد كُنت مثيرة للشفقة فعلًا في رغبتي في الحفاظ على سعادته.

- لا تملكان حسابات مشتركة حتى أو أي شيء؟

- صدقًا لويز، لا يهُم. لا بأس. إذا ما أردتُ شيئًا ما يجلبه لي. هذا ما صار زواجنا إليه. لا تقلقي. هو يرعاني دائمًا.

دفعتُ خصلة شعرٍ عن وجهي وتركتُ أصابعي تتلكأ لحظيًّا على كدمتي. إشارة ضئيلة لكنها كافيةٌ لتُسجِّلها وتربط الكدمة والمال في رأسها.

قالت:

- كأنكِ طفلة.

وأعرفُ أن رأسها مُترعٌ بصداقتنا السرية، والمكالمات الهاتفية، والأقراص، والكدمة، والآن المال يُسقِط كل شيء في مكانه الصحيح. هي حاليًّا تحبني أكثر من ديفيد بكثير، وأظنها الآن تكره ديفيد. لن أقدر على كره ديفيد أبدًا، وربما هذا هو الاختلاف الأكبر بيننا.

سألتها:

- أرجوك، أغفلي الأمر وحسب. لا بأس. متى يرجع آدم؟

مستخدمة تعليقها عن الأطفال لتغيير الموضوع:

- لا بدَّ أنك تتطلعين إلى لقائه، وقد كبُر قليلًا على الأغلب. إنهم يكبرون سريعًا في هذه السن، أليس كذلك؟

جاء طعامنا، وطلبَت لكل منا كأس نبيذ أخرى بينما أضافَت بصمتٍ تحسُّري على عدم إنجاب طفلٍ إلى قائمتها بمثالبِ ديفيد. وقودٌ لنارها الآخذة بالتأجج. كان الرافيولي ممتازًا، لكنها راحَت تقلِّبه في صحنها دون أن تلمسه. ربما كان يجدُر بي فعلُ المثل للحفاظ على مظهري المتوتر، لكنني سئمتُ ضياع الطعام الجيد سُدى لذا أكلته -بكياسة، لكنني أكلتُه على الرغم من ذلك- وحكَت لي عن عطلة آدم وكم يبدو الوقتُ الذي قضاه مجيدًا.

لم تُعر أيُّنا اهتمامًا حقًّا للقصص، فرأسها يفيضُ حنقًا وخيبة، ورأسي يفيضُ حماسةً إزاء اكتشافها الباب الثاني. كنتُ أصدر الأصوات المناسبة وأبتسم، وكانت تخرج كلماتها عنوة، لكنني أردتُ أن ينتهي هذا الغداء الآن، فلدي أشياء أفعلها.

- أذاك...؟

وتوقفَت في منتصف الجملة، ثم عبسَت محدقةً إلى مكان ما من فوق كتفي.

استدرتُ:

- ماذا؟

- إنه هو. (ظلت تحدقُ وقامت نصف قومة من كرسيها) إنه أنتوني هوكينز.

بتُّ أراه الآن، وبقدر ما كان مفيدًا، ازداد انزعاجي. إنه يتبعني، بالطبع يتبعني. قُلت:

- لعله يعيش في الجوار.

- أو ربما يتبعُك.

ها هي ذي، حارستي العظيمة، عشيقةُ زوجي.

- أوه، أشك في ذلك.

وضحكتُ بسخرية، لكن ظلت عيناي عاتيتَين على أنتوني، وعندما أدرك أنه يزعجني، تحلى بالعقل الكافي ليستدير ويذهب إلى دكان صغير في الركن.

- إنه يشتري السجائر في الغالب.

كان افتتانه بي نافعًا، لكن تتبعي غير مقبول ببساطة.

قالَت بغير اقتناع:

- ربما.

راحَت كلتانا ترقبُ المدخل حتى خرج، وأملتُ ألا ترى لويز نظرة *التوق* التي رمقني بها وهو يبتعد، لكنها خازرةٌ عينيها في الشمس لذا في الغالب لا بأس عليّ. ليس أن ذلك يهُم، فبحلول الغد، سيكون أنتوني آخرُ ما يقلقها.

حالما انتهى غداؤنا وهرعتُ بها إلى سخانها المعطل الخيالي، ذهبتُ إلى النادي الرياضي. وصلتُ إليه قبل أن يجري ديفيد مكالمته الثانية بقليل، لكنني لم أتمرن كما ادعيتُ أني أفعل، إنما بدأت بتنفيذ الأقسام التالية من خطتي. قال ديفيد إنه قادم إلى المنزل مباشرة بعد العمل *لأن علينا أن* نتكلم، ثم تكلمتُ إلى موظفي الاستقبال بخصوص ما أحتاج إليه وادعيتُ أنني مشغولة إلى حد يمنعني من الانتظار، لكنني أخبرتهم أن يتصلوا بنا في المنزل بعد الساعة السادسة لتأكيد طلبي. لم أشكّ أنهم سيفعلون، ذلك أنه نادٍ صحي حصري للغاية، ونحن ندفعُ لقاء الحزمة الكاملة، وعلاوة على ذلك، أنا مهذبة وطيبة على الدوام. التهذيبُ والطيبة هما ما *أفعله* وأنا خارج المنزل، ودائمًا ما تؤتي معاملة طاقم الخدمة بلطفٍ أُكُلَها. يمكن لبعضٍ من بقية الأعضاء هنا تعلُّم ذلك.

قطعت الحماسةُ أنفاسي وتشاحَنت أعصابي إزاء ما سيحدث، وبحلول عودتي إلى المنزل وبدئي بتحضير العشاء، كانت يداي ترتجفان وبالكاد يمكنني التركيز، ووجهي ساخن، كما لو أن بداية حُمَّى تنتابني. حاولتُ أخذ أنفاس عميقة، لكنها أتت سطحية ومرتعشة، فظللتُ أركز على الباب الثاني وأذكّر نفسي أنني في الغالب لن أحظى بفرصة كهذه ثانيةً في حياتي كلها.

انزلقَت أصابعي المتعرِّقة على البصلة التي أحاول فرمها وكدتُ أجرح نفسي. لا أعرفُ لمَ أولي هذا الطبق كل هذا الاهتمام، فسينتهي به الأمر في سلة المهملات بأي حال، لكن عليَّ جعل الأمور تبدو طبيعية بقدر الإمكان، وكان الطبخُ قد استحال ميدان اعتزازٍ مفاجئ بالنسبة إليَّ منذ تزوجت. قد تكون شرائح البصلِ المُهملة دليلًا على أنني *أعرفُ* ما سيحدث، وديفيد يشك بي أيما شكٍّ في هذه الأيام.

سمعتُ قعقعة مفتاحه في القفل وجاش جسدي بأكمله توترًا، وصارت أضواء المطبخ فجأة ساطعة أكثر مما يجب. تدبرتُ هذه المرة نفسًا عميقًا، ورأيتُ هاتفي المحمول على الطاولة بجوار المغسلة، راقدًا في منطقة محرمة بين موقعي والهاتف الأرضي المتعلق على الجدار، ثم نظرتُ إلى الساعة، وكانت تلامسُ السادسة. مثاليٌّ.

قلت:

- أهلًا.

كان في الرواق، وأعرفُ أنه يرغب في المضي والاختباء في مكتبه.

- لقد اشتريتُ لك زجاجة نبيذ شاتونوف دو باب، تعال افتحها لتتنفَّس.

مشى ناحية المطبخ مثل كلب بريٍّ نافرٍ عُرضت عليه قراضة لحمٍ. كيف استحال حبنا إلى هذا؟

قال بسأم:

- إذن ما زلنا نتظاهر بأن كل شيء على ما يرام.

أجبته مجروحةً:

- لا، لكن يمكننا على الأقل أن نكون متحضرين. يمكننا بالتأكيد أن نكون صديقين بينما نعملُ على مشكلاتنا، أليس كذلك؟ ألا ندينُ لبعضنا بذلك؟

- انظري...

رن الهاتف، وكدتُ أقفزُ على الرغم من كونه متوقعًا، وقبضَت يداي بشدة على سكين التقطيع، فخطوتُ ناحيته، لكن ديفيد منعني كما عرفتُ أنه سيفعل.

قال:

- إنها العيادة على الأغلب. سأجيب أنا.

أبقيتُ نظري خفيضًا، أقطع البصلة، وأعصابي تحرقُ جلدي بينما أنصت. لقد حان الوقتُ ليحيق الخراب بعلاقته السرية الضئيلة السعيدة بقدر ما يحيق بهذا الزواج.

- مرحبًا؟ نعم، أنا ديفيد مارتن. أوه أهلًا... أردتم تأكيد ماذا؟ أعتذر، لستُ واثقًا أنني أفهم، تمديد عضوية ضيف؟

استدرتُ لأواجهه آنذاك، كان لزامًا عليَّ ذلك، وكان وجهي يفيضُ قلقًا بريئًا أنه سيغضب من إنفاقي، وأن لديَّ صديقة لم أخبره بخصوصها. لم ينظر إليَّ. ليس بعد.

قطَّب جبينه:

- لمَن؟

ثم رأيتها: الصدمة وهو يحاول استيعاب الأمر، الذهول.

- عفوًا، أقلت لويز بارنسلي؟

ثم نظر إليَّ، لكنه ما يزال يحاول ترتيب الأمور في رأسه. لقد انقلبَ عالمه رأسًا على عقبٍ للتو، ثم هُزَّ ثانية.

- وهذا تمديدُ لعضوية ضيفٍ رتبت له زوجتي؟

هززتُ له كتفيَّ مدافعةً وهمستُ:

- *إنها امرأة صادقتُها.*

- حسنًا، نعم، أشكرك، لا بأس بذلك.

حطَّت عيناه على هاتفي المحمول ومدَّ يده يتناوله عندما أغلق الخط، قبل أن أتمكن حتى من التظاهر بمدِّ يدي.

قلتُ:

- آسفة، إنها شخص التقيتُه، وهذا كل ما في الأمر. محض صديقة. لم أُرد قول أي شيء. كنتُ وحيدةً، وعاملَتْني بلطف.

لم ينصتُ لي، بل راح ينبشُ في الرسائل النصية في الهاتف، ووجهه كرعد السماء. كنت قد أبقيتُ معظمها، بالطبع فعلتُ، تحضيرًا لهذا.

ثم حدق إليَّ لوهلة طويلة، قابضًا على الهاتف بشدة ظننتُ معها أنه قد يسحقه. أي رُغامَى يشتهي سحقها أكثر الآن؟ خاصتي أم خاصة لويز؟

قلتُ ثانية:

- آسفة.

كان شاحبًا، وفكُّه مرصوص، وكاملُ جسمه يرتجفُ بفعل شعور مكبوتٍ يحاربُ لاحتوائه. لم أره بهذه الصورة إلا مرة واحدة قبلًا، وكانت منذ زمنٍ بعيد. رغبتُ في معانقته، بإخباره أن كل شيء سيكون على ما يرام، بأنني أجعلُ كل شيء أفضلَ من أجله، لكن لا يمكنني ذلك، عليَّ البقاء قوية.

- أنا خارج.

خرجَت الكلمات بالقوَّة من بين أسنانه. لا أظنُّ أنه كان يراني حتى.

ثم خرج مندفعًا باتجاه الباب الأمامي، وناديتُه، لكنه لم يوقِف خطوَه الواسع لحظةً حتى، زوبعة من الحنق والارتباك.

صُفق الباب وصرتُ وحدي. سمعتُ الساعة تتكُّ في الصمت. حدقتُ إثره للحظة ثم صببتُ كأسًا من النبيذ الأحمر المفتوح. ينبغي أن يتنفس لوقتٍ أطول، لكن لا يهمني.

أطلقتُ تنهيدة طويلة بعد الرشفة الأولى ثم دوَّرت رأسي حول كتفيَّ لأحلَّ التوتر. يا للويز التعسة، كما أظن. شعرتُ بالإنهاك، لكنني حاولتُ نفضه، فما زال أمامي أشياء أفعلها، وأحدها أن أرى ما إن كان أنتوني قد ترك الحزمة حيث قلت له. ومن ثم *أرى* ما يفعله ديفيد. سيضطر تعبي إلى الانتظار.

في النهاية، يمكنني النوم عندما أموت.

31

آنذاك

سيغادران غدًا، فقد انتهى الشهر ولا سبب لبقاء أي منهما وقتًا أطول وهما المريضان النجمان. إنه لشعور غريب، لكن ليس بمتسع أديل التوقف عن الابتسام بينما تحزم أمتعتها: ستتحرر من ويستلاندز، وسيتزوجها ديفيد في نهاية فصله الجامعي. على الرغم من كل ما حدث، يبدو مستقبلها جيدًا. هاجسها الوحيدُ هو روب، فمع أنه يُلقي النكات حول الأمر، لكن يمكنها استشفاف أنه لا يريد العودة للعيش مع أخته، على الإطلاق. آلمها مرآه ضعيفًا تقريبًا، كما آلمها تركه. وهذا الحزنُ الوحيدُ الذي يعضُّ جنبها بينما تطوي ملابسها في شنطتها الصغيرة، لكنه حزن لاذع.

سألته:

- أتريد النزول إلى البحيرة؟

كان جالسًا على سريرها، يراقبها وهي تحزم أمتعتها، ولأول مرةٍ منذ عرفته، بدا أقرب إلى صبيٍّ صغيرٍ منه إلى رجل تقريبًا. كان شعره الداكن مدلى على وجهه، لكنها تمكنت من رؤية التماعة التقويم الذي يكرهه للغاية على أسنانه. غير أن كنزته كانت مكوية على الرغم من ذلك. لم تعرف قبله أحدًا يكوي كنزته أو بنطاله الجينز، وربما يكوي جواربه حتى. لعلها شذرة

التنظيم الصغيرة الوحيدة التي يتمتعُ بها فيما بدا حياةً غير مُقيَّدة في عيني أديل. خلل واحد في جموحه.

أخرجَ شيئًا من جيبه وابتسمَ ابتسامةً عريضة: سيجارة حشيشة ملفوفة بعناية.

- آخر ما تبقى من الحشيش. أفضِّل أن ندخِّنها، فقد يمسكون بنا ثم نضطر إلى البقاء وقتًا أطول.

هي تعرفُ أنه يأمل ذلك نوعًا ما، تعرفُ أنه سيحب أن يبقيا وقتًا أطول، وجزء منها يتمنى الأمر نفسه كذلك، لأنها عاجزة عن تصور ألا ترى روب كل يوم، لكنها اشتاقت لديفيد كثيرًا وتجيش فيها الحماسة لرؤيته وتقبيله والزواج به دون وجود والدين يرفضان.

يشكُّ روب في أن هذه نهاية صداقتهما، لكنها تعرفُ أنها ليست كذلك. ربما يمكن له أن يأتي ليعيش معهما في وقت ما بعد زواجهما، فسيُعجبُ ديفيد به، هي واثقة من ذلك، وكيف يمكنه ألا يفعل؟ إن روب رائع إلى درجة تجبر الجميع على الإعجاب به.

أمسكَت يده، وكان شعورُ وجودها في يدها طيبًا. كادت تنسى شعور الإمساك بيد ديفيد، وأحسَّت أن هذا يشبه الخيانة، لكن ديفيد ليس موجودًا وروب موجود، وهما يحبان بعضهما بعضًا بطريقتهما الخاصة.

قالت:

- ماذا ننتظر؟

لم يكن ذلك اليوم دافئًا، وكانت الريحُ تحملُ من فوق الماء برودة تعضُّ بين الحين والآخر، لكنهما لم يهتما بعد أن جلسا تحت الشجرة حيث التقيا للمرة الأولى وراحا يمرران اللفة بينهما. ستفتقدُ هذا أيضًا. لا يمكنها تخيلُ أن يرغب ديفيد في الانتشاء يومًا، ولا يمكنها إخباره أنها تعاطت المخدرات هنا، فسيفزعه ذلك. هذا سر آخر بينها وبين روب.

قال روب:

- ربما سأحرق المفكرة الآن، وداعٌ شعائري.

بصوتٍ رشيق كعادته وعينين تتلألآن، لكنها تعرفُ أنه حزين، فاعتصرت يده بشدة.

- لا، احتفظ بها، وما أدراك؟ قد تحمل أحلامك المزيد من المفاجآت.

أخذَت شهقةً، مستمتعةً بالطنين المريح، ومررت اللفة له:

- وعندما تأتي لزيارتنا يمكنك إخباري عنها. إلى أين ذهبت، ومن تخيلت. (وابتسمَت له) حريٌّ بك إدخالي في بعض هذه الأحلام.

قال:

- وحريٌّ بكِ المثل. فسترين قدرًا كافيًا من ديفيد المُغِمّ، ولست في حاجةٍ إلى أن تحلمي به أيضًا.

رمتهُ بلكمة عابثة على ذراعه وضحكَت على الرغم من أنه يعني كلامه. سيختلف الأمر عندما يلتقيان. كيف عساها تحب كليهما إن كانا عاجزين عن حب بعضهما؟ لا يمكن ذلك.

سألها:

- ألا مشكلة لديك في العودة إلى منزلك؟

- لا أظن ذلك.

لم تكُن واثقة، لكنه جزء من خطتها العلاجية: مواجهة المصاعب بشجاعة إن صح التعبير؛ العودة إلى مصدر الصدمة، وقضاء بعض الوقت هناك.

- ثمة الكثير من الغرف غير المتضررة، وقد نُظِّفت المحترقةُ وأُجريت فيها إصلاحات مؤقتة. لقد رتَّب ديفيد ذلك.

قال روب، بجفاف:

- أظن أنه قادر على ذلك، بعد أن منحتِه كل مالك.

قالت مغتاظةً:

- لا، لم أفعل. أظل أخبرك ذلك. الأمر مؤقتٌ وحسب، وهو أسهل، إذ ثمة أجور جامعته وكل ما يخصها، وأمور المنزل؛ لا يمكنني الاعتناء بذلك من هنا. إضافة إلى أنه أكثر مما يمكنني احتمال التفكير به. أنا سعيدةٌ لأنه أخذ الأمر على عاتقه. دعك منه روب، ولا تخبر أحدًا، فقد كان الحال

على قدرٍ كافٍ من المشقة بالنسبة إلى ديفيد منذ الحريق دون أن يبلغ هذا الصخُف.

- حسنًا حسنًا، إنني قلقٌ عليك فقط.

ليس هذا الوقت المناسب لجدالهما الأول وهي تعرفُ أنه يعرف ذلك. توقف قليلًا.

- سأقلق عليكِ أكثر حتى وأنتِ في ذلك المنزل القديم الكبير وحدك.

- سأكون بخير. لن يطول ذلك أكثر من بضعة أسابيع. ثمة أناس سيحضرون للاطمئنان عليَّ: بعض أهل القرية ومحاميَّ والطبيب بالطبع. حتى إن أحدهم سيجلب لي الطعام وينظف المنزل وقت الحاجة، وقال ديفيد إنه سيأتي في عطلات نهاية الأسبوع عندما يستطيع.

قال بحزن:

- ثمة حياة جديدة تمتدُ أمامكِ بكُلها. أما أنا فسأرجعُ إلى العزبة القذرة وأظل محبوسًا مع أختي اللعينة البغيضة.

سألته:

- أهو بهذا السوء؟

ما زال لم يفتح قلبه بخصوص حياته قط، على الرغم من أنها حاولت بلطف حثه على الكلام خلال الأسبوع الماضي أو نحوه.

- إنه على ما هو عليه.

حاولَ نفث حلقات دخان، لكن الريح كسرتها قبل أن تتشكل بالكامل حتى، فاستسلم.

- لا أريد أن أفكر به حتى الغد.

قالت:

- خلِ في بالك أن بوسعكَ الاتصال بي، سأعطيك رقم هاتفي المحمول، واتصل بي إن ساءت الأمور، وربما تأتي وتبقى بضعة أيام.

- أوه، سيحب ديفيدُ ذلك بلا شك.

قالت:

- ديفيد في الجامعة (ثم أردفَت في لحظة تمرُّد) وإنه منزلي اللعين.

ابتسم واحدهما لصاحبه آنذاك، وكان بمقدورها رؤية أنه يحبها، وأشعرها ذلك بدفء يجيشُ في جوفها، وإن كان معقدًا بعض الشيء، فديفيدُ كل شيء بالنسبة إليها، لكن الآن روب في قلبها أيضًا. لم تكُن لتشعر بكل هذا التحسُّن بحلول هذا الوقت لولاه. كانت لتُحبَس إلى الأبد على الأرجح.

قالت ودفقة عاطفة تغمرها:

- أعني ذلك، في أي وقت.

فقال:

- حسنًا، ربما سأفعل.

كانت تأمل أن يفعل، كانت تأملُ أن يتصل بها بدلًا عن أن يكون تعيسًا، لكن روب معتدٌّ بنفسه وهي تعرف ذلك. معتدٌّ بنفسه بقدرِ ديفيد لكن بطريقة مختلفة.

قالت:

- أتعدني؟

وهي تميلُ ناحيته حتى اقتربَ وجهاهما وداعبَ شعرها خده.

- أعدك، يا أميرتي الحسناء النائمة الجميلة. أعدك.

- جيد (قبَّلته على أنفه) حُسم هذا الأمر إذن.

32

لويز

ما كان ينبغي أن أسمح له بالدخول، ما كان ينبغي أن أسمح له بالدخول، هذا كل ما يمكنني التفكير به بينما أستوعبُ رُعب كل الفوضى التي تنهار حولي. لو لم أدخله، لما اضطررت إلى مواجهة الأمر، ليس بعد. أريدُ أن أتقيأ. لستُ أدري ما أقول.

كان يرتجفُ حنقًا وهو واقف في غرفة جلوسي يلوح بهاتف أديل الرديء ناحيتي، ويصرخ شيئًا ما عن أنه قرأ كل الرسائل. رحتُ أبكي، ولم أعرف حتى متى بدأت البكاء، ربما عندما دخل من الباب وعرفتُ حالًا أنه عرف، لكنني تمنيتُ لو لم أفعل. استحالت معدتي ماءً وشعرتُ كما لو أنني ضُبطْتُ في علاقة غرامية وأحاولُ تفسيرها. إنني أكره نفسي.

- *طوال* الوقت؟ (كان غير مصدق، وما زال يعاني ليستوعب الأمر) كنتِ صديقةَ زوجتي طوال هذا الوقتِ ولم تخبريني؟

خرجَت لكنته الإسكتلندية أشد وضوحًا في غضبه، ريفية جلفة، وفاجأني ذلك. صوتُ رجلٍ غريب.

انتحبتُ في وجهه:

- لم أدرِ كيف أخبرك!

وكانت يداي تومئان بلا أي مغزى على الإطلاق إلا ربما مُحاوِلةً صرف الأمر كله بالتلويح.

- لم... لقد اصطدمتُ بها حرفيًّا في الشارع وسقطَت أرضًا ثم ذهبنا واحتسينا القهوة! لم أقصد أن أصادقها لكنها راسلتني بعد ذلك ولم أعرف ماذا أفعل!

- ولم يخطر في بالك أن تذكري لها أنك تعملين لصالحي؟ ألم تفكري بأن ذلك سيكون *طبيعيًّا*؟

أدخلتني الصدمة صمتًا لحظيًّا لا بدَّ بدا مثل ذنب إضافي، فقد ظننتُ أنه يعرف كل شيء. أعساه عثر على هاتف أديل وجاء مباشرة؟ أعساه لم يكلمها بعد؟ أو ربما لم تُخبره بهذا الجزء. *ربما منعها خوفها*. لم أعرف ما أقول. أيجدر بي إخباره بأنها تعرف بالطبع؟ وأنها طلبت مني إبقاء الأمر سرًّا؟ لكن ذلك سيوقعها في المزيد من المتاعب، ومن جميعنا، أديلُ هي الوحيدة التي لم تقترف خطأً، فلم أقل شيئًا.

- كم من الجنون الأحمق تبلغين؟ (كان البصاق يتطاير مع كلماته) بحق المسيح! ظننتكِ صادقة للغاية، طبيعية للغاية. أكنتُ تترصدينني؟

صرختُ عليه:

- شعرتُ بالأسف لحالها! (على الرغم من أن الجدران رقيقة ولورا في الشقة المجاورة تسمعنا حتمًا) كانت وحيدة!

- لعنة المسيح يا لويز، تعرفين مدى جنون هذا، أليس كذلك؟

- لم أُرِد أن أكون صديقتها، لم أُرِد ذلك (خرجَت هذه الكلمات ممتزجة بالمخاط والدموع) لقد استُدرِجْت، وظننتُ في البداية أن ما فعلناه في الحانة كان مرةً لن تتكرر.

- لكن لمَ لم تُخبريني بكل هذه الكذبات القذرة لويز؟ من أنتِ؟

- لم أكذِب، أنا فقط لم...

وهززتُ كتفيَّ، مغلوبة على أمري. *أنا فقط لم أخبرك*. هذا كلام واهنٌ، وعرفتُ ذلك حتى قبل أن يقاطعني.

- ما كان ما قلتِه لي؟ أنتِ كتابٌ مفتوح؟ (أصدر صوت نخرة باستهزاء وبالكاد تعرَّفتُه) إنك ملأى بالهراء. ظننتك أهلًا *للثقة*.

أشاحَ بوجهه ومرَّر يده في شعره، لكن بدا وكأنه على شفير اقتلاعه من جذوره.

- لا يمكنني استيعاب هذا، لا يمكنني.
- ما السبب الحقيقي لقلقكَ يا ديفيد؟

اغتنمتُ اللحظة، فأفضلُ وسيلة للدفاع هي الهجوم، وإن كان يظنُّ قبلًا أنني أهلٌ للثقة فلمَ لم يخبرني بأي شيء إذن؟ ربما هو المليء بالهراء.

- أن أعرف أشياء لا ينبغي لي معرفتها؟ أن أحملَ أديل على التحلّي بالشجاعة ومعاقبتك؟ طردك؟ واستعادة حياتها؟
- ماذا؟ (استدار ونظر إليَّ، نظر إليَّ ملء عينيه، للمرة الأولى منذ اندفعَ إلى الداخل، ثم عبسَ وانخفض صوته) ماذا أخبرتكِ عني؟
- أوه، هي لا تقول أبدًا إلا إنها تحبكَ (حان دوري لأُصدر نفس صوت النخرة باستهزاء) لكنني *أرى* الأمور. أعرفُ كيف تعاملها، كم هي خائفة منك. أرى كيف كنتَ تعبث برأسها.

رمَقني بنظرةٍ طويلةٍ وثقيلة:

- إياكِ، ولو لثانية، أن تظني نفسكِ تعرفين أي شيء عن زواجي.
- أعرفُ أنك تملكُ كل مالها. أهذا السبب خلف بقائك؟ ابنُ المزارع الصغير الفقير الذي أنقذ الوريثة الثرية وحملها على التنازل عن ميراثها ولم يُرجعه قط؟ إنك لحبكةٌ قذرة من حبكات أغاثا كريستي تمشي على قدمين.

الآن صرتُ أنا غاضبة. بلى، قد يكون محقًّا بانزعاجه مني ولستُ أعرفُ كيف عسايَ أشعرُ لو كنتُ مكانه -مُنتهَكة ومخدوعة ربما- لكنه كان ينام معي سرًّا عن زوجته، لذا سأتذرع بهذا بعدِّه بطاقة خروج مجاني من السجن[1]، للوقت الراهن بأي حال.

---

(1) بطاقة الخروج من السجن: بطاقة في اللعبة اللوحية مونوبولي تتيح لحاملها الخروج من السجن مجانًا. (المترجم)

- أنتِ حقًّا لا يهمك أمري البتة، أليس كذلك؟

كان شاحبًا ويرتجف، لكن عينيه تضطرمان.

قلت:

- نعم، هذا ليس صحيحًا (كارهةً اندفاع الدموع الجديدة من عينيَّ)، أكنُّ مشاعر لك، وظننتُ أنني ربما أحببتُك. كنتُ في بعض طريقي إلى حبكَ بأي حال. لكن ثمة كل هذي الأمور *الأخرى* يا ديفيد. أمور أنت لا تخبرني بها. أمورٌ يمنع الخوفُ زوجتك التعسة من الحديث عنها.

- ما الذي تظنين أنكِ تعرفينه بحق الجحيم يا لويز؟

صارَت كلماته باردةً ومجزومةً وحلَّ همود مرعب عليه. سخط مكبوت. أهذا تهديدٌ أم سؤال؟ بتُّ أكثر خوفًا الآن من وقتما كان يصرخ. فكرتُ في معاملته أديل وفكرتُ في ندوب الحرق وفي إنقاذه لها من السعير. فكرتُ في المال. أكانت بطولاته من أجلها أم من أجله؟

- ما حقيقة ما أصاب والدَي أديل؟ (كانت ذراعاي منعقدتين على صدري بينما يقذف صوتي الهادئ الاتهام المُبطَّن) حريق في منتصف الليل وكنتَ عابرًا بالصدفة؟ لقد *أخبرَتني* بذلك. بطَلُها.

أصدرتُ صوت عَفْطٍ[1] لإتمام إبداء ما رأيي بذلك بالضبط، حتى وإن لم أعرف حقًّا ما رأيي به.

زمجَر وهو يهزُّ إصبعه ناحيتي، وكاد يطعنني به:

- لقد أنقذتُ حياتها!

فتراجعتُ خطوة.

- نعم فعلت، لكن لم تنقذ والديها. وقد عاد ذلك عليكَ بأيما نفع، أليس كذلك؟

أجفلَ واتسعت عيناه:

- أيتها العاهرة اللعينة! أتظنين أنني...

رحتُ أصرخ وأجعجع:

(1) العَفْط: صوت الفيخ؛ صوت المستهزئ من شفتيه كصوت عفط الضأن. (المترجم)

- لستُ أعرفُ ما أظن! لقد أنهكني التفكير بالأمر. الأقراص والمكالمات الهاتفية وكل تلك القذارة! ديفيدُ المتسلِّط على أديل، ديفيدُ خاصتي اللطيف لكن المضطرب، تعبتُ من محاولة معرفة أيها حقيقتكَ في خضم فوضى الأمر كله. لم أُرد أن أضطر إلى التفكير به قط! لم أُرد أن أكون صديقتها قط، لكنني صرتُ كذلك، وهي تروق لي، وينتابني شعور مزرٍ حيال كل شيء! (كنتُ متضايقةً حدًّ أنني بالكاد أجرُّ النفس، أجهشُ وألهث وأكافح في سبيل الهواء) أشعرُ بالقرف!

- اهدئي بحق الجحيم يا لويز.

تقدم خطوةً ناحيتي محاولًا أخذ ذراعيَّ، لكنني نَتَرْتُه وأنا أشهق وأبكي. صدمه سيلُ مشاعري، كان بوسعي رؤية ذلك تقريبًا.

- أنا صديقتها الوحيدة (كنتُ في منتصف طريقي إلى الدمار ولا يمكنني وقف ذلك، فقد سئمتُ من قضمِ كل تلك الأسئلة إياي من الداخل) صديقتها *الوحيدة*. لمَ؟

- لويز، اسمعي...

- ماذا حدث لروب يا ديفيد؟

تجمد آنذاك، وشعرتُ تقريبًا بكل العالم يمسكُ أنفاسه بيننا، ويمشي على إيقاع تنفُّسي. سألته:

- لمَ ما عادا صديقين؟ ماذا فعلت؟

حدق إليَّ:

- ما أدراكِ بأمر روب؟ (بالكاد جاوزت كلماته الهمس).

سألته ثانية:

- ماذا فعلت؟

لكن شيئًا ما في وجهه جعلني أتساءل عما إن كنتُ أريدُ أن أعرف حقًّا. بدا أنه لم يسمعني، ولم يقُل شيئًا لبرهة مديدة، ثم أدركتُ أنه لم يكن يحدِّق إليَّ، بل إلى شيء ما خلفي، شيء لا يمكن لغيره رؤيته.

قال أخيرًا:

- أنت مفصولة.

كانت الكلمات، الباردة والرصينة، نقيض ما توقعته تمامًا ولم أفهمها.

- ماذا؟ (صار دوري في العبوس ذاهلةً).

- سلمي إشعاركِ المباشر في الغد، عبر البريد الإلكتروني. لا يهمني أي ذريعةٍ تقدمينها، اختلقي شيئًا ما. يجب أن تتدبري ذلك بسهولة.

صُعقت. وظيفتي؟ إنه يسلبني وظيفتي؟

- وإن كنتِ تفكرين بإخبار الدكتور سايكس بعلاقتنا الضئيلة الرخيصة، فسأريه هذه (رفَع هاتف أديل)، ثم ستبدين وسواسيةً بقدر أنتوني هوكينز (انحنى مقتربًا مني، مضبوطًا وهادئًا على نحو مُهدِّد) لأن مجنونة فقط ستبدأ علاقة سرية مع زوجة الرجل الذي تضاجعه (ثم تراجع قليلًا) والدكتور سايكس رجلٌ منحازٌ للرجال، لن يهتم لأنني ضاجعتك، إنما لن يحترمك لأنك ضاجعتني، وسيجد طريقة ما ليتخلص منك بنفسه.

إنني أفقد عملي. فجأة، صار كل هذا حقيقيًّا للغاية. ديفيد يكرهني، ولستُ أعرفُ ما إن كانت أديل على ما يرام، والآن خسرتُ عملي. عدتُ بذاكرتي إلى تلك الليلة الأولى في الحانة وقتما ضحكنا وشربنا وجعلني أضج حيوية، ثم تدفقت الدموع غزيرة وسريعة وصافية ومترعة برثاء الذات. إنها خبيصتي وعليَّ احتواؤها، لكن معرفتي ذلك زادَت سوء مشاعري سوءًا.

لم يُعلق على ذاك، لكن كان وجهه ملتويًا وكريهًا وليس ديفيد خاصتي على الإطلاق.

أردتُ ذرفَ المزيد من الدموع، وأسوأ ما في الأمر هو أنني حتى في هذه اللحظة، حتى بعد أن خرج كل شيء إلى العلن، ما زلتُ لا أعرف أي شيء. لم يُعطِ أي إجابة عن كل اتهاماتي.

هممتُ أقول:

- ديفيد، أخبرني فقط...

كارهةً الاستجلاف في صوتي، الحاجة إلى إصلاحِ شيء *ما*. لكنه قاطعني بصوتٍ كالجليد:

- ابتعدي عني، وابتعدي عن أديل، وثقي بي بخصوص هذا يا لويز، إن كنتِ تعرفين مصلحتك، فابقي بعيدةً عن كلينا. لسنا من شأنكِ، مفهوم؟

أومأتُ برأسي، مثل طفلٍ مجبرٍ على الإذعان، فقد فلت القتال من يدي. ما الذي أقاتل لأجله بأيِ حال؟ لا يمكنني التراجع عما قلته، ولستُ واثقة تمامًا أنني أريد ذلك. أريدُ أجوبة فقط، ولن يمنحني إياها.

قال:

- لا أريدُ رؤيتكِ ثانيةً أبدًا.

كانت الكلمات ليِّنة لكنها موجعة، ركلةٌ في الكلية تركتني منقطعة النفس وهو يستدير ليغادر.

ثمَّ سمعتُ سقَّاطة الباب الأمامي، وصرتُ وحدي.

ذُبتُ، وانهرتُ على الأرض، ورحتُ أتلوَّى على نفسي وأنتحبُ مثل طفل في جهشات طويلة وشديدة ولا ضابط لها.

ديفيد يشتعلُ غضبًا، ولا يمكنني حتى مراسلة أديل لتحذيرها.

33

أديل

ذهب يحتسي مشروبًا قبل أن يرجع إلى المنزل. ثمة دائمًا تلك الحاجة إلى المشروب عند ديفيد، لكنني لا أمانع هذه المرة، إذ أفضِّل أن يمنح نفسه الوقت ليهدأ. حرصتُ أن أكون جالسة إلى طاولة المطبخ عندما أسمع صوت فتح الباب الأمامي، وآثار الدمع على وجهي. لكنني لستُ أبكي، فقد حظيَ بما يكفي من النساء الباكيات لليلةٍ واحدةٍ، كما أتصور.

حافظتُ على حيرتي بخصوص لويز. اعتذرتُ، مرارًا وتكرارًا، عن عدم إخباري إياه بأمر صديقتي الجديدة، لكنني كنتُ وحيدةً وخشيتُ أن يمنعني من رؤيتها، وكنتُ أحاول أن أكون طبيعية. ظننتُ أنها ستكون خيرًا لي. سألته إلى أين ذهب، وسألته ما مكانتها منه، ولمَ حمله اسمها على الاندفاع خارجًا على هذا النحو، ولم يخبرني الحقيقة بالطبع، على الرغم من أنه ينبغي أن يكون أكثر تعقلًا بحلول الآن.

قال إنها إحدى مرضاه وراقبني بعناية منتظرًا رد فعلي، كان يختبرني، ذلك أن براءتي لا تنطلي عليه تمامًا هنا، فهو يعرفني أكثر مما يجب. تركتُ فمي يفغر إلى اندهاش طفيف قائلةً:

- أوه!

وبأمانة، لقد خاب أملي فيه إلى حد ما، فحتى لو لم أكُن أعرفُ مسبقًا بأنه يضاجع لويز وأنها سكرتيرته، سيثير هذا شكوكي بلا ريب. على الرغم من هيامي بديفيد، يمكن تصديق وجود مريض وسواسيٍّ واحد لديه، أما اثنان فأمرٌ يتخطى حدود المصداقية. ومع ذلك، ليس عليَّ إلا مجاراته، وكان هذا ما فعلتُه.

طرحتُ كل الأسئلة المناسبة، وراح يمطرني بالأجوبة. لم يُرجِع لي الهاتف، لكن نتانة شعوره بالذنب فاحَت من قلة استفهامه عن صداقتنا. شعرتُ بالأسف لحال لويز، فمن الواضح أنه صب معظم غضبه عليها، لكنه من ناحية أخرى غير معتاد على الغضب عليها. أما أنا فحكاية ثانية، إذ لم يعُد يمتلك الطاقة الكافية ليظل ثائرًا عليَّ، ذلك أنني سأرهقه.

قال:

- ربما يجدرُ بنا السفرُ لبضعة أسابيع.

ارتخت كتفاه عندما خفضَ نظره إلى الأرض، كان متعبًا، مُنهكًا عن آخره، من كل شيء. مني.

قلت:

- لا يمكننا (ولأكون صريحة: لا يمكننا، فهذا لا يلائم خططي *البتة*) فلم يمر على مزاولتك العمل إلا بضعة أسابيع، كيف سينعكس ذلك على صورتك؟ انقُل هذه المريضة لويز مثلما فعلتَ مع الفتى وحسب.

- ربما لبضعة أيام إذن، لكي يتسنى لنا الحديث كما يجب (حدجني بنظرة آنذاك، وبدَت الريبة والعصبية كلها في تلك النظرة الوجيزة) قرري ما سنفعله.

حفظت لويز الصغيرة الطيبة سرَّنا، لكنها ذكرت الأقراص والمكالمات الهاتفية، وهو يتساءَل كم كان ذلك عرضيًا أو إن كنتُ قد رتبتهُ بطريقة ما.

قلتُ، بكل منطقٍ شجيٍّ:

- لا يمكننا مواصلة الهرب، أيًّا كانت مشكلاتنا، ينبغي أن نبقى ونواجهها.

أومأ برأسه، لكنه كان يراقبني مليًّا. إنها لويز التي خدعته، لكنه لا يثِقُ بي مثقال ذرة، ويحاولُ على الدوام تحليل مزاجي، وتفكيري، وتصرفاتي.

لم يقتنع أنني لم أعرف هوية لويز، لكن لنقص تأكيدها، لم يكن قادرًا على إثبات أي شيء. أمكنني الشعور بخطوط المعركة تُرسَم بحزمٍ بيننا على بلاط مطبخنا الباهظ.

إنه رجلٌ على أعصابه، وسيفعل شيئًا ما قريبًا. سيطلقني على الأقل، بصرف النظر عن تهديداتي بتدميره، إذ أظنه تجاوز تقريبًا الاهتمام بذلك، وإنني أعرفُ منذ بعض الوقت أن هيمنتي عليه تتلاشى. سيرتاحُ لأن كل شيء انتهى وفُرِغ منه، لوهلةٍ على الأقل، قبل أن يدركَ أنه قد خرب حياته المثالية بالكامل لأن شيئًا حدث منذ وقتٍ بعيد بدأ يعطي مفعوله.

لكنني سأتصرفُ أسرع منه، فأنا أشجعُ بهذه الطريقة. لطالما كنتُ متقدمةً خطوة. ازدادت عزيمتي صلابة. لن يسعد ديفيد أبدًا حتى يتحرر من الماضي، ولن أستطيع السعادة حتى يسعد ديفيد.

وقتما غادرنا المطبخ أخيرًا، وسبقني متجهًا إلى مكتبه لبعض الوقت ليتفادى حرَج مشينا إلى غرفتي نوم منفصلتين، ثم صعودي إلى الطابق العلوي إلى سريرنا الكبير الخاوي، استلقيتُ صاحيةً لبعض الوقت، أحدق إلى الظلمة وأفكر بالأمر كله. وبوجه أدق: أفكر فيهما، وفينا، وفيه.

لا يمرُّ الحبُّ الحقيقي دربًا سهلًا أبدًا.

34

لويز

من الشعور بكثير الانتعاش، إلى الشعور بالإرهاق. بالكاد نمتُ منذ يومين؛ شجاري مع ديفيد يُعيد نفسه في رأسي بلا توقف، ولم أغادر الشقة إلا لأجر قدميَّ إلى الدكان المحلي وأشتري النبيذ والطعام الرديئين، وشعري مجذوبٌ في ذيل حصانٍ تمويهًا ضعيفًا لحقيقة أنني لم أستحم حتى. أرسلت صوفي رسالةً فيها "كيف الحال؟"، مسحتها من غير رد، فلستُ في حاجةٍ إلى أن تقذفني بأي جملةٍ متعجرفةٍ من قبيل "قلتُ لكِ ذلك" الآن.

كدتُ أتقيأ وقتما أرسلتُ استقالتي عبر البريد الإلكتروني. كتبتُها أربع مراتٍ من بين دموعِ رثاء الذات قبل أن أضغط زر الإرسال أخيرًا. أرسلتُ نسخة منها إلى ديفيد، وجعلتني رؤية اسمه فيها أرغب في البكاء أكثر. اتصل الدكتور سايكس من فوره يحدوه القلق، وأبكاني ذلك ثانية، ما دعم قصتي عن *"الشأن العائلي الخاص"*.

لم أزوِّده بأي تفاصيل ولم يضغط علي من أجلها. طلب مني أن أعيد التفكير في غضون شهر وسيعدها استراحة، ويمكنهم جلب موظفٍ مؤقتٍ ليغطي أيام غيابي. لم أجادل في ذلك، فربما تتغير الأمور في شهر. ربما يهدأ ديفيد. ربما ينتقلان. لستُ أفهمُ أيَّهما حقًّا، لذا لستُ أعرفُ ما سيفعلان. كان البريدُ الذي تلقيته من ديفيد -وقد وُجهت نسخة منه إلى الدكتور سايكس-

كما لو أنه من شخص غريب، لا من الرجل الذي ثار عليَّ في غرفة جلوسي الليلة الماضية. كنتُ على حق. لا أعرفه البتة. أديلُ الوحيدةُ التي كانت صديقتي، وقد آذى كلتينا.

لكنني قلقةٌ على أديل. كنتُ قد أملتُ بعض الأمل أنها ستظهر عند بابي في وقت ما، بيد أنها حتى الآن لم تفعل، ولستُ متفاجئة، فهي مذعورة من مضايقة ديفيد، وعلى الأرجح لن تجازف. لا يمكنني تصور أن أكون الطرف المتلقِّي لذلك لسنوات. لعله يعملُ من المنزل حتى بذريعة المرض أو شيء ما. عندما لا أكون مستغرقةً تمامًا في حفلة الشفقة خاصتي، يستعر دماغي تفكيرًا في ذلك، وأتصوَّره وحشًا ما من صنف هانيبال ليكتر[1]. لعلي في حاجة إلى معرفة أن أديل بخير. وَعَدتُ أن أبتعد عنها، لكن أنى لي؟ كان ديفيد في أقصى البرود في نهاية شجارنا. ما الذي واجهَتْهُ وقتما رجع إلى المنزل؟ ما زال بوسعي رؤية الكدمة على وجهها، وعلى الرغم من إصراره على أنه لم يضربها، ألا ينكر كل الأزواجِ المُعنِّفين فِعالهم؟

إنني متعبة جدًّا وانفعالية جدًّا، وقد ضاع أي أثرٍ للتفكير المنطقي. كل ما أعرفه هو أنني في حاجةٍ إلى الاطمئنان على أديل وأن الوقت يداهمني. آدم عائدٌ بعد الغد، وحينئذٍ من يدري بكم من وقت الفراغ سأحظى؟ سيكون محدودًا أكثر حتمًا، ولستُ أريدُ جرَّ آدم إلى هذه الخبيصة. أحتاجُ إلى إغلاق الباب على الأمر. ما زالت الفكرة تبدو سريالية، فكرة عدم وجود ديفيد ولا أديل، ولا *عمل*. لجمتُ المزيد من الدموع، فحتى أنا سئمتُ من بكائي، وظللتُ أقول في قرارتي: *إنها فوضاك، تحمليها.*

غدًا. سأراها في الغد إن قدرت، لكن كيف؟ كيف أراها دون المجازفة بإيقاع كلتينا في مزيدٍ من المتاعب؟ صببتُ كأس نبيذ، غير آبهة لأن الساعة بالكاد بلغت الثانية ظهرًا -فهذه الظروف استثنائية- وانهرتُ في الكنبة. علي تنظيف الشقة أيضًا، فلا أريدُ أن يطلق إيان الأحكام عليَّ عندما يرجع. رحتُ أتأملُ الفوضى، وحطَت عيناي على حاسوبي المحمول، المُلقى على الأرض

---

(1) هانيبال ليكتر: شخصية خيالية ظهرت لأول مرة عام 1981 في رواية الإثارة التنين الأحمر للكاتب توماس هاريس. هانيبال طبيب نفسي لامع وقاتل متسلسل آكل للحوم البشر. (المترجم)

بجوار التلفاز حيث رميته بعد إرسالي البريد الإلكتروني للدكتور سايكس، ثم راودتني الفكرة.

طلب مني الدكتور سايكس اتخاذ شهر، وهذا لا يعني أنني فُصِلت -على الرغم من أنك أردت طردي مشكورًا جزيل الشكر أيها *السيد لقيط الحانة*- لذا لن يكونوا قد حذفوا بيانات تسجيل دخولي عن بعد.

تربَّعت على السجادة، ونبيذي بجواري، وسجلتُ دخولي إلى مخدّم العيادة بقلبٍ يخفق كما لو أن بمقدورهم رؤيتي بطريقة ما. تعرقت راحتاي، وعلى الرغم من أنني من الناحية التقنية لم أخرق أي قواعد، شعرتُ وكأنني أفتِّش في رسائل عشيقٍ وبريده الإلكتروني. دخلتُ أجندة ديفيد ليوم الغد: ظهيرته محجوزة بالكامل تقريبًا، ولن يغادر العمل قبل الخامسة على أقل تقدير، وحتى إن ذهب إلى المنزل للغداء، فسيضطر إلى العودة قبل الواحدة والنصف. سجلتُ خروجي ورحتُ أرتشفُ نبيذي وأرسم خطتي.

سأتحقق من أجندته ثانية في الصباح وأتوثق من أنه لم يُلغِ أي موعدٍ في آخر لحظة، وسأختار الهاتف مسبق الدفع، فأديل في حاجة إلى هاتف، ولا أعرفُ ما إن كان ديفيد قد أبقى ذاك الهاتف الرديء الذي كان بحوزتها. إن منحتها واحدًا تخبئه في مكان ما، فسأعرفُ على الأقل أن بوسعها الاتصال بي إذا ما وقعت في ورطة، وحينذاك أرتاح أكثر في إطلاق سراح كليهما. ينبغي ذلك. لا خيار آخر أمامي.

أحاطني تحضيري خطة بشعورٍ أفضل، وعندما خرجتُ بنبيذي إلى الشرفة وشمس الزوال، أدركتُ أن شعورًا أفضل يراودني لتحديَّ ديفيد أيضًا. قلتُ في قرارتي: *سحقًا لك، من تظن نفسك بأي حال؟*

حاولتُ ألا أفكر في شعور وجوده في سريري وفي شوقي إلى ذاك القُرب على الرغم من أنني أكره نفسي بسببه. لم أفكر في حضوره الدائم في أحلامي ولعبِنا العائلة السعيدة عبر ذاك الباب الأول. بدلًا عن ذلك، فكرتُ في مدى الجرح الذي أشعرُ به وفي أنه الشخص الملوم وفي أنني ملعونة إن كان سيملي عليَّ ما أفعله وكأنني أديل الضئيلة الخائفة.

غدًا. يمكنني نسيان الأمر برمته غدًا.

35

أديل

رنَّ الجرس عدة مراتٍ قبل أن أدرك أنه الجرس. في البداية، في غشاوتي الهائنة، ظننتُ أن بعض الطيور النادرة قد دخلت إلى المنزل، ثم تساءلتُ عما إن كنتُ في المنزل أصلًا، ثم سمعته ثانية. وتيقنت أنه الجرس بلا شك. أزعجني، وشعرتُ برأسي ثقيلًا وأنا أستوي في جلستي على الكنبة.

- أديل؟

انساب الصوتُ عديم الجسدِ إلى الغرفة، وعبستُ. أهيَ الطارقة حقًّا؟ كنتُ أفكر فيها كثيرًا حد أنني لم أعُد أعرف ما إن كنتُ أسمعُ صوتها حقًّا أم أنها في رأسي. كان التركيز شاقًا للغاية، وشعرتُ أنها مجدولة بي جدلًا منتظمًا إلى درجة أنني في هذه اللحظة، وهذه الحالة، لا أعرفُ أين أنتهي أنا وتبدأ هي.

- أديل، إنها أنا، لويز! افتحي الباب أرجوكِ. لن أطيل بقائي أكثر من لحظة. لا أريدُ إلا معرفة أنكِ بخير.

لويز. إنها هيَ بالفعل. مُخلِّصتي. ابتسمتُ، على الرغم من شعوري أنني كنتُ أرسمُ وجهًا قبيحًا، وعلى الأرجح كنتُ أفعل. كان بعض الرُوال يوشّي ذقني، فمسحته بخَرقٍ قبل أن أجر نفسي لأنهض على قدميَّ المتقلقلتين. عرفتُ أنها سترجع، لكنني لم أتوقع حدوث ذلك بهذه السرعة.

أخذتُ نفسًا عميقًا وحاولتُ تصفية ذهني قليلًا ريثما أقرر ما إن كنتُ سأفتح الباب. قد تكون مجازفة، لكنني مع ذلك خبأتُ الأشياء التي أحتاج إليها في الصندوق الساجيِّ المزخرف الصغير على الطاولة الجانبية. لا أعرفُ من أين اشتريته أو لمَ، لكن على الأقل صار نافعًا الآن.

نادَتني مرة ثانية، وانتبهتُ إلى انعكاسي في المرآة. كان مظهري مُزريًا: شاحبة متعرقة، وبؤبؤاي متوسعان حدًّ أن عينيَّ سوداوان تقريبًا، وشفاهي ترتعش. لم أتعرَّف نفسي، وحملني ذلك على القهقهة، مصدرةً صوتًا فجائيًّا أجفلني إلا قليلًا. أن أدخلها، أو لا أدخلها، تلك هي المشكلة. لكن في تلك اللحظة، وفي الجزء الذي ما يزال يعمل كما ينبغي من دماغي، أدركتُ كيف يمكنني تحويل هذا لمصلحتي. كنتُ سأضطر إلى تزييف هذا السلوك في وقتٍ ما، أما الآن فلا حاجة. خطتي تمضي قدمًا. لكن من ناحية أخرى، فخططي دائمًا تمضي قدمًا.

هدجتُ ناحية الباب الأمامي وفتحتُه، ونكصتُ إزاء ضوء الشمس الساطع. قبل ساعة، لم أكن لأقدر على الحركة، لكن الآن وبعد أن صرتُ مركزةً، عادت أطرافي تمتثلُ لأوامري. شعرتُ ببالغ الفخر بنفسي، لكن بدَت لويز مصدومة، واستغرقتُ ثوانيَ لأدرك أنني أنا التي كنتُ أتمايلُ بعض الشيء، لا هي، ولا الرصيف في الخارج.

قالت:

- اللعنة يا أديل (ودخلت بسرعة لتأخذ بذراعي رويدًا). أنت في حالٍ مزرية (ثم قادتني إلى المطبخ)، أأنتِ ثملة؟ فلنحضِّر بعض القهوة. كنتُ قلقة عليكِ أشد القلق.

قلتُ بلسان ثقيل:

- آسفة جدًّا بخصوص هاتفي. آسفة جدًّا.

أجلستني في كرسي، وكان جلوسي فرجًا؛ نقصت دواعي تركيزي واحدًا.

قالت بينما تملأ الغلاية وتبحث عن الفناجين والقهوة الفورية:

- ليس ثمة ما يستدعي الأسف.

سرني أن ثمة برطمانًا صغيرًا «لحالات الطوارئ» في الخزانة. لعلي نصف مركزة الآن، لكنني لا أتمتعُ بالطاقة الكافية لشرح كيفية عمل ماكينة القهوة.

- من حقكِ أن تحظي بأصدقاء يا أديل، من حق الجميع أن يحظوا بأصدقاء (كانت عيناها تمسحان الغرفة بحثًا عن دليل خمر، لكن لم ترَ شيئًا) ما خطبك؟ أأنتِ مريضة؟ هل فعل شيئًا ما؟

هززتُ رأسي ببطء، لأبقي كل شيء في مكانه:

- إنها الأقراص. ربما أخذتُ أكثر مما يجب.

اتجهَت إلى الخزانة، وعندما فتحَتها، عرفتُ أنها كانت تحسبُ ما إن كان ممكنًا للمرء كدم عينه عند فتحها.

غمغمتُ:

- لا تقلقي، حقًّا، كل شيء على ما يرام، إنها موصوفة لي.

لكنها لم تتوقف، بالطبع لا. تجاهلت الصف الدفاعي الصغير من الأيبوبروفين ومضادات الحموضة، ومدت يدها إلى العلب خلفه، ناشرةً إياها على الطاولة. انطفأت الغلاية، لكنها لم تتحرك. كانت تدرسُ اللصَّاقات. كلها مكتوبٌ عليها اسمي وإرشادات الجرعة بأناقة، وكلها وصفها زوجي لي.

قالت أخيرًا:

- اللعنة! ديفيد وصف هذه لك؟

أومأت برأسي:

- من أجل أعصابي.

- هذه ليست للأعصاب يا أديل، هذه مضادات ذهان قوية. أعني، قوية حقًّا. كلها قوية بدرجة أو بأخرى.

كررتُ:

- لا، لا بدَّ أنك مخطئة، إنها لأعصابي.

لم ترد على ذلك، بل تابعت التحديق إلى العُلب التي تبرز منها شرائط نصف حافظاتها خالية، بعد أن رحضتُ الأقراص في المغسلة، وراحت تنبش في إحداها.

- لا توجد ورقة إرشادات. أيجلبُ ديفيد هذه الوصفات لكِ إلى المنزل أم تحضرينها بنفسك؟

قلتُ بهدوء:

- هو يجلبها. هل لي ببعض القهوة لو سمحتِ؟ أشعرُ بإرهاق شديد.

وفي الحقيقة، كنت مدهوشة من سرعة انصلاح حالي، نظرًا لأن هذه ليست إلا المرة الثانية التي أمارس فيها هذا.

أحضرَت القهوة أخيرًا وجلست قبالتي. لم تعُد لويز الصغيرة الممتلئة غبية، وفي الواقع، لم تعُد ممتلئة، فقد أفقدها اليومان الأخيران من الغُصَّة الباوندات الأخيرة الصعبة.

سألَت:

- منذ متى يُعطيك هذه؟

هززتُ كتفيَّ:

- منذ بعض الوقت. لكنه يجرب أدوية مختلفة على الدوام (حدقتُ إلى قهوتي، مستمتعةً بشعور حرق الفنجان الساخن لأصابعي مفرطة الحساسية) لا آخذها دائمًا، لكنه أحيانًا يراقبني.

أوكأتُ رأسي على الجدار خلفي، متعبةً من رفعه. لعلَّ حال ذهني ينصلح، لكن أمام بقيتي شوطًا طويلًا. غمغمتُ، كما لو أن بذرة المعلومات هذه ليست مهمة:

- قُلت إنني أريدُ استعادة السيطرة على مالي. قبل أن ننتقل، بعد ما جرى في بلاكهيث. لكنه رفض. قال إن عليَّ أخذ الأقراص لفترة أولًا حتى تهدئني، ثم يمكننا أن نتكلم في المسألة. منذ مدةٍ وهو يحاول حملي على أخذها، وكنت أرفض دائمًا، لكنني في النهاية فكرتُ في تجربتها. من أجله. من أجلنا.

- ماذا جرى في بلاكهيث؟

غاب إشفاقها على ذاتها الآن، وجُرَّت عائدةً إلى قصتنا. توقفتُ لحظةً مديدةً قبل أن أتكلم.

- أظنه كان يعيش علاقة غرامية.

بالكاد جاوزت الكلمات الهمس، لكنها تراخَت قليلًا في جلستها عندما سمعتها، واحمرَّ وجهها. *بلى، هذا مؤلم، أليس كذلك؟ الآن صرتِ تعرفين هذا الشعور.*

سألت:

- أواثقة أنتِ؟

هززتُ كتفيَّ:

- أظن ذلك. المرأة صاحبة المقهى الصغير عند الزاوية المقابلة للعيادة تحديدًا. كان اسمها ماريان.

ما زال الاسم الجميلُ يلذعُ لساني.

- واه!

أجل، واه يا لويز. تحملي هذا. ما عدتِ تشعرين أنك مميزة للغاية الآن، أليس كذلك؟ أردتُ القهقهة، وللحظة مخيفة ظننتُ أنني سأفعل، لذا بدلًا عن ذلك، غطيتُ فمي بيدي وأشحتُ بوجهي كما لو كنتُ أكافح الدموع.

- كان يُفترض بهذه أن تكون بدايتنا الجديدة. هذا المنزل. هذه الوظيفة. طلبتُ مالي ثانية، لأكون متحكمة به أكثر وحسب، وجن جنونه. لقد... لقد...

تقطَّعت أنفاسي واتَّسعت عينا لويز.

- لقد ماذا يا أديل؟

- أتذكرين قولي إن قطتنا ماتت بعد انتقالنا؟ (توقفتُ قليلًا) حسنًا. لقد ركلها، ركلة قويةً بحق. ثم عندما داخت، داسها (حدقتُ ناحية الباب الخلفي والحديقة خلفه حيث دفنتُها) لقد قتلها.

لم تقُل لويز شيئًا، وماذا يُقال؟ هي مذعورةٌ إلى حدٍّ أعجزها عن النطق.

تابعتُ، مُتعبةً وما زلتُ أتلعثم بعض الشيء:

- هذه مشكلة ديفيد؛ يمكنه أن يكون ساحرًا للغاية، ورائع اللطف والظرافة، لكنه عندما يغضب يصير وكأنه شخص آخر. ويبدو أنني

أغضبه على الدوام في هذه الأيام. لستُ أفهمُ لم لا يهجرني إن كان تعيسًا لهذه الدرجة. أتمنى لو يحبني مجددًا.

وأنا أتمنى ذلك، أتمناه حقًّا وصدقًا.

قالت:

- إن طلقكِ، فسيضطر إلى ردِّ عزبتكِ لكِ.

تصلَّب وجهها بينما تحُط قطع الأحجية التي جهزتُها لها بعناية في مكانها، ثم نقَّبَت في حقيبتها وأخرجت هاتفًا محمولًا.

- هذا هاتف مسبق الدفع، ورقمي فيه. خبئيه في مكان ما. لكن إن احتجتِ إليَّ فأرسلي لي رسالةً فقط، اتفقنا؟

أومأتُ برأسي.

- أتعدينني؟

- أعدُك.

ارتشفتُ قهوتي الآخذة في البرود، ويداي ما تزالان ترتجفان.

- وكُفِّي عن أخذ تلك الأقراص إن كان بمقدورك، ليست خيرًا لكِ، وأنتِ لستِ مريضة. من يعلمُ ما الذي تفعله بكيمياء دماغك؟ فلنأخذك إلى السرير الآن. يمكنكِ أن تبدئي هذا بالنومِ قبل أن يصل إلى المنزل.

سألتها، وذراعي مُرتخية فوق كتفها بينما تساعدني على الصعود إلى الطابق العلوي:

- ماذا ستفعلين يا لويز؟ لا تتحامقي لو سمحتِ. لا تواجهي ديفيد، اتفقنا؟

ضحِكَت، بمرارة طفيفة:

- هذا مستبعد، نظرًا لأنه طردني.

تظاهرتُ بالدهشة:

- ماذا؟ أوه يا لويز، هذا كله خطئي. أنا آسفة جدًّا.

- ليس خطأكِ. إياكِ وهذا الظن. لم تفعلي شيئًا خاطئًا.

شعرتُ بجسدها قويًا، أمتن وأشد منه وقتما التقينا أول مرة. لقد خلقتُ هذه اللويز الجديدة، وراودتني لحظة فخرٍ بينما غصتُ في فراشي الوثير.

قلتُ بصوتٍ ناعس، كما لو أنها فكرة متأخرة:

- أصيص النبتة عند الباب الأمامي، في الجانب الأيمن.

- ما به؟

- لقد خبأتُ مفتاحًا إضافيًا فيه في حال نسيتُ مفتاحي. أردتكِ أن تعرفي ذلك (توقفتُ قليلًا)، لقد حبسني ذات مرة، وكنتُ خائفة.

- اتصلي بي من فوركِ إن فعل هذا ثانية.

كانت تزمجرُ تقريبًا، هذه المرأة النمِرة الشرسة.

غمغمتُ وهي تغطيني بالبطانية ثم تزيح شعري برقّةٍ عن وجهي:

- لا أعرفُ ما كنتُ سأفعل بلاكِ. حقًّا لا أعرفُ.

وهذه هي الحقيقة.

36

لويز

جاءني فتايَ لوزةً بُنِّية صغيرة، ربما ليست صغيرةً جدًّا، فقد كبُر، وحتى مع أنه بالكادِ مستيقظٌ والوقتُ متأخر، كان واضحًا لعيني امتدادُ سُمرتِه وجودة صحته، وشارفتُ على البكاء أي مشرفٍ عندما ركض إلى ذراعيَّ وأحكمَ عناقي. هو الشيء الوحيدُ الحلوُ عندي.

- لقد جلبتُ لكِ هذه يا ماما.

رفع بيده حلقةَ مفاتيح تزينها صدفة صغيرة مُحتجزة في راتينج شفاف. هدية ساحلية رخيصة، لكنني أحببتها. أحببتُ أنه انتقاها لي.

- يا إلهي! شكرًا! إنها جميلة، سأعلق مفاتيحي فيها في الصباح الباكر. والآن ما رأيكَ أن تأخذ شنطتكَ إلى غرفة نومكَ بينما أودعُ بابا؟

قال إيان:

- أراكَ قريبًا أيها الجندي.

وعندما جرَّ آدم شنطة باظ يطير الصغيرة خاصته، ابتسم لي:

- تبدين في خير حال يا لو، أفقدتِ بعض الوزن؟

- قليلًا.

سرتني ملاحظته، لكن على الرغم من أنني ربما أبدو أنحل، ليست كلمة خير حالِ الكلمة التي كنتُ لأختارها لوصف منظري اليوم، فقد تركتني ليلةُ

من السهر تقلَّبت وتلوَّيت فيها وفكرت بحياة ديفيد وأديل المريعة، وقلبي المجروح وإشفاقي على نفسي، وافتقاري إلى وظيفة -في مظهر باهتٍ.

- آه، إذن ربما لم يجدر بي أن أجلب لك هذه.

كان حاملًا بيده كيسًا، فيه قنينتا نبيذ أحمرٍ فرنسي وعدة قطع جبن.

قلتُ راسمةً ابتسامة مُتعَبة وأنا آخذه:

- مُرحَّبٌ به دائمًا.

لم أخبره أنني فقدتُ وظيفتي، يمكن لهذا الانتظار بعض الوقت، وسأضطر إلى اختلاق كذبةٍ ما لأغطيه. يستحيلُ أن أخبره الحقيقة، لا أريده أن يظننا متعادلين أخلاقيًّا: هو خانني وأنا نمتُ مع رجلٍ متزوج. لن أمنحه ذلك قطعًا. سأقول إن رب عملي الجديد جلب معه سكرتيرته أو شيئًا من هذا القبيل. هذا ما أتعلمه عن العلاقات الغرامية، إنها تستولدُ الكذبات.

قلت:

- ينبغي لك الذهاب، أليس كذلك؟ لا بدَّ أن ليزا منهكة في السيارة.

أدى تأخيرُ رحلتهم على متن خطوط يوروستار إلى وصولهم قرابة منتصف الليل، كان ينبغي أن يصلوا إلى المنزل بحلول التاسعة.

- بلى، هي كذلك (بدا مُحرَجًا للحظة، ثم أردَف) أشكركِ على هذا يا لويز، أعرف أنه لم يكُن هينًا.

قلتُ مُلوحةً بيدي أنْ اذهب:

- ليسَت مشكلة، صدقًا. أنا بحقٍّ سعيدةٌ لأجلك.

لا يمكنني الجزم فيما إن كانت تلك كذبة أم لا، ووجدتُ أنها نصفُ كذبة نصفُ حقيقة. الأمر معقد. لكنني أريده أن يذهب، فبعد وطأة الأسابيع والأيام الماضية، لا طاقة لي على اللغو، وهذه العودة المُغيرة إلى الحالة الطبيعية تبدو سريالية.

عندما ذهب، ألبستُ آدم بجامته واعتصرته بشدة، متلذذة برائحته الشهيَّة بينما يتمتمُ بلسان ناعسٍ حكايا سفرته، والتي سمعتُ معظمها على الهاتف. ولا أمانع، إذ أشعرُ أن بمقدوري الاستماع لهذره طوال الليل. وضعتُ كأسًا بلاستيكية كبيرة من الماء بجوار سريره وتحدثنا لبعض الوقت بينما داهمه النعاس أكثر فأكثر.

قال:

- اشتقتُ لك يا ماما، وأنا سعيدٌ لأنني في المنزل.

ذاب قلبي حينذاك. لدي حياة خاصة بي فعلًا. قد تكون كلها ملفوفة في صُرة قوامها هذا الصبي الصغير، لكنني أحبه بكل قلبي، وهذا الحب خالصٌ ونقيٌّ ومثالي.

قلت:

- وأنا اشتقتُ لك (ولم تغطِ هذه الكلماتُ مشاعري) فلنصعد غدًا إلى غابة هايغيت إن كان الطقسُ حسنًا، فنتناول بعض المثلجات ونحظى ببعض المغامرات المتخيلة، أيروق لك ذلك؟

ابتسمَ وأومأ، لكنه كان يهيم في عالم نومه الخاص، فقبلتُه قبلة الوداع وتفرجتُ عليه للحظة أو اثنتين إضافيتين قبل أن أطفئ الأضواء وأتركه.

شعرتُ أني مُستنزَفة تمامًا. لقد هدأتني عودة آدم، والآن لا يثقلُ كاهلي إلا الإرهاق. صببتُ كأسًا من النبيذ الأحمر الفاخر الذي جلبه إيان، وسكّن آخر أسمال توتري حتى لم يعُد بوسعي إيقاف التثاؤب. حاولتُ ترك أديل وديفيد يعومان مبتعدَين، فأديل معها هاتف، وإن كانت في ورطة حقيقية يمكنها الاتصال، بالطبع إلا إن كانت هائمة على وجهها نتيجة طبخة أقراصٍ ما أعطاها ديفيدُ إياها. لكن ما باليد حيلة. فكرتُ في الاتصال بالدكتور سايكس، لكن من سيصدق؟ وأثق تمامًا أن أديل ستكذب لتحمي ديفيد، ونفسها. أعجزُ عن فهم لمَ ما تزال تحبه، ومن الواضح أنها تفعل، في حين يبدو لي في غاية البداهة أنه معها من أجل مالها. كم تُساوي قيمتها؟ كم أنفَق؟ ربما طال وجودهما معًا حدًّ أن أديل باتت تخلطُ بين الانصياع والحب.

مما يخِزُ أيضًا قول أديل إنه حظي بعلاقة مع إحداهن حيث كانا يعيشان. يا له من تصديق لكل هراء *أنا لا أفعل هذا الصنف من الفعال* خاصته! يؤلمني، وأظل أعيدُ كيف كان في تلك الليلة الشنيعة، مفرطَ البرودة فيما قال، وغريبًا. الجانب الآخر منه، مثلما قالَت أديل.

أفلتُّ آهةً طويلة كما لو كان بوسعي زَفر كليهما مني بطريقة ما. آدم في المنزل الآن، عليَّ التركيزُ عليه، عليه وعلى محاولة الحصول على وظيفة

أخرى. لا يمكنني العودة إلى العيادة مهما قال الدكتور سايكس. حتى إن غادر ديفيد، فالمكان بات يعجُّ به -يعجُّ بكل هذا- حدًّا يمنعني من الرغبة في العمل هناك بعد الآن أبدًا. لن يكون نفسه. قمتُ ببحثٍ فاتر عن عمل على الإنترنت، لكن لم أجد شيئًا يلائمني، وزاد ذلك تعاستي تعاسةً. حمدًا لله لدي بعض المدخرات في المصرف تمنحني مساحة تنفُّس لبضعة أشهر، لكنها لن تصمد إلى الأبد، ثم سأرجع إلى إحسان إيان. أردتُ أن ألتفَّ على نفسي في كرةٍ حتى ينقضي كل شيء، وبدلًا عن ذلك، أنهيتُ كأسي ومضيتُ إلى السرير. عادَ آدم ولن أتأخر في استيقاظي بعد الآن.

وغططتُ في النوم سريعًا. بالكاد تراودني الكوابيس في هذه الأيام، ذلك أنني أدخلها لثانية أو اثنتين، أتفحَّص أصابعي، ثم يظهر باب منزلي الدمية وأختفي. وكما صارت العادة، أجدُ نفسي في الحديقة والبركة، وآدم معي هناك، وعلى الرغم من أننا نحاول المرَح، يكون النهار رماديًّا ماطرًا، كما لو أن لحالتي الشعورية كلمة حتى في حلُمي الذي أتحكم به. أعلمُ أن الحلُم ما هو إلا خيال، وأن الخيال لا يَفي بالكثير بوجود كلينا هنا فقط، ذلك أن ديفيد لم يَشوِ ديفيد اليوم، فلستُ أريد حضوره، ليس وقوله *إن كنتِ تعرفين مصلحتكِ، فستبقين بعيدةً عن كلينا* بهذا الوضوح في رأسي.

كنتُ بجوار البركة، لكن آدمَ غفل عن الشراغيف والأسماك الكثر أمام ألعابه من السيارات والشاحنات المتناثرة على المرج، وقلَّما يرفع رأسه. أعرفُ أنني أضعه في موضعه -فإن كنتُ أريدُ آدم بجوار البركة معي نتصيَّد الكنوز فما عليَّ إلا إحداث ذلك- لكنه ليس آدم الحقيقي أيضًا، بل محضُ خلقٍ تخيُّلي له، وهذا ليس يكفيني الليلة.

آدم الحقيقي غارق في نومه في سريره، مدسوس تحت لحافه ودبه بادينغتون بين ذراعيه. فكرتُ به، ينام ملاصقًا إياي، فأضاء تصوري إياه هناك في غرفته قلبي، وأردتُ مرآه وعناقه حتى لا يكاد يقدر على التنفس. شعرتُ بذلك بضراوة أمٍّ، ومن ثم، ظهرَ فجأةً: الباب الثاني.

كان يتلألأ تحت سطح البركة كما من قبل، لكنه بدأ يتحرك هذه المرة، وراح يرتفعُ حتى انتصبَ واقفًا، وعلى الرغم من أن حوافه ما زالت فضةً زئبقيةً برَّاقة، الباب نفسه مصنوع من الماء. وقفتُ في مكاني وجاء ناحيتي

مسرعًا، ولثانية ظننتُ أن بمقدوري رؤية الشراغيف والأسماك الذهبية تسبحُ على سطحه، ومن ثم لامسني دفء السائل وعبرتُه ومن ثم صرتُ...

...واقفةً بجوار سرير آدم. شعرتُ بدوارٍ لحظي إثر التغيير، لكن المحيط استقر بعد ذلك. كنتُ في غرفة نومه، ويمكنني سماعه يتنفس، ببطء وثبات، تنفُّس العجائز أو النائمين بعمق. كانت إحدى ذراعيه فوق وجهه، فكرتُ بتحريكها لكنني لم أُرد إزعاجه، ولحافه نصف منزاحٍ عنه، ولا بدَّ أنه أوقعَ كأس مائه في وقتٍ ما وانسكبَت على بادينغتون المسكين، الساقط من السرير. سرني أنه حُلُم، فآدم سيكره أن يحتاج بادينغتون إلى التجفيف، لم يسمح لي حتى بوضعه في الغسَّالة. انحنيتُ لألتقط الدب، لكن عجزَت يدي عن التقاطه، بل أكثر من ذلك، عجزتُ عن رؤية يديَّ. نظرتُ إلى حيث ينبغي أن تكونا: *ليس لي يدان*. لا شيء هناك. حاولتُ، مرتبكةً، ثلاث مراتٍ لمس الدب بأصابعي الخفية، لكن في كل محاولةٍ ينتابني شعور المرور عبر الفراء الناعم المبلل، وكأنني لستُ موجودة البتة، وكأنني شبح، ثم صرتُ منزعجةً انزعاجًا مروِّعًا وشعرتُ بشدةٍ هائلةٍ من ظهري بينما أُنتَزُ إلى الخلف، فأخافُ أشد الخوف لبرهةٍ وجيزة ومن ثم...

...أفيقُ مطلقةً شهقةً، مستويةً في سريري، أجرُّ أنفاسًا عميقةً. شعرتُ أني خُضضتُ لأستيقظ، كما يحدث في أشباه أحلامِ السقوط التي تراود المرء حينما يكون على مشارف النوم. راحَت عينايَ تجوبان العتمةَ باندفاعٍ محاولةً نفضَ ضلالي التام. نظرتُ إلى يديَّ وعددتُ أصابعي: عشرة. أعدتُ الكرة مرتين حتى تيقنتُ أنني هذه المرة صاحيةٌ بحق. شعرتُ برئتيَّ مسحوجتين، وكأنني دخنتُ عشرين سيجارة في الحانة كما في الأيام الخوالي، لكنني لستُ متعبة. بل على العكس، أشعرُ بحيويةٍ غريبةٍ نظرًا إلى مستوى تمزُّقي العاطفي وحجم إرهاقي عندما خلدتُ إلى الفراش. وكنتُ ظمآنة أشد الظمأ. نبيذٌ قبل النوم، أظنني لن أتعلم الدرس أبدًا.

نهضتُ وحبوتُ إلى المطبخ وجرعتُ كأسين من الصنبور ثم رششتُ وجهي. عادَت رئتاي إلى حالتهما الطبيعية، وأخذَ الجفافُ يتلاشى. ربما كان محض صدى ما للحلم.

كانت الساعةُ الثالثة صباحًا لا أكثر، فمضيتُ عائدة إلى السرير، على الرغم من قلة يقيني من أني سأرجع إلى النوم، ووقفتُ أمام باب غرفة آدم، نظرتُ إليه وابتسمت: إنه في المنزل حتمًا. لم يكُن هذا الجزء حلمًا. كنتُ على وشكِ إغلاق الباب وقتما جذب الدبُّ على الأرض نظري: بادينغتون، ساقط عن السرير، فعبستُ واقتربتُ، ورأيتُ الكأس البلاستيكية على الطاولة الجانبية راقدة على جنبها وخالية، والدبُّ منقوع. هذه المرة يمكنني التقاط الدب، وكان مبللًا عن آخره. نظرتُ إلى آدم، وقلبي آخذٌ في الإسراع بالخفقان. ذراعٌ فوق وجهه، وساقاه بارزتان من تحت اللحاف نصفِ المنزاح.

كانت أشبه بلحظة من وهم سبق الرؤية: كل شيء كما رأيته في حلمي بالضبط وقتما عبرتُ الباب الثاني، لكن لا يمكن لهذا أن يكون صحيحًا، لا يمكن أنني رأيته، فقد كنتُ في حلم، ولا يمكنني معرفة أنه أراق ماءه وبلل دبه وأن ذراعه كانت فوق وجهه. لم أكُن لأتخيل هذي الأشياء، فآدمُ أعمقُ من أعرفهم نومًا، وعادةً لا يكادُ يتحرك، بل يظلُّ منطويًا على جنبه طوال الليل. ليس في هذا شيء مما كنتُ لأتخيله إن فكرتُ بآدم نائمًا.

لا أعرف بمَ أفكر، لا يمكنني فهمُ شيء مما جرى. ثم خطرَت لي الفكرة: لا بدَّ أنني كنتُ أمشي في نومي. حلَّت لحظةٌ بسيطة من الراحة، من المنطق، وتشبثتُ بها وإن كنت لا أشعرُ أنها حقيقة، ذلك أنني لم أمشِ في نومي ولا مرةً منذ بدأت الحلم الواعي. لكن لا بدَّ أن هذا ما حدث. ربما كنتُ أمشي في نومي واستيقظتُ جزئيًا أو شيء من هذا القبيل، ورأيتُ الغرفة، ثم عدتُ إلى النوم وحملتها معي في حلمي.

عندما أدركتُ أن لا جدوى من الوقوف هناك والتحديق لمزيد من الوقت، عدتُ إلى سريري وحدقتُ إلى السقف بعض التحديق. لقد أربكني الأمر كله، على الرغم من أنني غير واثقة من السبب. عدم قدرتي لمس الدب، خفائي، لم يحدث ذلك قط في أحلامي "الجديدة". يمكنني الأكل، والشرب، والمضاجعة، وأي شيء. فكيفَ لم أقدر على التقاط بادينغتون؟ كيف لم يكن لي ذراعان؟ الأمر غريب، ولم يكُن شبيهًا بالأحلام الأخرى. وبصرف النظر عن افتقاري للجسد، كان الحلم نفسه أكثر تماسُكًا، أكثر واقعيَّة.

لا بدَّ كنت أمشي في نومي، ظللتُ أقول لنفسي ذلك. أعني، أي تفسير آخر قد يكون؟

الجزء الثالث

37

أديل

بِتنا غريبَين في المنزل الآن، يحوم واحدنا حول الآخر بحذر، وقلما يبدو التظاهر بأي شيء آخر -من ناحية ديفيد على الأقل-. لا نكاد نكون متحضرَين حتى، فهو ينخُر إجابات أسئلتي نخرًا كما لو أنه استحال وحشًا بدائيًا لا يقدرُ على لفظ الجمل كاملة، ويتفادى النظر في عيني. لعله لا يريدني، أراه ثملًا طوال الوقت، وأظن أنه يدَّخر كل "طبيعيَّته" للعمل، ولا طاقة له عليها في المنزل.

يبدو أصغر حجمًا: متضائلًا، ولو كنتُ *أنا* الطبيب النفساني لقلتُ إنه رجل على حافة الانهيار العصبي. لقد أطاحَت صداقتي لويز به تمامًا. لا، هذا ليس صحيحًا بالكامل؛ صداقة لويز إياي قد أطاحت به. كانَت سرَّه الصغير وقد خرُب ذلك. خُدِع.

والآن بعد أن مرَّت الصدمة الأولية للاكتشاف، أعرفُ أنه يلومني.

سألني ليلة البارحة:

- أواثقة أنك ما كنتِ تعرفين من هي؟ (بينما يتحلَّق في مدخل غرفة نومنا، غير راغبٍ في عبور العتبة) وقتما التقيتِها؟

أجبته، وكلي براءة ساذجة:

- كيف عساي أعرفُ أنها مريضتُك؟

مريضة. هذه كذبته، لا كذبتي. لعله كان ثملًا، لكنه لم يصدِّق إجابتي. لا يمكنه حل لغزِ معرفتي بها، لكنه يعرفُ أني عرفت، وإن أربكه سلوكي، فهذه ليست "شاكلتي". في بلاكهيث، كنتُ أكثر وضوحًا بكثير في نهجي، إلا أن ماريان لم تكُن أكثر من تهديد مُحتَملٍ لزواجي، أما لويز... حسنًا، لويز هي الأمل الأبيض العظيم في سعادتنا. لويز رائعة.

أكره الاعتراف بالأخطاء، لكن عليَّ الإقرار أني على الأرجح كنتُ واضحةً *أكثر مما* يجب في بلاكهيث. ما كان ينبغي لي تركُ حنقي يتغلب عليَّ -ليس بهذه الاستعراضية على الأقل- لكن ذلك كان مختلفًا، وبأي حال، فقد انطوَت صفحتُه. لا أكترثُ للماضي البتة ما لم أتمكن من استخدامه لشيء ما في الحاضر، وربما يتبين أن بلاكهيث مفيدة، وفي تلك الحالة لن أكون قد أخطأتُ إطلاقًا. الماضي زائلٌ بقدر ما المستقبل زائل، كلها وجهة نظرٍ ودخان ومرايا. لا يمكن للمرء تحديد ماهيته، أليس كذلك؟ لنقل إن شخصين اختبرا الأمر نفسه تمامًا، وسألناهما أن يرويا الحدث لاحقًا؛ على الرغم من أن روايتيهما قد تكونان متشابهتين، ستوجَد الاختلافات دائمًا. الحقيقة مختلفة باختلاف أعين الناس.

لكن يا لديفيد المسكين! لقد استهلكهُ الماضي؛ وما زال ينتعلُ حذاءهُ الخرسانيَّ الذي يثقل كاهله، ويُغرقنا. شكَّلَتهُ تلك اللحظة *اليتيمة* في الماضي في صورة هذا الرجل المنكسر. ليلة واحدة دفعته إلى الشرب، والقلق، وعجزه عن ترك نفسه تحبني، والشعور بالذنب. كان أمرًا منهكًا لعينًا التعايش مع ذلك ومحاولة تصويبه من أجل كلينا، ومحاولة أن أريَه أنه لا يهُم، ولا أحد يعرف، ولا أحد سيعرفُ أبدًا. لذا من جوانب عدة، ولأن أحدًا لا يعرف به، فهو لم يحدث حقًّا قط. إذا سقطَت شجرة في غابة ولا أحد في الجوار ليسمعها[1]، إلخ إلخ إلخ.

لكن قريبًا، سيُجَرُّ سرُّنا الأثيم إثمًا مُفزعًا من الظلمات إلى النور فنتحرر منه. ديفيد قاب قوسين من الإفصاح، أعرفُ ذلك. أتصور أن السجن يبدو خيارًا أفضل في عينه من هذا الجحيم المستمر. ليس التفكيرُ في أن الرجل

(1) انظر لغز الشجرة الصامتة. (المترجم)

الذي أهيم في حبه أبلغ الهيام يرى الحياة معي جحيمية يؤلمني كما ينبغي له أن يفعل، لكن من ناحية أخرى، لم يكن هذا هينًا عليَّ في العهد القريب أيضًا.

بيد أن الإفصاح لن يكون أكثر من راحةٍ لحظية، ولمَّا يُدرك ذلك. لن يُكسبه الإفصاحُ لويز. لن يجلب الإفصاحُ الطمأنينة والغفران عليه. وديفيدُ يستحق الاثنين. ينبغي لبعض الأسرار أن تُنبَش، لا أن يُفصَح عنها وحسب، وخطيئتنا الصغيرة واحدة من هذه.

كان بمقدوري فعلُ كل هذا بسهولة أوفر. كان بمقدوري تركهما وشأنهما، وربما كان ديفيد ليخبر لويز بحقيقة زواجنا أخيرًا، والحدث الذي صوَّره، وستُضطر إلى تصديقه، لكنه سيتساءل دائمًا عما إن كان فيها بعض الشك. سينظرُ في عينيها على الدوام باحثًا عن الريبة. لا شيء حصيفٌ في الإفصاح.

يؤول مآل كل شيء إلى لويز. عليها إزاحة الغطاء عن ماضينا المُنحَط وحدها. عليها تحريرُ كلينا باقتناعها التام، وأنا أعمل بجدٍّ على ذلك. حتى وإن كان لا يطيق النظر إليَّ، فأنا أفعل كل شيء من أجل ديفيد.

حضَّرتُ إبريقًا من الشاي بالنعناع ومن ثم، بينما يختمر، جلبتُ الجهاز الصغير من الخزانة، شغلته وراسلتُ لويز، دُميتي الصغيرة الجميلة المعلقة بحبالي.

أردتُ إبلاغك بأن كل شيء على ما يرام هنا. أحاول أن أكون طبيعيةً. وقد أفرغتُ كبسولات الأقراص فآخذُ في حضوره كبسولات فارغة وحسب. أما غيرها فلا أبلعها، بل أضعها تحت لساني وأبصقها. بحثتُ في مكتبه لأرى إن كان يحتفظُ بإضبارة لي لكنني لم أجد واحدة.

تسرني معرفتكِ مكان المفتاح الاحتياطي، فقد مسَّني الجنون من قلقي إزاء ديفيد -لطالما رعاني- لكنك محقة، ليس بالقدر الكافي لأحبه. ربما سأتواصل مع محامٍ من أجل الطلاق. أوه، لقد تخيلتُنا في حُلمي -على متن قطار الشرق السريع، وكانت عطلةً بناتيةً رائعة- علينا فعل ذلك يومًا ما! أيه إكس إكس.

كانت رسالة نصية طويلة، لكنها تُظهر كم أحتاجُ إليها وأشتاق إليها. لم أتكبَّد عناء إعادة الهاتف، فدائمًا ما ترد لويز بسرعة، وهذه المرة ليست استثناءً.

سرني أيما مسرة أنك بخير، وخيرًا فعلتِ بشأن الأقراص! كنتُ قلقةً عليكِ. راودني حلمٌ وعبرتُ ذاك الباب الثاني الذي حكيتُ لكِ عنه، وانتهى بي المطاف في غرفة آدم. كانت الأشياء متحركة من مكانها، وعندما استيقظتُ ومضيتُ لأطمئن عليه، كانت كلها كما رأيتها في حلمي تمامًا. غريبٌ، أليس كذلك؟ ألم تري الباب الثاني قط حقًّا؟ أظن أنني ربما كنتُ أمشي في نومي. ***وأجل! علينا ركوب قطار الشرق السريع!***

أجبتُ قائلةً بمدى عُجبٍ ذلك، وبأنني لا أرَ بابًا ثانيًا أبدًا وأنني أظن مخها لا بدَّ يعمل بطريقة تختلفُ عن مُخي، لكن كانت يداي ترتعشان انتشاءً وأنا أكتبُ. بالكاد يمكنني الثباتُ في مكاني بعد أن داهمتني هجمة الأدرينالين المباغتة. إنها تفعلها بالفعل! لم تستنتج تمامًا *ماذا* تفعلُ بعد، لكنها بالغة السرعة في هذا. أسرع مما كنتُ عُمري؛ موهبة فطرية. عليَّ تحريكُ الأمور أسرع الآن بعدما لم تعُد تحت سيطرتي بكاملها.

سأتفحَّص مكتبه ثانية بحثًا عن إضبارةٍ لي. أين تراها تكون؟ بأي حال، عليَّ الذهاب. اعتني بنفسك. أيه إكس إكس.

لا يمكنني إزعاج نفسي بالانخراط في محادثة طويلةٍ معها الآن، فأنا متحمسة أكثر من اللازم. بيد أنني وكزتُها، في تلك الرسالة الأخيرة؛ بذرة أخرى زرعتها لأضرم النار في مشابكها العصبية، وإن كانت الإجابة واضحةً وضوحًا لعينًا عليها أن تكون معاقةً لئلا تراها. ما تراه رأيها الحقيقي بقدراتي الفكرية؟ أديل الضئيلة البائسة، شديدة العذوبة واللطف، وهي على الرغم من ذلك شديدة البساطة والغباء؛ لا بدَّ أن هذا رأيها فيَّ.

يا ليتها تعلم.

38

لويز

كان نهارًا رائعًا قضيناه في الغابة ثم ملعب المغامرات وتلاهما غداء متأخر في المقهى، كنتُ وآدم نتقدُ بفعل الهواء النقي، ونقهقه وقتما رجعنا إلى الشقة. أبهجني أن أديل راسلتني هذا الصباح وأعلمتني بأن الأمور على الأقل ليست أسوأ، وأحمدُ الله لأنها تحاول ألا تأخذ تلك الحبوب، فوحدهُ يعلم ما أثرها على العقل السليم.

أفادتني بضع ساعات خالية من القلق أجزل الإفادة، وكنتُ ما أزال أبتسمُ وأنا أنقب في حقيبتي بحثًا عن المفاتيح. ربما ليسَت فرنسا وحلزوناتها ومسابحها، لكنني ما زلتُ أعرفُ كيف أُضحِك فتاي الصغير. لعبنا لعبة الدكتور هُو بين الأشجار، وكان آدم الدكتور بالطبع، وأنا شريكه الثقة. على ما يبدو كانت الأشجار جنسًا فضائيًّا ما أرادَ في البداية قتلنا، لكن في مرحلة ما –واثقة أن الأمر مفهوم عند آدم– أنقذناهم وأعدنا السلام إلى حالته الأولى وكنا جاهزين لاستقلال الترادیس خاصتنا إلى مغامرة أخرى، بعد أن نتوقف في محطة وقود مثلجاتيٍّ بالتأكيد. كان آدم مقتنعًا أن المثلجات هي ما يأكله الدكتور وشريكه في أثناء السفر، ولم أجادله. خرَّب ذلك حميَتي تمامًا، لكن بثقل كل ما كان يحدث في غياب طفلي، كانت الباوندات تذوب عني. ويا إلهي كما كان طعمها طيبًا. حياتي الحقيقية تعطي شعورًا طيبًا.

سألني، وقد شعر بالضيق بعض الشيء:

- أين حلقة مفاتيحي؟ قلتِ إنك ستستخدمينها اليوم.

قلت:

- أمك الحمقاء نسيَت.

ما تزال على طاولة القهوة حيث تركتها البارحة، غفلتُ عنها بعد التشتت الذي أنزله بي الحُلم الغريب.

- سأعلق المفاتيح بها حالما نصير في الداخل.

نفشتُ شعره وابتسمتُ، لكنني انزعجتُ من نفسي. كيف نسيتُ ذلك؟ هديته لي، هدية من الشخص الوحيد الذي يحبني حبًا غير مشروط، ونسيتها.

لم أبدأ بنقل حزمة مفاتيحي إلا بعد أن استقر أمام بعض الألعاب على آيباد أبيه القديم، وبرامج الأطفال شغالة في الخلفية، وأدركتُ أنني ما زلت أحوز مفاتيحي للعيادة، وخفق قلبي خفقًا أسرع. إن كان ديفيد يحتفظ بإضبارة ما لأديل، فلن يبقيها في المنزل، سيبقيها في العمل حيث لن يسعها إيجادها سهوًا.

بل حيث يمكنني أنا إيجادها، إن تجرأت.

حدقتُ إلى المفاتيح. يمكنني الدخول دون معرفة أحد. أعرفُ رمز الإنذار. يمكنني فعلها الليلة. شعرتُ ببعض الغثيان إزاء ما أقترحه على نفسي، لكن داهمني كذلك فيضُ أدرينالين. محتاجة إلى أن أعرف. أديل محتاجة إلى أن تعرف، وأدينُ لها بذلك بعد كل ما فعلته، وإن كانت -بمنتهى السعادة- غير مدركة أي صديقة قذرة أنا في الحقيقة.

كان آدم مستغرقًا في الفيلم، يشاهد بعينٍ ناعسة، وما يزال متعبًا بعد عطلته ثم يومنا في الغابة، فتسللتُ إلى الخارج وطرقتُ باب لورا جارتي.

قالت:

- أهلًا (بثغرٍ باسم وصوت تلفازها الضخم يهبُّ إليَّ) أهلًا بلويز، كيف عساي أخدمك؟ أتودين الدخول؟

تروق لي لورا، على الرغم من أنني لم أرها كثيرًا مؤخرًا، وساورتني لحظةُ حرج من فكرة أنها على الأرجح سمعَت شجاري وديفيد تلك الليلة.

- لا يمكنني البقاء، فقد تركتُ آدم وحده. كنتُ أتساءل، وأعرفُ أنه طلبٌ مفاجئ، لكن عسى بمقدورك رعاية آدم الليلة؟ إنني آسفة بحق، لكن طارئًا قد طرأ في آخر لحظة.

سألتني مبتسمة:

- مواعدة؟

أومأت برأسي، وكانت حركة غبية، ذلك أنني سأضطر إلى لبس ما يناسب موعدًا لأقتحم مكتبي القديم. وبتفكيري في ذلك، في واقعية فعلها حقًا، تمنيتها فجأة أن ترفض.

قالت:

- بالطبع يمكنني (ولعنتُ رعونتي) لن أقفَ أبدًا في طريق حبٍّ حقيقي محتملٍ أو مضاجعة جيدة. أي ساعة؟

- نحو الثامنة.

سيكون أمامي بعض الوقت لملئه، لكن أي وقتٍ بعد الثامنة سيبدو غريبًا.

- أثمة مشكلة في ذلك؟ سيكون في سريره آنذاك، وأنت تعرفينه، لن يستيقظ البتة.

قالت:

- لا مشكلة، صدقًا. ليست لديَّ أي خطط.

- أشكرك يا لورا، إنكِ لنجمة مضيئة.

انقضى الأمر إذن، إنني فاعلتها.

ازددتُ توترًا مع امتداد الظهيرة إلى المغيب، وامتلأ صدري ببناته. هاجسي الرئيس هو احتمال أنهم قد غيروا رمز الإنذار، لكن لا يسعني تصور حدوث ذلك، فالرمز لم يتغيَّر مُذ عملتُ هناك، وقد جاء وراح موظفون آخرون إبان ذلك، وبحسبِ علمِ الدكتور سايكس، من المحتمل أن أرجع إلى العمل، فلم عساه يقلق من قدرتي على الدخول؟ لكن مع ذلك، بحلول الثامنة والربع وقتما استقرت لورا وخرجتُ من الشقة، ظللت مترددةً فيما إن كان ينبغي لي المضي في الأمر أم لا. إذا ما اكتشف شخص ما، فسأقع في ورطة خطِرة.

فكرتُ في الأقراص، والحالة التي كانت أديل فيها في بيتها. قد تكون في ورطة أخطر إن لم أفعلها.

لا يمكنني الذهاب إلى العيادة مباشرة، فالوقت مبكر أيما إبكار، لذا ذهبتُ إلى مطعمٍ إيطالي في برودواي بدلًا عن ذلك، وحجبتُ نفسي في ركن، وطلبتُ عشاء لستُ راغبة في تناوله حقًّا. كانت معدتي مشدودةً مثل قبضةٍ قلقًا، لكنني أجبرتُ نفسي على ابتلاع نصف الريزوتو. بيد أنني شربتُ كأسًا كبيرةً من النبيذ لتدِبَّ الثباتَ فيَّ، لكنها بالكاد حملَت تأثيرًا وبقيتُ صاحية تمامًا.

وقتما دقت الساعة العاشرة، كنتُ قد أطلتُ الجلوس قدر المستطاع، فرحتُ أجوب المدينة لساعةٍ أمصُّ سيجارتي الإلكترونية فيها مصًّا متداركًا حتى جف فمي وحلقي. حاولتُ التركيز، وفكرتُ بأديل. أعرف أنَّ عليَّ فعل هذا. إنه مهم. ولست أقتحم بأي حال، ليس من الناحية التقنية، فلدي مفاتيح، وإن ظهر أحدهم *–أوه أرجوك يا إلهي لا تُظهر أحدًا–* يمكنني ادعاء أنني أسترجعُ شيئًا ما تركته هناك. *بلى هذا صحيح يا لويز، لأن بعد الحادية عشرة هو دائمًا الوقتُ الذي يفعل فيه الناس ببراءة أمورًا كهذه في أماكن العمل.*

أحسستُ أن الطريق مظلمٌ ظلمةً مجحفةً وقتما انعطفتُ إليه، وكان وقعُ أقدامي الوحيد الذي يعكِّر سكينة الرصيف الخالي. معظم المباني هنا مكاتب لمحامين أو محاسبين، وعلى الرغم من أن بعض الطبقات العليا شقق سكنية، بالكاد يتسرَّب أي ضوء من تحت ستائرها الثقيلة وحاجباتها المصممة خصيصًا. يجبُ أن أسعد لأنني عصبية على الرؤية، لكن شعر قفاي ما يزال يخزني كما لو أن شيئًا *ما* في الظلام يراقبني. ألقيتُ نظرةً خلفية من فوق كتفي، مقتنعةً لحظيًّا أن شخصًا ما هناك، لكن الشارع خالٍ.

أخرجَت يداي المرتجفتان المفاتيح من حقيبتي. *دخول وخروج، سيكون الأمر سهلًا، تظاهري بأنكِ جيمس بوند.* لم أشعُر بكثير الشبه بجيمس بوند عندما انزلقت المفاتيح من بين أصابعي وهبطت مجلجلةً على الدرجة العليا، لكن في غضون لحظةٍ كنتُ قد فتحتُ الباب وصرت في الداخل. ارتعدَت فرائصي وأنا أشعل الأضواء وأعدو إلى جهاز الإنذار الذي كان يزمِّر ثوانيه الثلاثين قبل أن تنفتح أبواب الجحيم عليَّ.

لقد فعلتُ هذا مئة مرة، وكنتُ واثقة –ووجهي يشتعلُ احمرارًا– أنني سأدق الرمز الخاطئ هذه المرة، لكن وقعَت أصابعي ضحية عادتها وحلقت فوق لوحة المفاتيح فصمتَ الزَّمرُ صمتًا سعيدًا. وقفتُ هناك، في الخواء الغريب الكئيب، وأخذتُ بضعة أنفاس عميقةٍ، وأجبرتُ قلبي الخفَّاق على الهدوء. أنا في الداخل. أنا في أمان.

اتجهتُ إلى مكتب ديفيد، تاركة أكبر قدرٍ ممكن من الأضواء مطفأة. سبق لي أن كنتُ هنا، وفي الظلام في صباحات الشتاء المبكرة، لكن المبنى يبدو مختلفًا الليلة: منقبض عني، كما لو أنني أيقظته من نومه وهو يعلم أنني لم يعُد يجدر بي الحضور.

نادرًا ما يقفل الأطباء مكاتبهم، ذلك أن المنظفين يحتاجون إلى الدخول، وثمة مسحة من تهاون الطبقة الوسطى تتدلَّى فوق العيادة؛ ثقة تقليدية. وأيضًا، على مستوى أكثر عمليةً، ليس وكأن لديهم خزائن ملأى بالمورفين لتُسرَق، وبالنسبة إلى المعلومات، فمعظم أضابير المرضى مخزنة في أنظمة حاسوبية محمية بكلمات سر لا يمكن إلا للأطباء ولوجها. لكن إن كان لدى ديفيد إضبارة لأديل هنا، فلن تكون في الأنظمة. لن يريد وجودها حيث يمكن لغيره من زملاء المهنة رؤيتها، وإن لم يقدروا على ولوجها، فسيثير ذلك الأسئلة الأخلاقية منها على الأقل.

كان بابه غير مقفل بالفعل، فأشعلتُ ضوء مكتبه وأنشأت أبحث عبر خزانة المصنفات القديمة في الركن، لكني وجدتها مملوءة بمعظمها بنشرات شركات الأدوية والكتيبات الإرشادية الذاتية التي تُمنَح للمرضى. لا بد أن الكثير من هذا الهراء قد تركه الدكتور كاديفان. كلها ذاوٍ وبلا طعم. أخرجتُ كل شيء ومحَّصته، لكنني لم أجد شيئًا مخبأً في قعر أيٍ من الأدراج.

كانت قد مرَّت عشرون دقيقة وقتما أرجعتُ كل شيء مكانه، آملةً أن يكون بالترتيب الصحيح، لكن قوَّت خيبتي عزيمتي على إيجاد ما أبحث عنه أكثر من ذي قبل. لن أتحلى بالجرأة الكافية لأرجع ثانية، لكنني أيضًا في حاجة إلى العودة بحلول الواحدة على الأقل كي لا تطرح لورا الكثير من الأسئلة. نظرتُ حولي، أين تراها تكون بخلاف ذلك؟ يجب أن يكون لديه ملاحظات في مكان ما، فهو يصفُ الأدوية لها، ويحتاجُ إلى شيء ما ليحمي نفسه.

ما ظل إلا مكتبه لأفتشه في الغرفة المرتبة، فرحتُ أعالجه بصورة محمومة. في الدرج العلوي، رأيتُ دفاتر وأقلام وقرطاسية -مُهملة إهمالًا مفاجئًا بالنظر لأناقة منزله- ثم جذبتُ الدرج السفلي، وإذ به مقفل. حاولتُ ثانيةً لكن بلا جدوى. درج مُقفل واحد: *أسرار*.

فتشتُ الدرج العلوي بحثًا عن المفتاح ولم أجده. لا بدَّ أنه يبقيه معه. تبًا، تبًا، تبًا. ما تراني فاعلة؟ حدقت لحظة مديدة، ثم غلبني فضولي. عليَّ وُلوجه، وسحقًا للعواقب. قد يعرف أن أحدهم اقتحمه، لكنه لن يتيقّن أنني الفاعلة. جلبتُ سكينًا من المطبخ وحشرته في الفجوة الدقيقة عند حافة الدُّرج، محاولةً تحصيل بعض القوّة لفتحه عنوة. لم أظن في البداية أنني سأقدر، ومن ثم بعد أن لفظتُ مغمغمةً: "هيا أيها اللعين"، وأعطيته دفعة شديدة تشظى الخشب، وانفتح الدرج بوصةً. لقد فعلتها.

أول ما رأيته كان قناني البراندي: اثنتان إحداهما نصف فارغة. كان يجب أن أُصدم، أو أتفاجأ على الأقل، لكن لم يحدث ذلك، فشُرب ديفيد أردأ أسراره كتمًا، عني وعن أديل على الأقل. ثمة أيضًا عدة علبٍ من حلوى النعناع قوية النكهة. كم يشربُ في اليوم؟ يمكنني تصوره تقريبًا، رشفة من هنا، وأخرى من هناك، ليست كمية زائدة عن الحد وإنما تفي بالغرض. لمَ يشرب؟ لشعوره بالذنب؟ لتعاسته؟ قرَّ قراري على *"ومن يبالي؟ لستُ هنا من أجله"*.

راودتني فكرة إفراغ القنينتين في المغسلة، لكنني لم أفعل، بل أخرجتهما فقط ورحتُ أنبش تحتهما. كنتُ راكعة على ركبتيَّ أتعرّق تحت تبرُّجي الذي اضطُررتُ لاكتسائه من أجل لورا بينما أنكتُ بين الظروف ومصنفات الإيصالات ونُسخ المقالات الطبية التي كتبها.

أخيرًا، وفي القاع تمامًا، رأيتُ ظرف مانيلًا كبيرًا، وبداخله مصنف برتقالي من قياس أيه 4. كان فاقدًا حداثته المكينة الأنيقة، وصار ملمسه ناعمًا، والصفحات المختلفة مجموعة بمشابك ورقية: مجموعة عشوائية من الأوراق والملاحظات، لا تشبه مصنفًا طبيًا سويًا البتة، لكنها قصدُ بحثي. اسمها مكتوب على الواجهة بقلم تمييز أسود عريض: *أديل رذرفورد كامبل/ مارتن.*

جلستُ في كرسيه ومررتُ أصابعي على السطح للحظة قبل أن أقلبَ إلى الصفحة الأولى. لم يكُن ملفًا طبيًا اعتياديًا، من غير ريب، بل أقرب إلى مجموعة من الملاحظات العشوائية. خربشات مشطوبة بخطه الطبيبيِّ الرديء على أنواع مختلفة من الأوراق؛ المتاحُ منها أيًا كان على ما يبدو. كنتُ قد ظننتُ أن ما أجده مهما يكن سيرجع سنة أو نحوها، منذ بدئه إعداد هذه الخطة. ربما وقتما التقى ماريان من المقهى في بلاكهيث، فكرةٌ ما تزال تلدغ كبريائي. لكن لا، كانت أول تدوينة منذ ست سنوات وتتناول أمورًا ترجع عقدًا، وهو مُسخطٌ في قلة تفصيله.

جذبتُ الكرسي أقربَ إلى الطاولة ليرقد الملف مباشرة تحت الوهج الأصفر الخفيف لضوء المكتب بينما أحاول فهم شيء من خربشاته.

انهيار جزئي بعد ثلاثة أشهرٍ من مغادرة ويستلاندز أجرَت فيها عملية إجهاض.

ما كان ما قالته أديل؟ في بداية زواجهما كان يريدُ الإنجاب وهي لم تُرده. كيف تراه شعر إزاء اختيارها إجراء إجهاض؟ لا بدَّ أن ذلك آلمه. لعلها بداية امتعاضه؟ تابعتُ التصفح متقدمةً أكثر.

شكوك بجنون الارتياب والغيرة المرضيَّة. إنها تعرفُ أشياء لا ينبغي لها معرفتها. أتتجسسُ عليَّ؟ كيف؟

من يبدو مرتابًا الآن يا ديفيد؟ أردتُ خربشة ذلك تحت ملاحظاته المستعجلة.

تدَّعي أديل أن الحادث عند بائع الزهور لم يكن ذنبها، لكن تشابهات أكثر مما يجبُ مع الماضي؟ لم يُتخذ إجراء، ولا يوجد دليل. جوليا منزعجة/ خائفة. انتهت الصداقة. انتهى العمل. اتُّفق أنْ لا مزيد من العمل. أفعلتها لتتمكن من البقاء في المنزل؟

العمل الذي ذكرت أديل أنها حظيت به ذات مرة. لا بدَّ أن هذا هو. لكن ما الذي جرى؟ فكرتُ بالمكالمات الهاتفية اليومية. هل خرب ديفيدُ عليها عملها ليحرص على بقائها في المنزل؟ لكن ما كان الحادث؟ ما الذي حدث حقيقةً؟ لن ينفع هذا الملفُ في إيداعها مستشفى أمراض عقلية أبدًا، فليس فيه تفصيلٌ ولا تقييمات رسمية أو جلسات مسجلة. لعله يعتمدُ على سمعته ليتمكن من استخدام هذا ضدها، إدانة ماكرة لها بدلًا من المواجهة الشرسة،

لكي يبدو شبه كارهٍ لذلك. بحثتُ قدمًا حتى بلغتُ التدوينات الأخيرة، وعيناي تنتشلان العبارات التي تصيبني بالقشعريرة.

انهيار ذهانيٌّ. ميول معادية للمجتمع.

رأيتُ مكان خربشته الوصفات، لكن كل شيء مُبهم، مُلمَّح إليه تلميحًا، كأن كل الملاحظات مكتوبة لسجلٍّ شخصي، لكنني شعرتُ على الرغم من ذلك أنه يتحدث عن شخص غريب، هذه ليست أديل.

لن ترفع ماريان دعوى. لا دليل. وافقَت على الانتقال، مرة أخرى.

ماريان كان الاسم الذي أطلقته أديل على المرأة في بلاكهيث. ماذا حدث هناك حقًّا؟ من الواضح أن أديل اكتشفت أنه يواعدها، وربما واجهته؟ شعرتُ بموجة غثيان وأنا أتخيلُ نفسي في ذلك الموقف. كم يسهل أن أكون مكانها. أكره فكرة أن تكتشف أديلُ أبدًا ما فعلت، وليس لأني أظنها مجنونة، مهما كان ما يريدُ ديفيد للعالم أن يصدق، بل لأنها صديقتي. سأكره أن تعرف كيف غدرتُ بها.

نظرتُ إلى تلك الملاحظة، إلى كلمة مرة *أخرى* بعد كلمة الانتقال. كم مرة انتقلا؟ لم تذكر أديل ذلك، ولا أدلة هنا. لعله يريدُ عندما يعرض كل هذا الهراء على أحدهم -ربما الدكتور سايكس- أن يبدو وكأنه كان يحميها لكن لم يعُد بوسعه ذلك. محَّصتُ الصفحات الأخيرة، لكن شيفرة كتابته عصيَّة على الحلّ. التقطتُ كلمتين جعلتا قلبي يكاد يتوقف -والدان... عزبة- وأُنهِكَت عيناي في محاولتهما فهم فقرة الجمل المتقطِّعة حولهما، لكنني عجزت. كُتب هذا على ثمالة، وأنا واثقة أكملَ الثقة في ذلك. شعرتُ أنني أنظرُ في مُخ مخبول لا أقرأ ملفًّ واحدٍ.

الصفحتان الأخيرتان خاليتان تقريبًا، لكن ما كُتب عليهما جمَّدني.

هياجٌ غير متوقع بعد الانتقال. ركلَت القطة. داستها. قتلتها. الكثير من المصادفات.

ثم أسفل الصفحة...

أكان تهديدًا؟ إيضاح وجهة نظر؟ غُيِّر الدواء. كم كمّ الحوادث المُمكن وقوعه؟ أوقَع أيها في الحقيقة قط؟

ثمة سطرٌ وحيدٌ مُستخدَمٌ في الصفحة الأخيرة، لكنني حدقتُ إليه وقتًا طويلًا.

لويز؟ ماذا أفعل حيالها؟

39

آنذاك

قضت يومين وحيدة في المنزل قبل وصول ديفيد، وفاجأتها حالة السلام التي شعرت بها. كانت العزلة غريبةً بعد الصحبة الدائمة في ويستلاندز، لكنها سكَّنَت باطنتها. وحتى في الليل، في هدأة الريف حيث يسهل للمرء الاعتقاد أنه آخر سكان الأرض، أحاطتها الطمأنينة. وليس أنها تشعرُ بالانعزال عن الناس والأماكن أبدًا، ليس حقًّا. ليس وهي تتمتع بتلك القدرة.

لكن مع ذلك، تظن أنهما ربما كانا على ما يرام، بطريقة أو بأخرى، فالشباب يشفون سريعًا فعلًا، وصارت تشعرُ ببيت فيرديل اليوم وكأنه نسخة طبق الأصل من منزلها. نفسه، لكنه مختلف كثيرًا في غياب والديها. حتى إنها تحلَّت بقوة كافية لتنظر في بقايا غرفهما المحروقة وتجمع بعض الأشياء: صندوق جواهر أمها المُخرَّم، والشمعدان الفضي الذي كان لجدتها، وأشياء متفرقة أخرى ترتبط بذكريات في ذاكرتها، وبعض الصور التي كانت في صندوق في درجها السفلي، والتي نجَت بطريقة ما من السعير. كلها التُقطَت بكاميرا أبيها الباهظة وأُظهِرت في غرفته المظلمة الخاصة؛ واحدة من هواياته الكثيرة التي فضَّلها على أن يكون أبًا. بينها صورة لها وهي في الخامسة عشرة تقريبًا، وواحدة لها وديفيد يجلسان إلى طاولة المطبخ التُقطَت منذ زمن ليس ببعيد. كان ذلك مساءً طيبًا، ذلك أن والديها كانا يشربان وخفتت

حدة رفضهما له في تلك الليلة، وقتٌ نادر قضوه جميعًا معًا. وضعَت الصورة الأولى في أحد الصناديق، لكنها احتفظت بالثانية.

أعطتها لديفيد وقتما كانا يتمشيان في أرجاء العزبة، والهواء عليل ورطبٌ لكنه مُنعِش. قالت:

- وجدتُ هذه.

وذراعها مشبوكة بذراعه. اعتراه الصمتُ مذ وصل، وكاد لمُّ شملهما يكون سمجًا. كان واحدهما قد ألقى بنفسه في حضن الثاني، وتبادلا القبل وكلاهما يكاد يطير فرحًا لاجتماعهما الجديد، لكن شهر البُعاد والحريق ما يزالان يجثمان بينهما، وبعد ساعة من الحديث الدمث المتكلِّف عن ويستلاندز وما إن كان لديها كل ما تحتاج إليه -على الرغم من وضوحِ أن لديها ذلك، وبأي حال، لكونه ديفيد، فقد جلب معه طردًا مليئًا بالطعام- اقترحَت التمشّي.

وكان ذلك التصرف الصحيح، فراح ديفيد يسترخي مع كل خطوة، وغضبت من نفسها لعدم تفكيرها بأن العودة إلى المنزل قد تؤثر فيه أيضًا، فقد كان حاضرًا تلك الليلة، ويحمل الندوب بطيئة التعافي لتثبت ذلك، وبخلافها، هو قادر على تذكر النار. أوكأت رأسها على ذراعه وهما يتركان الممر خلفهما ويتثاقلان إلى الغابة. كانت السماء قد أمطرت والأرض موحلة ومكسوة بالأُشْن وأوراق الشجر، لكن ثمة ما هو محفوف برائحة الأرض ورائع في ذلك.

قال:

- سآخذها معي إلى الجامعة وأُبَروِزُها. كان ذلك يومًا كيِّسًا.

فقالت رافعة وجهها بابتسامة:

- وسنحظى بأضعاف غيره، عُمرًا من الأيام الكيسة، ما إن نتزوج. فلنفعلها في عيد الميلاد. حالما تنهي دراستك وتنصرف لعطلة الأعياد وأبلغ الثامنة عشرة ولا يمكن لأحدٍ أن يرفض (توقفَت قليلًا) وليس أنه قد بقيَ من يرفض.

اعتصر ذراعها. دائمًا ما ينعقد لسانه عند الحديث عن الأمور العميقة، وهي لا تمانع ذلك.

قال:

- كنتُ أفكر في أنني ربما يجدر بي ترك الجامعة لبعض الوقت، لأعتني بك. كما تعلمين، في فترة مكوثك هنا.

ضحكت، وما زالت تجد قدرتها على الضحك أمرًا غريبًا، ويؤلمها فقد روب. هي تحب ديفيد بكل قلبها، لكن روب من أعاد لها ضحكتها.

- سينقض ذلك مغزى قضائي الوقت وحيدة هنا إلى حد ما، أليس كذلك؟ وبأي حال، لا يمكنك ذلك، فهذا ما حلُمت به دائمًا، وإنني لفخورة بك. سأكون زوجة طبيب.

فقال:

- هذا إن نجحتُ في الامتحانات كلها.

- أوه، ستنجح، لأنك نابغة.

وهو كذلك. مخه أنبغُ مخٍّ قابلته قط.

وقفا وتبادلا القبل لبعض الوقت، وأحاطتها ذراعه الملتفة حولها بشعور طيب، وأحسَّت بالأمان والاستقرار، وفكرت بأن قلبيهما ربما يبنيان أساسًا متينًا لمستقبلهما.

عندما مشيا قليلًا بعد، أدركت أنهما بلغا البئر القديمة. بالكاد كانت بائنة بين خضرة الغابة وبُنِّيتِها، وطوبها القديم مغطى بالأُشُن، تذكارٌ من زمان عفَّى عليه الزمان. شيء منسي.

اتكأت على جانبها وحدقت إلى ظلمتها، حفرة ناشفة خاوية. قالت:

- تخيلتُ هذه البئر عندما كنتُ في ويستلاندز، تخيلتُ بكائي كل شجني فيها ثم سدَّها.

نطقتْ بما يقرب من الحقيقة، فتخيلتُ ليست الكلمة الصحيحة، لكنها أفضل ما يمكنها إخبار ديفيد به.

دنا من خلفها وأحاط خصرها بذراعيه:

- أتمنى لو يمكنني إصلاح الحال.

- أنت تُصلح كل شيء.

وهذا صحيح، هو يفعل ذلك. قد لا يتحلى بجموح روبٍ، الذي يُشعرها بأنها شابة حرة، لكنه صلب، والصلابة هي ما تحتاج إليه حقًا. على الرغم من أنها تشتاق إلى روب، ديفيد من تحتاج إليه حقًّا. صخرتُها. كانت ساعته ما تزال تتدلَّى من رسغها، فرفعتها:

- أصار بوسعك لبس ساعتك؟

- بوسعي، لكن احتفظي بها. لبسُك إياها يشعرني أنني معك.

- أنت معي دائمًا يا ديفيد مارتن، دائمًا. أحبكَ.

سرَّها الاحتفاظ بالساعة. هي تعرفُ أنه سيزورها في نهايات الأسابيع عندما يقدر، لكن الساعة تشبهه: مأمونة وقوية. لها وزن يمكنها الشعور به، وهي محتاجةٌ إلى مرساة. ربما ستخبره يومًا ما بالسبب، وتشرح له أمر ليلة الحريق. ربما. ربما عندما يشيخان ويشهبُ شعرهما ويصير قادرًا على رؤية غموضٍ في العالم أكثر مما يراه الآن.

زحفَت قشعريرةٌ إلى هواء الظهيرة، وساد فجأة النقر الخفيف للمطر على أوراق الأشجار فوق رأسيهما. زخَّة وديعة منتظمة، لا انهمارَ عنيفٌ، لكنهما عادا وقاما بنزهة بين كل صنوف الطعام، ثم شربا قنينة نبيذ جلبها ديفيد معه، قبل أن يسقطا في سرير إحدى الغرف الفائضة. ليست مستعدة لغرفة نومها بعد، فهي تنتمي إلى الماضي. الكثير ينتمي إلى الماضي.

قالت بعد أن مارسا الحب واستلقيا ناعسَين في الظلام:

- علينا أن نبيع هذا المكان.

راحت أصابعها تمشي الهوينى فوق المَلاسة الجديدة لندبات ذراعه، وتساءَلت عن قدر الألم الذي ما زالت تُنزِله. لن يفصح ديفيد أبدًا.

- حالما نتزوج.

قال:

- بدايات جديدة.

ليس يرغب في التلبُّثِ هنا مثلما لا ترغبُ هي، وفيمَ حاجتهما إلى هذا المنزل الهائل بأي حال؟ لم يكن أبوها في حاجة إليه إلا لإرضاء غروره.

ردَّت:

- بدايات جديدة.

قبل أن تسرق يد الوسن كليهما. لا استحضار حثيث للباب الثاني الليلة. ليست جاهزة لذلك. الباب الأول وحسب، من باب التغيير. انتوَت الحلم بمستقبلهما معًا. كم سيكون مثاليًا.

40

لويز

قالت صوفي:

- بما أنكِ تتجاهلين رسائلي، قررتُ القدوم في زيارة خاطفة إلى مكتبك (داخلةً الشقة بسلاسة وإيلا الصغيرة تجرُّ في أعقابها)، لكنني كنتُ الطرف الذي تلقى المفاجأة وقتما قالت سو إنك استقلتِ. ما الذي يجري بحقك؟

لا يلزمني هذا الآن حقًّا، فبالكاد نمتُ بعد مغامرة الليلة الماضية، وأعصابي مهتاجة. راسلتُ أديل هذا الصباح لأخبرها بأني محتاجة إلى رؤياها، لكنها لم تُجب والهلعُ يأكلني إزاء احتمال أن يكون ديفيد قد وجد الهاتف. ما غير ذلك يمنعها من الرد إن كان في العمل؟

نزعت صوفي سترتها ورمتها على الكنبة.

- أخبريني أنك لم تستقيلي بسببه. أخبريني أنكِ عملتِ بنصيحتي وهجرتِ الاثنين. أرجوكِ قولي هذا.

- خالة صوفي!

اندفع آدم من غرفته وألقى بنفسه حول ساقيها.

- إيلا!

إيلا طفلة بالغة الرقة غريبة الأطوار يبدو أنها لا تردد أي كلمة من لغة أيٍّ من والديها البذيئة، على عكس آدم، الذي أحاول ألا أشتم بجواره لكنه بطريقة ما يتدبر التقاط الكلمات بأي حال، وإن كان ابنُ السادسة قادرًا على الوقوع في حبٍّ بلا أملٍ، فإنني لواثقة أن آدم واقعٌ في حب إيلا.

- لقد سافرتُ إلى فرنسا شهرًا! وسأحظى بأخٍ أو أخت! فليزا تصنع طفلًا!

كانت أول مرة يذكر الحمل أمامي -ولم أكن واثقة حتى من معرفته به- لكن احترازه بشأن *ما* قد يحزن *ماما* ضاع في عصف حماسته.

قالت صوفي:

- سينجب إيان طفلًا آخر؟ لم تذكري ذلك.

ونمَّ صوتها عن بعض المضاضة، فهززتُ كتفيَّ.

- كنتِ في شغلٍ عن ذلك بمحاضرتي.

ما يزال ذكر الطفل الآزف شوكةً في خاصرتي، لكنني لا أريدها أن ترى ذلك. سُقنا الطفلين إلى غرفة آدم ليلعبا، قابضَين على أكياس حلويات جلبتها صوفي معها، وخرجنا إلى الشرفة حاملتين نبيذنا.

أشعلَت سيجارة وقدمت لي واحدة، لكنني لوحتُ لها بسيجارتي الإلكترونية وقلت:

- لقد أقلعتُ نوعًا ما.

- واه! حسنًا فعلتِ. دائمًا ما أعزمُ على التحول وزوجي جأي إلى استخدام هذه. يومًا ما ربما. إذن... (ونظرَت إليَّ، سيجارة في يدٍ وكأس نبيذ في الأخرى) احكي لي. ماذا حدث؟ أراكِ نحُلتِ، إرهاقًا أم عمدًا؟

قلت:

- كلاهما.

ومن ثم أخبرتها على الرغم مني. كنتُ أطفحُ قلقًا من الأمر كله، وبدت مشاركته مَفرَجًا. تركتني أتكلم وأتكلم، وبالكاد قاطعتني، لكنني عرفتُ أنني ارتكبتُ غلطةً وقتما رأيتُ لون وجهها يكمُد، والخطوط التي تحاول جاهدةً إخفاءها بحاشية ثوبها تحفر أخاديد عميقة في جبهتها. كانت تنظرُ إليَّ وكأنها تعجز عن تصديق ما تسمعه.

قالَت وقتما فرغتُ أخيرًا:

- حسنًا، لا عجب أنكِ خسرتِ وظيفتك. ما الذي توقعتِه أن يفعله؟ لقد صادقتِ زوجته ولم تخبريه (كانت خائبة الأمل فيَّ)، من يفعل هذا؟ أخبرتكِ على الهاتف أنك لن تتمكني من الاستمرار في ذلك.

قلت:

- لم أقصد المضيَّ في كل ذلك، لقد حدث وحسب.

- ما قصدك؟ أتعنين إدخالك إياه ومضاجعته مرارًا بعد أن صرتِ صديقتها حدث وحسب؟ الاقتحام المخبول لمكتبه حدث وحسب؟

قلتُ بحدة:

- بالطبع هذا لم يحدث وحسب!

كانت تكلمني وكأنني مراهقة ما، وبسجلها الحافل، توقعتها أن تكون أكثر تفهُّمًا.

- لكن بأي حال، ليس هذا كله مغزى الحديث. إنني قلقة عليها. ماذا لو كان يحاول التخلص منها؟ زواجهما شاذ تمامًا، وما قلتُه عن الأقراص والتحكم بها...

قاطعتني:

- أنت لا تعرفين طبيعة زواجهما، لستِ فيه. وجاي يعتني بكل أمورنا المالية، وإنني واثقة أتم الثقة أنه لا دوافع دنيئة لديه.

تمتمتُ:

- أنت لا تساوين ثروة (وابتلعتُ باعثي على تذكيرها أن كل مالهما هو في الحقيقة مال جاي، لأنها لا تُدخِل أموالًا طائلة بالضبط)، هذا مختلف.

امتصَّت سيجارتها بشدةٍ، مستغرقة في التفكير:

- كنت تضاجعين هذا الرجل، ولم تضاجعي أحدًا منذ عصور، لذا لا بدَّ أنه راق لك حقًّا، فكيف صرتِ نصيرتها في كل هذا؟ أواثقة أنك لستِ تشعرين بالذنب وتحاولين بطريقة ما تخليص نفسك؟

إنها تعرفني، أقر لها بذلك.

- ربما يكون هذا السبب جزئيًّا، لكن ثمة أدلة كثيرة يا صوفي، ولو التقيتِها لظننتِ المثل، وهو ذو مزاج كثير التقلُّب، يبلغ أمزجة خبيثة بالمعنى الضيق للكلمة. وهي هلوعة منه. إنها عذبة وهشة.

- هشة؟ (قوَّست حاجبًا مثاليَّ الصورة) أم مجنونة؟

- ما قصدك؟

- حسنًا، أنت تثرثرين عن هذه الأقراص وكل شيء، وترينها شيئًا خبيثًا ينزله بها، لكن ماذا لو كان في عقلها لوثة؟ أفكرتِ في ذلك؟

- هذه حبوب جدِّية.

هزَّت كتفيها:

- قد تكون لوثة جدِّية.

هززتُ رأسي معاندة:

- لو كانت معتوهة لعرفت. كان ذلك ليظهر، فقد قضينا وقتًا طويلًا معًا.

- نعم، لأن العته دائمًا ما يظهِر نفسه. قولي ذلك للذين عرفوا تيد بَندي أو أي قاتلٍ متسلسل آخر تقريبًا. كل ما أقوله هو إنك ربما تبالغين في التفكير في كل هذا، وترين شيئًا لا وجود له.

قلتُ:

- ربما.

لم أصدِّق ذلك لحظة، لكن لم يعُد ثمة طائل من محادثتها. أعرفُ أنني أميل إلى المبالغة في التفكير بالأمور، لكن ليس هذا. تمنيتُ لو أنها لم تأتِ، وبالنظر إليها، أظنُّ أنها ربما تتمنى المثل. هي تشفقُ عليَّ شيئًا ما، يمكنني رؤية ذلك، كما لو أنها حزينة لأنني عجزتُ حتى عن تحصيل المتعة من علاقةٍ غرامية كما يجب.

قالت، بحذَر:

- ربما يتعلق هذا بإيان في حقيقته. أعني مجيء الطفل الجديد، لا يمكن أن يكون ذلك هينًا عندك.

قلتُ محتدة:

- أتظنين أنني أخترعُ مشكلات في زواج ديفيد وأديل لأن زوجي السابق أحبَلَ عشيقته العاهرة؟

وكانَ قولي أقرَبَ إلى هدير في الحقيقة. حادثتُ نفسي، تحدوني فورة حنق: *اغربي عني، اغربي وارجعي إلى علاقاتكِ السطحية. لن أتخلى عن أديل، لن أتخلى عنها.*

- أتظنين أنني اختلقتُ الملف الذي وجدت؟ والأقراص؟

حدَّقت إحدانا إلى الثانية للحظة مديدة لم نتكلم فيها. وقالت أخيرًا:

- لا، بالطبع لا أظن ذلك. إنني قلقةٌ حيالك، وهذا كل ما في الأمر. بأي حال (تذرعَت بالنظر إلى ساعتها)، عليَّ الذهاب. أمي قادمة لزيارتي هذا المساء من سوء حظي، وعليَّ تقريرُ أي طبخة لعينة سأطبخ.

ما يزال نصفُ قنينة النبيذ قاعدًا عند أقدامنا. وواثقةٌ تمامًا أنها تكذب، ولستُ أعرفُ بمَ يُشعرني ذلك بالضبط: بأني وحيدة، ولا صديق لي، وخاوية، وغاضبة منها.

قالت وقتما اجتمعَت وإيلا عند الباب الأمامي:

- أحبك يا لو، لكن ابقي خارج شؤونهما، لا خير يأتي من التوسط في زواج. لقد جاوزتِ كل الخطوط تمامًا، وأنت تعرفين ذلك. تنحي، واتركيهما وشأنهما. امضي في حياتك.

قلت:

- سأفكر في ذلك. أعدك أني سأفعل.

قالت:

- جيد.

مانحة إياي نصف ابتسامة. كان بمقدوري تقريبًا سماعها تخبر جاي بهذا. رباه، *احزر ماذا فعلت لويزا! إنه لأمر جنونيٌّ! يا لها من بائسة!*

رددتُ الابتسامة بمثلها عند مغادرتها وإيلا، لكن بأسنان مصرورة.

ادَّخرتُ بقية قنينة النبيذ حتى صار آدم في فراشه، على الرغم من التياع قلبي طيلة الظهيرة بسبب ازدراء صوفي لمخاوفي بخصوص أديل وديفيد.

كان يجدر بي إبقاء فمي مغلقًا. هذه قصة حياتي: دائمًا ما أتشدقُ بأشياء ينبغي لي الاحتفاظ بها لنفسي. لم ترسل رسالة حتى منذ غادرَت، ولا حتى دعابة عن الأمر في سبيل الاعتذار، ما سيكون تصرفها الطبيعي. صوفي تكره المواجهة، وعلى الرغم من أننا لم نتجادل تقنيًّا، لا سبيل لإنكار غمامة الاختلاف والاستهجان الثقيلة التي ظلَّلت محادثتنا كلها. لقد كوَّنت رأيها حالما علمَت أنني لم آخذ بنصيحتها وأنهي علاقتي بكليهما، وكل ما تلا ذلك كان ضجيجًا أبيض في رأسها. يا لكل هراء عقليتها المنتشية حرة التفكير والحياة!

عندما رنَّ جرس الباب عند السابعة، كنتُ قد صببتُ لنفسي آخر ما تبقى من نبيذ سوفينيون بلانك في محاولة فاشلة لإرساء مزاجي، وكدتُ أوقع الكأس عندما فتحتُ الباب. لا أعرفُ من أتوقع؛ لورا ربما، أو حتى صوفي، جاءَت لتصالحني.

لكن لا، إنه هو، ديفيد.

كانت أمسيات الصيف الطويلة قد بدأت تخفُتُ وشهِبَ شعر السماء، وأحسستُ بذلك استعارةً لكل ما حدث بيننا. اندفع الدم إلى وجهي وعرفتُ أن حتى صدري يكتسي بقعًا حمراء. شعرتُ بالغثيان، شعرتُ بالخوف، شعرتُ بحشدٍ غفير من المشاعر التي لا يسعني تحديد ماهيتها، وأخذت أذناي تطنان.

قال:

- لا أريد الدخول.

بدا فوضى مهملة: قميصه ليس مدسوسًا في سرواله كما يجب، وكتفاه مرتخيتان. شعرتُ أنني مصاصة دماء، إذ ازددتُ قوةً إثر تحسُّن نومي، وازداد كلاهما ضعفًا.

رددت عليه:

- لم أكن منتوية دعوتك.

وأغلقتُ الباب بعض الشيء خلفي في حال استيقظ آدم، كما أنني شعرتُ بأمان أكثر في الخارج.

- مفاتيح المكتب. أريد استعادتها.

قلتُ:

- ماذا؟

على الرغم من أنني سمعته بوضوح وجفَّ فمي من فوره شعورًا بالذنب.

- أعرفُ أنك الفاعل لويز. لم أخبر أحدًا بما فعلتِ. لا أريدُ إلا استعادة المفاتيح، وأظن ذلك عادلًا، أليس كذلك؟

- لا أعرفُ عن ماذا تتحدث.

تمسَّكتُ بموقفي وقد اهتاجَت معدتي ثانية.

- إنك لكاذبة مريعة (كان يحدق إلى الأرض وكأنه لا يطيق النظر إلي) أعطني المفاتيح.

- لستُ في حاجة إليها بأي حال.

أبقيتُ رأسي مرفوعًا، متحديةً، لكن كانت يداي ترتجفان وأنا أخرجها من حلقة مفاتيحي الصدفية وأعطيه إياها. لامسَت أصابعه أصابعي وهو يأخذها، وخانني جسدي باشتهاء ملحٍّ. أشعَر به كذلك؟ يا لكل هذا من عابث بالعقل. كيف يعقل أني ما زلتُ أحسُّ بهذه المشاعر على الرغم من أنه يخيفني جزئيًّا؟

- وقلتُ لك، لستُ أدري عن ماذا تتكلم، ولقد بقيتُ بعيدة، فقد نلتُ كفايتي من كليكما.

ألقيتُ كلامي، لكنه بجملته كذبات تلو كذبات. وهو قادر على رؤية باطني. أكره كذلك.

نظر إليَّ برهةً طويلة، وتمنيتُ لو أني أحسنُ قراءته أكثر. كانت عيناه الزرقاوان قد بهتتا لتطابِقا لون السماء المحتضِرة، وعجزتُ عن رؤية ما يجري خلفهما. بمَ يفكر؟

- ابقي بعيدة عنا، إن كنتِ لا تريدين أن ينتهي بك الأمر متأذية.

- أهذا تهديد؟

أردتُ البكاء ولستُ أعرفُ السبب حتى. ما الذي ورطتُ نفسي فيه؟ وبعد كل شيء، لمَ أجد كرهه بهذه الصعوبة وهو أمامي بهذه الشاكلة؟ ديفيد خاصتي.

زنَّر إليّ بعينيه، وعاد ديفيدُ الباردُ ذاك. الغريب.

- أجل، إنه تهديد. صدقيني، إنه تهديد. أتعرفين ما نسيتِ ليلة البارحة؟

ظللتُ صامتة، أحدقُ وحسب. ماذا؟ ما الذي نسيتُه؟

- ثمة كاميرا مراقبةٍ أمام العيادة.

يا إلهي، إنه محق. يمكنني فهمُ ما يرمي إليه قبل أن يقوله. هو يعرف ذلك، لكنه قاله بأي حال.

- كلمة واحدة مني ليُنظر في تسجيلات البارحة، وما سيصيبك في أحسن الأحوال هو دمار مستقبلك الوظيفي. *في أحسن الأحوال.*

وكزني بإصبعه، فأجفلتُ. الأقراص، الملف وكل الملاحظات عن أديل فيه. انهيار ذهاني. ميول معادية للمجتمع. ربما هو من يعانيها. ربما ليس جشعًا يسعى خلف مال زوجته وحسب، ربما هو المجنون. لكن على الرغم من ذلك، على الرغم من تضييقه الخناق عليَّ، لن يكون أيٌّ من هذا في صالحه إن تمكنتُ من قول ما لدي. إنني تهديدٌ له أيضًا.

أنهى كلامه قائلًا:

- ابقي بعيدةً عن زواجي.

وخرجَت كلُّ كلمة مبصوقة وكأنه يتمنى لو يمكنه البصقُ في وجهي مباشرة.

- هذا مقال الرجل الذي ضاجعني. ربما يجدر بك القلقُ حيال نفسكِ بدلًا من القلق حيال ما أفعله أو لستُ أفعله.

قال:

- أوه، إنني أفعل يا لويز، ثقي بي، إنني أفعل (استدار ليمشي، ثم توقف)، ثمة شيء واحد أحب أن أعرفه. شيء واحدٌ أحتاجُ إلى معرفته.

- ما هو؟

- كيف التقيتِ زوجتي *بالضبط*؟

- أخبرتك. التقيتها صدفة. لم أكن أترصَّدها ولا أترصَّدك ولا أي شيء من هذا.

أردتُ الإضافة: *لا تداهن نفسك.*

- أعرف ذلك. أعني أين ومتى.

حدقتُ إليه، مترددة:

- وفيم يهم ذلك؟

- سايريني يا لويز، أريدُ أن أعرف.

- ذات صباح، كنتُ قد أوصلتُ آدم إلى المدرسة للتوِّ، وكانت في طريقها عائدة من مشيها معكَ إلى العيادة واصطدمتُ بها وأوقعتها.

بدا الأمر وكأنه البارحة، لكنه بعيد جدًّا. حدث الكثير مذ ذاك الوقت. بدأ رأسي يخفق. بهذا القدر من التورُّط، وعلى الرغم من شدة عزيمتي على مساعدة أديل، تمنيتُ في هذه اللحظة لو أنني لم ألتق أيهما قط.

هز ديفيد رأسه ورسمَ نصف ابتسامة:

- بالطبع.

- ماذا؟

نظر إليَّ حينذاك، في عينيَّ مباشرة، لكن ظَلَّ وجهه في الظِّل، والتمعت عيناه بلمعة زجاجية في العتمة، وخرجت كلماته بلا جسد:

- لم تمشِ زوجتي معي إلى العمل في صباحٍ قط.

قلت:

- لا أصدقك. لم أعُد أصدق أي شيء تقوله.

كان ما يزال واقفًا هناك، جسمًا آخذًا في الإظلام، وقتما أغلقتُ الباب تاركةً إياه في الخارج، مستردةً عالمي الصغير، مساحتي الخاصة، ثم رصصتُ أذني على الباب لأرى ما إن كان بوسعي سماع خطواته على الخرسانة في الخارج، لكن رأسي كان يعجُّ بنبض قلبي الخافق في أذنيَّ.

رباهُ رباهُ رباهُ! ما الذي أفعله؟ ربما صوفي على حق، ربما عليَّ الابتعاد. كم من حياتي أريدُ إفساده لأجل هذا؟ ديفيدُ قادرٌ على إظهاري بمظهر المخبول أمام الدكتور سايكس، أمام الجميع، وقد أخسر فرصتي في العمل إلى الأبد. من المحتمل أن أدخل السجن. كل هذا خطئي وحدي، خطأ فضولي. لو لم أكُن فضولية بشأن أديل لاختلقتُ أعذاري ولم أحتسِ القهوة معها في ذاك الصباح.

وما كان قصد قوله "*هي لا تمشي معي إلى العمل أبدًا*"؟ لا بدَّ أنها فعلت، ما الذي يحاول حملي على ظنه؟

قلتُ لنفسي: *لا تثقي به، لا تنصتي إليه. التزمي ما تعرفينه. أنتِ تعرفين بالأقراص. أنتِ تعرفين بالمكالمات. أنت تعرفين بشربه والمال والملف في المكتب. هذه أشياء مكينة. وهو يهددك ليس إلا.*

ما زالت أديل لم تردّ على رسالتي، لكن حتى إن قررتُ بالفعل أن أبتعد عن الأمر برمته، هي في حاجة إلى معرفة ما وجدته في مكتبه. في حاجة إلى اتخاذ قراراتها الخاصة بناءً على ذلك. سأذهب لرؤيتها في الغد ومن ثم سأترك الأمر وشأنه. لقد قلتُ هذا من قبل، لكنني أعنيه هذه المرة. عليَّ أن أعنيه.

راح رأسي يقصفُ، فجلستُ على الكنبة وتركتُ جمجمتي تستكين إلى الوسائد الخلفية. يجب أن أهدأ. رحتُ أشهقُ من أنفي وأزفرُ من فمي، تاركة الهواء يدخلُ أعمقَ وأبطأَ مجبرةً عضلاتي الموتورة في فروة رأسي ووجهي وعنقي على الاسترخاء. أفرغتُ أفكاري، متخيلةً إياها تطير بعيدًا في نسيم الليل. لا أريدُ التفكير *فيهما*. لا أريدُ التفكير في خبيصتي. لا أريدُ التفكير في أي شيء. أريدُ نسيان نفسي، لبعض الوقت فقط.

حدث الأمر مباغتًا للغاية، بين الأنفاس تقريبًا.

ظهرت الحوافُّ الفضية للباب الثاني في الظلمة خلف عينيَّ، تشعُّ ساطعةً حدَّ أني كدتُ أرمش، ومن ثم، قبل أن أرى السطح المائي البرَّاق حتى، عبرته و...

...صرتُ واقفةً فوق نفسي. لكن هذا غير ممكن، لأنني أرى نفسي على الكنبة: رأسي مدلى خلفًا، وعيناي مغمضتان، وفمي نصف مفتوح، وكأس النبيذ تجلس فارغة على الطاولة بجواري، ولا أتذكرُ جلبي إياها. كيف أرى نفسي؟ ماذا يحدث؟ هلعتُ وشعرتُ أنني شُددتُ شَدَّة جبارة من لُبِّ لُبي – مثل *الشدّة في حلمي بغرفة آدم تمامًا*– ثم انفتحت عيناي وعُدتُ على الكنبة.

لم يعُد في أنفاسي هدوء الآن، وصرتُ في أتم اليقظة والصحوة. ما كان ذلك بحق الجحيم؟ نظرتُ إلى الطاولة الجانبية ورأيتُ كأس النبيذ حيث لا بدَّ وضعتها بذهنٍ شاردٍ بعد مغادرة ديفيد. ما الذي حدث للتوِّ؟!

41

أديل

أراقب، وأنتظر، وأتعلم، وأتدرَّب. أيامي أكثر امتلاءً من أيِّ وقتٍ لذاكرتي عهد به، وهذا بديع. كنتُ قد انتعلتُ حذاءً بكعبٍ عالٍ ينسجم مع ملابسي وقتما عاد ديفيد إلى المنزل أخيرًا. من الجميل أن أتهندمَ وأن أكون مليحة. الجلدُ بين أصابع قدمي اليمنى متقرح وجربان، لكن التهيُّج في كل خطوة يستحقُّ العناء، مثلما تستحقُّ *الحكَّة* المتعاظمة العناء. إنها تذكرة لأنني المسيطرة. وتبقيني مسيطرة. بأي حال، لقد صرتُ متقنة ذلك، ومستعدة لهذا الجزء من خطتي، وسرَّني أني الآن يمكنني التخلُّص من أنتوني العاشق.

بدأت الأمور تسير بخطى حثيثة. لويز كلب الترير الصغير خاصتي وقد تلقفت العظمة التي رميتها لها وأعرفُ أنها لن تهمل الموضوع. يحدوني الفضول لأعرف إلى أيِّ مدى ستمضي به، وكيف ستتابع لعبتي. يمكنني التحكُّم كُليًّا بتصرفات الجميع في جُملة الظروف هذه، لكن هذا بطريقة ما لا يزيدُ الأمر إلا تشويقًا. إنني أجربُ حظي في شخصياتهم، وحتى الآن لم يخذلني ديفيد ولا لويز. قد يكون ديفيد رئيس الأطباء، لكنني أعرفُ كيف تعمل عقول الناس. وأتكيَّف.

كانت تفوح من المطبخ رائحة شهية وقتما رجع ووقف في المدخل، فقد جهزتُ معكرونة الكاربونارا وسلطة الجرجير الحريف، ما أعقدُ كاملَ عزمي

على أكله حتى لو لم يأكُل. ظل على الجانب الآخر من العتبة، متكئًا على إطار الباب، وبدا في حالة يُرثى لها. لن يحافظ على سمعته في العيادة إذا ما استمر ذلك أكثر.

- أرى أنك ما زلتِ تلعبين لعبة زوجات ستيبفورد[1].

قالها مبتسمًا في فكاهة ملتوية. إنه يهزأ بي، بملابسي وطبخي وكل جهدي. بدَوت مجروحة، وكنتُ مجروحة فعلًا. لم يعُد يتظاهر حتى بأنه يحبني.

قلت:

- عليكَ أن تأكل شيئًا.

بدلًا من حصولك على كل سعراتك الحرارية شربًا.

نظرَ إليَّ بازدراء أغبَش:

- ما الذي تريدينه يا أديل؟ بحق؟ ما غاية كل هذا؟ هذا السجن الذي نعيش فيه؟

إنه ثملٌ بلا شك، ولأول مرةٍ منذ وقتٍ طويلٍ أرى عُنفًا حقًّا حاسرًا فيه.

- أريدُ أن أكون معك.

إنها الحقيقة. حقيقتي السرمدية.

حدَّق إليَّ ساعة طويلة، كما لو كان يحاول اكتشاف ما بداخلي، من أنا حقيقةً، وأي نعتٍ جديدٍ يمكنه استعماله ليقبل عقله الأمر -فُصاميَّة، معتلة اجتماعيًّا، وسواسيَّة، مخبولة ببساطة- ثم ارتخت كتفاه أمام مجهوده وافتقاره إلى الجواب.

قال:

- أريدُ الطلاق. أريدُ نهايةً لهذا، كله.

لا حاجة إلى الاستفاضة في النقطة الأخيرة، فكلانا يعرف ما يقصد. يحتاجُ الماضي إلى النبش والتسجية ليرقد كما يجب. الماضي. *الجثة*. لقد

(1) زوجات ستيبفورد فيلم كوميدي، رعب وخيال تم إنتاجه في الولايات المتحدة وصدر في سنة 2004.

قال هذا قبلًا، لكن هذه المرة لستُ شديدة الثقة في أنه سيغير رأيه عندما يصحو من ثمالته، بغض النظر عما قد أفعله، وبغض النظر عن قدرتي على تدميره إن أفصحتُ.

لم أقل إلا:

- سيجهز العشاء في عشر دقائق إن كنت تريدُ الاغتسال.

طبيعيةُ حالي تعكِّره أكثر من أي تهديد فعليٍّ.

- كنتِ تعرفين من هي، أليس كذلك؟ (إنه يشمئز مني، واشمئزازه يقطرُ منه قطرًا أغزر من رثاء ذاته حتى) لويز. كنت تعرفين وقتما التقيتِها، صحيح؟

عبستُ حائرةً:

- ما منبتُ هذا يا ديفيد؟ أنى لي معرفة أنها مريضتك؟

استخدمتُ كذبته ضده.

- أنت تعرفين الأمور دائمًا. كيف ذلك؟

كان غاضبًا، لكن وشى صوته بضعفه. مثير للشفقة. ليس ديفيد خاصتي البتة.

شكَّلتُ وجهي في صورة اهتمامٍ قلِق:

- لستَ تقول ما يُفهم. أكنتَ تشرب؟ يُفترض بك أن تخفِّف ذلك، وقلتَ إنك ستفعل.

- مارسي ألاعيبك يا أديل، مارسي ألاعيبك. لقد ضقتُ ذرعًا. لم يعد يهمني. ولا أريدُ أي عشاء لعين.

صاح الجملة الأخيرة بينما اختفى في الطابق العلوي، وتساءلتُ عما حدث للشخص الذي وقعتُ في حبه. ما عمق مخبئه داخل ذلك العار الهَذْجان المتجسد في رجل؟ عرفتُ أنه زارها. ليحذِّرها. إنه يحبها حقًّا، ما يُسعدني بالطبع من ناحية، لكن من ناحية أخرى يحثني على استلال إحدى سكاكين سابانييه خاصتنا والمضي إلى الطابق العلويِّ وانتزاع قلبه الجاحد اللعين. قمعتُ ذلك الدافع. لا يمكنني إيذاء ديفيد أبدًا، وأعرف ذلك. هذا هو العبء الذي عليَّ تحمُّله.

وأيًّا ما كان، فقد سمِعَت لويز تحذيره تهديدًا، لأنها تخصُّني. ترى حقائقي. في الوقت الراهن على أيِّ حال. لم أُجِبْ رسالتها بعد، ولن أجيب. أحتاجُ إلى مجيئها غدًا. أحتاج إلى أن تجدني. شيء آخر عليها فهمه قبل أن تتدبر ترتيب فصول حكاية بلوانا معًا. يقولون افعل ولا تقُل؟ أليس كذلك؟ وهذا ما أفعله. هي دمية الزنبرك الصغيرة خاصتي، تسيرُ حيثما أوجهها.

رباه، أحب لويز، أحبها بقدر حبي لديفيد تقريبًا، وبعد أن شاركتُها قصتي ستكرهه، ولا يمكنني منع نفسي من التفكير في أنه يستحق ذلك.

42

لويز

كان المطرُ يهطلُ مدرارًا، ترمي السماء سطولًا منه بمعنى الكلمة، والرماديُّ الكثُّ يمتدُّ فوق رؤوسنا عندما أوصلتُ آدم إلى داي بلاي. انتهَت نوبة الجفاف، وعلى الرغم من أن الجو ليس باردًا، ولا ريحَ خريفيةَ ترشقُ المطر فيَّ، بدا وكأن ناقوس موتِ الصيف يدقُّ، فقد شارفنا على سبتمبر بالفعل. قبَّلني قبلة الوداع وهرع إلى الداخل، فتاي الواثق الودود المعتاد على هذا الروتين. لم أخبره أني لستُ ذاهبة إلى العمل، بل أخبرته أني آخذة بضعة أيامٍ إجازة لأقضيها معه، والآن رجعنا إلى حالتنا الطبيعية. هو لا يفهم هذا فهمًا حقيقيًا، فهو في السادسة، وكل أيامه غشاوة، لكنه سيرى أباه قريبًا ولستُ مستعدةً لشجار "أوه، ماما لم تذهب إلى العمل".

توقفتُ عند مقهى كوستا ووقفتُ عند أريكة النافذة أرسلُ نظري في الخارج من خلال الزجاج المُغبَّش إلى الناس المسرعين في شارع برودواي تحت الانهمار، مطأطئي الرؤوس ومظلاتهم تشتبك مثل قرون الظباء. التذع فمي حول المشروب الساخن ورحتُ أراقبُ الساعة بصبرٍ نافدٍ حتى ظننتُ أن المغادرة صارت آمنة على الأغلب. لا فكرة عندي عمَّا إن كان ديفيد في عمله في وقته المعتاد. حاولتُ التحقق من أجندته، لكن بيانات تسجيل دخولي لم تعُد تعمل، لا بدَّ أن النغلَ قد ألغاها. سأذهب إلى المنزل بأي حال. أنا في

حاجة إلى رؤية أديل، وما تزال لم تُجِب رسالتي، وقلقتُ عليها. اللعنة عليه إن كان في المنزل. ربما سأخبرها بما فعلنا، ربما سيستنهضها ذلك لتفعل ما هي محتاجةٌ إلى فعله. سأخسرها أيضًا، لكنها على الأقل ستكون حرة.

في الساعة العاشرة، شمَّرتُ عن ساعديَّ وقصدتُ منزلهما. كانت سيارتها في الخارج، إذن فلم تذهب إلى النادي بعد، هذا إن كانت ما تزال ترتاده، ورننتُ جرس الباب بفرائص مرتعدة. سمعتُ رنَّته في الجانب الآخر، ثقيلةً ومأمونة، ووقفتُ منتظرةً، لكن لا حياة في المنزل، فرننتُ ثانيةً، رنةً أطول هذه المرة، ولم ألقَ ردًّا كذلك. أين هي؟ لا يمكن أن تكون في الحديقة في هذا الطقس، وأعرفُ أن بمقدورها سماع الجرس من هناك بأي حال. حاولتُ مرة ثالثة بقيتُ فيها ضاغطة الزر لعشر ثوانٍ تقريبًا. عرفتُ على الأقل أن ديفيد ليس في المنزل، فلو كان فيه لكان واقفًا على العتبة يصيحُ بي الآن.

ظل البابُ مُحكم الإيصاد في وجهي. لعلها نزلَت إلى الدكاكين، لكن تحت هذا المطر؟ كانت لتذهب بسيارتها إلى متجر سينسبيري الكبير إن احتاجت إلى أي شيء بالتأكيد. تركتُ مظلتي عند الباب ونزلتُ الدرجات القليلة لأصير أمام النافذة الكبيرة الناتئة، ثم أطَّرتُ عينيَّ بيديَّ لأنظر في الداخل. إنها نافذة مكتب ديفيد، لذا لستُ أتوقعُ رؤية شيء، لكن رأيتُ أديل جالسة في كرسي مجنح في الركن بجوار رفوف الكتب؛ إحدى ذراعيها مدلاةٌ وهيَ منزلقة على جانبها لا تحملها إلا الحواف البارزة للكرسي الجلدي قديم الطراز، فضربتُ على الزجاج:

- أديل! هذه أنا! أفيقي!

لم تتحرك، ولم ترتعش حتى. كيف يمكن ألا تسمعني؟ ضربتُ بقوة أشد ورددتُ اسمها بينما أراقبُ الجوار اتقاءً شر الجيران الفضوليين الذين قد يذكرون مرآي *"للجار الطبيب الدمِث"*. ولا ردَّ أيضًا. لا بدَّ أنه أجبرها على ابتلاع تلك الأقراص قبل ذهابه إلى العمل، لم تغزُ ذهني فكرةٌ إلا هذه. لعلها أخذَت أكثر مما ينبغي، وربما انتابها ردُّ فعلٍ عكسيٌّ. *تبًّا تبًّا تبًّا*.

عدتُ بنظري إلى الباب الأمامي، وقد صار شعري ملتصقًا بوجهي، وقطرات الماء الباردة تسرحُ تحت قبَّة سترتي فأجفلُ وأرتجف. رأيتُ الأصائص الكبيرة. *المفاتيح*. رحتُ أنبشُ في التراب المبلل حتى وجدتها،

التماعاتٌ فضية على عمق بوصات. كان القفل السفليُّ مفتوحًا، لذا على الأقل ديفيد لم يحبسها، وهذه كانت أولى أفكاري، فأزلقتُ المفتاح من طراز ييل وبرمتُه، وصرتُ في الداخل.

تركَ حذائي آثارًا مبللة على ألواح أرضيتهم المثالية وأنا أهرعُ إلى المكتب، لكنني لم أهتم. لا يهمني إن اكتشف ديفيد أنني كنتُ هنا، فقد ضقتُ ذرعًا به.

ناديتها وأنا أهزُّ كتفها برفق:

- أديل، أفيقي يا أديل، هذه أنا.

تدلى رأسها إلى الأمام، وللحظةٍ تفتَّت الأكباد ظننتها ميتة، ومن ثم رأيتُ ارتفاع النفسِ بالغ الهداد في صدرها. أمسكتُ بيدها وإذا بأصابعها باردة. كم يا تُرى مضى على جلوسها هنا؟

رحتُ أصيحُ اسمها:

- أديل! أفيقي!

وما زالت على حالها، فأنشأتُ أفركُ يديها لأدفئهما وأفكرُ في أني ربما عليَّ صفع وجهها أو فعل شيء عنيف ما. أعليَّ طلب سيارة إسعاف؟ محاولة حملها على الاستفراغ؟ هززتها ثانية، بقوة أشدَّ بكثير هذه المرة، ولفينةٍ ظننتُ ذلك لن يجدي، لكنها حينئذٍ جلسَت باستقامة العصا في كرسيها، وقبضت يداها على ذراعيَّ، وراحَت تلهثُ بشدَّة، كما لو أنها كانت تغرق، ثم انفتحَت عيناها عن آخرهما.

كان المشهد دراميًّا حدَّ أنني سقطتُ خلفًا:

- اللعنة يا أديل.

طفقَت تحدِّق إليَّ وكأنني غريبة، ثم رمشَت.

غادرَ التوترُ عمودها الفقري وقلَّبت نظرها حولها وهي تلهَث، وأنفاسها ما تزال مُخلخلَة:

- ما الذي تفعلينه هنا يا لويز؟

- لقد سمحتُ لنفسي بالدخول. لم تُجيبي جرس المنزل وكان بوسعي رؤيتك من النافذة. أأنتِ بخير؟

قالت وما تزال مشتتة:

- إنكِ منقوعة. تحتاجين إلى منشفة.

- لا بأس عليَّ، بل أنتِ التي أقلقُ عليها. كم قرصًا أخذتِ هذا الصباح؟

- واحد فقط. كنتُ... (عبسَت وراحت تستجمعُ أفكارها) فكرتُ في أن أبحث هنا ثانية، عن، لستُ أدري، شيء ما، أي شيء. ثم شعرتُ أني منهكةٌ فجلست.

قلتُ:

- ظننتُ أنكِ قد انقلبتِ ميتة (ثم ضحِكْتُ، فأعصابي في حاجة إلى التحرر) بأي حال، إضبارته عنكِ ليست هنا (ركزْتُ حينذاك).

- ماذا؟

- إنها في المكتب. لقد ذهبتُ وبحثت. لكن أولًا (أخذتُ ذراعها وساعدتها على النهوض عن الكرسي) أنت في حاجةٍ إلى القهوة.

ظللنا جالستين في المطبخ، قابضتين على فنجاني قهوتنا والغيثُ المتداركُ في الخارج ينقرُ على النوافذ، بينما حكيتُ لها ما وجدتُ بهدوء وأناةٍ حتى تستوعبه كله.

قلتُ في وقفةٍ طويلةٍ بعد أن أنهيتُ كلامي:

- الأمر أن هذه الملاحظات التي يحتفظُ بها ترجع عشر سنوات تقريبًا. كنتُ ظننتُ أنه ربما يحاولُ زجكِ في مستشفى أمراضٍ عقلية ليحتفظ بمالِك، بيد أن ذلك سيكون أمرًا أحدث، صحيح؟ لا يمكن أنه يخطط له طيلة هذا الوقت. أعني، أيمكنه؟ هذا ليس مفهومًا البتة.

كانت أديل مرسِلةً نظرها مستقيمًا، ووجهها يطفح حزنًا. قالت أخيرًا:

- هو مفهوم في نظري؛ إنها بوليصة تأمين.

- ما قصدك؟

- لقد عانيتُ بعض المشكلات فعلًا عندما كنتُ أصغر سنًّا، بعد حادثة والديَّ، وبعد ويستلاندز، لكن ليس هذا السبب، ليس هذا السبب وراء احتفاظه بالإضبارة، إنما هو روب.

قطبتُ محتارةً:

- ما شأن روب؟

- إنها ضمان في حال قررتُ الإعراب عن شكوكي حول ما أصابه، فمن سيصدِّقون؟ الطبيب المحترم أم زوجته السيدة المجنونة؟

- لستُ أفهم (هذا اعوجاج جديد في زواجهما المسعور) ما أصاب روب؟

قالت:

- روب سرُّنا الخفيُّ.

ثم أطلقت تنهيدةً طويلة. بدَت أصغر حجمًا في ذلك الكرسي، وأهزل باحديداب كتفيها، كما لو أنها تحاول الانطواء على نفسها والاختفاء. كانت أنحل أيضًا. آخذة في التلاشي.

قالت:

- أريدُ أن أريكِ شيئًا.

ونهضَتْ وتبعتُها صعودًا على السلالم.

صار نبضُ قلبي يعدو. أتراني سأعرف أخيرًا ما لبُّ هذا الزواج الذي أوقعني في شركه؟ تبعتُها إلى غرفة النوم الرئيسة الفسيحة، وكانت مهويَّة عالية السقف وفيها حمام داخلي في الركن. كل ما فيها أنيق، من السرير المؤطر بالمعدن، المتين والواسعُ والواضحُ أنه من محلٍّ بمستوى مفروشات ليبيرتي لا نسخة تافهة من سلسلة محالٍ ما، إلى مجموعة اللُّحُف القطنية المصرية ذات اللون البنِّي الداكن المقابل لأخضر الجدران الزيتوني وخشبِ الأرضية القديم الفاخر. وعلى جدارٍ مخصصٍ خلف خزانة ذات أدراجٍ، ثمة ثلاثة خطوط سميكة من تدرجات الأخضر تمتد من الأرض إلى السقف. لن أصير بهذه العصريَّة أبدًا.

قالت:

- كان كله من خشب الماغنوليا وقتما انتقلنا، بصِبغة بيضاء مصفرَّة كيفما اتفق. (كانت تنظر إلى الجدران، مستغرقة في التفكير ومأخوذة في التأمل) اخترتُ هذه الألوان لأختبره. إنها ألوان الغابة في عزبة والديَّ. لا نرجعُ إلى ذاك المكان أبدًا، ليسَ منذ مكثتُ هناك بعد ويستلاندز، ليس

منذ زارني روب. (مرَّرتْ أصابعها على الجدران كما لو أنها تتحسسُ لحاء شجرة لا جصًّا باردًا) يرفضُ بيعه على الرغم من أنه قابعٌ هناك وحسب، خاوٍ ومنسيٌّ، (كانت تتكلم بِلين، وكأنها تكلِّم نفسها) أظن ذلك جزءًا من سببِ كرهه ردَّ زمام أموالي لي. يعرفُ أني سأتخلص منه، وفي ذلك مخاطرة بليغة.

سألتها ونبض قلبي يتسارع:

- ماذا حدث لروب؟

استدارَت ناحيتي آنذاك، جميلة بعينين فاغرتين، ونطقَت إجابتها كما لو كانَت أكثر ما يُقال طبيعيةً في العالم.

- أظن أن ديفيد قتله.

جعلني سماعُ ذلك جهارًا (بدلًا عن كونه شبه شكٍّ في رأسي) أترنَّح. ديفيد قاتل؟ أهذا جائزٌ حتى؟ تراجعتُ خطوةً حتى لامستُ السرير، وجلستُ بكلِّ ثقلي.

أظن أن ديفيد قتله. شعرتُ كما شعرتُ وقتما أخبرني إيان أن ليزا حامل، لكن بتضخيم كل شيء.

واصلَت أديل:

- جاء روب لينزل عندي، كان في غاية التعاسة مع أخته المريعة وراسلني، وأصررتُ أن يأتي إلى بيرث، فقد عاملني أحسن المعاملة، وأعادني إلى الحياة، وأردتُ مساعدته في المقابل، وربما مَنْحَهُ بعض المال ليؤسس نفسه في مكان بعيد عن المكان البغيض الذي عاش فيه. كان وجوده في الجوار من دواعي سعادتي، فقد أسداني روب هذه المشاعر، أسعدني، أشعرني أنني استثنائية. اقترحتُ على ديفيد أن يعيش معنا لبعض الوقت بعد زواجنا، حتى يرتب أموره فقط، لكن الفكرة لم ترُق لديفيد، فقد كان يغار من روب، ذلك أن ديفيد يعتني بي على الدوام، لكن روب لعب دوره في ويستلاندز، وكان يشك في أن ثمة شيئًا يفوق الصداقة بيننا، على الرغم من أنني ظللت أخبره أن الأمر

ليس هكذا. لقد أحببتُ روب، لكن ليس ذاك الحب، ولا أظن أنه أحبني ذاك الحب أيضًا. كنا كأخٍ وأخته.

أحطتُ كل واحدةٍ من كلماتها بكلٍّ من التشوُّف والتهيُّب:

- ماذا جرى؟

جفَّ فمي جفاف الصحاري وبالكاد أمكنني النطق.

- جاء ديفيد في إحدى نهايات الأسبوع وقتما كان روب عندي. ظننتُ أنهما عندما يعرفان بعضهما بعضًا سيكونان على ما يرام. ظننتُ أنَّ حبي لكليهما سيكفيهما ليحبا بعضهما بعضًا على الرغم من أنهما طرفا نقيض. وبالنظر إلى الماضي، أرى كم كنتُ ساذجة. فقد كان روب عازمًا على بذل جهده -وهذا خيرُ السلوكِ بالنسبة إلى شخصٍ بهذا الجموح- لكن ديفيد عامله بفتور. في يوم السبت، بدا أن ديفيد يطرحُ العداوة بعض الشيء، فطلب مني روب الخلود إلى الفراش وتركهما يحلان المسألة. ظنَّ أن بوسعهما الاستفادة من بعض الوقت رجلًا لرجل.

عادت بنظرها إلى الجدران، ألوان الغابة، وراحت عيناها تشطُّ عليها كما لو كان الماضي مكتوبًا هناك.

تابعت كلامها:

- عندما استيقظت كان روب قد رحل. قال ديفيد إنه قرر المغادرة، وفي البداية ظننتُ أن ديفيد قد دفع له ليرحل، لكن ذلك لم يكن منطقيًّا، ذلك أنني عرضتُ المال على روب بالفعل، ولم يكُن ليقبل رشوةً كي ينبذ صداقتي، فهذا ليس في سجيَّته، كان ليضحك على ذلك. أحيانًا، عندما أقلِّب الأمر في رأسي، أتساءَل عمَّا إن كان قد قرر حسم النزاع مع ديفيد بخصوص مالي، ربما أخبره أن عليه إرجاعه. لقد قال إنه لن يذكر الأمر، لكن من يدري؟ ربما فعل. وربما أفقد ذلك ديفيدَ صوابه ورماه في واحدة من حالاته المزاجية الفظيعة. ربما تقاتلا وخرج الأمر عن السيطرة. الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أن روب لم يكن ليغادر دون وداعي أبدًا.

سألتها:

- أواثقة أنتِ؟ (محاولةً إيجاد تفسير منطقي هنا لا ينطوي على قتل حبيبي السابق المتزوج ندًّا له) أعني، ربما تجادلا أو تشاجرا، وظن روب أن من الأفضل له المغادرة، أليس ذلك ممكنًا أيضًا؟

هزَّت رأسها:

- كان روب قد خبأ مخزونه من المخدرات والمفكرة في الزريبة. لم أجدهما إلا بعد زواجي بديفيد، لكن روب لم يكُن ليترك المخدرات خلفه. ليسَ إن كان غاضبًا. كان ليرغب في الانتشاء.

- أواجهتِ ديفيد قط بالموضوع؟ أسألتِه؟

- لا. لقد تزوجنا بسرعة شديدة، ربما بعد شهرٍ أو نحوه من آخر مرةٍ رأيتُ روب فيها، وكان ديفيد قد تغير بحلول ذلك الوقت، فصار أكثر تحفظًا، وأبردَ في تعامله معي، ثم اكتشفتُ أني كنتُ حاملًا. (فاضَت عيناها بدموعٍ لم تجرِ وأنا أغرق معها في شناعة الأمر كله) كنت سعيدة جدًّا، في قمة السعادة. لكن ديفيد أجبرني على إجراء عملية إجهاض. قال إنه عاجزٌ عن التأكد من أنه طفله. تعرضتُ لانهيار بسيط بعد ذلك؛ أظن أنني لم أقدر على مواجهة مخاوفي بخصوص روب، وكنتُ ما أزال أتعافى من وفاة والديَّ، ومن ثم نزل الإجهاض فوق كل شيء بثقل أكبر مما لي طاقة به. انتقلنا إلى إنجلترا، وكانت تلك نهاية الأمر. لان ديفيد واعتنى بي، لكنه رفض بيع العزبة.

قلتُ، ضائعةً في ماضيهما ومذعورةً من حاضرنا:

- تظنين أن روب ما يزال هناك، أليس كذلك؟ في بقعة ما من الأراضي؟

ظلَّت لا يتحرك فيها ساكن برهةً طويلة، ثم أومأت برأسها:

- لم يكُن روب ليختفي من حياتي بغتةً بهذه الصورة، أبدًا. كنتُ كل ما لديه. كان ليتواصل معي (ثم جلست على السرير بجواري)، لو أنه ما يزال حيًّا.

لم تقل أيُّنا أي شيء لوقت طويل بعد ذلك.

43

أديل

أصرَّت على البقاء بعض الوقت والاستفاضة في الحديث عن الأمر، وهذا بَدَهِيٌّ. كانت مهزوزة، رأيتُ ذلك واضحًا، لكن دماغها يطن. رأسها الفضوليُّ ذاك. تِك تِك تِك، يتِكُّ طوال الوقت. عندما سألتني لمَ لم أبحث عن روب قط، أجبتها بهزة كتفيَّ المثيرة للشفقة وقولي إني لم أُرد أن أعرف، أحببتُ ديفيد وتزوجت به، وكنتُ صغيرة، وكان ملاذي الآمن. أذهلني أنها لم تصفعني بشدة على وجهي وتخبرني بأن أتمالك نفسي وأواجه المصاعب. كنتُ لأرغب في فعلها لو كنتُ مكانها أنصتُ للَغوي الخَرِع. أخبرتها أنني متعبة ولا أريدُ الخوض في ذلك، ورأيتُ شفقتها آنذاك، فصمتَت.

لم أحتَج إلى الكثير لأحملها على المغادرة. ذكرتُ لها أنه سيتصل وأني سأستلقي لبعض الوقت، فأومأت برأسها وحضنتني معتصرةً إياي بشدةٍ في تينك الذراعين الأنحل والأمتن، لكنني رأيتُ أنها تفكرُ بالفعل بالخطوة التالية. كيف يمكنها مساعدتي، أو مساعدة نفسها، أو أيًّا منا، فما دامت النتيجةُ نفسها، من يبالي؟

لم يتصل ديفيد في وقتنا المُتفق عليه، وهذه إشارة أخرى إلى أنه كان يعني ما قاله الليلة الماضية. كان يغسل يديه مني. ربما يتحداني حتى أن أبرَّ بتهديداتي. المسكين. في قمة الحيرة.

حضَّرتُ شايًا بالنعناع وصعدتُ إلى الطابق العلويِّ فاستلقيتُ تحت اللحاف البارد وأنشأتُ أحدقُ إلى السقف. كنتُ هادئةً هدوءًا رائعًا نظرًا للموقف. ما يزال ثمة بعض الورقات الرابحة، لكنني أعتمدُ أتم الاعتماد على لويز في إيجاد قطع الأحجية التي أصفُّها أمامها وتركيبها. عليها أن تفهم في الوقتِ المناسبِ أهمية هذا الصباح، وإن لم تفعل، فسأحتاج إلى إيجاد طريقة أخرى لكي أريها. ومع ذلك، فالحياة أحسنُ وقتما تكون شائقة. أشعرُ بالرضا الكامل.

لا يكفي أن يُحكى للمرء شيء ما. لقد حكيتُ للويز ما أظنُّ ديفيدَ فعله منذ كل تلك السنين، لكن الكلمات لا تزن وزنًا حقيقيًا، محض أصوات لحظية في فضاء لا ثبات له. ربما في الكلام المكتوب ثباتٌ أرسخ بعض الشيء، لكن حتى في هذي الحال، لا يثق بعض الناس ببعضِ حقيقةً حدًّا كافيًا لئلَّا تساورهم الشكوك. لا أحد يُحسِن الظن صدقًا بأحدٍ أبدًا.

ليثق المرء بحقيقة شيء، عليه أن يقاسي الشيء. عليه تلويث يديه بالطين وحشو تحت أظفاره بالتراب. عليه أن يحفر بحثًا عنه. عن حقيقة مثل حقيقتي وديفيد بأي حال، فتلك لا يمكنُ فهمها بالحَكي. أحتاج إلى إدخال لويز النارَ لتخرج من الجانب الآخر نقية ونظيفة ومطمئنَّة. إن كان مقدرًا لديفيد أن ينعتق ويتحرر من أعبائه، فعليها أن تحمل العبء أولًا. يجبُ أن تكون الحقيقةُ حقيقتها. عليها أخذ الحقيقة إليه.

ولتحلَّ عقدتهما حينئذٍ.

44

لويز

...سأنتظرُ حتى تنام أيلسا أو تفقدَ وعيها ثمالةً مع غاري الأعرج ثم أذهب. اللعنة عليهما وعلى شقتهما القذرة الضئيلة وحياتيهما القذرتين الضئيلتين على هذه العزبة القذرة الضئيلة. بيسي بيلون. وكأنها العالم اللعين بأسره. لعلها كذلك في أعينهما، لكنها لن تكون كذلك في عينيَّ. لا عجبَ أني رغبتُ في الانتشاء حدَّ الإغماء حالما عُدتُ إلى هناك. ما كانا يظنان؟ أن ويستلاندز الوضيعُ، بعد إعادة التأهيل وكل ذلك، سيُجدي نفعًا عجائبيًّا؟ إنهما حمقاوان. وبشان. وبشان ويمكنني الشعور بقذارتهما تحاول الالتصاق بي. لن يهتما حتى عندما أرحل، بل سيخلو بالهما، وستخلو شقتهما من أي نقودٍ فيها، هاها! أحتاج إلى شيء آخذه إلى بيت أديل معي واليوم كان يوم الغنائم. خسارتهما، وغنيمتي.

لا يمكنني تصديقُ أنني سأراها عاجلًا. الأمرُ أشبه ببزوغ اللون في العالم الأرمدِ من جديد. كدتُ لا أراسلها. لم أُرد المجازفة بأن ترفض. فيكف سيكون شعورُ ذلك؟ لستُ معتادًا أن أهتمَّ بشخص ما وأريده أن يحبني بهذه الصورة. لستُ معتادًا الاهتمام بأي شخص. لو لم أحظَ بباب الحُلم ذاك والقدرة على رؤية نسخة مختلقة منها عبره أظن أنني كنتُ لأفقد عقلي بحلول هذا الحين. ضحكتُ ومزحتُ وقتما تودعنا، لكن كان بمقدورها رؤية أن الوداع يوجعني.

أوجعها أيضًا، لكن على الرغم من محاولتها إخفاءه عني كانت متحمسة للخروج. لديها حياة، لديها مال، ولديها ديفيد. أما أنا فلديَّ غرفة أختي الفاجرة الأشبه بصندوق والتي تحتاجُ إلى تجديد الطلاء في شقة إدنبرية تافهة فقيرة.

لكنني الآن حر! سأستقل قطارًا أو أقفز على واحدٍ إلى بيرث، ثم قالت لي أن أستقل سيارة أجرة تدفع أجرتها هي. لقد اشتاقت إلي، أعرف ذلك، وهذا أكثر ما يسعدني. أنا أضحِكُها. هي مختلفة معي. قالت إني سألتقي ديفيد، ذلك أنه يأتي في بعض نهايات الأسابيع في زيارة من الجامعة. تحسَبُ أننا سننسجم، لكنني أظن أن الأمر الوحيد الذي أشتركُ وديفيدُ الغليظُ فيه هو أن كلينا غير موقن بذلك. لن يرغبَ في وجودي في الجوار، ولن أرغب في وجوده، لكنني سأحاول من أجلها. وليس أنه سيكون موجودًا على الدوام بأي حال. يمكنني التظاهر بأنه يروق لي لبضعة أيام كل مرة إن كان ذلك يسعد أديل. قد أحاولُ ألّا أقرب المخدرات في خلال وجوده حتى. لن أسمح للتفكير بديفيد بأن يهدم معنوياتي. غدًا سأكون مع أديل ثانية! اغربي عني أيتها الحياة القديمة، ويا مرحبًا بالجديدة! أديل أديل أديل! بوابة مستقبلي السعيد.

لا توجد زيادة على ذلك في المفكرة؛ أيًّا كان ما كتبه روب فيما عدا ذلك قد مُزِّق. هل مزقه ديفيد؟ أتنطق تلك الصفحات بأشياء قد تُجرِّمه؟ دماغي يستعر، يعملُ بجهدٍ تكاد فروة رأسي تشتعل معه. أيمكن أن ديفيد قد قتل روب بالفعل؟ ربما كان حادثًا. ربما تقاتلا وخرجَت الأمور عن السيطرة وآذى رأسه إثر سقطةٍ أو شيء من هذا القبيل؟

أو ربما روب ليس ميتًا أصلًا. ربما أديل قلقةٌ بلا داعٍ وقد غادر *بالفعل* وحسب. تقول إنه من غير الممكن أن يقبض ثمن رحيله، لكنه سرق مال إعانة أخته، لذا من يدري؟ واضحٌ من المفكرة أنه أحبها، لكنه كان من ديار فقيرةٍ وربما كان الوعدُ بعدة آلافٍ من الجنيهات فوق قدرته على الرفض؟ لكن لمَ يرفض ديفيد بيع العزبة إن لم يكن ثمة شيء فيها؟

أسئلةٌ أسئلةٌ أسئلةٌ. يبدو أنني أعجُّ بالأسئلة منذ دخل ديفيد وأديل حياتي. إنهما مثل الأعشاب في الماء، كلما ظننتُ أن بمقدوري السباحة بعيدًا تلتفُّ عشبة أخرى على ساقي وتجرني إلى الأسفل.

أحتاج إلى معرفة ما أصاب روب. أحتاج إلى إيجاده. ولم يعد ذلك من أجل أديل وديفيد، بل أحتاج إلى المعرفة من *أجلي*. لا يمكن أن تظل حالة *اللامعرفة* هذه في رأسي إلى الأبد. لن أذهب لجلب آدم حتى الخامسة والربع، لذا حضرتُ قهوةً قوية -على الرغم من أن أعصابي مضطربة بالحد الكافي- وشغلتُ حاسوبي المحمول. الكل يمكن إيجاده في هذه الأيام. إن كان روب أكبر من أديل ببضعة أشهر فقط إذن فما يزال تحت الثلاثين. وحتى لو كان مدمنًا في مكان ما، سأجدُ أثرًا له بالتأكيد. قلَّبتُ عائدةً إلى الصفحة الأولى من المفكرة حيث خُطَّ اسمه الكامل بأناقة شديدة، وكتبته في غوغل: روبرت *دومينيك هويل*.

ظهرت قائمة من النتائج: حسابات لينكد إن شتى، وبضعة حسابات فيسبوك، وبعض التقارير الإخبارية. رحتُ أبحثُ فيها بقلب واجفٍ، لكنني لم أجد ما يطابقه. كلهم إما أكبر مما يجب، أو أصغر، أو أمريكيون، والوحيدُ الذي تشي صورة حسابه على فيسبوك بأنه في العمر نفسه تقول صفحته إنه من برادفورد، وثمة قائمة بالمدارس التي ارتادها، ولا واحدة منها في إسكتلندا. حاولتُ البحث عن الاسم بإضافة "مفقود أو ميت"، لكنني حصلتُ على النتيجة نفسها، فحاولت "روبرت دومينيك هويل إدنبرة" ولم ألاقِ شيئًا كذلك.

كانت قهوتي ترقد باردةً لم تُذَق بجواري، ولم أدخن سيجارتي الإلكترونية حتى. لِمَ لا توجد نتائج بحث عنه البتة؟ إن كان ديفيد قد اشترى رحيله فعلًا، فستكون أحواله مزدهرةً لفترة قصيرة على الأقل، وكان ليشتري حاسبًا محمولًا ويتصل بالإنترنت بالطبع. كنتُ أظن أن الجميع لديهم حساب فيسبوك. لكن من ناحية أخرى، لم يبدُ في المفكرة أن لديه كثيرًا من الأصدقاء أو أي رغبة حقيقية فيهم. أديل فقط، وربما بعض المدمنين. قد لا يكون فيسبوك هواه.

أتراه يعيش في جحر في مكان ما وينفق كل ماله على المخدرات؟ لا يبدو هذا صحيحًا، فالمدمنون جانحون، كلهم؛ ظرفهم يحيلهم إلى هذي الحال. لو احتاج روب إلى المال، كان ليجد طريق عودته إلى حياة أديل ويحصل على بعضه، إما منها أو من ديفيد. ربما فعل. وربما ما يزال ديفيد يدفع له بين الحين والآخر ولا يخبر أديل. لكن لمَ عساه يتكبد العناء؟ ويترك ذلك سؤالًا

كبيرًا: لمَ لم يبِع العزبة؟ أو يؤجرها؟ لمَ ما تزال متربعةً هناك خاويةً في حين يمكنها كسبُ المال؟

رحتُ أحدقُ إلى الشاشة، آملةً أن تظهر إجابة ما، ثم قررتُ اتباع مسارٍ آخر. أختُ روب: أيلسا. كتبت اسمها وبدأتُ أفصل الغث عن السمين. وكما جرى في بحثي عن روب، ثمة أشخاص شتى يحملون اسمها في أرجاء البلاد والعالم، ثم أعطاني موقع سجلٍ انتخابي قائمةً فيها سبعُ أيلسات، واحدة منهم فقط تعيش في إدنبرة.

لقد وجدتها.

لم يمنحني ذاك الموقع عنوانًا دون أن أدفع، ما كنتُ مستعدةً لفعله إن اضطر الأمر، واللعنة على البطالة، لكنني وجدتُ في صفحة البحث التالية مقالًا إخباريًّا صغيرًا عن مهرجان فنون لوثيانية. ذكر المقال بعض المتاجر المحلية التي نشأت عبر مبادرات تمويل ولها أكشاكٌ في المهرجان. واحد منها اسمه *كاندلويك*، ومذكورٌ اسم مالكه: أيلسا هويل. وجدتُ للمتجر موقعًا إلكترونيًّا وصفحة على فيسبوك. لقد وجدتُها. آملُ على الأقل أنها هيَ. أنشأت أحدق إلى رقم الهاتف الذي يكادُ يخفقُ في الشاشة مثبتًا حضوره. عليَّ الاتصال بها، لكن ما سأقول؟ كيف أبدأ هذه المحادثة حتى دون أن أبدو مخبولة؟ أحتاجُ إلى الكذب، أعرفُ ذلك، لكن بأي كذبةٍ سأنطق؟

نظرتُ إلى المفكرة القديمة وخطر لي الخاطر: ويستلاندز. بهذه الحجة سأسألها. استخدمتُ الهاتف الأرضي لأحجب هوية المتصل، لكنني على الرغم من ذلك ذرعتُ الغرفة لبضع دقائق أمصُّ سيجارتي الإلكترونية قبل أن أتشجع على ضغط زر الاتصال. حدثتُ نفسي أخيرًا، وكل جسمي يلذعني حرارةً: *حسنًا، افعليها* وحسب. *اتصلي. هي في الغالب ليست موجودة حتى.*

كانت موجودة، ووثبَ قلبي إلى فمي عندما نادتها البائعة المساعدة لتجيب على الهاتف.

- معكِ أيلسا، كيف أساعدك؟

كانت لكنتها واضحة، وأمكنني تصوُّر صوتها متحررًا من تهذيب الطبقة الوسطى يصرخُ على روب.

قُلتُ معمِّقةً صوتي ومنغِّمةً إياه، كما أفعلُ عندما أتلقى المكالمات في العيادة:

- مرحبًا، أعتذرُ على إزعاجك في مكان عملك، لكنني أتساءَل عما إن كان بوسعك منحي بضع دقائق من وقتك. إنني أكتبُ مقالةً عن كفاءة عيادة ويستلاندز. (أدركتُ فجأةً أنني لا فكرة لدي عن مكان العيادة أو اسم أي من الأطباء، وأنني وبصورة بائسةٍ غير متجهزةٍ للاستمرار بهذا الخداع إن ساءلتني) وأعتقدُ أن أخاكِ كان فيها لبعض الوقت. روبرت دومينيك هويل، صحيح؟ كنتُ أحاولُ العثور عليه، لكنه لا يظهر في سجلاتي في أي مكان. أتراكِ تملكين رقم هاتفٍ له، أو يمكنك منحه رقمي؟
- ويستلاندز؟ (أطلقت ضحكة رنانة) نعم، أتذكرها. مضيعةٌ صرفةٌ للوقت. عاد روبي إلى عادته بعد خروجه بأيام، ثم سرق مالًا من محفظتي وانقلَع في الليل. أعتذرُ على ألفاظي. (توقفَت قليلًا، ربما تاهَت في ذكرياتها الحانقة) لكنني أخشى أنني عاجزة عن مساعدتِك. لم أعرف شيئًا عنه بعد ذلك. ترينه على الأرجح ميتًا أو موشكًا عليه في زقاق في مكان ما.

ارتعدَت فرائصي:

- يؤسفني سماع ذلك.

قالت:

- لا يؤسفنَّكِ ذلك، فقد مضى وقت طويل عليه، وكان خراءً حقيرًا، بحق. لا يمكن إبراء جميعهم.

اعتذرتُ عن تعكير يومها، وغمغمتُ توديعًا مهذبًا، لكنها كانت قد أغلقت الخط بالفعل. أرقتُ قهوتي الباردة وحضَّرت جديدةً، لا لشيءٍ إلا لأشغل نفسي بفعلٍ بينما أستوعب ذلك. الأمر ممكنٌ فعلًا. قد يكون ما تشكُّ أديل به صحيحًا. الآن أبدأ برؤية ذلك. فمَع كل أسئلتي كنتُ واثقةً تمامًا، في أعماقي، أن روب لا بدَّ ما يزال حيًّا. هذه الأحداث لا تحدث في حياة الواقع. جرائم القتل، والجثث المخفية. في الأخبار والأفلام والكتب فقط، لا في حياتي المبتذلة السمجة. أهملتُ القهوة ووجدتُ قنينة جِنّ منسية بقيَت منذ عيد الميلاد في

مؤخرة الخزانة. لا شراب غازي لدي، لكنني أضفتُ كولا الحمية إلى كمية سخيةٍ وجرعتُ جرعةً كبيرة لأهدأ قبل أن ألتقط بعض أوراق الرسم خاصة آدم وأجلب قلمًا. أحتاجُ إلى التفكير في هذا. وبدأتُ بإنشاء قائمة.

ديفيد: يريدُ المال أم حماية نفسه من أديل؟ أم كليهما؟

روب: مُختفٍ. ما يزال في مكان ما في العزبة؟ ماذا حدث في الأوراق الممزقة؟ دليلٌ على قتال؟ عرض مال؟

ذكَّرتني المفكرة بواحد من شكوك روب، فأضفتُه.

والدا أديل: أكان حادثًا حقًّا؟ من كان أكثر المستفيدين؟ ***ديفيد.***

والدا أديل. بالطبع، لمَ لم أفكر في ذلك قبلًا؟ لا بدَّ ثمة شيء ما عن ذلك على الإنترنت. سيكون الحريق خبرًا جللًا. نظرتُ إلى الساعة: الخامسة إلا ربع. عليَّ الذهاب لجلب آدم، وكاد ذلك يجعلني أصرخ إحباطًا، ثم كرهتُ نفسي. كنتُ طوال الوقتِ أريدُ أن يرجع من إجازته، والآن أهجره في الحضانة في حين لا يجدر بي ذلك، وأستاء من وقوفه في طريق... طريق ماذا؟ تحقيقي في جريمة قتل؟ أوشكتُ على الضحك جهارًا إزاء السخف الشنيع للاعتراف بذلك أمام نفسي، لأن هذا ما أفعله. أحاولُ جمع أجزاء أحجية جريمة قتل.

سأحتاجُ إلى شراء قنينة نبيذ.

- لكنني لا أريدُ الخلود إلى فراشي بعد.

أحبُ فتاي، لكنني أكره تذمره، وقد صار أكثر تذمرًا بلا شكٍّ منذ رحلة فرنسا.

- لستُ متعبًا.

- لقد حان وقتُ النوم، والآن البس بجامتك.

- لعبة إضافية فقط.

- قلتُ الآن آدم!

اندفع إلى غرفته يرغي ويزبد ويئن طوال الطريق، لكن نظرة واحدة في وجهي أخبرته أن هذا ليس نقاشًا مفتوحًا. فقد حللتُ وظيفة التلوين خاصة داي بلاي معه، وشرب الشاي ولعب بعض الألعاب، والآن بتُّ مستقتلةً على حمله للنوم كي تتسنى لي العودة إلى التنقيب عن الكنز في مناجم الإنترنت.

لا يمكنني فعل ذلك وهو مستيقظ، ذلك أنه سيقفُ خلفي ينظر من فوق كتفي طوال الوقتِ ويطرح الأسئلة. صحتُ في أثره:

- وفرِّش أسنانك!

بعد ثانية، صُفق باب غرفة النوم، وأدركتُ أن سنين المراهقة ستكون بهذه الصورة. حالات مزاجية شكِسة وثوريَّة تتخللها شذراتٌ ذهبية ضئيلة تجعل كل ذلك يستحق التعب.

أحزنتني تلك الفكرة فنهضتُ لأقرأ معه وألاطفه حتى يرجع فتاي السعيد. يمكن للإنترنت الانتظار عشر دقائق إضافية.

كان بحلول السابعة والنصف نائما، وعدتُ إلى حاسوبي المحمول مع كأس كبيرة من النبيذ بجواري.

عملية البحث هذه سهلة، ذلك أنني أعرفُ اسم عائلة أديل من مفكرة روب، وقد أتى البحث عن "حريق رذرفورد كامبل" بفيوضٍ من المعلومات معظمها مقالات صحفية محلية وعالمية ترجعُ إلى أعقاب الحادثة. ثمة صفحات منها، وبمواجهة هذا الكم من المعلومات، لا يمكنني تصديقُ أنني لم أبحث عن كل هذا قبلًا، عندما أخبرتني بالقصة. عندما أعطتني المفكرة.

في البداية، شتَّتَتْني الصور كليًا، ومن الصعب ألا تشتتني وأنا أفتحُ الرابط تلو الرابط، تاركةً نحو خمس عشرة صفحة مفتوحة في متصفحي. ثمة صورة جوية للعزبة قبل الحريق وبعده، ولم تكُن أديل تمزح عندما قالت إنها كبيرة. في الصورة الثانية، أمكنني رؤية جزء من البناء مسودًّا ومحروقًا، لكن ما بقي منه على الرغم من ذلك يعادل حجم ثلاثة أو أربعة منازل عادية. كان مبنيًّا من أحجار مُصفرَّة سميكة ويبدو وكأنه موجود هناك منذ مئتي عام أو أكثر. مبنيٌّ في زمن الأعيان مُلَّاك الأراضي. ثمة غابات وحقول تحيط به، جاعلةً البناء في مأمنٍ من الأعين المتطفلة. حاولت تخيله الآن. أثمة من يتعهد الأراضي برعايته؟ أم أنه منسيٌّ مكسو بالعشب؟

وجدتُ صورةً لوالدَي أديل؛ كانت رؤية أمها كرؤية انعكاس وجهها على صفحة مياه كَدِرة، نفسُ الصورة تقريبًا لكن باختلاف طفيف. أديل أجمل، وملامحها أكثر اتساقًا، لكن لأمها الشعر الداكن والبشرة الزيتونية نفسهما. أما أبوها، الذي كان في الأصل مصرفيًّا استثماريًّا، وصاحبَ ثروة شخصية تبلغ

عدة ملايين بالإضافة إلى محفظة من الاستثمارات رفيعة المستوى بحسبِ هذه المقالات -يبدو أشهب ورصينًا في إحدى الصور، ومن الواضح أنها من الوقت الذي قضاه في المدينة، لكن ثمة صورة أخرى له ينتعلُ جزمة باربور وويليز فيها ويبتسم للكاميرا مباشرة- فبشرته محمرَّة من قضائه الوقت في الهواء الطلق أو ربما بفعل الكثير من النبيذ والطعام الشهيين، ويبدو سعيدًا.

ثمة صور لأديل أيضًا: الابنة الجميلةُ المفجوعة التي خلَّفاها. وجهٌ أكثر امتلاءً بقليل وفيه وهج الصبا، لكنها أديل التي أعرفُ على الرغم من ذلك. *الوريثة*، كما نعتتها إحدى الصفحات. كم تملك من المال بالفعل؟ ثروة على ما يبدو. كانت عيناها تتلألآن بضحكةٍ هانئة في صورةٍ لثلاثتهم في عيد الميلاد.

في صورة أخرى، غبشاء وملتقطة من بُعدٍ بطريقة صحفيِّي التابلويد، كان رأسها مطأطئًا وإحدى يديها تغطي وجهها، وكانت أنحل وسروالها الجينز يتدلى فضفاضًا على وركيها بينما تمشي في أراضي البيت المتضرر. مكلومةً. ثمة رجل بجوارها، إحدى يديه أسفل ظهرها، ووجهه ملتفتٌ التفاتًا مباشرًا تقريبًا إلى الكاميرا ذات العدسة الطويلة كما لو يمكنه الشعور بوجودها بطريقة ما، وذراعه الأخرى مُضمدةٌ ومعلقة في حمَّالة. إنه ديفيد. وجهه أغبش، لكنه هو. يبدو محترسًا وحارِسًا ومتعبًا. كلاهما يبدو ناشئًا. هُما، لكنهما ليسا هما. حدقتُ إلى الصورة وقتًا طويلًا ثم نسيتُ نفسي في المقالات التي لا حصر لها، أجمعُ أجزاء القصة من الزوايا المختلفة.

قرأتُ كلامًا عن قَصف والدَي أديل، عن ثروتهما وانتقالهما من لندن بعد ولادة ابنتهما. كل ثرثرات الجيران المعتادة تدَّعي حزنًا مذهولًا لكنها في حقيقتها تطلق نُتفات أحكام. يظهر أن أديل كانت ابنة وحيدة، ولم يخصص والداها الكثير من الوقت لها. مُنح مجال واسع للعلاقة الغرامية بين فتى المزرعة الفقير والابنة الجميلة، وكيف أنقذها من السعير. وذكرت بعض المصادر أن أديل قد خضعت لعلاجٍ نفسي في طفولتها.

ثم وجدتُ شيئًا أوقفَ ألمَ قلبي على قصتهما التي لستُ جزءًا منها، وعلى حب ديفيد الواضح لها في تلك اللحظة، وتضافرهما الذي يجعل تشابكي بهما يبدو أشبه بخيوط عنكبوت، لا بأعشاب ضارة على الإطلاق. ثلاث كلمات

دمغَت نفسها في رأسي. أحذية ثقيلة داست عاطفيَّتي. تذكرةٌ لسبب فعلي ما أفعل قبل أن أضيع في جحر النبش في علاقتهما.

شكوكٌ بحريق متعمَّد.

هناك، في التقارير الأخيرة، حالما انتهت مأدبة التابلويد العاطفي، ذُكرت الكلمات عرضيًّا، بمكرٍ. ثمة صورة لشرطي، اسمه آنغس ويغنَل، يدرس أضرار الحريق؛ رجل غليظ البنية في ثلاثينياته ربما، وتعليق على سرعة انتشار الحريق، وذكر لبنزينٍ محفوظ في علبٍ في الزريبة من أجل الدراجات الرباعية. لا يمكن استبعاد الحريق المتعمد.

شوهد المُفتش آنغس ويغنل يغادر مستشفى بيرث الملكي حيث يتلقى ديفيد مارتن العلاج لحروق من الدرجة الثالثة في ذراعيه. تقول المصادر إن المفتش، بصحبة رقيبٍ، أمضيا ساعتين يحادثان الطالبَ الذي هُلل له بطلًا بعد إنقاذه خليلته، أديل رذرفورد كامبل، البالغة من العمر 17 عامًا، من السعير الذي مات فيه كلا والديها. رفض المفتش ويغنل التعليق بخصوص طبيعة زيارته إلا بقوله إنها جزء من تحقيقٍ جارٍ.

رحتُ أمحِّص التقارير، وعيناي تنقذفان جيئة وذهابًا عبر السطور لتجدا المزيد. ثمة كلام عن مدير عزبة ناقم، وذكرٌ لاحق لمشكلاتِ أبي ديفيد المالية، وكلام عن رفض والدَي أديل علاقتهما. كل ذلك يتفادى الاتهام الصريح، لكن ثمة نقلة لا ريب فيها في ذكر ديفيد من بطل إلى *شيء آخر*.

ثم في الصفحة الثالثة من البحث، حيث يبدأ الإنترنت بالانجراف إلى الأقطار الأكثر غموضًا، رأيتُ تقريرًا عن عرسهما. احتفال هادئ في قرية أبرفيلد. لا توجد صور في هذا التقرير، ورحتُ أفكر في شكوك أديل وحقيقة أنه ربما بين تلك التقارير الأسبق وهذا، ارتُكبت جريمة مروعة وفقد صبيٌّ حياته، ثم داهمتني فكرة أن تلك قد لا تكون في الحقيقة الجريمة المروعة *الأولى*. كم كان حجمُ رغبة ديفيد في تحويل حياته من ابن المزارع الفقير إلى الطبيب الثري؟ ما يكفي ليضرم النار في منزل في منتصف الليل؟

شربتُ نبيذي وأنشأت أحدق إلى الخلاء للحظة، تاركةً ذهني يستوعب كل شيء. لا يمكنني مجرد الذهاب إلى الشرطة حاملةً شكوكي بشأن روب، فسأبدو عاشقة مجنونة متروكة إن حاولت تفسير الأمر، لكن إن كان ثمة

شخص ما يشك في ديفيد مسبقًا -مثل آنغس ويغنل هذا- أتراهم يهتمون آنذاك برسالة مجهولة المصدر ويفتشون العزبة على الأقل؟

بحثتُ عنه على غوغل ووجدتُ أنه ما يزال في بيرثشاير وقد صار الآن رئيس مفتشي التحري ومقره في مركز شرطة بيرث. خربشتُ العنوان على ورقة. أسيأخذُ رسالةً مجهولة المصدرِ على محمل الجد؟ أم أنها ستُصنَّف في ملف المعاتيه؟ أظن أن ذلك يعتمد على مقدار شكه في ديفيد منذ كل تلك السنين، وإن كان قد ظن حقًّا أن لديفيد علاقة بالحريق لكنه عجز عن إثبات ظنه، إذن فقد تستفز الرسالة اهتمامه. وهي أفضل من عدم فعل شيء. أفضل من ترك كل هذه الأسئلة تتقرَّح داخلي إلى الأبد.

ربما لن توجد جثة، ربما أيلسا محقة، وروب محض مدمنٍ يعيش منعزلًا في مكان ما. ربما ديفيد بريء -من هذا على أي حال- لكن ما أنتويه سيخرجُ بكل شيء إلى النور على الأقل ويحرر أديل من شكوكها. أينبغي لي إخبار أديل بما أفكر في فعله؟ قررتُ أنْ لا، فستحاول ثنيي عن ذلك، متأكدة. بالنظر إلى كل مخاوفها وهواجسها، ستكون خائفة من قلقلة الوضع. إنها مذعنة لديفيد أكثر مما يجب، وأمضَت وقتًا طويلًا جدًّا على هذي الحال. لن يروق لها إطلاقي كل شكوكها جهارًا أمام الجميع.

وبأي حال، لم يعُد هذا متعلقًا بهما، لم يعُد متعلقًا بهما أو بأي توفيقة تضم ثلاثتنا. هذا متعلق بروب، بمنحه العدالة. على الرغم من أنني أشعرُ ببعض الغثيان إزاء التفكير في ذلك، سأكتب الرسالة الآن وأرسلها قبل أن أغير رأيي. لقد طفح الكيل. ثم ينتهي عملي.

45

آنذاك

دفء: هذا أفضلُ ما يمكنها وصفُ الحال به. روب هنا وتشعرُ بالدفء داخلها. تتوهج. إنه صديقها وقد عاد. على الرغم من أن الوقت الذي قضته وحيدةً كان في خيرها -في خيرها بصورة مفاجئة- ثمة غبطة في وجود روب هنا. يبدو المنزل على قيد الحياة ثانية، فلا يحمل روب ذكريات عن هذا المكان مثلما تحملُ وديفيد، لذا لا شيء يثقل كاهله، وقد حررها ذلك. ليس عليها أن تكون حزينة وروب هنا.

ظل يضحك ويمعنُ في الضحك بينما أرته المنزل. كانت قد أخبرته أنه بحجمِ ويستلاندز إن لم يكن أكبر، لكن من الواضح أنه لم يصدقها، وبحلول نهاية الجولة حتى هي كانت تبتسمُ من سخف امتلاك عائلةٍ واحدةٍ لكل هذا القدر. وقفة الصمت الوحيدة كانت وقتما أرته الغرف المحروقة حيث توفي والداها. اتسعت عيناه عن آخرهما عندها، ووقفا في صمتٍ مطبقٍ للحظة حتى قال:

- فلنخرج من هنا بحق الجحيم، الرائحة نتنة.

أحبتهُ لذلك، لعدم حاجته إلى استكشاف مشاعرها أو الحرص على أنها بخير. روب يشعرها أنها قوية لأنه يؤمن بأنها قوية.

لم يحضر الكثير معه، بعض الملابس، ومفكرته، وبعض قناني البيرة، وكيسًا من المخدرات. أخرجا بعض الحشيش ثم حملته أديل على إخفاء البقية في إحدى الزرائب.

أخبرته:

- يأتي أناس إلى المنزل، ثمة امرأة تنظف بضع مرات في الأسبوع وتجلب الطعام، ويمرُّ محاميَّ أحيانًا، فهو يقلق حيال وجودي هنا وحدي. يقول إن هذا علاج غير ملائم. يقول إنني أصغر مما يجب (وقلبَت عينيها انزعاجًا. لقد عاشت حياةً مدللة للغاية بالمقارنة بحياة روب).

قال:

- نعم صحيح، وكأنكِ ستضرمين النار في المنزل أو شيء من هذا القبيل.

اتسعت عيناها صدمةً بما قال، ثم انفجرت ضاحكة.

شبكَت ذراعها بذراعه:

- رباه، إنك وغد.

- بلى، لكنني أُضحِكِكِ (صمتَ قليلًا) صارحيني إذن، أأنتِ في الحقيقة قلقةٌ من إيجاد هؤلاء الناس مخزوني أم ديفيدُك العزيز؟

لم تقُل شيئًا لبرهة، ثم تنهَّدت:

- أجل، ربما من ديفيد أكثرهم. ليس معاديًا للمخدرات في حد ذاتها (رأت التكذيب الساخر في وجه روب) ليس كذلك حقًّا، لكنني أشكُّ أنه سيظنُّ الانتشاء في صالحي الآن. سيظنُّ أني أستخدمه عكَّازةً.

قال روب:

- لا بدَّ أن التنفس عسير بوجود كل هؤلاء الناس القلقين عليكِ طوال الوقت. يا ليت بمقدورهم رؤيتك كما أراكِ.

سألته:

- وكيف تراني؟

- فينيق ينهضُ من السعير بالطبع.

راق لها ذلك. راق لها كثيرًا. ذكَّرها بأن العالم محارتها الآن. ظلا متشابكي الذراعين بينما مشيا معًا عبر الأراضي حتى بلغا البئر حيث قدما أمنيات صامتة على الرغم من ضعف يقين أديل في أن بئرًا ناشفة قد تحقق الأمنيات.

طبخا في المساء بعض البيتزا المجمدة، وشربا علبًا من البيرة الرخيصة القوية التي جلبها روب معه، ثم انتشيا أمام النار في قاعة الاستقبال. جلسا على وسائد على الأرض وتحدثا عن كل شيء وعن اللاشيء وضحكا عليه. راحَت أديل تمصُّ بشدة سيجارة الحشيش، وقد أحبَّت طنينه المرِح المُضحك. اشتاقت له، كما اشتاقت لروب.

لقد رأت كيس مخزونه، وتعرفُ أن معه بعض الهيروين أيضًا، لكنه لم يذكر ذلك، ولم تفعل هي. لا تريده أن يتعاطاه، لكنها لا تريد أن تبدو كواحدٍ من أطباء ويستلاندز أيضًا. تريدُ لروب السعادة، وإن كان ذلك ما يتطلبه دعمهُ لبعض الوقت، فلن تشاجره بخصوصه. من الواضح أنه ليس مدمنًا كليًّا بأي حال، فلو أنه كذلك لكان ضائعًا، لا ثاقبًا مثل وتد، وعلى العموم، لا يمكنها رؤية أي آثار تعاطٍ جديدة على ذراعيه. لعله يتنشقه في بعض الأحيان أو يتعاطاه بأي طريقة يتعاطى الناس بها هذه الأمور. لعله أحضره تحسبًا للأيام السوداء وحسب. على أملِ أن يكون كلاهما قد نال نصيبه من الأيام السوداء.

ثمة غرفتا نومٍ احتياطيتان مُجهزتان بعناية، لكن انتهى المطاف بهما في سريرها، لا يلبسان إلا كنزتيهما وثيابهما الداخلية، مستلقيان جنبًا إلى جنبٍ يحدقان إلى السقف. تساءَلت عما إن كان ديفيد سيرى ذلك خيانة، أن تسمح لرجلٍ آخر بولوج سريرها، لكن على الرغم من وثاقة قربها وروب، لا شيء جنسي يحدث. يكاد ما يحدثُ يكون أنقى.

قالت:

- سرَّني مجيؤك كثيرًا، لقد اشتقتُ لك.

- سرني سماحك لي (توقفَ قليلًا) الهدوء مطبق هنا، والظلام ثقيل في الخارج. كما لو أننا آخر سكان الأرض.

- ربما نحن كذلك، ربما حدثت نهاية العالم.

نخر روب:

- شريطة ألا تنطوي على أموات أحياء لعناء، فالناس بليدون بما يكفي وهم أحياء.

سألته:

- أتظنُّه خاطئًا أنني لا أفتقدُ والديَّ كثيرًا؟

إنها فكرة تقلقها، يقلقها ما تحكيه عن شخصها، ما إن كان ثمة شرٌّ فيها.

أجاب روب:

- لا. لا صحيح وخاطئ في المشاعر. لا يوجدُ إلا ما يوجد.

فكرت في ذلك لبرهة. لا يوجد إلا ما يوجد. حسّن من حالها.

سألته:

- ما خطتكَ لحياتك؟

- تتكلمين مثل أطباء ويستلاندز.

- لا، بصدق (روب بارع في الإجابة عن الأسئلة بكلام فَكِه، لكنها تريدُ تجاوز هذه الالتفافات هذه المرة) لا بدَّ ثمة شيء ما.

- لا أعرف (رفع بصره إلى السقف) لم أفكر في ذلك حق التفكير قط. لستُ سليل عائلةٍ ذات حرفة، بل كان طلبُ إعانات البطالة والاسترخاء نمط حياتهم. ماذا عنكِ؟ فيما عدا الزواج بديفيد البليد وإنجاب ديفيداتٍ صغار.

صفعته وضحكَت، لكنها كانت تتساءل في باطنها إن كان ذلك سيئًا جدًّا، فهو ما تريدُ فعله، ما أرادَت فعله دائمًا.

- عليك البقاء معنا لبعض الوقت. قدر ما تشاء. بينما تكتشف مستقبلك.

- إنها فكرة لطيفة، لكن لا أظنُّ أن ديفيد سيرغب في وجودي في الجوار حالما تتزوجان.

- لا ينبغي لك الحكم عليه قبل أن تلتقيه. إنه يتدرب ليصير طبيبًا. مساعدة الناس صنعته.

- همم.

هام صوتاهما بلا جسدٍ في الظلام، لكنها أمسكت بيد روب واعتصرتها:

- بأي حال، أنا ثرية الآن، وسأساعدك.

- أكرهُ أن أذكّرك يا عزيزتي، لكن ما لم تستعيدي كل شيء بالتنازل، فإن ديفيد هو الثري تقنيًا.

- أوه، اخرس.

عليها ترتيب ذلك، لكنه لا يقلقها، فديفيد ليس يعيش حياة مترفة ويشتري سيارات فاخرة في الجامعة. الفكرة وحدها تضحكها، وإن أرادت قول الصدق، فهو على الأغلب سيكون أفضل في إدارة مالها –*مالهما*– منها. كان مضطرًا إلى مراقبة مصاريفه طيلة حياته، في حين لم تُضطر في حياتها إلى التفكير بذلك.

ستكلمه في ذلك عندما يرجع خلال بضعة أسابيع، وستخبره غدًا بمجيء روب. كانت واثقة أنه لن يمانع كونها ليست تتابع خطة العلاج كما يفترض بها أن تفعل، وبأي حال، فروب أفضل علاج حظيت به.

همست عندما خمدَت دردشتهما إلى صمتٍ ناعس:

- أحبك يا روب، أنت أفضل أصدقائي.

أجابها:

- وأنا أحبك يا أديل. حسنائي النائمة المفجوعة التي استحالت فينيقًا. أحبك حقًا.

46

أديل

كانت الأيام بطيئة جدًّا، كل منها يمرُّ أسبوعًا، على الرغم من أنه لم يمضِ إلا ثمان وأربعون ساعة منذ *إفشائي الكبير* للويز. آلمني كثيرًا الاستلقاء الهامد، لكن المشاهدة والتعلُّم هما كل ما يمكنني فعله. اختبأتُ في غرفتي عندما وصل ديفيد إلى المنزل، متذرعةً بالصداع أو بالتعب، وبالكاد كلمني، بل أومأ برأسه بدلًا من ذلك بارتياحٍ يعوزه الستر، وكنتُ قد تركتُ له في الثلاجة طعامًا يقرمُ منه أحيانًا ولا يأكله، كما لو أنه يظنه مسمومًا أو *نجسًا* بطريقة ما. يجب أن أكترث أكثر لأنه غير مهتمٍّ بقضاء الوقت معي، لكنني مستغرقة جدًّا في حياة لويز إلى درجة أنه لو فعل لكان عقبةً.

أتمنى لو أنه يتأخر في العمل، وهذا شيء لم أُرده قبلًا. لكنني منتظرة لحظةً بعينها، *اللحظة* التي يمكنني فيها قلب كل شيء رأسًا على عقب. لا يمكنني تفويتها.

ماذا لو قرر ديفيد أنه يريدُ اكتراثي في اللحظة التي أحتاج فيها إلى أن أكون *هناك*؟ ما سيحدث حينها؟ أريدُ أن *أعرف* متى تُرمى كل قطع الأحجية في الهواء.

أقفلتُ باب غرفة النوم تحسبًا، لكنه لم يطرق، ولم يرجع إليها أيضًا، وهذا مريح. كنتُ قد أردتهما مفترقين، وقد نجح ذلك، وأشك في أن لويز ستفتحُ له الباب الآن حتى، ليس وقد أرسلت تلك الرسالة. والآن، بعد رسائلنا المُختَلَسة في

وقت متأخر من ليلة البارحة، ملأتني بهجةً وإن كانت لا تدرك ذلك. أعرف أنها تشعر بالذنب حيال الرسالة التي لا تعرفُ أني أعرفُ بإرسالها إياها؛ اتهاماتها لديفيد. عندما أرسلتُ لها أنه كان يعاملني باعتناء مزيدٍ وأني ربما كنتُ أبالغ في التفكير في الأمر وأن علينا نسيانه، غيرت الموضوع. دائمًا ما يغير الناس الموضوع عندما يشعرون بالسوء بخصوص شيء ما. بيد أنها في هذه المرة غيرته لتذكر أحلامها، فحكَت لي عن *الباب الثاني الغريب*، وكيف رأت نفسها تعومُ فوق جسدها في غرفة الجلوس للحظة. وأنها لم تكُن نائمة، بل كانت تحاول تسكين صداعها ببعض التنفس العميق، وكيف حدث الأمر وحسب.

على الرغم من أن ذلك أجرى الحماسة متفجرة في عروقي، أجبتها بأنه لم يحدث معي قط، لكنني كنتُ آخذ حبوبًا منومة لذا لستُ أبلغ الباب الأول حتى حاليًا. أخبرتها بأنني أستمتعُ بالإغماء. بالشعور بالعدم. باللاوجود. أرسلتُ لها قائلة إني أحيانًا أظن أني سأحب أن أكون عدمًا. تساءلتُ كيف شعرَت عندما قرأت تلك الكلمات. تلميح إلى ما يمكن أن يحدث. كلمات ستطاردها لاحقًا.

أنهَت محادثتنا النصية بعد ذلك عندما ذكرتُ ديفيد ثانية. أخالها تشعرُ أنها خانتني مرتين الآن. فهي تعرفُ أن أديل المسكينة الهشة لن ترغب في إذاعة أسرارها للعالم، ليس في وجود ديفيد الخطِر في المنزل، لكنها مع ذلك تظن نفسها قوية بما يكفي لكلينا، تظن أنها أعلَم. تساءَلت عما إن كانت الشرطة ستأتي قبل أن تترسخ شكوكها أم بعد، أم إن كانت ستأتي أصلًا. توقعتُ تقريبًا أن يرن جرس الباب في أي لحظة، على الرغم من معرفتي أن رجال الشرطة سيستغرقون وقتًا أطول من الذي مرَّ ليجمعوا شتات أنفسهم إن قرروا أخذ رسالتها على محمل الجد. ربما سيتجاهلونها وحسب. ربما يجدر بي إرسال رسالة بنفسي. إنها فكرة خبيثة خبثًا لذيذًا، لكنني قررتُ أنْ لا حاليًا. سأرى كيف تسير الأمور.

أسرارٌ أسرارٌ أسرارٌ، الناس طافحون بها إذا ما نظر المرء من كثب. لويز تجمعُ عدةً تخصها، وهذه الرسالة أحدثها. أشعرُ بخيانة طفيفة لأنها لم تخبرني بها، ولأنها لم تأخذ مشاعري حيال تصرفاتها في الحسبان بينما يفترض بها أن تكون أعز أصدقائي، لكنني أبقيتُ انزعاجي تحت السيطرة، فهي تفعلُ ما أريده منها بالضبط على الرغم من كل شيء.

لم تعُد مشاعري مهمة، مثلما لم يعُد الحفاظ على جسدي ورشاقتي مهمًّا.

فما الغاية في النهاية؟ قريبًا سأكون ميتة.

47

لويز

لا أعرف لماذا أشعرُ بهذه النرفزة، ليس الأمر وكأن الشرطة سيظهرون عند بابي ملوحين بالرسالة وطالبين مني تبرير سلوكي. لقد استقللت حافلةً حتى إلى كروتش إند وأرسلتها في البريد من هناك بصرف النظر عن حقيقة أنهم في الغالب يستخدمون نفس مكتب الفرز المُستخدم هنا. كان الظرف رطبًا بفعل يدي اللزجتين وقتما أزلقته أخيرًا في الصندوق.

ومع ذلك، استمر شعوري بالغثيان بلا انقطاع، ومن ثم راسلني ديفيد في الليلة الماضية. قال إنه يريدُ اللقاء والكلام. حدقتُ إلى الكلمات ساعة أو نحوها، ورأسي يخفقُ بشدة، لكنني تجاهلته في النهاية. ما قصده بالكلام؟ الإمعان في تهديدي أكثر؟ كان ثملًا بأي حال، وحتى التصحيح التلقائي امتنَع عن بعض إملائه. ولأكون صادقة، لا أريدُ التحدث إلى أيٍّ منهما. راسلتني أديل ببعض الكلام المتكلِّف عن كون ديفيد مختلفًا وعن أنها ربما كانت تبالغ في التفكير. أراهن أنها ندمانة على إخباري كل ما يخص روب. دائمًا ما تمنح مشاركة الأسرار شعورًا رائقًا في لحظتها، لكنها بعد ذلك تصير نفسها عبئًا. ذلك الألم القاضم في قعر المعدة عندما يُطلق المرء سراح شيء لا يمكنه استعادته، فتصير رقبة مستقبله في يد شخص ما. هذا هو سبب كرهي القديم للأسرار، فمن المستحيل كتمها، وأكره معرفتي أسرار صوفي، إذ يقلقني على

الدوام أن أكون مخمورة سعيدةً يومًا ما ويزلُّ لساني بشيء أمام جاي. والآن صرتُ معمعةً من الأسرار وقد أخذتُ أمر أديل على عاتقي. ستكره إرسالي تلك الرسالة، ولا ألومها على ذلك. لكن ما سواه يمكنني فعله؟ في النهاية، غيرتُ موضوع تراسلنا إلى أحلامي. أخبرتها بغرابة الشعور وكأنني غادرتُ جسدي بعبوري الباب الثاني. بدا موضوعًا أكثر أمانًا من غرابة زواجهما والإمكانية الحقيقية للغاية لأن يكون ديفيد قاتلًا.

ما زال رأسي يؤلمني، به خفقان متداركٌ لا يمكنني تجاهله، وحتى الخروج في الهواء العليل لجلب آدم من حفلة عيد ميلادٍ في المركز المجتمعي لم يذهِب جيشان نفسي. لم أنم حق النوم حتى. استلقيتُ في السرير مرهقةً، لكن ما إن انطفأت الأنوار اشتغلت أنوار دماغي. أظن أني أفضل الذعر الليلي على الأرق التام. حينما كانت الحياة بسيطة. قبل رجل *الحانة*.

كان آدم محشوًّا بالسندويتشات والحلويات، لذا وضعنا قطعة كعكة عيد الميلاد الملفوفة خاصته في الثلاجة ليأكلها لاحقًا، ثم اندفع إلى غرفته ليعاين محتويات كيس حفلته الباهظ بَهْظًا سخيفًا. لا أريدُ حتى أن أرى ما بداخله، فعيد ميلاد آدم يقرب بسرعة وسيحين دوري لأنفق أموالًا لا يمكنني احتمالها على هراءٍ باهظٍ لأطفال لا يحتاجون إليه. إنها فكرة مجحفة، فإيان سيساعدني، وإيان بالغ الكرم عندما يتعلق الأمر بآدم، لكنني متعَبة ومضغوطة وأحتاجُ إلى أن يتأنى كل شيء في سيره.

قلتُ مطلةً برأسي من باب غرفة نومه:

- رأسي يؤلمني، سأستلقي لبعض الوقت، اتفقنا؟

فأومأ برأسه وابتسم، كان فتاي المثالي اليوم، وتذكرتُ كم أنا محظوظةٌ لوجوده.

- أيقظني إن احتجت إلى أي شيء.

لم أظن ولو للحظة أنني سأنام، لم أُرِد إلا إغلاق الستائر والاستلقاء في الغرفة المعتمة وتمني أن يزول هذا الصداع. ابتلعتُ قرصين ومضيتُ إلى غرفتي، فالتذتُ بالوسادة الباردة تحت رأسي وأطلقتُ زفرةً طويلة. نصف ساعةٍ هادئةٍ هي كل ما أريده. كان الصداع عنيفًا حد منعي من الإسهاب في التفكير، فركزتُ على أخذ أنفاس طويلةٍ مسكِّنة، وأخذ قلبي وصداعي يخفقان

في انسجام مثل عاشقين مهووسين. حاولتُ إطلاق التوترِ من كتفيَّ ويديَّ وقدميَّ، بمثل ما يحلِمون المشاهد على فعله في فيديوهات اليوغا لا متناهية الغلاظة، ورحتُ أفرغ جسمي من الأنفاس وأفرغ عقلي من ضوضاء أكثر مع كل زفير. خفَّ الألم شذرةً عندما استرخيت، وشعرتُ بذراعيَّ ثقيلتين في جانبي كما لو أنهما يغوصان في السرير تحتي. أن أهرب لبعض الوقت. هذا ما أحتاجُ إليه.

بالكاد رأيت الباب هذه المرة، فقد جاء بسرعة شديدة: التماعة من فضة، وأشعة من الضوء، ومن ثم...

... صرتُ أحدقُ إلى نفسي من علٍ: فمي نصف مفتوح، عيناي مغمضتان، ولا يظهرُ ما إن كنتُ ما أزال آخذ أنفاسًا عميقةً أم لا. أبدو ميتة. فارغة.

إنني فارغة، مرَّت الفكرة مثل الماء البارد في كياني، أيًّا كانت ماهية كياني في هذه اللحظة. *أنا هنا في الأعلى، وذلك محض... جسد. آلة. آلتي. لكن لا أحد في غرفة القيادة. لا أحد في المنزل.*

حوَّمتُ لبرهةٍ، مقاومةً الهلع الذي انتابني المرة الماضية. لا صداع في رأسي، ولا إدراك لأي شعور؛ لا ذراعين، لا ساقين، لا توتر، ولا تنفُّس. ربما هذا حلم. نوع مختلف من الأحلام. إنه شيء *ما* بأي حال. تحركتُ عائدةً ناحية جسدي وشعرتُ بالشدَّة العاجلة منه، ثم أجبرتُ نفسي على التوقف. يمكنني العودة إليه إن أردتُ، لكن هل أريد؟

كان بوسعي رؤية شريط الغبار على الحافة العلوية لكُمَّة المصباح؛ منسيٌّ ورماديٌّ وسميك. تراجعتُ بعض الشيء، ناحية الباب، على الرغم من أنني مذعورة من غياب جسدي عن أنظاري، كما لو أنني بطريقة ما سأفقد طريق العودة تمامًا. رأيتُ في المرآة جسدي الهامد همودًا مرعبًا خلفي على السرير، لكن لا انعكاس *لي*. *يمكنك مناداتي الكونت دراكولا*. ينبغي أن أتحجَّر رعبًا، لكن الأمر برمَّته سريالي حدَّ أنني وبطريقة غريبة متسلِّية.

والآن وقد أخذ خوفي في التلاشي، شعرتُ بشيء آخر. حُرة. طليقة. لا وزن لي. كدتُ أذهب إلى غرفة آدم، لكنني قلقتُ أنه *سيراني* بطريقة ما. إلى أين يمكنني الذهاب؟ إلى أي مدى يمكنني الذهاب؟

البيتُ المجاور، شقة لورا. توقعتُ بطريقة ما أنني سأصير هناك في غمضة عين، كما لو أنني جنِّيةٌ ما تلوح بعصاة سحرية، لكن لم يحدث شيء. ركزتُ أكثر. شعرتُ بشقة لورا. بكُلِّيَّتها. التلفاز مفرط الحجم الذي يشغل معظم أحد الجدران، كنبتها الوردية البغيضة من الجلد المزيف التي ينبغي أن أكرهها لكنها تحملني على الابتسام، سجادتها الكريمية من الصنف الذي لا يمكن للمرء اقتناؤه إلا إن كان بلا أطفال صغار. الكنبة، السجادة، نمطها اللوني الأشبه بحلوى الخطمي. *أمرتُ نفسي بدخولها*، ومن ثم، كما لو دُفعتُ بهبة ريح، صرتُ هناك.

رأيت لورا جالسةً على الكنبة، مرتديةً سروال جينز وكنزة صوفية خضراء فضفاضة تشاهد التلفاز. ثمة إعادة لمسلسل فريندس تُعرض. قصمَت قطعة شوكولا بالفاكهة والبندق ورمتها في فمها. لديها فنجان قهوة بجوارها، فنجان عليه زهور صغيرة جميلة. انتظرتُ أن تلاحظني، أن ترفع رأسها مصدومة وتسألني كيف دخلتُ غرفة جلوسها بحق الجحيم، لكنها لم تفعل. حتى إنني وقفتُ -لغياب أي وصفٍ أدق- أمامها مباشرة، ولم تُبدِ شيئًا. أردتُ أن أضحك. هذا جنون. لعلي مجنونة. ربما يجدُر بديفيد منحي بعض تلك الأقراص التي يحاولُ ملء أديل بها.

ديفيد وأديل. مطبخهما. أيمكنني بلوغ ذلك البُعد؟ ركزتُ، وللحظة، بينما تخيلتُ أسطحهما الغرانيتية وبلاطهما الباهظ، والتقويم غير المستخدم المدلى سرًّا على الجانب القصي من الثلاجة كي لا يعكر خطوط الغرفة، شعرتُ بشيء يتغير، ارتفعَ نفَسُ الريح ليحملني إلى هناك، لكن لم يحدث شيء.

شعرتُ في صميم كياني الخفي الغريب هذا وكأنني في طرف رباط مطاطي مشدود. حاولتُ ثانية، لكنني عجزتُ عن الابتعاد أكثر، كما لو أن جسمي يشدُّني مرجعًا إياي مثل طفلٍ دارج. تحركتُ بحذرٍ أكبر هذه المرة، إلى مطبخ لورا، حيث يمكنني ملاحظة الأطباق غير المغسولة على الجانب، ليست كثيرة، لكنها كافية لإثبات أنها تمر بيوم كسلٍ، ثم خرجتُ عبر الباب إلى الممشى الخارجي بين شقتينا. لم أشعُر بتغير حرارة، على الرغم من أن الجو كان قارسًا في الخارج وقتما أحضرتُ آدم من حفلته.

حادثتُ نفسي: *لا يمكنكِ الشعورُ بذلك لأنك لستِ هنا حقًا. لقد عبرتِ بابًا وحسب.*

راودني شعورٌ رائع، كما لو أني تركتُ كل الضغوط والإجهاد خلفي وتحررتُ تمامًا. لا هرمونات، لا إرهاق، ولا مواد كيميائية تعدل مزاجي، إنني *أنا* وحسب، أيًا كانت ماهية ذلك.

حاولتُ مرة ثانية الذهاب إلى منزل أديل، لأطمئن أنها بخير، وعلى الرغم من أنني وجدتُ نفسي في النهاية القصية للممشى هذه المرة، كان ذلك كل شيء. شعرتُ أن المطاطة مشدودةٌ إلى نقطة انقطاعها وبدأت تجذبني مرجعةً إياي بصرف النظر عن مقاومتي. فتحركتُ عائدةً، مستمتعة بالعلو، بما يكاد يكون *طيرانًا* فيه، ناحية بابي الأمامي، ثم صرتُ في منزلي.

- ماما!

سمعتُه قبل أن أراه.

كان آدم في غرفة نومي بجوار سريري، يشدُّ كم ذراعي، وهاتفي في إحدى يديه.

- أفيقي ماما! أفيقي!

يكاد يبكي وهو يهزُّني. رأسي مدلى جانبًا، ويدي ميتة في يده. كم من الوقت مر على وجوده هنا؟ كم مرَّ على غيابي؟ عشر دقائق على الأكثر، لكنها تكفي لتقلق طفلًا يحاول إيقاظي. جزعتُ لمرآه بهذا الاغتمام وهلعتُ و...

...استويتُ كالعمود انتصابًا في جلستي شاهقة شهقةً عظيمة ألتقطُ فيها أنفاسي، وانفتحَت عيناي عن آخرهما. شعرتُ بالوزن المفاجئ لكل خلية في كياني، وصار قلبي كالمطرقة الثاقبة بفعل الصدمة. تعثر آدم متراجعًا، ومددتُ يديَّ أمسكه، فشعرتُ ببرودتهما إزاء دفئه.

رحتُ أقول وأعيدُ:

- ماما هنا (عندما عاد العالم وجسدي إلى مستقرهما) ماما هنا.

قال وفمه محشور في كتفي:

- لم أستطِع إيقاظكِ (رجفةٌ مرَّت في عالمه الآمن، موتٌ وشيك لا يفهمه) أبيتِ الاستيقاظ. كان هاتفك يرنُّ. سيدة تتصل.

غمغمتُ:

- لا بأس، ماما هنا.

لستُ أدري من أحاول إقناعه، هو أم أنا. كان رأسي يدور بعض الشيء بينما أعود إلى الشعور بوزن أطرافي، وعلى الرغم من أن شفته السفلى ما تزال ترتعش بعض الشيء، مدَّ لي يده بالهاتف، وأخذته.

- مرحبًا؟

- لويز؟

إنها أديل. مرَّ صوتها ناعمًا في أذني، لكنه أعادني إلى الحاضر. أديل لا تتصل أبدًا.

ما زال آدم يراقبني، يكاد يكون غير واثقٍ أني حية أرزق فعلًا، فابتسمتُ له وهمستُ أن يجلب بعض العصير ويشغل برامج الأطفال. إنه فتى صالح وينفذ ما يُطلب منه، وإن لم يكن واثقًا.

سألتُ أديل:

- ألأنتِ بخير؟

وكنتُ أرتعدُ، بردانةً من قلة الحركة.

- أريدُكِ.. حسنًا، أريدكِ أن تنسي كل ما أخبرتكِ به في ذلك اليوم، كانت أشياء غبية، أفكار سخيفة وحسب. أخرجيها من رأسك.

نمَّ صوتها عن رزانةٍ أكثر؛ لهجة شخص نادمٍ على مشاركة سرٍّ وباتَ يريدُ بعض المساحة.

- لم تبدُ غبيةً في نظري.

فكرتُ بالرسالة وهي تنزلقُ من بين أصابعي إلى صندوق البريد، وتلوَّت معدتي شعورًا بالذنب. لا يمكنني إخبارها بذلك الآن.

- بل كانت كذلك (صارمة. لم أسمع صوتها بهذه النبرة قبلًا). آسفة على إدخالك في مشكلات زواجي. لكننا بخير، صدقًا. وسأستطيبُ ألا تذكري الأمر ثانية.

- أحدَث شيء ما؟

هذا لا يشبهها، ولا حتى النبرة تشبه نبرتها. لطالما كانت بالغة الرقة. هل حدث شيء ما؟ هل هددها؟

- لم يحدث شيء. يمكنني أن أكون عرضةً للمبالغة في التخيُّل ليس إلا.

- لم أبالغ في تخيُّل إضبارتك تلك التي يحتفظُ بها.

كدتُ أصرخُ تلك الجملة صراخًا. ما زلتُ غير مركزةٍ إثر ما حدث للتوِّ أيًّا كان، وللمرة الأولى بدَت لي مثيرة للشفقة بعض الشيء.

- وماذا عن روب؟

قالت:

- انسي أمر روب، انسي كل شيء.

لم تودعني حتى، بل أغلقت الخط. لقد تلقيتُ توبيخي إذن. ينبغي أن أشعرُ بالجرح أو الألم، لكن لم يساورني ذلك، وإن شعرتُ بشيء فهو الحيرة. أفعل ديفيد شيئًا ما بها؟

حدقتُ إلى الهاتف للحظة. ما كنتُ لأرى لو تمكنتُ من الذهاب إلى منزلها بدلًا عن المنزل المجاور؟ شجار؟ تهديدات؟ دموع؟ وبينما أجلسُ هنا، بدَت فكرة نقلي نفسي في الخفاء إلى هناك مجنونة. أذهبتُ إلى شقة لورا فعلًا؟ وأنا ما أزال في سريري؟ كيف يكون هذا ممكنًا حتى؟

ذهبتُ إلى غرفة آدم، ورأيته يبدو ضئيلًا وبائسًا وهو جالسٌ في سريره يلعبُ بديناصوراته البلاستيكية دون حماسة.

قال:

- لمَ لم تستيقظي؟ أمضيتُ سنين أهزُّك.

- أنا مستيقظة الآن!

ابتسمتُ واستخففتُ بالأمر، لكنني عاهدتُ نفسي أن هذا -مهما كان- لن يحدث ثانية عندما يكون آدم في المنزل. زال صداعي، وقد لاحظتُ ذلك بعدما مضيتُ أجلب له بعض العصير وأخبره أننا سنشاهد بعض برامج الأطفال على الكنبة معًا. وغادرني التوتر، حتى بعد مكالمة أديل. لقد أرسلتُ الرسالة، ولا يمكنني التراجع عن ذلك. شعرتُ في الحقيقة بالراحة لبرودها معي، فربما هذه هي الاستراحة التي أحتاجُ إليها منهما لأعيدَ حياتي إلى مجراها،

وبهذه الطريقة، إن تحققت الفرصة البالغ احتمالها واحدًا في الألف وفتشت الشرطة العزبة بالفعل، سأشعر بذنبٍ أقل بعض الشيء حيال ذلك. شعرتُ أني صاحية ومتنبهة للمرة الأولى منذ أيام، كما لو أن خروجي من جسدي قد منحه الوقت اللازم لإصلاح نفسه من غير قلقٍ على ساكنه.

أهذا ما فعلته؟ حقًّا؟ غادرتُ جسدي؟ الفكرة وحدها مخبولة، لكنها ليست أول مرة يحدث فيها الأمر. بتُّ أعرف ذلك الآن، فثمة غرفة آدم، والمرة التي طفوتُ فيها فوق جسدي، والآن هذه. كل ذلك عبر الباب الفضي. لكن أهو حقيقي أم أنني كنتُ أحلم؟

عندما بدأت برامج الأطفال، انسللتُ من الباب الأمامي ومضيتُ إلى منزل لورا، وكستني الرجفة وأنا أدق الباب. هذا مجنون. أنا مجنونة.

- أهلًا (إنها مرتديةٌ سروال الجينز والكنزة الخضراء!) كيف الحال؟ (حدقتُ إليها لحظةً فعبسَت وسألتني) أأنتِ بخير؟

- أجل! (أجبرتُ وجهي على الابتسام) كنتُ أتساءل عما إن كان بوسعي إلقاء نظرة على تلفازك؟ فقد وعدتُ آدمَ منذ عصورٍ أننا سنشتري واحدًا أكبر، وكنتُ أنظرُ في موقع أرغوس على الإنترنت، لكنني فاشلة في تصور الحجوم في الغرفة. لن أطيل إلا ثانيةً، وآسفة على إزعاجك.

- لا مشكلة، غضي بصرك عن الفوضى وحسب.

أدخلتني وتبعتها عبر الشقة. ثمة صحون في طرف المطبخ، كما رأيتها بالضبط، وبقايا خبزٍ محمصٍ أو شطيرة قديد الخنزير تملأ أحدها.

قالت:

- إنه في الحقيقة أكبر مما يجب بالنسبة إلى الغرفة، لكنني أحبه. شاشته بقياس ست وأربعين بوصة، ما يعني أني على الأقل قادرة على الرؤية دون نظاراتي.

ضحكَتْ وضحكتُ معها، لكنني لم أكُن منصتة حقًّا، فلوح شوكولاتة الفاكهة والبندق على ذراع الكنبة، وكوب القهوة ذو الأزهار على الطاولة، وفريندس على التلفاز!

تمتمتُ:

- شكرًا. ساعدتِني مساعدة عظيمة.

- لا مشكلة، في خدمتك في أي وقت.

حاولَت محادثتي عن المواعدة وعما إن كان ثمة أي علامة حب حقيقي محتمل، لكن لم أُطِق انتظارًا حتى أخرج من هناك. كان رأسي يطن، ونسيتُ مكالمة أديل تقريبًا. لقد كنتُ هنا فعلًا، لقد رأيتها فعلًا، مثلما ذهبتُ إلى غرفة آدم فعلًا ليلة إراقته الماء.

عدتُ إلى كنبتي حيثُ استكنَّ آدم في صدري، وما يزال يشعرُ بأصداء ذعره وقتما عجز عن إيقاظي، ثم رحتُ أحدقُ إلى برامج الأطفال بينما استغرق فيها. كيف يكون ما فعلته ممكنًا حتى؟

ولم يحدُث إلا في وقتٍ لاحق، في الليل، وأنا وحدي في سريري في الظلام، أن داهمتني فكرةٌ رهيبة، وخثرت دمي باحتمالاتها.

آدمُ عاجز عن إيقاظي، يهزُّ ذراعيَّ الباردتين، ويظن أن شيئًا ما ليس على ما يرام. أنا، أنتصبُ كالعمود في سريري، أشهقُ عندما أستيقظ. ليست استفاقة طبيعيةً البتة.

كل ذلك يشبه ما حدث وقتما كنتُ أحاول إيقاظ أديل بالضبط.

لقد كذبَت بخصوص الباب الثاني.

48

أديل

لا يمرُّ الحب الحقيقي دربًا سهلًا أبدًا. أعرفُ هذا خيرًا من الجميع، لكنني مع ذلك أؤمن به، أؤمن به حقًّا، حتى بعد كل شيء. يحتاج الحب الحقيقي في بعض الأحيان إلى يدٍ معينة، ولطالما كنتُ بارعةً في تقديمها.

49

لويز

بحلول الساعة التاسعة والنصف يوم الاثنين، كنتُ قد أوصلتُ آدم إلى داي بلاي وجلستُ أنتظرُ قطارًا إلى بلاكهيث. ينبغي أن أكون منهكة، فبالكاد نمتُ منذ السبت، لكن دماغي ممتلئ أسئلة ونملًا من شكٍّ يقرصُ فيه. إن كذبت أديل بخصوص رؤيتها الباب الثاني، فهذا يغير كل شيء إذن. ما الذي كذبت بخصوصه أيضًا؟

اتقد سؤالان أكثر من البقية في رأسي بينما اتخذتُ مجلسًا بجوار النافذة، وظهري متيبِّسٌ توترًا، وأصابعي تعبثُ بالجلد المحيط بأظفاري. إن كانت أديل تبلغ الباب الثاني ويمكنها مغادرة جسدها، فإلى أي مدى يمكنها الذهاب وماذا تعرف؟ يبدو وقعهما مثل قصيدة، تدور مرارًا وتكرارًا في رأسي تزامنًا مع إيقاع المحركِ الذي يحملني مترنحة عبر جسر لندن.

السؤال الأكبر بالطبع هو ما الذي تعرفه بخصوصي وديفيد؟ *أتعرفُ بخصوصي وديفيد؟* إن كانت تعرف، فإذن... شعرتُ بالغثيان جراء التفكير في ذلك. لا يمكنني استيعاب أن كل ما صدقتُه بكل طيب نفس قد يكون خاطئًا. كم تراني كنتُ غبية! ما الذي *فعلته*؟ الرسالة. كل التفاصيل التي أدرجتها فيها عن روب وديفيد وأديل، وكل أصابع الاتهام مشيرة إليه. رباه، إن ذلك لمن المحتمل أن يكون بالغ الفظاعة. فكرتُ في صوفي جالسةً على

شرفتي. ما كان ما قالته؟ هشة؟ *أم مخبولة؟ ماذا لو كان في عقلها لوثة؟* رباه رباه رباه.

بدل البحث عن قائمة المقاهي في بلاكهيث، فمعظمها لا موقع إلكتروني له بأي حال، بحثتُ عن الأطباء النفسيين، ولم أجد إلا ثلاثة، ما كان موجة استراحة ضئيلة في خضم تسونامي هلعي. وحتى لو وجدتُ خمسين، كنتُ عازمةً على إيجاد ماريان والتكلم إليها. أحتاجُ إلى معرفة ما حدث بينها وبين ديفيد وأديل. الملاحظات في ملف ديفيد غامضة للغاية. *لن ترفع ماريان دعوى*. ترفع دعوى ضد من؟ ضده أم ضدها؟ ولمَ؟

احتجتُ إلى كلِّ عزيمتي لئلا أشتري علبة سجائر مارلبورو لايتس في المحطة، فلمَ قد يُعيدانني إلى التدخين؟ لن أمنحهما ذلك. *هما*. لا يمكنني الوثوق بأيهما الآن. شعرتُ بالتشابكات حولي وكأنها أسلاك شائكة. ربما كل هلعي بلا مبرر. ربما ديفيد هو شرير القصة *فعلًا*، مثلما تبيَّنت أديل بالضبط. ربما لا تبلغ أديل الباب الثاني، وحتى إن كانت تفعل، ربما ما زالت لا تعرف شيئًا. ربما، بمثال حالي، لا يمكنها الذهاب بعيدًا. يمكن أنها ما زالت تقول الحقيقة.

بدَت الفكرة جوفاء. تذكرتُ يديها الباردتين وشهقتها عند استيقاظها في الكرسي في مكتب ديفيد. إن كانت عاجزةً عن الابتعاد، فلمَ تتكبدُ عناء الباب الثاني أصلًا؟ لا يمكنني تصور إمضاء ساعات أراقب لورا دون أن أقدر على تجاوز ممشى كتلتنا السكنية. سيكون ذلك غريبًا، ومملًا، ولا سيما والباب الأول يسمحُ للمرء بالحُلم بأي شيء يريد.

كانت عابرةً الباب الثاني في ذلك اليوم عندما وجدتها في مكتب ديفيد. واثقة من هذا. لكن أين كانت؟ ماذا كانت تشاهد؟ ولم كذبت علي بشأن ذلك؟ ظلت قدمي تقرع الأرضية حتى بلغنا بلاكهيث وهرعتُ نازلةً من القطار، كما لو كنتُ أحاول الهروب من نفسي.

مشيتُ حاثةً الخطى عبر شوارع الضاحية الباذخة، مغمغمةً جمل الاعتذار العرضية بينما أشقُّ طريقي بين عربات الأطفال والمارة المتنزهين، لكن لم أبطئ خطوي. ثمة الكثير من المقاهي والمطاعم هنا، بيد أنني ركزتُ على تلك الأقرب إلى العيادات. لو كان بوسعي الدخول إلكترونيًّا إلى موقع العيادة،

ربما كنت لأستطيع التحقق من العيادة التي عمل فيها ديفيد قبل مجيئه، لكنه قطع عليَّ هذا الطريق، وقد نسي عقلي ما إن أخبرني شخص ما بذلك قط.

في أحد الطرق المسدودة، طلبتُ لفيفة قديد خنزيرٍ لستُ أرغب فيها، وعندما اكتشفتُ أن لا ماريان هناك، غادرتُ وألقيتها في سلة المهملات في الخارج. أعقبَ ذلك كوبا قهوةٍ أخذتهما معي وما زلتُ لم أجد ماريان. أردتُ البكاء إحباطًا على الرغم من أنني بالكاد أمضيتُ ساعةً هنا. لم يبقَ فيَّ صبر.

وأخيرًا، وجدته. محل قهوةٍ وشايٍ صغير ورخيص لكنه مائل إلى اللطف أكثر منه إلى البوخ، في آخر شارعٍ خلفيٍ هادئ مرصوف بالحجارة يغفله المرء إن لم يعلم بوجوده. كان بوسعي فهمُ سبب مجيء ديفيد إلى هنا، فالمكان يبدو بيتيًا عطوفًا. مُرحِّبًا. عرفتُ أنه المكان الصحيح قبل أن أضع قدمي فيه حتى. أمكنني الشعور بذلك. مثلما أمكنني معرفة أن جواب سؤال "هل أنتِ ماريان؟" سيكون نعم عندما رأيتُ المرأة العمليَّة خلف طاولة البيع.

وكان ذلك. وجدتها أكبر مني، ربما تقربُ من الأربعين، ولها بشرة سمراء مخشوشنة لشخص يقضي عطلته تحت الشمس ربما ثلاث أو أربع مرات في العام ويلتذ بساعات بجوار المسبح. جذابة، لكنها ليست جميلة، ولا خاتم زواجٍ في يدها. لكن عينيها طيبتان. رأيتُ ذلك من فوري.

قلتُ، ووجهي يحمرُّ:

- إنني في حاجة حقةٍ إلى التحدث إليكِ، بخصوص ديفيد وأديل مارتن. أظنكِ كنت تعرفينهما، صحيح؟

لم يكن المقهى مزدحمًا، ليس فيه إلا زوجان أنيقا الملبس من كبار السن يستمتعان بفطورٍ كاملٍ وبالصحُف في ركن، ورجل أعمالٍ يرتشف قهوته ويعمل على حاسوبه المحمول في آخر المقهى. لا يمكنها التذرعُ بكونها منشغلةً أكثر مما يجب.

تخشَّبَت وقالت:

- لا شيء عندي لأقوله عنهما.

غار اللطفُ من عينيها، وصار بإمكاني رؤية جرحٍ وموقف دفاعي وغضبٍ من شخص ما يعيد عنوةً ذكرى شيء أرادَ نسيانه.

قلتُ:

- أرجوكِ. لم أكن لأقطع كل هذه المسافة لإيجادك لو لم يكن الأمر مهمًا.

أملتُ أن تقدر على رؤية اليأس المطبق في نظرتي. امرأة لامرأة. وربما ضحية لضحية.

وقد فعلَت، فأطلقَت بعد لحظة ترددٍ زفرةً طويلة وقالت:

- تفضلي اجلسي. شايٌ أم قهوة؟

اخترتُ طاولةً بجوار النافذة وانضمَّت إليَّ حاملةً فنجانين من الشاي. هممت محاولة الإفصاح عن رأيي، وإخبارها بشيء ما مما جلبني إلى هنا، ولمَ أحتاج إلى سماع قصتها، لكنها قاطعتني مسكتتةً إياي.

- سأخبرك بما حدث، لكنني لا أريدُ معرفة أي شيء إضافي عنهما. عن*ها*. اتفقنا؟

أومأتُ برأسي. *ها. أديل*. رباه رباه رباه!

- لم يكُن بيننا أي شيء قط، أنا وديفيد، فقد كان صغيرًا جدًا أولًا قبل كل شيء، وكان رجلًا لطيفًا خلوقًا. كان يأتي مبكرًا، يشرب قهوته ويرسل نظره من النافذة، ولطالما ظننتُ أنه يبدو حزينًا، ولكم أكره رؤية الناس حزانى، لذا بدأتُ بمحادثته. ليس كثيرًا في البداية، في نطاق محاولتي وحسب، لكن بدأنا بأناةٍ بعدئذٍ بالتكلم أكثر، ووجدته ساحرًا وظريفًا. كنتُ قد تطلقتُ مؤخرًا وتنتابني مشاعر موجعة، وبات الأمر أشبه بتلقي علاجٍ مجاني (ابتسمَت ابتسامة تكاد تكون كئيبة)، اعتدنا المزاح في ذلك، وقول إني أدفعُ له الأجرة قهوةً. بأي حال، هذا ما كان الحال عليه. جاءَت هي مرةً أو اثنتين أيضًا، قبل أن أعرف مَن هي. في البداية تمامًا. صرعني جمالها. كانت امرأة من الصنفِ الذي تذكرينه.

فتمتمتُ:

- مثل ممثلة سينمائية.

وأومأت برأسها.

- أجل، أصبتِ. تكاد تكون جميلةً أكثر مما يجب. لم أعرف أنها زوجته. لم تُخبرني. شربت شايها بالنعناع وجلست وتفحَّصت المكان وحسب.

جعلني ذلك أشعرُ ببعض الانزعاج، وكأنني أخضعُ لتفتيش المجلس الصحي، لكنها لم تأتِ بعد ذلك، ليس إلى هنا بأي حال.

بدا كل ذلك في غاية البراءة، وعجزتُ عن تصورِ منعطف الأمور إلى الخطأ. خفق قلبي في راحته لعدم وجود علاقةٍ غرامية بصرف النظر عن كل شيء آخر. لم يفعل ديفيد من قبل ما فعله معي. كانت أديل مخطئة، بخصوص هذه المرأة على أي حال. أثق بماريان، فلا سبب لديها لتكذب عليَّ.

- ماذا جرى إذن؟

- بدأ يعبِّر عن مكنوناتِ قلبه بعض الشيء. ربما كان طبيبًا نفسيًّا، لكن عندما تعملين في قطاع الخدمات وقتًا طويلًا مثلي تطورين أسلوبك الخاص في التعامل مع الناس. أقول يعبِّر عن مكنوناته، لكنه في الحقيقة كان أقربَ إلى *اللف والدوران* حول الأمور، إن كنتِ تفهمين قصدي. أخبرته أنه دائمًا ما بدا تعيسًا بعض الشيء تحت مظهره المزَّاح، وتحدثنا عن الحب. سألني مرةً إن كان ممكنًا أن يحب المرء شخصًا حبًّا جمًّا حدَّ إعمائه عن مثالبه لبعض الوقت. أخبرته أن تلك هي ماهية الحب في جوهره: رؤية ما هو صالح فقط في شخص ما. قلتُ إن الحب ضرب من الجنون في حد ذاته، لأنني لا بدَّ كنت مخبولة لبقائي مع زوجي جون كل ذلك الزمان.

قلت:

- أظنُ أنكِ *أنتِ* من يجب أن تكون طبيبةً نفسية.

بدأنا تتعاطف واحدتنا مع الثانية. مجموعة دعمٍ قوامها شخصان.

- بدأ بعد ذلك بالقدوم قبل نصف ساعة أو نحوها من فتحي المحل، وكنتُ أحضِّر فطورًا لكلينا. صرتُ أسبر أغواره أكثر، وفي آخر الأمر، قال ذات يومٍ إنه ارتكب ذنبًا منذ وقتٍ طويل. ظن في حينها أنه كان يحمي المرأة التي يحب، لكن ظل الذنبُ قابعًا دائمًا بينهما، وبعد بعض الوقت، بدأ بالقلق أن ثمة خطبًا جديًّا فيها. لم تكُن من ظن أنها كانت. أراد هجرها، لكنها أخذت عليه ذنبه ذاك الذي ارتكبه تهديدًا لإبقائه معها. قالت إنها ستدمره (كانت ترسل طرفها من النافذة بدلًا عن النظر إلي، وأعرفُ أنها عادت إلى ذاك الزمن، إلى تلك اللحظات التي أحملها

على عيشها عيشًا مجددًا). أخبرتهُ أن إظهار الحقيقة خير دائمًا من كتمانها، وأن عليه مواجهة الذنب الذي ارتكبه، أيًا كان. قال إنه فكر بذلك كثيرًا. بل كان كل ما يفكر فيه. لكنه قلق إن فعل واضطُر إلى دخول السجن، فلن يكون ثمة أحد ليمنعها من إيذاء شخص آخر.

تدارك خفقان قلبي وبالكاد أمكنني الشعور باحتراق يديَّ القابضتين على الفنجان الساخن:

- أأخبركِ قط ما كان هذا الذنب؟

روب. إنه شيء له علاقة بروب. أعرف ذلك.

هزت رأسها:

- لا، لكن انتابني شعورٌ أنه شيء خبيث. ربما كان ليخبرني في نهاية المطاف، لكن حينئذٍ ظهرت هي عند بابي (التوى فمها إلى برطمة شكِسة عند ذكر الاسم، لكنها أومأت برأسها). جاءت إلى منزلي. لا بدَّ أنها تبعتني إليه يومًا ما. أخبرتني بأن أنأى بنفسي عن زواجها. قالت إن ليس بإمكاني الحصول على ديفيد وإنه يخصُّها. فصُدِمتُ وحاولتُ إخبارها بأن لا شيء بيننا، وبعد ما جرى عندما خانني زوجي لم أكُن لأنزل ذلك بامرأةٍ أخرى، لكنها لم تُنصت. كانت مغتاظة، بل متميِّزة غيظًا.

لم أكُن لأنزل ذلك بامرأة أخرى. ماريان شخص أفضل مني. صار دوري لأشيح بنظري، على الرغم من أنني أنصت بأشد الاهتمام، أمتص كل كلماتها لأتذوقها لاحقًا.

واصلت كلامها، ساهيةً عن اللذعة المفاجئة لشعوري بالذنب:

- طلبت مني أن أتوقف عن محادثته، أن أتوقف عن نصحه إن كنتُ أعرف مصلحتي. قالت إنه لن يتركها وإنه يحبها وأيًّا كان ما في ماضيهما فهو شأنهما وشأنهما وحدهما (توقفَت لترتشف شايها). انتابني شعورٌ مُريع، وراودني الخزي، على الرغم من أنني لم أرتكب أي إثم. أخبرتها أننا أصدقاء وهذا كل ما في الأمر، فقالت إني عجوز بائسة لا رفقة لي إلا قطة ولن ينظر إلي رجل أبدًا. كانت إهانة طفولية حد أنني

ضحكتُ عليها. صُدمت كما أظن، لكنني ضحكتُ في الآن نفسه. كان الغلط غلطي على الأغلب.

- ألم تخبري ديفيد؟

- لا. بل لأقول الصراحة، فقد تفاجأتُ حقًّا عندما ظهر في المقهى في الصباح التالي. افترضتُ أنه قد أخبرها بمحادثاتنا، وإلا فكيف لها معرفتها؟

وإلا فكيف عجبًا! *إلى أي مدى يمكنك الذهاب يا أديل*؟ لم يكُن بوسعي إلا تخيُّل أديل تحوم فوقهما، خفيةً، وهما يتكلمان. كم لا بدَّ استبدَّ بها الغضب. أخذتني الصورة مباشرة إلى صورتها تحوم فوق سريري تراقبني أضاجعُ زوجها. رباه.

- لكنه تصرفَ وكأن شيئًا لم يحدث. بدا متعبًا بلى، وتعيسًا كذلك، وبه خُمار على الأرجح. لكنه بالتأكيد لم يبدُ شخصًا أخبر زوجته بشأن كل محادثاتنا. اختلقتُ الفرصة لأخبره بأن عليه محادثتها في مشكلاتهما، فقال إنهما تجاوزا ذلك وإنها لم تتفهم قط. كنتُ أشعرُ بانزعاجٍ واضحٍ إزاء الأمر برمته، لذا أخبرته بما أعتقده حقًّا؛ أنه ينبغي له التوقف عن محادثتي بخصوصه، لكنه إن كان على ذلك القدر من التعاسة إذن فعليه تركها وتبًّا للعواقب. كنتُ غاضبة منها آنذاك، بعد أن تلاشت صدمة زيارتها. ظننتُ أنها أفّاكة. من صنف النساء اللاتي لا يرضيهن شيء أبدًا، وسيكون أفضل حالًا دونها.

تروق لي هذه المرأة. إنها واضحة وصريحة، وأشكُّ أن لديها أسرارًا أو تستدعي بوح الآخرين بأسرارهم أو أنها جيدة في حفظها. لقد اشتقتُ إلى كوني ذلك الشخص. مكشوفةً.

قالت بصوت خفيض:

- إلا أن ما أخفقتُ في إدراكه، هو أنني سأكون الشخص الذي سيواجه العواقب. أو لتحري الدقة، كان تشارلي.

رأت تعابيري المتسائلة.

- قطي العجوز. لقد قتلَتْه.

دارَ فيَّ عالمي.

قط آخر، أهي مصادفة؟ بدا وقع أفكاري مثل ملاحظات ديفيد. ديفيد، الذي ادعت أديل أنه قتل قطتها. وقد صدقتها وكذَّبتُه. *أوه يا لويز، أيتها الحمقاء الغبية.* نعبتُ قائلةً:

- كيف؟

- لم يدخل المنزل في إحدى الليلات وقلقتُ عليه. كان في الخامسة عشرة وقد انقضت أيام صيده الفئران وجلبها لي، وصار ينام معظم وقته على الكنبة عندما أكون في العمل، وينام عليَّ وأنا في البيت. وعلى الرغم من كرهي الاعتراف بذلك، كانت محقة في شيء واحد، فمنذ طلاقي وتشارلي الشكل الوحيد للصحبة لديَّ. من الصعب على المرء التأقلم مع العزوبة بعد أن كان فردًا من زوجين.

أعرفُ تمامًا ما تعنيه. شعورُ التخلف عن الركب.

تابعَتْ:

- بأي حال، ظننتُ أنها لا بدَّ سممته في البداية، بقدرٍ لا يكفي لقتله، بل يكفي لإخضاعه، فقد كان طماعًا وودودًا للغاية، وكان ليذهب إلى أي شخص يحمل فتات دجاج له. عجزتُ عن النوم وأنا أتساءل عن مكانه، ثم بعد الفجر بقليل سمعتُ صوت مواء من الخارج. كان صوتًا مُشجيًا. ضعيفًا. موجعًا. لكنه تشارلي من غير بُد، فهو عندي منذ كان هِرًّا، وأعرفُ كل أصواته. قفزتُ من سريري ومضيتُ إلى النافذة، فرأيتها هناك؛ واقفةً في الطريق تحملُ قطي الضعيف المريض بين ذراعيها. في البداية، كنتُ حيرى أكثر مما كنتُ فَزعة. لم أملك أدنى فكرةٍ عما تفعله في هذا الوقت المبكر، لكن تصوُّري الأوَّل كان أن سيارة دهسته وهي وجدته. ثم رأيتُ وجهها. لم أرَ قط وجهًا بتلك البرودة من قبل، بذاك الخلاء من المشاعر. "لقد حذرتُكِ"؛ هذا كل ما قالته، بهمود بالغٍ وهدوء شديد. وقبل أن أتمكن من إبداء رد فعل -قبل أن أفهم حقًّا ما كان يحدث- ألقته على الأرض، وحينما حاول الزحف إلى الباب الأمامي، دا... داست على رأسه.

عندما نظرَت إلى عينيَّ الفاغرتين، تمكنتُ من رؤية الأهوال المُتذكرة في عينيها، ومن ثم الحركة الطفيفة في حلقها بينما بلعت ريقها:

- كانت تنتعلُ حذاءً بكعبٍ عالٍ.

أنهَت كلامها، ولم يعُد ثمة حاجة إلى الاستفاضة بعد ذلك.

- يا للمسيح!

- أجل (أخذَت نفسًا عميقًا، وأطلقته بأناةٍ كما لو يمكنها زَفرُ الأمر برمته من رأسها)، لم أرَ شيئًا كذلك من قبل. ذاك المستوى من الحنق، من الجنون، ولا أريدُ رؤيته ثانية أبدًا.

- هل اتصلتِ بالشرطة؟

- أوه كنتُ مقبلة على الاتصال. لكنني قبل ذلك أردتُ أن يرى ديفيد ما فعلَته. كان الوقتُ قد حان تقريبًا لآتي وأفتح المحل هذا، لذا قلتُ في نفسي سأريه -أعطيه صدمة وجيزةً حادةً- ثم أتصل بالشرطة. كنتُ غاضبة وكسيرة القلب، لكنني كنتُ خائفة أيضًا. كنتُ خائفة عليه وعلى نفسي. لففتُ عزيزي تشارلي التعِس في بطانية وأخذته معي. لم أنتوِ العمل في ذلك اليوم، لم أُرد إلا رؤية ديفيد ثم الذهاب إلى المنزل والبكاء. قد يبدو فعل ذلك على قطة سخيفًا.

- ليس كذلك، حقًّا وصدقًا.

وكنتُ أعني ما قلتُ وأنا أمد يدي عبر الطاولة وأعتصر ذراعها. أعرفُ حجم بشاعة الوحدة، وعلى الأقل فدائمًا ما كان عندي آدم. لا يمكنني إلا تصور فظاعة شعورها.

- كان رد فعل ديفيد شائقًا.

باتت مستغرقة في التفكير الآن وقد ارتاحت من القسم الأسوأ من قصتها. لعل زيارتي علاجٌ غير متوقعٍ لها، تابعَت كلامها:

- لم أرَ الأمر في حينه، لكنني عندما أرجعُ في ذاكرتي أراه. كان مذعورًا، هذا صحيح، ومشمئزًا ومتضايقًا، لكنه لم يكن مصدومًا. لا يمكنك تزييف الصدمة. ليس بمهارةٍ بأي حال. أظن في الحقيقة أنه ارتاح لأنها لم تؤذِ إلا القطة، وهذا أكثر ما أخافني في الأمر. تلك الراحة. ما

الذي كان يظنها قادرة على فعله حقيقةً؟ إن كان قتلُ قطٍّ بتلك الطريقة مبعثَ راحةٍ؟

صارت يداي ترتجفان بشدةٍ أجبرتني على إخفائهما تحت الطاولة. *أوه يا أديل، أي ألاعيب مارستِها عليَّ؟*

- أقنعني بألا أرفع دعوى. قال إنه يعرفُ أديل وإن القضية ستكون كلمتي مقابل كلمتها ويمكنها أن تكون شديدة الإقناع، فجمالها ذلك يسديها يد العون. لكنه أخبرني بأني لن أُضطر إلى القلق حيالها ثانية. سيحرص على ذلك. قال إنه سيقدم تبرعًا لجمعية حماية القطط. توسل إليَّ عمليًّا ألا أتصل بالشرطة، وكنتُ متعبةً ومستثارة المشاعر إلى حد منعني من الجدال. لم أُرِد إلا خروج كليهما من حياتي.

- إذن لم تُبلغي عنها؟

هزَّت رأسها:

- لا. أغلقتُ المقهى لبضعة أيام وبقيتُ في المنزل، أقضي حزني وأقفز كلما رن الجرس خوفًا أن تكون هي. لكنها لم ترجع، ولم أره ثانية.

سألتها:

- وانتهى الأمر؟ اختفيا؟

- تلقيتُ رسالة من ديفيد بعد بضعة أسابيع، أُرسلت إلى المقهى. قال إنه وجد عملًا جديدًا وإنهما سينتقلان. شكرني على صداقتي وقال إنه آسف لأنها كانت ضارةً بي، وإنه لن يسامح نفسه على ذلك أبدًا. أشعرني النظرُ إليها بالغثيان، ورميتها في سلة الزبالة مباشرة. أردتُ نسيان كل ما يخصهما.

قلتُ:

- إنني آسفة لنبشي ذلك، وآسفة على قطك. لكنني شاكرة تكلمكِ إليَّ، وإخباري. لقد ساعدتِني حقًّا، أكثر مما يمكنكِ معرفته.

نهضت عن الطاولة وفعلتُ مثلها، وساقاي ضعيفتان تحتي.

قالت:

- لا أعرفُ ما ورطتكِ معهما، ولا أريدُ أن أعرف، لكن ابتعدي عنهما بأسرع ما يمكنكِ. إنهما فاسدان وسيؤذيانك.

أومأتُ برأسي وأعطيتها ابتسامة واهنة ثم هرعتُ إلى الهواء الطلق. بدا العالم ساطعًا أكثر مما ينبغي، الأوراق خضراء زيادةً على أمّاتها، وحوافها حادةٌ زيادةً قبالة السماء. أحتاجُ إلى مكان أفكر فيه.

طلبتُ كأسًا كبيرةً من النبيذ وأخذتها إلى طاولة في الركن محتجبة بعض الشيء عن مرأى رجال الأعمال وزبائن الغداء المبكر الذين يملؤون على مهلٍ الحانة البلاكهيثيَّة بالضحك والمحادثة. بالكاد كنتُ أسمعهم، ولم تهجع الضوضاء البيضاء الهلعة في رأسي إلا بعد أن شربتُ نصف كأسي، وبقيتُ في مواجهة الإدراك العاري الذي لم يعُد بمقدوري تلافيه.

صدَّقتُ كل ما قالته لي أديل بكل سهولة، رضعتُه كله، وكان كله كذبًا. ورأيتُ فجأةً جميع شجاراتي مع ديفيد بعين مختلفة كل الاختلاف. كان ثمة ذعرٌ في غضبه. وقتما أخبرني بأن أبقى بعيدة عنهما، لم يكُن يهددني، كان يحذرني. كان عُنفه ليحميني. أيهتمُّ بي حقًّا بعد كل شيء؟ أكان يعني كلامه عندما قال إنه يقعُ في حبي؟

يا إلهي! لقد كنتُ حمقاء غبية أرذل الغباء. أردتُ البكاء، ولم يُعنني النبيذ. كنتُ أعز صديقةٍ لمُعتلةٍ نفسيًا. صديقة؟ أعدتُ التفكير بالكلمة. لم نكُن صديقتين البتة. أنا ذبابةٌ علقَت في شبكتها، وهي تعبث بي. لكن لمَ؟ إن كانت تعرفُ بأمري وديفيد، فلمَ لم تؤذني وحسب؟

أحتاجُ إلى التكلم إليه. أحتاج إلى التكلم إليها. لكن ما حجمُ ما تعرفُه حقًّا؟ أتعرفُ أنني جئتُ وتكلمتُ إلى ماريان؟ ولمَ علَّمتني أمور الحلم إن كانت تعرف بأمري وديفيد؟ لم منحتني تلك المساعدة؟

لغياب أي أجوبة في هذا المنحى، قلبتُ تفكيري إلى ديفيد. الأقراص، المكالمات الهاتفية، المال، أكُل ذلك رَدع؟ محاولة لإبقاء العالم آمنًا منها؟ أم أنه يحمي نفسه بقدر ما يحميها؟ ما زلتُ لا أعرفُ ما أصاب روب. ارتكب ذنبًا في ماضيه. لا، صوَّبتُ نفسي، ليس هذا ما قالته: *قالت إنه ارتكبَ ذنبًا ظنًّا منه أنه كان يحمي المرأة التي أحبّ. والذنب أكبر من الغلطة.*

أخرجتُ هاتفي من حقيبتي وبحثت عن رقم العيادة بين قائمة جهات اتصالي، وراح إصبعي يحوم فوق زر الاتصال. ماذا لو أنه قد قتل روب فعلًا ثم أخبرتُه بأمر الرسالة التي أرسلتُها للشرطة، ماذا سيحدث؟ ماذا سيفعل؟ أيجب أن أثق به وأخبره بكل شيء؟ راح قلبي يخفقُ أمام الفكرة. قلتُ في سري: *تبًا لذلك. ثقي بقلبك. لمرة واحدة في لجة كل هذا، ثقي بديفيد. وعالجي أمر أديل فيما بعد.*

نقرتُ زر الاتصال ورصصتُ الهاتف على أذني. أجابت سو وحاولتُ تمويه صوتي. قلتُ لها إن اسمي ماريان وإن علي التكلم مع الدكتور ديفيد مارتن في مسألة عاجلة، فقالت إنها سترى ما إن كان متفرغًا وطلبت مني الانتظار.

سيوافق على لقائي. عليه ذلك.

50

آنذاك

قال روب وهو يقشِّر البطاطا على مضض ويضعها في قِدرٍ من الماء البارد:

- اللعنة، سأُسرُّ عندما تنتهي هذه الزيارة. لمِّع هذه، نظف تلك، ارمِ هذا، خبئ ذاك (ونظرَ حيثُ تصبُّ الماء المغليَّ في خليط الحشو)، إنه محض رجل، ليس البابا اللعين.

فمدَّت أديلُ لسانها له ورماها ببعض قشر البطاطا الرطب.

قال:

- لا تقلقي، سألتقطها! (ساخرًا منها بلطف ثانية).

قالت:

- أريدُ أن تكون الأمور طيبة، لكُلِّنا.

كانت متحمسة جدًا حيال قدوم ديفيد حد أنها بالكاد تدبرت النوم في الليلة الماضية على الرغم من أنهما انتشيا أيما انتشاء. أما روب، فتزايدت مزاجيته أكثر وأكثر بخصوص الزيارة، مع أنه وعدها أن يكون لطيفًا. كانت واثقة تمامًا أنه متوتر، فليس يهوى الناس، ومهما أخبرته أنه سيحب ديفيد تظل قادرة على رؤية أنه ليس مقتنعًا البتة.

قال، وشعره الداكن يرفُّ على وجهه بينما يرجعُ إلى مهمته:

- ستكون على ما يرام. حسنًا، إن لم تسممينا كلنا بتلك الدجاجة بأي حال. واحرصي على دلك الجلد بالكثير من الزبدة.

لقد أبقتهما الساعات الأربع والعشرون الماضية منشغلين، إذ نظفا كل خرائب حياتهما البهيمية -فلم يبقَ دليل على الوجبات السريعة وأعقاب سجائر الحشيش والتبغ المهروق في أي مكان- وفاحت رائحة الغرف بالمنظفات ومعطرات الجو. صار منزل بالغين حقيقي. حتى إن روب وعدها بألا يذكر المخدرات أو ينتشي أو أي شيء حتى تنقضي نهاية الأسبوع. لم تصدق أديل ولو لثانية أنه لن يدخن سيجارة عندما يكون وحده في غرفته، لكن روب حاذق بالحد الكافي ليفتح النافذة، والمنزل بالتأكيد كبير بما يكفي لئلا تنتشر الرائحة.

عندما حُشيت الدجاجة أخيرًا وصارت في الفرن، تفقدت ساعتها -ساعة ديفيد التي صارت لها، رابطة دائمة به- للمرة الألف في ذلك اليوم.

وقالت راسمة ابتسامة عريضة:

- سيصل عاجلًا. (كانت تتوهَّج، ولا يمكنها منع نفسها. ديفيد ديفيد ديفيد. رأسها طافحٌ به) عشر دقائق أو نحوها كما أظن.

قال روب:

- مرحى مرحى. أيمكننا احتساء مشروب الآن؟

صبت لكليهما كأس نبيذ، شاعرةً بغاية الرُّشدِ بعشائها المشوي وشربها من أفضل كؤوس والديها البلورية. ربما يجدر بهما انتظار ديفيد، لكن مشروبًا سيخفف عن روب. اتكآ على طاولة المطبخ معًا، وشبكت ذراعها بذراعه.

قالت:

- يمكن لديفيد أن يكون هادئًا ومتحفظًا بعض الشيء في البداية، لكن لا تحمَّل ذلك أكثر مما يحتمله، فهذا أسلوبه ليس إلا. إنه خجول قليلًا. لكنه ظريف جدًّا عندما يسترخي.

- ظريف مثلي؟ (رمقها روب بنظرة جانبية، فوكزته في أضلاعه).

- ظرافة مختلفة. بأي حال، كلي ثقة أنك ستحبه. إن كان بوسعك تجاوز الحقيقة البغيضة القائلة بأنه يقلق عليَّ. أعني، يا لها من فظاعة منه بعد كل شيء!

- حسنًا حسنًا، لقد فهمت. وتوقفي عن القلقِ *أنت*، فقد قلتُ لك، سأكون *لطيفًا*.

ابتسم كلاهما آنذاك، وشعرت ببعض التوتر يغادر ذراعه الأشبه بالسلك. قالت:

- هيا بنا، لنذهب وننتظره.

أخذا نبيذهما وراحا يتسكّعان على الدرجات الحجرية العريضة، وبينما أنشأت أديل تحدقُ بصبر نافدٍ إلى رأس الطريق، اتكأ روب على واحد من الأعمدة المجاورة للباب البلوطي الثقيل وأخذ يشرب. بدا مسترخيًا تمامًا، ما عزز شكَّ أديل في أنه في الحقيقة حزمة من أعصاب متوترة.

وأخيرًا، كسرت فرفرة محركٍ حاجز الصمت وأطلقت أديلُ صرخة حادة ثم ركضت فوق الحصاة تقفزُ صعودًا ونزولًا.

- لقد وصل! لقد وصل!

كانت في أقصى الحماسة. كما لو أن عائلتها الصغيرة ستكتمل. لن تشتاق إلى روب وهي مع ديفيد، ولن تشتاق إلى ديفيد وهي مع روب.

استغرقت السيارة دقيقة أو نحوها لتعبر الطريق الطويل من البوابة، لكن ما إن ركنها حتى كانت أديل عند الباب منتظرة أن يخرج. عادَت بنظرها إلى روب وابتسمَت، ومن مكانه، على الدرجات، ردَّ بنصف ابتسامة وكأنه صار فجأة مرتبكًا وفي غير مكانه. بدا ضئيلًا وصغيرًا بوقوفه هناك، وتمنَّت أن يصدِّق قولها إن كل شيء سيكون على ما يرام.

مدَّ ديفيد نفسه من السيارة، وكان طويلًا وعريض المنكبين يلبس سروال جينزٍ وقميصًا، وفوقه كنزة رقيقة زرقاء باهتة ذات قبةٍ مثلثة، ومثلما يحدث في كل مرةٍ تراه، أخذت رؤياه أنفاسها. إنه رجلٌ ناضج. رجل*ها*.

قال:

- مرحبًا (وجذبها إليه ليقبلها) لقد اشتقتُ إليكِ.

- اشتقتُ لك أيضًا. (لم تقدر على محو البسمة عن شفاهها، ثم أمسكَت يده) تعال.

- ماذا عن أغراضي في السيارة؟

- يمكنها أن تنتظر.

شدته ناحية المنزل، إلى حيث يجرجر روب قدميه، وكتفاه محدودبتان، كما لو أنه يتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه. هي تفهمه. لطالما كانت صداقتهما تنطوي عليهما فقط. وفي موجة تعاطفٍ مباغتة، تركَت يد ديفيد وركضت صاعدة الدرج إلى روب، ثم شبكت ذراعها بذراعه وجرته من الظلال.

- ديفيد، هذا روب، أعز أصدقائي. روب، هذا ديفيد، خطيبي. آمر أن يحب واحدكما الآخر حالًا.

وابتسمَت. كانت في قمة السعادة. حتى بعد كل شيء، وحتى هنا في هذا المنزل، لا يمكن أن تكون في سعادة أتم.

بحلول العاشرة والنصف من مساء السبت، كان جميعهم قد شربوا أكثر مما يجب، لكن بات الجو أخفَّ توترًا على الأقل. أحسَّت بشعور رائعٍ لوجودِ ديفيد بين ذراعيها وفي سريرها وبداخلها الليلة الماضية، وضحكا وخططا وقهقها، لكن بدا جليًّا لها أن ديفيد لم يُعجَب تمامًا بروب.

قالت له:

- إنه خجول.

وهما متضامَّان يتغازلان في ثنايا الشراشف المبللة بالعرق.

وكان حُكم ديفيد:

- لا يتكلم كثيرًا. إنه غريب بعض الشيء، ولستُ أرى ما يعجبك فيه إلى هذا الحد.

لكن اليوم مختلف، وهي مسرورة، فعندما نزلت إلى المطبخ هذا الصباح، كان روب قد بدأ بتحضير الفطور بالفعل، وبدلًا عن التحديق بجهامة إلى ديفيد مثلما كان يفعل قبلًا، راح يقدم عرض طبخٍ كوميديٍّ يدَّعي فيه أنه طباخٌ فرنسي اسمه فغانسوا ديه زِو، مضحكًا ديفيد بأدائه المبالغ فيه، وهو يضيف الملح إلى البيض، ويقلي النقانق كما لو أنه كبير طباخي فندق

الريتز. انضم إليه ديفيد آنذاك، مدعيًا أنه صحفيٌ منمقٌ جدًّا من هيئة الإذاعة البريطانية يسأله عن تقنياته، وسرعان ما هبط الأمر كله إلى مسرحية هزلية يبذل فيها الفتيان جهدهما ليَضحكا ويُضحِكا أديل. وبينما يأكلون، راح روب يطرح أسئلة عن الجامعة وبدا واضحًا أنه يحاول أن يكون أكثر ودًّا، وإن لم يكن ذلك سهلًا عليه سهولة تقديمه عرضًا سخيفًا. أجاب ديفيد عن كل أسئلته، وعلى الرغم من أنه ما يزال يبدو غير واثق أيضًا، كان الفطور نقطة تحول من غير ريب.

ثم ذهبوا في مشوار طويل عبر الغابة وتسكعوا لبعض الوقت بجوار البئر، وكان ذلك بديعًا. أحبَّت كونها مع كليهما، روب الضئيل النحيل، وديفيدُها الضخمُ القوي الوسيم. إنها محظوظة لوجودهما. كان روب يحاول حتمًا، وكانت محاولته تجدي، وأمكنها رؤية الارتباك يغادر ديفيد بعض الشيء.

شعرَت بالرضا التام وهي جالسةٌ أمام النار وثمة أزيزُ نبيذٍ وادعٌ يهمهم في رأسها. ربما لم تكُن نهاية الأسبوع المثالية التي أمِلَت، لكنها تتحسن. كلاهما حارسٌ لها، وهذا كل ما في الأمر، ما يجعل كليهما محترزًا من الآخر. إنها محظوظة حقًّا.

نهض ديفيد قاصدًا المرحاض ثم جلَبَ قنينة نبيذ ثانية، ونفش شعرها في مروره بجوارها. منحتها أصابعه شعورًا طيبًا، وابتسمَت له بينما شاهدته يغادر، فاستوى روب، المضطجع على السجادة قبالتها، في جلسته.

سألها:

- كيف أبلي؟ أحسنُ من البارحة؟

ابتسمت له. رجلها الآخر.

- إنك مثاليٌّ. أحسنت صنعًا.

قال:

- ربما يجدر بك الخلود إلى الفراش ومنحنا بعض الوقت الصبياني.

ضحكَت:

- ترابط ذكوري؟

- شيء من هذا القبيل.

وردّ الابتسامة بمثلها. فكّرت في أنه قد يصير وسيمًا يومًا ما. عندما تزول هذه البقع، وينزع تقويم أسنانه، ويزداد وزنه. يبدو صغيرًا جدًّا مقارنة بديفيد.

- قد يكون من الجيد أن نتكلم في غيابِك. ولا أقصد الإساءة.

- لم تُسئ. (ثم داهمتها فكرة، فقالت) لكن لا تتكلم بخصوص مالي، اتفقنا؟ سيكره ديفيد أني أخبرتك بذلك. أرجوك لا تذكره.

خرجت كلماتها متعجلةً لسماعها وقع أقدام ديفيد يقترب عائدًا.

قال روب، وهو ينظر إلى ألسنة اللهب الفاتنة:

- لم أكُن لأحلم بذلك. لم يخطُر في بالي.

51

لويز

كان مظهره مزريًا، لكنني على الأرجح لستُ خيرًا منه، عيناه مضرجتان، وعلى الرغم من أنه يلبس بذلة، كان قميصه مجعّدًا، وذقنه غير حليقة. أظنه استسلم. يبدو مثل ميتٍ يمشي، وشردَت عيناه إلى المشرَب.

قلتُ:

- لقد طلبتُ إبريقًا من القهوة. أظن أن كلينا في حاجة إلى ذهنٍ صافٍ الآن.

- لويز، أيًّا كان هذا، أيًّا كان ما تظنين أنك تعرفينه بخصوص ماريان (ظلَّ واقفًا بجوار الطاولة، وبالكاد ينظر إليَّ) فلا وقتَ عندي له.

- اجلس يا ديفيد، أرجوك (أخذتُ بيده، برقةٍ لكن بصرامة، وبقيتُ قابضةً عليها عندما حاول سحبها. منحني لمسه شعورًا طيبًا)، أرجوك. عندي أشياء أحتاج إلى قولها. أشياء تحتاجُ إلى سماعها.

جلبت نادلةٌ صينية القهوة الساخنة، ووضعت كأسين لنا ثم صبَّت ببسمة مبتهجة، وظهر تهذيب ديفيد الفطري، فتركت يده ليأخذ مجلسًا قبالتي.

قال عندما غادرت:

- أخبرتكِ أن تبتعدي عنا.

- أعرف. وبتُّ أعرفُ أنك كنتَ تحذرني، لا تهددني. أعرفُ ما حدث مع ماريان، لقد ذهبتُ لرؤيتها.

حدَّق إليَّ:

- يا للمسيح يا لويز، لمَ؟ لمَ قد تفعلين ذلك؟

رأيتُ الذعرَ في انفعاله. صار بمقدوري رؤيته حق الرؤية الآن، وامتلأتُ خزيًا.

قلتُ:

- لأنني كنتُ حمقاء، بل أسوأ من حمقاء. كنتُ... (لا أملكُ في جعبتي الكلمة المناسبة لوصف نفسي) لقد خُدعتُ وكنتُ بلهاء، وفعلتُ شيئًا سيئًا حقًّا، وأحتاج إلى إخبارك به، (بات ينصتُ الآن، بانتباهٍ حذِرٍ كثعلبٍ إبان صيده) لكن أولًا سأخبرك بما أعرفه، اتفقنا؟

أومأ برأسه، على مهل. هذه ليست أي مواجهة كان يتوقعها، واستغرق بعض الوقت ليستوعب الأمر. كم تراه شرب اليوم؟ ما قدر ما يحتاج إليه ليخدِّر شعوره بفظاعة حياته؟

قال:

- تابعي.

- حسنًا (أخذتُ نفسًا عميقًا) أظنُّ أن زوجتك مجنونة، معتلة اجتماعيًا أو عقليًّا أو شيء من هذا القبيل. أظنك تعطيها الأقراص لأنك تعرف أنها مجنونة. أظنُّ أنك عندما أدركتَ الأمر بدايةً، كنتَ تحاول مساعدتها، والآن صرتَ تحاولُ احتواءها. أظن أن هذا هو سبب اتصالك المتكرر بالمنزل، لتفقُّدها. أظن أديل تعرف أننا نمنا معًا وصادقتني لتقلبني عليك -لم أستنتج تمامًا السبب بعد- لكنها بلا شكٍّ كانت تتلاعبُ بي، *بنا*. قتَلت قطتك مثلما قتلت قط ماريان، ولا يمكنك فعلُ أي شيء بخصوص ذلك، لأنها آخذة عليك شيئًا وتهددكَ بإخبار الشرطة بما حدث لروب. كيف أنه ما يزال ميتًا في مكان ما من عزبتها. لقد أخبرَتني أنكَ قتلتَ روب...

انحنى إلى الأمام ليقول شيئًا ما، لكنني رفعتُ يديَّ مسكتتة إياه:

- دعني أنهي كلامي. (عاد متراخيًا في كرسيه، متقبلًا الاتهام، فكررتُ) لقد أخبرَتني أنك قتلتَ روب، *لكنني لا أصدقها*، (رفعَ رأسه، أول بارقة أمل) أظن أن أيًا كان ما جرى لروب، فهي من فعله، وربما حميتَها في أعقاب ذلك لأنك كنتَ تحبها وكانت قد فقدت والديها للتو. أظن أنك ارتكبتَ خطأ غبيًا فظيعًا، وهي آخذة ذلك عليك منذ أمدٍ بعيد، لتبقيك معها (وفجأة، شعرتُ برغبةٍ في البكاء ولجمتُ دموعي). لقد كنتُ في غاية الفظاعة لتصديقها وتكذيبك لأنكَ لم تبُح بمكنوناتِ قلبِك. كان ينبغي أن أعرف. كان ينبغي أن *أثق* بمشاعري حيالك، لكن بعد إيان، نسيتُ كيف أثق برجل، وحملتُ آثار ذلك إلى علاقتنا. وليس من السهل الوثوق برجلٍ يخون زوجته (بدا مَخزيًّا، ولم أُرد أن نُسهب في ذلك. ليس الآن. ليس مهمًّا). عندما كنتَ غاضبًا، تهددني لأبتعد عنكما، كان ينبغي لي فهم أنك تحاول حمايتي منها. لكنني لم أفعل. وكانت *بالغة* البراعة في الظهور بمظهر الهشة. بالغة البراعة في استمالتي. وإنني آسفة جدًّا لسماحي لها. (انحنيتُ ناحيته فوق الطاولة وأخذت يده) أحتاجُ إلى أن تخبرني بكل شيء يا ديفيد، أنا في صفك. لقد كنتُ غبية، لكنني الآن أحتاجُ حقًا إلى سماع ما يجري منك لأنني سئمتُ كل السأم كذبات أديل، وسينتهي بي الأمر فاقدةً صوابي إن لم أعرف الحقيقة.

حدَّقَ إليَّ ساعةً طويلة، وأملتُ أنه رأى في عينيَّ الثقة والمشاعر التي أكنُّها له.

قلت:

- أيًا كان الأمر يا ديفيد، أنا أؤمن بك. لكنني أريدكَ أن تفسِّر لي كل شيء، المال، وما حدث لروب. أحتاجُ إلى المعرفة، لأنني حينئذٍ سأخبرك بالشيء السيئ الذي فعلتُه، وأرجحُ أنك ستكرهني بسببه.

قال:

- لا يمكن أن أكرهكِ أبدًا.

ثم شعرتُ حقًّا وكأنني سأبكي. أيُّ معمعةٍ أدخلتُ نفسي بها. *أدخلنا* نفسنا بها. كيف أمكنني ظنه قاتلًا؟ ارتشفَ قهوته وتنحنح، وراحَت عيناه تجوبان الحانة. أيحاولُ ألا يبكي أيضًا؟

قلتُ:

- أخبرني وحسب.

على أحدنا أن يكون صلبًا الآن، وهذا الأحدُ هو أنا.

- يبدو الأمر برمتِهِ قذرًا كل القذارة (أخفض بصره إلى قهوته، وانتابني شعور أنه لن يرفعه حتى تنفقئ كيسة هذه القصة المتقيِّحة داخله ويخرجُ سُمُّها كله) كل حياتي تبدو كذا، لكنني لم أبدأ على هذه الشاكلة. في البداية كان الحال... حسنًا كان رائعًا. رباه، كم أحببتها. كانت أديل أجمل فتاةٍ رأيتها قط، وليس ذلك وحسب، بل عذبة وظريفة أيضًا. لم يوافق والداها، فقد كنتُ ابن مزارع فقير بدد أبوه كل ماله في سبيل الشرب، وأكبر منها بنحو خمس سنوات، ولقد عرفتُها، في اتصال وانفصال، منذ الأزل تقريبًا. اعتادَت تتبعي عندما كنتُ أعمل في الحقول حول المدرسة، وكانت تخبرني أحيانًا بأمر كوابيسها.

- كانت البنتَ الصغيرة التي منحتَها كتاب الأحلام.

أومأ برأسه:

- ولم يقدم خير مساعدة.

يا ليته يعلم. لا بدَّ أن ذاك الكتاب هو ما علَّم أديل الحلم الواعي والباب الثاني. أردتُ ذكر الأمر -عليَّ ذكر الأمر- لكنني أردتُ سماع تتمة قصته أولًا، قبل أن أشتته بشيء على هذا القدر من صعوبة التصديق.

تابع كلامه:

- لكنها كبُرت. حسنًا... شعرتُ... شعرتُ أن الأمر صائبٌ جدًّا. كانت هذا الكائن السماوي الذي لم يهتمّ ليديَّ الخشنتين وأبي القذر. لم ترَ إلاي. آمنت بي. لولاها، لما شققتُ طريقي غالبًا إلى كلية الطب. كنا متيمين، ولا يمكنني وصف حبنا. ذلك الحبُّ الذي يبذله المرء بكُلِّ جوارحه في صباه (توقفَ قليلًا)، ثم نشب الحريق.

قلتُ:

- وأنقذتَها. ندباتُك.

- نعم نعم، فعلت. لم أشعُر بالحروق حتى في وقتها. أتذكرُ الحرارة المريعة. أتذكرُ شعوري بأن رئتيَّ تُلفحان بينما أتنفس، لكنَّ ما أذكره على وجه الخصوص هو ظني أنها ميتة. كانت فاقدة الوعي، جراء تنشُّق الأبخرة أو الدخان أو شيء من هذا القبيل. عجزتُ عن إيقاظها.

تذكرتُ ظني مثل هذا الظن وأنا أحاول إيقاظها. يدها الباردة، وهزِّي إياها. منذ متى *تبلغُ الباب الثاني*؟ أومأتُ برأسي له ليكمل.

سألته:

- أهي من أضرم النار؟

- لا أعرف. لم أفكر في الأمر آنذاك، لكن منذ ذلك الحين... (خفت صوته تدريجيًا. أتصور أنه تساءل عن ذلك كثيرًا) دار كلام عن إحراق متعمد. ظنت الشرطة أن ثمة احتمالًا في كوني الفاعل. وعلى الرغم من ظني أن شخصًا ما ربما بدأ الحريق، لم أظن قط أنها قد تكون ذلك الشخص. موظف ناقمٌ ربما -وكان ثمة الكثير منهم- كانت أديلُ أصغر من أن تكتنه طبيعة والديها، لكن أباها لم يجمع ثروته دون أن يضر ببضعة أشخاص في طريقه. بيد أنني لم أظنّها الفاعل قط، فقد ماتت تقريبًا، وإن كانت هي الفاعل فعلًا، فقد جازفَت مجازفة كبيرة.

قلت:

- أخالها تحبُ المجازفة.

- ربما. لكنها عانت اضطرابًا شديدًا، وأبت النوم. كان الأمر أشبه بأنها تتلاشى. لعل ذلك شكل من أشكال الشعور بالذنب. قالت إنها كان ينبغي أن تستيقظ. كان بإمكانها إنقاذهما.

نوم. أحلام. أكانت أديل هناك حتى عندما مات والداها؟ أأشعلت النار وولجَت الباب الثاني لتحرص أن ديفيد قادم لإنقاذها؟ أم أنها علقَت في الدخان وفقدت وعيها قبل أن يسعها إنقاذ نفسها؟

قلت:

- ثم التقت روب، في المركز العلاجي؟

- ويستلاندز، نعم. كانت تحبه حقًّا، وقد ساعدتها صداقته. كرهتُ الأمر حينذاك بعض الشيء لأنني ظننتُ الاعتناء بها وظيفتي، لكنني كنتُ ما أزال أتعافى من الحروق، وما تزال الجامعة أمامي. أصرت أديل أن أرجع، حتى إنها جعلت محاميِّيها يرتبون كل أموري المالية حالما استطاعت، الأمر الذي سبب لي شعورًا مزعجًا، لكننا كنا نخطط للزواج بأي حال، ولذا قالت إنني أنطق سُخفًا. بأي حال، كان لقاء روب في صالحها. تفهَّمتُ ذلك. كان موجودًا في حين لم أكُن. لكن لم يرُق لي أنه مدمن سابق، وعلى الرغم من أنني لم أقُل شيئًا، أظنها عرفت ذلك. خُيل إليَّ أن صداقتهما ستنتهي حالما يغادران ويستلاندز، لكنها من ثم دعته ليقيم في منزلها. كانت هذه طبيعتها آنذاك. راغبة في مساعدة الناس. أو على الأقل هذا ما بدت عليه.

- إذن ماذا حدث؟

روب. فتى المفكرة. أخيرًا، سأعرفُ مصيره.

- لم ألتقِه إلا مرتين. حسنًا، ذهبتُ إلى هناك لعطلة نهاية أسبوع، لذا سيكون من الدقة أكثر أن أقول عرفته ليومين. كان مبقعًا ونحيلًا ويضع تقويم أسنان. لا شيء مميز به. لا أعرف ماذا كنتُ أرتقب. جاذبيةً أكثر، كما أظن. بدا صغيرًا بالنسبة إليَّ، بالنسبة إلى شخص في الثامنة عشرة. كان قليل الكلام، لمعظم العطلة بأي حال. يحدِّق إليَّ فقط ويدمدم أجوبةً لأسئلتي، ثم تراوده تلك اللحظات المبالغ فيها من المحاولة بجهد مفرط. قدَّم ذات صباحٍ عرض طباخٍ رديء جاريتُه فيه، لكن لأقول الصدق، جعلني ذلك غير مرتاحٍ. قالت أديل إنه خجول، وغير بارعٍ في التعامل مع الناس، لكنني رأيته غريبًا، ولم أخبرها بذلك. انتهى الأمر بنا ساهرَين ندردش لبضع ساعات ليلة السبتِ بعد ذهاب أديل إلى الفراش، لكنني عجزتُ عن الانسجام معه البتة. ظل يسألني أسئلة عن علاقتنا. كنتُ واثقًا تمامًا أنه غيران، وعندما غادرتُ يوم الأحد تمنيتُ في سري أن تتجه صداقتهما إلى نهاية طبيعية عاجلًا (توقف قليلًا وبلع ريقه) وتحققت أمنيتي. لكن لم يكُن فيها شيء طبيعي.

قلتُ:

- مات روب.

أخيرًا، أومأ برأسه:

- لم أكن حاضرًا عندما حدث ذلك. بعد عشرة أيام.

رفع نظره للمرة الأولى، ونظر إلى عيني مباشرة:

- أعرفُ أين روب، لكنني لم أضعه هناك.

روب ميت. ها هي ذي. حقيقة بسيطة. لم تفاجئني، وأدركتُ أنني ومنذ بعض الوقتِ مقتنعة بأن هذا ما جرى.

قلت:

- أعرف (وقلتُ صدقًا. أصدقه بالمطلق. متأخرة أكثر مما يجب، ربما، لكنني أصدقه). أعرفُ أنك لم تفعل.

تابع كلامه، وقد صارت القصة تفيضُ من فيه:

- اتصلَت بي هلِعةً ذات صباح، قالت إنهما كانا يتعاطيان المخدرات، وإنها تظنُّ روب أخذ جرعة زائدة لأنها وقتما صحيَت وجدته ميتًا. قلتُ لها أن تتصل بالشرطة وبسيارة إسعاف. كانت تبكي. قالت لا يمكنها ذلك، وعندما سألتها عن السبب، قالت إنها هلِعَت ودفعت جثته في البئر القديمة الجافة في الغابة على أرض العزبة. كانت مهروعةً تقريبًا. لم يسعني تصديق الأمر. كان محض... محض جنون كما أظن. اتجهتُ إلى هناك مباشرة ظانًا أن بوسعي إقناعها بإخبار الشرطة بالحقيقة. لكنها رفضت. قالت إنها تخشى بعدما حدث لوالديها ثم هذا أن يسجنوها. سيظنون أن لها علاقة بكل ذلك. قالت إنها هلعت، لكن لا يمكنها التراجع عن فعلتها الآن. قالت إن لا أحد سوانا يعرفُ أن روب هناك أبدًا. لم يره أحد غيرنا. حتى عائلته لم تعرف. توسلت إليَّ ألا أتكلم. قالت إن بوسعنا الانتقال من المنزل ولا أحد سيعرف أبدًا بما جرى.

قلتُ:

- لكن *أنتَ* عرِفت.

أومأ برأسه:

- ظننتُ في البداية أنني قادرٌ على ذلك، على كتم هذا السر من أجلها. على حمايتها. وحاولتُ. حاولتُ بجدٍّ مزيد. تزوجنا بسرعة، لكن دلالاتِ أن الأمور تتجه في منحى خاطئ كانت حاضرة مسبقًا. كرهتُ ما فعلناه، لكنني أخالُ أنني كنتُ لأتعلَّم معايشته لو ظننتُ أنه يعذبها أيضًا، لكنها بدَت في أحسن حال على الإطلاق، كما لو أنها نسيت الأمر بالفعل. حياة هذا الفتى بأسرها، زالَت، وأُخفي موته. ظننتُ أن رد فعلها ربما كان آلية مواجهة -تحاول الامتناع عن التفكير في الأمر برمته- لكنه لم يكن كذلك. إنما تجاوزته بسهولةٍ حقة. كانت *نشوانة* في يوم عرسنا، وكأن لا هم يغمُّنا في العالم. ثم اكتشفَت أنها حامل وظننتُ أن ذلك سيزيد سعادتها، لكنها فزِعَت كل الفزع وأصرَّت على إجراء إجهاض، لإخراج هذا *الشيء الدخيل* منها. (توقفَ قليلًا، وصارت أنفاسه خشنة. هذا شاقٌّ عليه، مواجهة كل هذا، *مشاركته*) الحبُ يموتُ ببطء، أتعرفين ذلك؟ (نظر إليَّ، فشددتُ يدي على يده) لقد استغرق حبي وقتًا طويلًا حتى مات. خلقتُ لها الأعذار، وكان عليَّ إنهاء تدريبي وتخصصي، لذا لم أكُن طوال الوقتِ رائيًا كم تغيرَت. لكنها تغيرت. كانت تنفقُ مبالغ ضخمة من المال -حتى على الرغم من ثروتها-...

- ولهذا توليتَ زمام إدارته؟

أومأ برأسه:

- أعدتُه لها بتوقيع تنازلٍ في نهاية تلك العطلة التي خرجتُ فيها إلى المنزل في إسكتلندا، ولم أُرِد تولِّي مالها قط. لكنني لم أُردها أن تبدده كله كذلك. فماذا لو حظينا بأطفال في آخر الأمر؟ ماذا لو كان كل هذا رد فعلٍ عاطفي ما لكل شيء تحتاجُ إلى تجاوزه؟ ماذا لو ندمَت على إنفاقها؟ وافقَت على تسليمي المسؤولية. قالت إنها تعرفُ أن لديها مشكلة وهي في حاجة إلى من يديره. وبالعودة إلى الماضي، أخال ذلك القرار كان عقدة أخرى إضافية في الأنشوطة التي أبقتها جاهزة لتعلقها حول عنقي. بأي حال، استمررنا لثلاث أو أربع سنوات في التظاهر بأن كل شيء على ما يرام، لكنني عجزتُ عن نسيان قصة روب. جثته في البئر. وأدركتُ أخيرًا أن حبنا قد مات معه في تلك الليلة. عجزتُ عن

نسيان قصة روب، وعجزتُ عن قبول قدرتها على ذلك. أخبرتها أن ما بيننا انتهى، أنني سأهجرها، وأنني لم أعُد أحبها.

قلتُ:

- أفترضُ أنها لم تتقبل ذلك برحابة صدر.

وللمرة الأولى، منحني نصف ابتسامة. ليس ثمة فكاهة حقيقية فيما قلت، لكنه هنا. ديفيدُ خاصتي هنا.

- يمكنكِ وصفُ الأمر بهذه الكلمات. جن جنونها. قالت إنها تحبني ولا يمكنها العيش دوني. قالت إنها ستأخذ كل المال وسأصير مُعدمًا. قلتُ إن مالها لا يهمني ولم يهمني قط. لم أُرِد إيذاءها، لكن لم يعُد بوسعي العيش على تلك الشاكلة. هدأَتْ أشدَّ الهدوء بعد ذلك. حل بها سكون أخافني. سكون *ما يزال* يخيفني. صرتُ أتعرفُ إليه أنه أمارةُ شيء خطيرٍ يجري داخلها. قالت إنها إذا ما هجرتها فستخبر الشرطة بما جرى حقًا لروب. احترتُ في ذلك. لم أفهم ما قصدها. ثم قالت إن الحقيقة ليست إلا شيئًا نسبيًا. غالبًا ما تتلخص الحقيقة في الرواية الأكثر قابلية للتصديق من الأحداث. قالت إنها ستخبر الشرطة أنني وروب تقاتلنا، ثم قتلتُه ورميته في البئر. صُدمت. لم يكن ذلك صحيحًا. قالت لا يهُم. قالت إن الشرطة ستظن الدافع الغيرة وهم أصلًا يشكون بي بخصوص الحريق في منزل والديها، لذا سينصتون إليها حتمًا.

فكرتُ في رسالتي. فيما عليَّ إخباره به عندما يفرغ. *رباه يا لويز، ما الذي فعلتِه؟*

- ثم لعبَتْ ورقتها الرابحة. الدليل الذي سيثبِّت وقفة الشرطة إلى جانبها. شيء تأخذه عليَّ منذ ما يبدو عُمرًا.

- ما هو؟

ما عساها قد فعلت؟

قال ببساطة:

- ساعتي (ثم رأى حيرتي وأكمل). عندما تعرضتُ للحروق عجزتُ عن لبسها، فأعطيتها لأديل تلبسها، نوعًا من التذكار. وحتى على أضيقِ

قياساتها كانت كبيرة على معصمها، لكنها أحبَّت وجودها وأحببتُ لبسها إياها. لم أُدرك أنها ستوثقنا في هذا الجحيم إلى الأبد.

- ماذا أصاب ساعتك؟

- وقتما وضعَت روب في البئر، انسلَّت ساعتي من يدها، وعلقَتْ في ثيابه (توقف قليلًا ونظر إليَّ)، ساعتي في البئر مع الجثة.

حدقتُ إليه:

- يا إلهي!

وشعرتُ ببعض الغثيان. من سيصدق رواية ديفيد للأحداث بوجود دليل كهذا هناك؟

- أكثر ما أبغضه هو أني تركتُها تبتزُّني هذا الابتزاز. كنتُ في غاية الضعف، وفكرة دخول السجن -بل الأسوأ، فكرةُ ألا يصدقني أحد، أن يظن الجميعُ أنني فعلتُ تلك الفعلة الشنيعة- جمَّدتني. ماذا لو لم يكُن موتُ روب حادثة مثلما قالت؟ لو أنها قتَلَتْه لسبب ما؟ أستظهر على الجثة علامة جريمة قتلٍ إن أُخرجَت؟ عجزتُ عن مواجهة ذلك. كنتُ محصورًا. وعدتني أننا سنكون بخير. وعدتني أن نكون سعداء، وأنني يمكنني أن أحبها ثانية. قالت إنها ترغبُ في طفل. بكل الأشياء التي ظننت أنها ستسعدني. بدا الأمر مخبولًا في عيني. لم أستطع تصور إنجاب طفلٍ إلى زواجنا. ليس بعد الآن. وفي النهاية، تصالحتُ مع حقيقة أن عقابي على غلطي وضعفي هو حصري في زواجي الخالي من الحب.

رباه، لا بدَّ أنها كانت سنين طوالًا قضاها مع أديل وهو يعيشُ على حدِّ السكين. أردتُ مشروبًا، وواثقة أنه أراد ذلك أيضًا، لكن أيام شُربنا قد انقضت حاليًّا. لم يعُد بوسعه الاختباء في قعر الكأس، وأنا في حاجةٍ إلى ذهنٍ صافٍ.

- بيد أنها لم تستطع السيطرة على مرضها العقلي وقتًا طويلًا. لعبت دور ربة المنزل المثالية، لكن بدأت تنتابها بعد ذلك تلك الثائرات الجامحة بلا سبب.

قلت:

- مثلما جرى مع ماريان.

- أجل، مثل ذلك، لكنها بدأت قبل وقتٍ طويل منه. كنتُ واثقًا أنها تتجسس عليَّ. كانت تعرفُ أمورًا لا يمكنها معرفتها. تتصل بزميلات عملٍ ظنَّت أني كنتُ مقربًا منهن أكثر مما يجب وتترك لهن رسائل بغيضة. حظيَت بعملٍ لبعض الوقت، لكن حينما أنشأتُ صداقة مع المرأة التي تُدير محل بيع الزهور، نشبَ حريق هناك. لم يكُن شيئًا يمكن إلصاقه بها تمامًا، إنما يكفيني لأعرف أنها الفاعلة. كنتُ أبدِّل الوظيفة كل بضع سنين بسبب شيء فعلَتْه. كنا نبرم *معاهدات*. أعدها بالاتصال بها ثلاث مرات على الأقل في اليوم، فتتنازل عن بطاقاتها الائتمانية. آتي إلى المنزل مباشرة من العمل، فتتنازل عن هاتفها المحمول. أي شيء يوقفها عن هدم حياتينا -أو حياة أيٍّ غيرنا- بِعَتَهِها. هي معتلة اجتماعية عدوانية ولا متعاطفة، أنا واثق من ذلك. لديها صورة للصواب والخطأ، لكنها لا تشبه صورة سواها، ولا تحب، إن كان هذا حبًّا، إلاي. ستفعل أي شيء لتمنع شخصًا ما من الحيلولة بيننا، وهي مقنعة للغاية. من سيصدقني؟ (نظر إليَّ) حتى أنتِ لم تفعلي. لقد صدَّقتِ قصصها جملةً وتفصيلًا.

- أنا آسفة جدًّا يا ديفيد. إنني أكره نفسي.

أحتاجُ إلى إخباره بأمر الأحلام، وكيف تجسست أديل عليه. كيف عرفَتْ الأمور. أحتاجُ إلى أن أكون صادقة معه. فتحتُ فمي لأنطق، لكنه كان مسترسلًا وقاطعني.

- ليس ذنبك، فهي بارعةٌ في أداء دورها، وأنا كنتُ خائنًا سكِّيرًا. لم يجدر بي التحدث إليكِ في تلك الحانة قط. لم أُرِد إلا... لم أرِد إلا أن أكون سعيدًا، وربَّاه، كان يجبُ أن *أعرف*. (كاد يصفع الطاولة بيده إحباطًا، لكنه قبض على حافة الخشبِ بدلًا عن ذلك) كان يجب أن أدركَ عندما كانت صغيرة، كل تلك الأشياء المخبولة التي كانت تقولها.

- ما قصدُك؟

توترتُ وأنا أسأله. سيكون الكلام عن الأحلام، أعرف ذلك، فقد أحبَت ديفيد، وبالطبعِ حاولت مشاركة الأمر معه.

- في بداية علاقتنا، ثملنا وحاولَت إخباري أن بوسعها فعل كل ذلك الهراء المخبول في خلال نومها. كانت غامضة، لكن بدا الكلام مجنونًا، والأسوأ أن الأمر ربما كان خطئي، لأن كلامها نمَّ عن أنها تلقفت الأفكار من كتابٍ هِبِّي عن الأحلام أعطيتها إياه ثم اختلقَت أشياء أكثر جنونًا. ضحكتُ وظننتُ أنها تعابثني، لكن عندما تضايقَت لأني لم أصدقها، كان يجب أن أعرف أن هذه الأفكار الحالمة مودية إلى شيء ما. كانت في سنٍّ أكبر من أن يكون كلامها تخيُلاتٍ طفولية، وكانت بكل وضوحٍ تبدي علامات بعض الاضطرابات الجدِّية الآخذة في التشكُّل. أعني، من عساه يصدق أن بوسعكِ مغادرة جسدكِ في نومك؟ هذا الكلام من صنف ما يقوله من أفرطوا في تعاطي العقاقير المهلوِسة، لذا أجل، كان يجب أن أرى العلامات. أو أن أتذكرها على الأقل عندما كبرنا (نظرَ إليَّ)، ولهذا سرَّني جدًّا لقاؤك. أنتِ طبيعيةٌ للغاية، (أمسكَ يديَّ ثانيةً وكأنني حبل نجاة ما) أنتِ منطقية جدًّا. كوابيسكِ مجردُ كوابيس، وتتدبَّرين أمرك معها وحسب. لن تؤمني بأي شيء مثل هذا. أنت *عاقلة*.

رباه، يا ليته يعلم. لا يمكنني إخباره الآن، أليس كذلك؟ *في الحقيقة، كل ما أخبَرَتْكَ به حقيقي. كيف بخلاف ذلك تظنها تتجسس عليك؟* لا يمكنني فعلُ ذلك به. لا يمكنني فعل ذلك بنفسي. ليس الآن. ليس وما يزال عليَّ إخباره بأمر الرسالة التي أرسلتُها للشرطة. يحتاجُ إلى حقائق وواقع. لا يمكنه مواجهة أي شيء آخر الآن.

لم أستطع تدبُّر قول إلا:

- إنها تعاني من مشكلات. أشهدُ لها بذلك.

أمسكَ واحدنا يدي الآخر بإحكام، وراح يحدِّق إليَّ، ثم قال:

- أنت تصدقينني حقًّا، أليس كذلك؟

فأومأتُ برأسي.

- بلى. أصدقك.

وهذا واضحٌ في وجهي بأي حال. أصدِّقه تمامًا. هو لم يقتل روب.

- لا فكرة لديكِ عن روعة شعور سماعِ ذلك، لكنني لست أعرفُ ما أفعل. لقد أخبرتها أني أريدُ الطلاق. من يعرف ما ستفعله الآن؟ لن تتركني أغادر بالتأكيد، وإني قلقٌ حيال ما ستفعله بكِ. يا للمسيح، إن هذا كله لخبيصة بشعة.

والآن حان دوري لأشارك فعلتي الخاطئة، فقُلت وقلبي يحثُّ نبضاته:

- إنها خبيصة أسوأ مما تظن. لقد *جعلتُها* أسوأ.

قال بابتسامة رقيقة:

- لا يمكنني تصوُّر كيف يمكنها أن تكون أسوأ. إن كنتُ ما أزالُ أروق لكِ بعد كل ما أخبرتكِ إياه للتو، وإن كان بإمكانكِ تصديقي، إذن فكل شيء، بالنسبة إلي على الأقل، أفضل بكثير بالفعل.

بدا في حال أفضل أيضًا. ثمة ضوء أكثر في عينيه، فقد هبط عن كاهله حملٌ ثقيل، ولو للحظات قليلةٍ فقط.

وأخبرتُه، كيف بحثتُ عبر الإنترنت وأرسلتُ الرسالة إلى آنغس ويغنل في قسم شرطة بيرث موضحةً فيها كل الأسباب التي تجعلني أظن أن الدكتور ديفيد مارتن متورط في موتِ شابٍّ اسمه روبرت دومينيك هويل، وأن جثته على الأرجح ما تزال في مكان ما من عزبة أديل. صار دوري لأخفض عينيَّ إلى فنجان قهوتي بينما تضطرمُ النار في وجهي. وليس حتى أن أديل طلبت مني فعلها. هذا كله فعلي الغبي الخاص. وعندما فرغت، رفعتُ رأسي أخيرًا. وقُلت:

- إذن كما ترى، فقد جعلتُ الأمر أسوأ فعلًا. ربما سيتجاهلونها بعدِّها رسالة كيديَّة. ربما لن *يراها* ويغنل ذاك حتى.

يا الله، أرجوكَ خالص الرجاء أن يكون ما قُلت.

تراخى ديفيد في كرسيه وأطلق زفرةً:

- لا، أظنه سيقرؤها. لقد كان ككلبِ الصيد حولي، محاولًا إيجاد طريقة ما ليلصق الحريق بي.

قلت:

- لا بدَّ أنك كرهتني.

رغبتُ في أن تنشق الأرض وتبتلعني ولا تخرجني أبدًا. لمَ أجعلُ كل شيء أسوأ؟ فيمَ تهوُّري إلى هذا الحد؟

- أكرهكِ؟ (استوى في جلسته، ووجهه في مكان ما بين التقطيب والضحك) هل أنصتتِ لشيء مما قلتُه؟ أنا لا أكرهك. أنا... حسنًا، الحال أقربُ إلى عكس ذلك. حتى إنني أحببتُكِ لتصديقكِ أديل. ذلك الباعث على مساعدتها. ذاك يمكنني فهمه، لكن لا، لا أكرهكِ لهذا، بل إن ما فعلتِه مُفرِج من مناحٍ عديدة. لقد جعل الأشياء واضحة.

- ما قصدُك؟

ليس يكرهني، والحمد لله على ذلك. ما زلنا معًا في هذا.

سألني:

- هل تعرفُ أديل بشأن هذه الرسالة التي أرسلتِها؟

هززتُ رأسي:

- لا أظن ذلك.

لا يمكنني أن أكون أكثر دقة حقًا، فمن الصعب التيقُّن مما تعرفه أديل أو لا تعرفه، لكن ليس بوسعي إخباره بذلك، ليس بعد ما قاله للتو.

- ماذا ستفعل؟

قال:

- سأذهبُ إلى هناك. سأذهب وأخبر الشرطة بكل شيء. بالحقيقة. سأنتهي من الأمر.

لم يكُن ذلك ما توقعتُه، وذُهلتُ لحظيًّا، لكنني أعرفُ أنه التصرف الصحيح، فقلتُ:

- سيصدقونك (على الرغم من أنني لستُ مقتنعةً تمامًا) أنا أصدقك. ويمكنني تأييد قصتك، وماريان أيضًا، أنا واثقة.

هزَّ رأسه وابتسمَ برفق:

- أظن أن نقض رواية أديل يتطلبُ أكثر من ذلك. ساعتي هناك، أتذكرين؟

- إذن لمَ تفعلها؟ (أخافُ أن أخسرهُ قبل أن أكسبه) ثمة طريقة أخرى بالتأكيد. لم تذهبُ إليهم إن كنتَ تظن أنهم سيعتقلونك؟

قال:

- لإنهاء الأمر. إلى الأبد. كان ينبغي لي فعلُ هذا منذ وقتٍ طويل. إنني مرهقٌ من حمل الذنبِ على كاهلي في كل مكان. حان وقتُ أن يحظى ذاك الفتى بدفنٍ لائق.

قلت:

- لكن لا يمكننا تركها تنجو بكل فعالها. وهي خطِرة. لمَ لا تكون هي من يقع في الورطة؟ إنها الطرفُ المذنبُ هنا!

قال:

- ربما لستُ مذنبًا، لكنني لستُ بريئًا كذلك. وهذا هو العقاب المثالي لها.

- ما قصدُك؟

رحتُ أحدق إلى عينيه الزرقاوين الجميلتين. كانتا هادئتين ورائقتين. قال:

- أنا كل ما أرادته أديل في حياتها، فهي -بطريقتها المنحرفة الفاسدة- تحبني. لطالما فعلت وستفعلُ على الدوام. إنها موسوسةٌ بي. إذا ما سجنوني، فسأتخلصُ منها أخيرًا، ولن يكون لها أي نفوذٍ عليَّ. سأكون حرًّا.

شعرتُ بالدموع تتدافعُ ثانية، لكنني هذه المرة لم ألجُمها:

- ألا يمكنكَ الانتظار فَينة؟ ألا يمكننا أن نحظى ببضعة أيامٍ معًا قبل ذلك؟

هزَّ رأسه:

- إن لم أفعلها الآن، فلن أفعلها، وقضاء الوقت معكِ سيجعل الأمر أصعب بكثير. يكفيني أنكِ تؤمنين بي.

- متى ستذهب؟

لم أهتم لأمر أديل. يمكنني تدبُر نفسي معها. صرتُ أعرفُ أسرارها. شعرتُ بعصرةِ ذنب. لستُ أقصدُ ذلك، لكن عندي سرًّا لا يمكنني مشاركته إياه أبدًا، مثلما لم تقدر هيَ.

- اليوم. الساعة الآن الثانية والنصف. لا يمكنني الذهاب إلى المنزل أولًا، فستعرفُ أن ثمة خطبًا ما، لكن يمكنني أن أكون في منتصف طريقي إلى إسكتلندا بحلول الوقت الذي تدركُ فيه أنني رحلت. سأتصل بكِ عندما أصل الليلة.

- أواثقٌ من أنك لا تريدُ التفكير في هذا برهةً إضافية؟ (إنني أتصرف بأنانية، أريدُ إبقاءه هنا معي، خارج السجن) هذا سريعٌ جدًّا. إنه...

- انظري إلي يا لويز.

نظرتُ إليه.

- بأمانة... ألستُ أفعلُ الصواب؟ بمعزلٍ عن مشاعر واحدنا للآخر؟

من هدوء صورته، عرفتُ أنه يعرفُ الجواب بالفعل، فأومأتُ. إنه الصواب فعلًا. حتى لو نال النتيجة الخاطئة ولم يصدقه أحد، لا بدَّ من قول الحقيقة.

قلت:

- هذا ليس عادلًا البتة (كانت النارُ تأكل باطني، أحتاجُ إلى فعل شيء ما)، ربما يجدر بي الذهاب لرؤيتها و...

- لا. لا يمكنك ذلك. إنها خطِرة.

- لكن عليَّ أن...

أمسكَ يدي بإحكام:

- إنها معتلةٌ اجتماعيًّا يا لويز. أتفهمين ذلك؟ لا يمكنكِ الاقترابُ منها. عديني أنكِ لن تقتربي منها. في الحقيقة، أحبذ أن تخرجي وآدم من لندن ريثما أفعل ما عليَّ فعله. لكن على الأقل عديني أنك ستبقين بعيدةً عن أديل.

غمغمتُ:

- أعدك.

ليس عادلًا أن تنجو بإفسادها حياته. ليس عادلًا أن تنجو بإفسادها حياتي أيضًا.

- جيد. لن أحتمل أن يصيبكِ أي شيء، ولا أريدُ أن أقلقَ حيالكِ بينما أواجه هذا. أحبكِ يا لويز، أحبكِ حقًّا.

نهض وجاء إلى جواري، ثم تبادلنا القُبَل. كان طعمه كحولًا بائتًا وحلوى النعناع وقهوة، لكنني لم أهتم، فهو دافئ ومحب وقوي ويخصني، وتجمعت دموع جديدة.

همس بينما تباعدنا:

- سيسير كل شيء خير مسير، سيفعل حقًّا، (ثم ابتسم لي) ما موقفكِ من زيارة السجن؟

ضحكتُ خلال الدموع التي تأبى الكفَّ:

- كلي استعداد لخوض تجارب جديدة.

دفع ثمن القهوة، فعلٌ روتيني بسيط يجعل كل شيء آخر يبدو أكثر سرياليةً حتى، ثم خرجنا حيث ذرفتُ على صدره بعض الدموع الإضافية، غير آبهةٍ بمن يرانا.

قال:

- سيكون على ما يرام.

لن يكون. لن يقتربَ مما يرام، لكنني أومأتُ وتبادلنا مزيدًا من القبل، والدموع والمخاط والتعب والكحول البائت. يا لنا من زوجين! حشرتُ وجهي في عنقه وامتصصتُ دفئَه ورائحته، ثم رحلَ ولم يبقَ إلا الهواء البارد وأبخرة السيارات. لم ينظر خلفه. لم أظن أنه يجرؤ على ذلك خوفًا أن يغير رأيه.

قلتُ في قرارتي، للمرة الألف، بينما أتكئ على حائط وأنبش في حقيبتي بحثًا عن سيجارتي الإلكترونية: كل هذا خطئي. أنا وتلك الرسالة الغبية. لا يمكنني تصديقُ أنه ذهب بهذه السرعة ليواجه كل شيء. كم تراها حياته بغيضةً حتى يشعر براحة إزاء ذهابه إلى مكان سينتهي الأمرُ فيه بالقبض عليه بلا شك، وبموت مسيرته المهنية، وتمزُّق سمعته وحياته، وتسميته قاتلًا. مسحتُ الدموع عن وجهي وتركتُ النسيم يهدئني. ليس ذلك ذنبي أكثر مما هو ذنبُ ديفيد. لسنا إلا بيادق. أديلُ الملومةُ على كل شيء.

أخذتُ أفكر بالسر الوحيد الذي عليَّ كتمانه عن ديفيد: الأحلام، والأبواب، وذاك الجنون كله. لم علمتني ذلك إن كانت تكرهني كل هذا الكره؟ إنني أعجُّ بالغضب منها، وقد أطلقَ غضبي سراح حزني على ديفيد وإشفاقي على نفسي لخسارته. أحتاجُ إلى إغضابها، إلى استخراج الحقيقة منها بالسخرية. لعلها عندما تدرك أنها فقدت ديفيد بكل الأحوال تقول شيئًا ما، *أي شيء*، قد يساعده. لا بدَّ ثمة طريقة ما لجعلها ترى ما تفعله. كيف أنه لا يوجد رابحون في المسألة. وإن لم يحدُث أي من هذا، فأحتاجُ إلى إخبارها برأيي فيها بالضبط. آن الأوان لإجراء محادثة صادقة مع من تسمي نفسها أعز صديقاتي. لم أكذب على ديفيد. لن أذهب إلى المنزل. لن أراها وجهًا لوجه. لكنني لم أعدهُ بأنني لن *أكلمها*، صحيح؟

52

أديل

جلستُ في هدوء المطبخِ بلا رفيقٍ سوى تكة الساعة الثابتة. صوتٌ مُعزٍّ بصورة غريبة. أتساءل عن ذلك أحيانًا، تضاعُف الساعات الصاخبة في العالم، كل منها تُشير بلا كللٍ إلى افتقارنا للوقت. يجب أن نرتاع منها، ومع ذلك فإن تلك التكة المتكررة تسكِّنُ الروح.

لستُ أعرفُ كم مرَّ على جلوسي هنا. إنني أنصتُ إلى إيقاع الثواني، لا أراقب الدقائق والساعات. أشعرُ أني على هامش حياتي الخاصة الآن. زائدة. كل شيء قاب قوسين أو أدنى من النهاية، وأشعرُ بالخواء والحزن.

يقولون إذا أحببت شخصًا ما، فأطلق سراحه. حسنًا، إنني أطلقُ سراحه أخيرًا. كان ثمة طرق أسهل لفعل ذلك من الدربِ الذي اخترتُه، لكن لا يمكن للمرء تزييف الثقة ولا يمكنه تزييف التصديق ولا يمكنه تزييف إدراك الحقيقة. يجب أن تكون *خالصة*. كان في حاجة إلى رؤية ذلك بوضوح في عيني لويز. صدمتُها إزاء سوء حكمها على الوضع كله. براءته. تلك أمور عجزتُ عن منحه إياها.

هو يحبها حقًّا. لم يعُد بوسعي مجابهة هذا الاعتراف. إيه، هذه سنة *الحياة*. لقد حظيتُ بتجربةٍ طيبة. شعرتُ بالضلال وأنا جالسة أنتظر وأنصتُ إلى قِربة حياتي تقطُر. استنتجتُ أنْ بلى -بينما أوثبتني الرنة الصادحة للهاتف

الرخيص من حلم يقظتي- كان بوسعي فعلُ كل شيء بطريقة مختلفة، لكن هذه الطريقة أكثر شَوْقًا بكثير. سأنال ذلك على الأقل ليكون لحنَ وداعي.

لويزُ تنضحُ طاقةً وغضبًا وانزعاجًا على الخط، على نقيض هدوئي. كان ذلك يجيشُ بأذني، يشعُّ كالحُمَيَّا.

سألتني:

- منذ متى تعرفين؟ (يمكنني سماعها تبذل كل تمالكها نفسها لئلا تزعق الكلمات في أذني) أريدُ أن أعرف أي ألعوبةٍ لعينةٍ كنتِ تمارسين!

كانت ترغي وتزبدُ حنقًا، وقد أعداني ذلك.

- أظن أنني أنا من يجب أن يسألك هذا السؤال، أليس كذلك؟ فبالنهاية، أنتِ من كنتِ تضاجعين زوجي.

قالت متجاهلةً تهكُّمي:

- إن ما لستُ أفهمه هو سبب إخباركِ لي بشأن الأحلام. لم ساعدتِني وثمة مجازفة بأني سأجد الباب الثاني؟ وأني إن فعلتُ، فسأستنتج كل هذا؟

العاهرة الجاحدة.

- لم أعرف آنذاك (أبقيتُ غضبي المباغت محبوسًا في الداخل) ظننتُ أنكِ كنتِ صديقتي. كنتُ أحاول مساعدتكِ. لا أقابل من يشبهني أبدًا، وأنتِ جعلتِ شعوري بالوحدة أخف وطأة.

شعرتُ بشكِّها. نخعةُ زفيرٍ هادئةٍ على الطرف الآخر.

تكلمتُ ببطء، لأحرص أن تفهم تمامًا:

- لا يمكنكِ استخدام الباب الثاني إلا للذهابِ إلى أماكنَ تعرفينها. إن لم تزوري المكان فلن تقدري على رؤيته. عليكِ تصوُّر التفاصيل (اتكأتُ على الجدار البارد)، لم يحدث إلا ذات مساء كنتُ فيه وحيدةً ومشتاقة لكِ أن عبرتُ الباب إلى شقتكِ. أردتُ رؤيتكِ، لكنني بدلًا عن ذلك رأيته هناك معك (توقفتُ قليلًا، وحاولتُ استفزاز دموعي) وحينها اكتشفت. *آنذاك* عرفت.

لويز كتاب مفتوح. أعرفُ أنها تحاول استيعاب منطِق ما قلتُه. لديها في رأسها الآن كمٌّ أمورٍ تمنعها من تذكر المحادثة التي أجرياها في المكتب في

ذاك الصباح الأول بخصوص رعونتهما الثملة. المكتب الذي تجولتُ فيه في اليوم السابق. لكنني أتذكرها، كل كلمة وكل حركة. توترها. هلعه. واحترار كليهما أيضًا عند مرآهما بعضهما بعضًا ثانية. أتذكرُ السخط المطلق الذي اضطررتُ إلى تدبره حتى اصطنعتُ لقاءنا وأخبرتني بأمر ذعرها الليلي. ذاب غضبي بعد ذلك إلى اغتباط تام. إذ استحال عدوٌّ محتملٌ هديةً من الرب في هذه اللحظات القليلة. لكن حاليًا على الأقل، ما قلتُه يبدو منطقيًا في ذهنها. لقد منحتها أيضًا بعض المعلومات الجوهرية: *عليكِ* تصور *التفاصيل*. انظروا إلي، حتى الآن، أساعدها.

- لمَ لم تقولي شيئًا؟ لمَ لقنتني كل ذلك الهراء عن ديفيد؟ وجعلتني أظن كل هذي الأمور عنه؟ هذه *الكذبات*؟

تسعى وراء الأجوبة دائمًا، وتحتاجُ إلى المعرفة طوال الوقت. كان يجدر بها أن تكون محققًا.

- الكذبات والحقائق وجهات نظر لا أكثر، وما السببُ في رأيك؟

ركزتُ على المهمة التي بين يديَّ، فرفعتُ صوتي بعض الشيء، متضايقةً وموجعة. هي تريدُ اعترافًا، واثقة من ذلك، لكن لعبتي لم تنتهِ بعد.

- كنتِ أفضل أصدقائي. أول صديق جديد لي منذ عُمر. أردتكِ أن تكرهيه. أردتكِ أن تختاريني! لمَ ينبغي لي خسارة كليكما؟ كيف يكون هذا عادلًا؟ لم أفعل شيئًا خاطئًا!

قد يكون في الجملة الأخيرة نتفة مبالغةٍ بالنظر إلى كل ما تعرفه، ولا بدَّ أنني أبدو مجنونة. بالطبع، فبالنسبة إليها، أنا مجنونة.

- أردتكِ أن تحبيني أكثر (رق صوتي الآن، كما لو أن تفجُّر طاقتي كان أكثر مما يمكنني احتماله) لكنكِ أحببتِه، ولم تشعري ناحيتي إلا بالتحسُّر. الشفقة والشعور بالذنب كانا كل ما شعرتِ به حيالي بينما تنامين بسعادة مع الرجل الذي أحب.

ربما لستُ أحظى بالأفضلية الأخلاقية، لكن الزوجة المخدوعة عذرٌ أنتوي الوقوف عليه.

- هذا ليس صحيحًا، وأنتِ تعرفين ذلك (خالطَت صوتها نبرة دفاعية، وتصورتُ وجهها يحمرُّ. إنها سهلة التوقع جدًّا. واصلَت) كنت صديقتكِ فعلًا. ظننتُ أنكِ تخصينني، وحاولتُ وقف الأمر. كان قد بدأ قبل أن ألتقيك حتى. لم أعرف أنه متزوج. حاولتُ إنهاء الأمر، وقد انتهى.

صار دورها في تقنين الحقيقة. لقد انتهى، لكن عندما تدخلتُ واكتشَف أمر صداقتنا. كانت لويز لتستمر بفرشخة ساقيها له بكل ذنبٍ من خلفِ ظهري لو لم يهلع وينهي الأمر. ليحميها مني. هذا هو ديفيد. ينقذ النساء أبدًا. لكن هذه الرواية للأحداث لا تلائم نظرتها لنفسها بالطبع، لذا يروق لها الظنُّ أن شعورها بالذنب كان لينتصر وكانت لتنهي الأمر بأي حال. أعرفُ الناس جيدًا. *أعرفها* جيدًا.

قالت بنبرة تحدٍّ:

- حسنًا، والآن خسرتِ كلينا.

- لا، لم أفعل. لن يتركني. لن يتركني أبدًا.

- لستِ تفهمين (تكلمني كأنني طفلة) لقد صدقتكِ. صدقتُ كل ما قلتِه. وذهبتُ به إلى الشرطة.

- ماذا فعلتِ؟

لفظتُ شبه شهقة، متفاجئة، أو معطية على الأقل انطباعًا جيدًا عن ذلك.

- كتبتُ رسالة. وجهتُها إلى الشرطي الذي حقق في أمر الحريق الذي قتل والديك. الشرطي الذي ظن ديفيد متورطًا. أخبرته بكل ما يخص روب وبأني أظن أن جثته ما تزال في مكان ما من العزبة.

- ماذا فعلتِ؟ لمَ قد تفعلين ذلك؟ لم أطلبه منكِ قط.

- فعلته لأنني غبية ولم أكُن أعرفُ حينها أنك مجنونة!

تمتمتُ، وأنا أذرعُ الردهة مطأطئةً رأسي وكأنني أفكر تفكيرًا مسعورًا:

- لن يصدقوكِ. (لا يمكنها رؤيتي، لكنها ستسمعُ وقع خطواتي. ستشعرُ بقلقي) لن يصدقوكِ.

قالت:

- لا، ربما لن يفعلوا (زفرَت)، لكنهم سيصدقونه.

تيبستُ وصمتُّ، ثم قلت:

- ماذا؟

- إنه في طريقه إلى إسكتلندا ليكلمهم. سيخبرهم بكل شيء. سيخبرهم بالحقيقة.

حلَّت لحظةُ سكون طويلة بيننا، لا يكسر صمتها إلا تكُّ الساعة المعاند.

قلتُ أخيرًا:

- لكن لا يمكنه! لن يــ... لا يمكنه... لن...

- لكنه فعل. ولا، لن يصدقوه. فأنتِ أبرعُ من ذلك. سيعتقلونه.

أمكنني سماعُ غبطتها اللحظية إزاء حجم ذهولي. إزاء كون كلتانا مجروحتين. رأيتُ كل ذلك الحب الكامن له الذي أنكرته وقتًا طويلًا يستعرُ متقدًا داخلها.

قالت:

- كلتانا تعرفُ أنه لم يقتل روب، لمَ لا يمكنكِ قولها وحسب؟

قلت بهدوء بالغ لا يكاد يتجاوز الهمس:

- سيسجنونه. سيأخذونه مني.

انسكبَت الدموع من ركني عينيَّ. مجردُ فكرة الابتعاد عن ديفيد يمكنها إحداث رد فعلٍ جسمانيٍّ فيَّ، حتى الآن.

صار دوري لأصرخ:

- لمَ لم تقدري على كرهه؟ لمَ؟ لم عساكِ تفعلين هذا؟ (لم تُجِب، لذا عوَّلتُ مثل حيوانٍ وانهرتُ على الأرض) كان يفترضُ بك أن تكرهيه وحسب، (رحتُ أبكي في السماعة) كان يفترض بك اختياري، (جذبتُ ركبتيَّ وضممتهما تحت ذقني وصرتُ أشرقُ دموعي المخلوطة بالمخاط في كُمي الحريري، وقد نسيتُ نفسي في الدور) ما الذي يفترض بي فعله الآن؟ لا يمكنه هجري. لا يمكنه. لن يفعل.

قالت:

- لقد فعل (وقد صارت لويز الطرف الهادئ الآن، الطرف المسيطر)، لكن يمكنكِ وقفُ هذا يا أديل. أنتِ الوحيدةُ التي يمكنها ذلك. قولي الحقيقة. قوليها لي على الأقل، هنا والآن.

أردتُ أن أهسَّ في وجهها: *أوه لا، أيتها القديسة التقيَّة، لن يكون ذلك بهذه السهولة.*

- أنتِ مريضة يا أديل.

أوه فليباركك الرب على ذلك يا لويز، أيتها المرأة التافهة سارقة الأزواج. كلتانا تعرفُ أن الكلمة التي تفكرين فيها فعلًا هي "مجنونة".

تابعَت:

- الأقراص التي لم تأخذيها ستساعدك. إن ذهبتِ إلى الشرطة وأخبرتهم بالحقيقة -إن كان ما جرى مع روب حادثًا وهلعتِ- حسنًا، سيعاملونكِ برفقٍ أكثر. لم تفعلي إلا إخفاء الجثة. أما في حال ديفيد فسيظنونها جريمة قتل. قد يظنون أنه قتل والديكِ أيضًا.

لاحظتُ أنها تتفادى بحذرٍ شديد اقتراح أنني ربما قتلتُ الثلاثة؛ *أديل المجنونة المعتوهة.*

- سيكونون أكثر تلطُّفًا بك، فثمة ظروف مُخففة، كنتِ قد خسرتِ عائلتكِ وتلقيتِ علاجًا نفسيًّا. لن يسجنوكِ، واثقة من ذلك.

أوه، يا لها من معسولة اللسان. لا، قد لا يسجنونني، لكنني سمعتُ أن مستشفى برودمور ليس نزهة في الحديقة أيضًا، شكرًا جزيلًا.

أننتُ:

- لم عساه يفعل هذا؟ لمَ؟

- لا يحبك يا أديل. لم يحبك منذ زمن بعيد. إنه يحاول رعايتك وحسب. يحاول بذل قصارى جهده من أجلك.

أردتُ لكمها في وجهها لتعاطفها الزائف وافتراضها أنها تعرفُ الكثير عن زواجنا، لكنني حفرتُ ركبتيَّ بأظفاري بدلًا عن ذلك بينما تابعَت.

- لمَ تسببين له المعاناة؟ إن كنتِ تحبينه حقًّا -وأظن أنكِ تفعلين- يمكنكِ إنقاذه من هذا. لا يمكنكِ الاحتفاظ به يا أديل، لا يمكنك حبسه معك. تلك

ليست حياةً، ليسَت حياةً لكليكما. لكن ربما إن قلتِ الحقيقة، إن حميته في وقتِ حاجته إليك، ربما تصححين آنذاك شيئًا.

همستُ ثانيةً:

- لقد أخذتِ كل شيء مني، (لن أعترف بأي ذنب. ليس في هذه المرحلة المتأخرة من اللعبة) ما الذي يفترض بي فعله دونه؟

قالت:

- يمكنكِ فعل الصواب. *أثبتي* أنك تحبينه. اسمحي لكل هذا الهراء بأن ينتهي. ربما إن فعلتِ ذلك فعلى الأقل لن يكرهك. ربما *أنتِ* لن تكرهي نفسك.

همستُ:

- اغربي عن وجهي (مستمتعةً باللسان الفظّ في فمي. جلستُ هناك أرتجفُ للحظةٍ حتى تفجّر الحنقُ مني في سعيرٍ من البصاق، وصرختُ فيها ثانية) اغربي عن وجهي! (ثم طفحتُ باكيةً).

سمعتُ طقةً وصوت طنين الخط ثم عدتُ وحدي مع التكِّ اللانهائي للساعة. قلتُ في ذهني: *رباه، إنها عاهرةٌ متشامخة في بعض الأوقات*. بينما نهضتُ واقفةً، ووضعتُ الهاتف في جيبي، ثم مسحتُ دموعي. لكنها محقة. فقد حان الوقتُ لأجعل كل شيء أفضل.

53

لويز

كنتُ أرتجف وأنا أغلق الخط.

هل علقَت أي من كلماتي في ذهنها؟ ما الذي ستفعله الآن؟ تتصل بالعيادة؟ تدكُّ المنزل عندما تدركُ أنني لم أكُن أكذب؟ فكرتُ في كَم بدَت كسيرة. لا. لقد صدقتني. تعرفُ أنه رحَل. حاولتُ الاتصال بديفيد، لكن هاتفه حولني إلى البريد الصوتي. سيكون على متن القطار بالفعل ولا بدَّ أن الشبكة سيئة. شتمتُ في سري، لكنني تركتُ له رسالة لأخبره أنني في أمان.

أمان.

آدم. يفترض بي أن أقلّه في غضون ساعة. كيف عساي ألعبُ العائلات السعيدة معه الليلة؟ بينما يحدث كل هذا؟ أوه يا فتاي الصغير، إنني أحبه حبًّا جمًّا، لكن لا يمكنني تدبر أمره اليوم، فأنا مشتتة حدًّا يمنعني من ذلك، وثمة أديل أيضًا. هي تعرفُ أين أعيش. ماذا لو استحال انزعاجها الفظيعُ غضبًا؟ *معتلة اجتماعيًا*. هذا ما وصفها ديفيد به. ماذا لو طاردتني عندما تستوعب كل هذا؟ درستُ فكرةَ نزولنا في فندق مثلما اقترح ديفيد، لكن ذلك سيتطلب قدرًا كبيرًا من الشرح لإيان عندما يراه آدم، وأيضًا، جزء مني يريدُ معرفة مدى الجنون الذي ستبلغه أديل. أريدُ أن أكون مستعدةً إن طاردتني. أظنها ستفقدُ

زمام نفسها في غياب ديفيد. أمِلتُ تقريبًا أن تفعل، فهذا سيساعد في تأييد رواية ديفيد للأحداث.

اتصلتُ بإيان، وقطعتُ وعدًا صامتًا أني مهما حدث بخلاف ذلك، فسآخذ آدم غدًا لنشربَ شايًا في يوم خاص لأمٍّ وابنها. قلتُ عندما أجاب، وكان قلقًا بعض القلق:

- مرحبًا. (لا أتصلُ به في العمل أبدًا، فتلكَ الأيام ولَّت وانقضَت) لا يقلقنَّك شيء. كنتُ أتساءل إن كان بوسعكَ وليزا إسدائي معروفًا، على الرغم من أنني أطلبُ في اللحظة الأخيرة.

- ما هو؟

- أيمكنكما تولي أمر آدم الليلة؟ وجلبه من داي بلاي؟ لقد طرأ أمر ما وسأتأخر، إضافةً إلى أنني تلقيتُ دعوة عشاء لهذا المساء.

قال:

- بالطبع! سأتصل بليزا، وهي ستذهب لتحضره.

سمعتُ الحماسة في صوته. ظنَّ أنني سأخرج في موعد. أخيرًا، زوجته السابقة تمضي في حياتها.

قلتُ:

- أشكركَ، أنت نجمٌ في سمائي.

- لا عليك، ولتستمتعي!

تودَّعنا وأغلقنا الخط. كم هو غريب أن الحب قد يستحيل إلى بُغضٍ ثم إلى هذه الصداقة المُهادِنة!

قاومتُ دافعي إلى شراء قنينة نبيذٍ في طريقي، فمهما قلتُ لنفسي إني لن أشرب إلا كأسًا، في مزاجي هذا ستفرغ القنينة قبل أن يتصل ديفيد، ولستُ أثقُ بنفسي ألا تترجاه ليغير رأيه إذا كنتُ ثملة.

ومن ناحية أخرى فثمة أديل بالطبع. إن ظهرت وكنتُ أشربُ فلن أحظى بفرصة أمامها.

54

أديل

لا يوقف الزمان سيره، هذا ما يقولونه، أليس كذلك؟ *تِك تِك تِك*. إنه يسيرُ عبر اليوم. هذا اليوم الأخير. لم أتوقعه أن يكون الليلة. لم أتوقع أن أكون وحيدة عندما تحين الساعة الأخيرة. كنتُ قد خططتُ لفعلها في نهاية الأسبوع عندما كان آدم مسافرًا وديفيد هنا. مُخدَّرٌ ونائم، ربما، لكن هنا. بيد أن الظروف المثالية قد هيأت نفسها لي، وآدم في بيت أبيه، وديفيد، حسنًا، ديفيد يمضي في مهمته لتدمير نفسه إلى إسكتلندا، عائدًا إلى الديار ليريح ضميره. الأمر أفضل بكثير على هذا النحو، أقل تعقيدًا لأحدنا، وهذا كله في النهاية شأني ولويز. ديفيد ليس إلا جائزة في لعبةِ شدِّ حبلٍ. كلتانا تعبَت من الشد الآن، وحان وقتُ انتهاء اللعبة. يجبُ أن يتقرر رابحٌ وخاسر.

أُعِدَّ المسرح وبات كل شيء جاهزًا. جهزتُ غرفة النوم وكتبت رسالتي وتركتها في ظرفٍ أبيض مختومٍ على مكتب ديفيد، ظرف من قرطاسية جديدة، وباهظة، لا يحمل إلا بصماتي. لن يسعهم قول إن ديفيد حثني على ذلك. لقد فكرتُ بكل شيء وكله يجبُ أن يكون مثاليًا. يجب أن يبدو صائبًا.

ما يزال ثمة ساعات ينبغي أن تمر، وبعد أن تمرنتُ على كل شيء مرارًا وتكرارًا ولم يعُد بوسعي فعلها ثانية، رحتُ أمشي ببساطة في منزلنا الخاوي

.وأبلغ وداعي للجدران. تزايد خفقُ قلبي وجف فمي، وعرَتني حاجةُ شبه دائمةٍ إلى دخول الحمام. للمرة الأولى، أدركتُ أني خائفة.

انقطع المطر، وخرجتُ إلى غسقِ المساء البارد مستمتعةً بوخز القشعريرة في جلدي. وهدَّأني ذلك. لا بدَّ لي من حشدِ شجاعتي حتى آخر قطرة، ولن أفشل. أغصان الشجرة تتدلى دنيَّةً فوق المرج وحياض الزهور، لكنها مكتملة وتنضح بالحياة، ولم يحصد الخريف الزاحفُ الأوراق بعد. أشبه بنسخة بيتيَّة من غابة العزبة. عندما تُهجَر، كم ستستغرق هذه الطبيعة المقصوصة والمقلمة حتى تصير برِّية؟ أشعرُ أنني كهذه الحديقة: شيء برِّي مقصوص. بقيتُ هناك لبرهةٍ، أتلذذ بالروائح والنسيم ومنظرها كله، ثم عندما انغمسَ المساء في الليل وأخذ جلدي يرتعش بردًا، عدتُ إلى الداخل.

أخذتُ حمامًا طويلًا ساخنًا، لأربعين دقيقة، وربما أكثر. صار الوقتُ يبدو أسرعَ الآن، وكأنه مدركٌ ذعري المتزايد ويعابثه. رحتُ أجرُّ أنفاسًا عميقةً في البخار كي أُجابِه توتري. أنا المُسيطرة. لطالما كنتُ المسيطرة. ولن أصير امرأة ناحبة مولولة فزِعةً الآن، في النهاية.

جففتُ شعري، متمتِّعةً بكثافته الوضَّاحة، ثم تفحَّصتُ نفسي في المرآة قبل أن ألبس أفضل بيجاماتي الحريرية. أشعرُ برغبة في البكاء على الرغم من أن هذا سخيف، وكرَّهني في نفسي بعض الشيء. تحققتُ من وجود كل شيء حيث ينبغي أن يكون، وإن لم أُجهز الغرفة إلا منذ بضع ساعات وأعرف أن كل شيء حيث أريده. كما كان ديفيد يتحقق مرارًا من جواز سفره في المناسبات النادرة التي سافرنا فيها في نهايات الأسبوع. ابتسمتُ لذلك. التفكير بديفيد يسكِّنني. كل هذا من أجله. لطالما كان كل شيء من أجله. أحبه حبًّا جمًّا هائلًا لا يخبو.

نظرتُ إلى الساعة. العاشرة مساءً. في غضون نصف ساعة أو نحوها سيحين الوقت. سأستلقي في السرير وأغمض عينيَّ.

55

لويز

لم يُعِد الاتصال بي حتى تجاوزت الساعة العاشرة، وكنتُ من القلق بمكان أكادُ أتسلق الجدران آنذاك. حقيقةُ ما يفعله تترسخُ في ذهني على مهلٍ. قد يكون لقاؤنا التالي عبر طاولة الزيارة في السجن. شعرتُ بغثيان وشحن أعصاب كما لو أنني شربتُ كمًّا زائدًا من القهوة القوية، وفاضَ صوته في أذني سيلًا من الإراحة. كان في فندق في بيرث ينتظر ويغتنل القادم بسيارته للقائه. سرَّني أني لم أشرب. إن كان قادرًا على مجابهة الأمر بقوة فأنا قادرة مثله. أخبرته بشأن مكالمتي أديل، ناطقةً كل شيء بلا تفكيرٍ في موجة مدِّيةٍ من الكلمات.

- لم أستطِع حملها على الاعتراف. بدَت مذنبةً وكانت مهتاجة، لكنها لم تقُل فعليًّا إنك بريء. آسفة جدًّا. أردتُ أن أريها ما فعَلَت. أمِلتُ أن تقول الصدق. أردتُ إقناعها بالإفصاح عن حقيقة الساعة، عما حدث.

قال:

- لا بأس يا لو. (لم يشِ صوته بغضبِ البتة، إنما بتعبٍ واستسلامٍ وحسب. أحبُّ سماع اختصار اسمي من شفتيه مع ذلك. يبدو حميميًّا) ليسَت تعرف كيف تقول الحقيقة. لكن عليكِ أن تحذري الآن. لا أظنكِ تفهمين طبيعتها حق الفهم. لا يمكنني تحمُّل أن يصيبكِ مكروه ما.

- لن يصيبني شيء. أعدك. سأكون هنا حيث تحتاجُ إلي.

كنتُ أنطقُ عبارات مبتذلة، لكن لا يهمني.

تمتمَ ديفيد في الهاتف وقد جذب أحدهم نظره في الطرف الآخر من الغرفة البعيدة مئات الأميال:

- أظن أن ذاك هوَ. سأتصل بكِ حالما أقدر. أعدك. وأرجوكِ، ألا تخرجي من الشقة الليلة، وتذهبي إلى منزل جارٍ على الأقل؟

- ديفيد، أنا...

لا أعرفُ ما أقول. أنا أحبك؟ شيء يحمل تلك الإمكانية ربما. لم أتيقَّن قط من قدرتي على حب شخص ما كما أفعلُ مع ديفيد. لكنني لم أتمكن من إنهاء نصفِ تصريحي عن نصف الحب، ذلك أنني سمعتُ طنين الهاتف إذ ناداه الشرطي.

تسرَّب التوترُ مني في غمضة عين. لا رجعة الآن. لم يعُد أمامه وقتٌ ليغير رأيه. شعرتُ أنني جوفاء خاوية وتمنيتُ بأنانيةٍ لو أن آدم هنا كي يسعني الذهاب إلى غرفته والنظر إليه نائمًا وتذكير نفسي أنني حظيتُ ببعض الحظ الجيد في هذا العالم. بدلًا عن ذلك، ذهبتُ إلى المطبخ وتناولتُ قنينة الجِن والعصير من الخزانة. سيكون أفضل من اللاشيء. كنتُ في خضم صبِّ كمية كبيرةٍ كبرًا غبيًا وقتما طنَّ هاتفي. رسالة.

اندفعتُ عائدةً إلى غرفة الجلوس، وقد غادر قلبي صدري خوفًا. أهو ديفيد؟ أقال له الشرطي أن يذهب إلى المنزل ويجري فحصًا طبيًا لرأسه؟ هل تركوه دون أن يسمعوه؟ ظانين أنه مضيعة للوقت؟

لكن لم يكُن هو، بل أديل. كنتُ واثقة أنه هو حدَّ أنني حدقتُ إلى الهاتف للحظة قبل أن أرى الاسم، ثم ضاقت معدتي توترًا. ماذا بعد؟ ما الذي ستفعله الآن؟ ضغطتُ الزر لأقرأ رسالتها.

كنتِ محقة. عليَّ أن أحسِّن الأمور، وأكون صريحة بخصوص كل ما حدث. لا يمكنني العيش دون ديفيد، وسيأخذونه مني. لكن لا يمكنني أن أُحبَس أيضًا. لا يمكنني فعلُ ذلك. لا أريد أن أكون في مكان مريع ما مع أناس مجانين. إنه رأسي، ولا أُريد أن يُعبث به. لستُ من القوة بالحد الكافي لذلك،

أو لأعيش دون ديفيد إلى جانبي. لذا سألجأ إلى الخيار السهل لأنقذه. ربما ليس سهلًا لكنه خياري الوحيد. وأظنه الطريق الصحيح أيضًا، بعد كل شيء. آملُ أنكِ سعيدة الآن. ربما يسعدُ هو الآن، بعد رحيلي. كنتُ صديقتكِ يا لويز، لفترةٍ وجيزة. أرجوكِ تذكري ذلك.

حدقتُ إلى الرسالة محاولةً اكتناهها. ماذا ستفعل؟ ما الذي تقوله هنا؟ تلجأ إلى الخيار السهل؟ ما معنى هذا؟ الحقيقة تصرخُ في مكان ما داخلي بينما تحاول بقية دماغي إدراكها. هذا بعيدٌ جدًّا عما كنتُ أتوقعه منها. بيد أنني فكرتُ أيضًا بالصورة التي كانتها على الهاتف: كسيرة باكية. قد تكون معتوهة، لكنها تحب ديفيد. ولم تعِش دونه قط.

ألجأ إلى الخيار السهل. ستقتلُ نفسها. فكرتُ في كل الأقراص في الخزانة. أستبتلعها كلها؟ أهذا ما تنتويه؟

حاولتُ الاتصال بها، لكنها لم تُجِب. تبًّا تبًّا تبًّا. أخذت أذناي تطنان توترًا. ماذا أفعل؟ أأتصل بالشرطة؟ وماذا أقول؟ ماذا إن لم يكُن ذلك صحيحًا حتى؟ فهذه أديل بالنهاية. أهو اختبار من نوع ما؟ خدعة؟ لكن ماذا إن لم يكُن؟ حتى بعد كل ما جرى، لا أريدُ لضميري حمل هذا الثقل إن كان بوسعي إنقاذها. كيف لي أن أعرف؟

أدركتُ أن ثمة شيئًا واحدًا يمكنني محاولته، جنوني الخاص الذي فتَحَتْ أبوابه فيَّ. قدرتي الجديدة.

جرعتُ نصف الجِن والبرتقال، وجلستُ على الكنبة. إن قدرتُ على رؤيتها، فسأعرف حينها. بطَّأْتُ أنفاسي، وتركتُ عنقي يسترخي. لم أفكر بأي شيء سوى الباب. ركزتُ كما لم أركِّز قبلًا، وها هي ذي، الفضة الوامضة. فكرتُ بمنزل أديل. غرفة نومها. السرير الباهظ المؤطر بالمعدن. الجدار المُخصص ذو الشرائط الخضراء الثلاث. شعور مفرش السرير القطني تحتي. الألواح الخشبية. ظننتُ للحظة أن بمقدوري الذهاب إلى هناك، ثم لفظني الباب واختفى. إنه بعيد جدًّا. لا يمكنني بلوغ ذاك البُعد. ليس بعد.

لعنتُ نفسي ولعنتُها ولعنتُ كل شيء، ثم جلستُ أخيرًا وتناولتُ هاتفي. نقرتُ على تطبيق أوبر، وبحثت عن السيارات المتاحة خلال دقيقتين.

كنتُ صديقتكِ يا لويز، *لفترة وجيزة.*

اللعنة تبًّا اللعنة، علي الذهاب. عليَّ ذلك. لا خيار آخر لدي. لم آخذ معطفي حتى قبل أن أخرج مندفعةً في تلك الليلة الباردة.

أوفَت سيارة الأجرة بوعدها، إذ وصَلَت حالما بلغتُ الشارع تقريبًا، وبعدَ أن صحتُ بالسائق معطيةً إياه عنوانًا، تركتُ رسالة على هاتف ديفيد أخبره فيها أين أذهبُ ولمَ. إن كان هذا فخًّا وحدث خطب ما، فسيعرف على الأقل ما أصابني. مَن أصابني. حاولتُ الاتصال بها ثانيةً، ولم تُجِب. صارت قدمي تنقرُ بينما انحنيتُ إلى الأمام في مقعدي أحث المحرك على الإسراع أكثر.

كم مرَّ منذ وصلتني الرسالة؟ عشر دقائق على الأكثر كما أظن. لكن ربما أطول مما يجب بعدة دقائق. أفاتني الأوان بالفعل؟

خرجتُ من السيارة قبل أن تتوقف تمامًا، وتمنيتُ له ليلةً سعيدةً تمنيًا ناقصًا، ثم طِرتُ صاعدةً الدرجات الحجرية ورحتُ أضغط الجرس ضغطًا شديدًا بيدٍ مرتجفة. سمعتُه يرن من الطرف الآخر، لكنني لم أرَ أضواء في الطابق السفلي. ضغطتُ الجرس ثانية، وأبقيتُه مضغوطًا خمس ثوانٍ أو أكثر، ولا رد.

جثمتُ ورحتُ أحدق عبر فتحة البريد.

- أديل؟ إنها أنا!

فهبَّت رائحة جارحة ناحيتي؛ دُخان؟ رأيتُ في الطرف القصي للرواق رجفانَ وميضٍ برتقالي يبدو من داخل المطبخ. أوه تبًّا! اللعنة! حريق.

ما كان ما قالته أديل؟ ستصوَّب الأمور؟ أكان والداها قصدَ حديثها أكثر منه روب؟ حريق قتل عائلتها، ونشب حريق في محل الزهور حيث عمِلت. أهذا أسلوبها؟ هل قتلها نفسها بحريقٍ طريقتُها في تسوية الأمور نوعًا ما؟ رننتُ الجرس مرة أخرى، ووجهي يحمرُّ هلعًا، ثم تذكرتُ المفتاح ورحتُ أنبش في الأصيص، وحفرتُ عميقًا في التراب قبل أن أتقبَّل غيابه. لقد استردَّتْه. لا طريق أمامي.

لم أعرف ماذا أفعل. ماذا لو لم تكُن في الداخل؟ ماذا لو كانت تحاول الإيقاع بي بتهمة الحريق المتعمَّد أو شيء ما؟ لكن من ناحية أخرى، بالمقابل، ماذا لو كانت في غرفتها في الطابق العلوي؟ مخدرة وتنتظر أن تحترق أو تختنق

أو أيًّا كانت الطريقة الجحيمية التي يموت فيها الناس في البيوت المحترقة؟ خبطتُ على الباب. إنها قريبة أشد القرب وبعيدة كل البُعد مع ذلك.

أشد القرب.

فكرتُ في الباب الثاني. أنا قريبة الآن. ربما يمكنني فعلها من هنا. جلستُ على الدرجة العلوية واتكأتُ على الشرفة، ساندةً نفسي في الركن. أخذتُ أنفاسًا عميقة، ورحتُ أركزُ على المدخل الفضي. إنني أزدادُ تحسنًا في ذلك بعد أن كففتُ عن الخوف منه. يمكنني *استدعاؤه* الآن بدلًا عن مجيئه إليَّ باختياره.

عندما صارت الحوافُ تتلألأ ساطعة في الظلمة وراء عينيَّ، تخيلتُ غرفة نوم أديل. الصورة نقية. ألوان الجدران، أخضرُ الغابة المليء بالذنب. الحمام الداخلي في الزاوية. برودة الهواء الذي يحتجزه الطوب القديم. المرآةُ على ظهر الخزانة. رأيت ذلك بوضوحٍ بالغ، ثم فجأة عبرتُ الباب و...

... صرتُ هناك أحوم في الغرفة. كانت معتمة، لكن بإمكاني رؤية أديل، مستلقية على سريرها، جامدة ومثالية في بيجامة حريرية كريميَّة. لا آثار للأقراص، أو لماءٍ تأخذ الأقراص معه، لكنني شعرتُ بخواء رهيب ينبعث منها كما لو أنها ميتة بالفعل. وتعلَّقت ثقالة رمادية في الهواء حول جسدها مع صعود خيوط الدخان الأولى من الردهة في الأسفل.

أدركتُ أنها غادرت. ليست ميتة، بل خارج جسدها. لا تريد الشعور بموتها. لا تريد أن تكون هنا عندما يحدث ذلك. أهي خائفة من أنها قد تغير رأيها؟ أن تهلع في اللحظة الأخيرة؟ أهذا ما حدث مع والديها؟

تحركتُ مقتربةً منها وأنا أسمعُ طقطقةً من الطابق السفلي. لا تنتشرُ النيران صامتة، وبالحكم من الضجة التي أسمعها، فهذا الحريق يكبرُ سريعًا. كان يجدر بي الاتصال بسرية الإطفاء. كان يجدر بي الاتصال بالشرطة. كان يجب أن أفعل شيئًا عمليًّا. سيلاحظ بعض الجيران اللهيب قريبًا، لكن سيكون الأوان قد فات. كيفما بدأت أديل الحريق، فإنه يستحوذ على المنزل. عليَّ إخراجها منه. مددتُ يدي إليها لا شعوريًّا، لكن لا قبضة لي، أنا خيالية، لستُ إلا طاقة. ماذا أفعل؟ كيف يمكنني إخراجها من هنا؟

خطرت لي فكرة، باردة وواضحة، كما لو أن التفاعلات الكيميائية الناجمة عن افتقاري للجسد قد أخضعت هلعي. فكرة مجنونة ولستُ أعرفُ كيف تكون ممكنةً حتى، لكنها قد تكون فرصتي الوحيدة لإنقاذها.

جسدها خاوٍ. أنا هنا. لن يستغرق هبوط الدرج والخروج من المنزل إلا ثلاث أو أربع دقائق ثم نصير كلتانا في أمان. هذا كل ما لديَّ. سرعان ما سيصير عبور الدرج غير ممكن. فثمة أرضيات خشبية في كل مكان. مطليَّة بالورنيش. كم تبلغ سرعة احتراقها؟

حدقتُ إلى جسدها، وما أزال مدهوشة بعض الشيء من شدة جمالها، ثم فكرتُ في عينيها الجوزيتين. تخيلتُ أن أرى من ورائهما. كيف سيكون شعورُ وجودي داخل ذلك الجلد، الغض والمشدود والمَشِيق. تخيلتُ أن *أكون* أديل، تخيلتُ الانسلال في ذلك الجسد، في السيطرة عليه، ومن ثم -بعد أن شعرتُ برجَّة صدمةٍ رهيبة في مكان ما من صميمي، شعورٌ بأن ثمة شيئًا ما *في غاية الخطأ*- صرتُ داخلها.

56

بعدئذٍ

قال المحقق باتينسُن:

- لم تذكُر الحريق في منزل والديها في الرسالة التي تركَتها، لكن تنصُّ التقارير أنها نشبَت من عُلبة القواطع.

وهو رجلٌ دحداحٌ برميليُّ القوام شهدَت بذلته أيامًا أفضل، لكن ثمة في عينيه ضجرًا من العالم ينمُّ عن شرطي محترف، مأمون الجانب، والناس تثق به، وهادئ.

تابع كلامه:

- والنارُ التي أضرمتها في منزلك أيها الدكتور مارتن، بدأت أيضًا من علبة القواطع في الخزانة في المطبخ، لذا ربما ثمة دليل شعور بالذنب في ذلك.

سأل ديفيد:

- أتعرفُ ماذا استخدمَت؟

كان شاحبًا ويبدو كالحًا على صورة المصدومين، لكن روحه *أخفّ* بكثير أيضًا. بالطبع سيكون كذلك. دق دق، *ماتت الساحرة*.

- زيت التربنتين ومناشف الصحون المنقوعة.

أومأ ديفيد:

- هذا منطقي. كانت تعدِّل الديكور.

- وجدنا الرسالة التي كتَبَتْها -اعترافها إذا صح التعبير- على مكتبك. وفيه أكَّدَتْ كل ما قُلتَه لرئيس المحققين ويغنل في بيرث. وضعَتْ جثة روبرت هويل في البئر في العزبة، وكانت ترتدي ساعتكَ آنذاك. أكدوا لنا من إسكتلندا أنهم استعادوا الجثة، وهي في حالة تحلُّلٍ شديدةٍ بالطبع، لكننا نترقبُ وصول سجلات الأسنان لتأكيد الهوية. وأيضًا، بالنظر إلى صيغة وفاة زوجتك -جرعة الهيروين الزائدة، وهي نفسُ سبب الوفاة الذي تنسبه للسيد هويل- يظهرُ أنها كانت تحاول القيام ببعض التعويض. ربما كانت في حاجةٍ إلى تبرئة ضميرها في القضيتين، والداها والسيد هويل.

سأل ديفيد:

- لكن من أين حصلت على الهيروين؟ لقد كانَت أشياء كثيرة، لكنها صدقًا لم تكُن هذا الصنف من الناس.

قلتُ، كما لو أن الفكرةَ قد مرَّت في بالي من توِّها:

- أنتوني. (كان حلقي ما يزال مسحوجًا تمامًا من أثر الدخان ويبدو صوتي مبحوحًا) أنتوني هوكينز. رأيته يتبعها بضع مرات. ربما حملته على جلبه؟

- هوكينز؟

دوَّن المحقق الاسم.

قال ديفيد:

- إنه أحد مرضاي، أو يجدر بي القول مريض سابق عندي. مُدمن مخدراتٍ ووسواسيٌّ. ظهر أمام المنزل. (رأيتُ الضوء يشتغل حينذاك) وفتحت أديل الباب. ربما انتقل وسواسه إليها، فأديلُ -*كانت*- بالغة الجمال.

- سنتكلم إليه. أما عن رسالة زوجتك، فهي بخط يدها ولا تحملُ إلا بصماتها لذا لا شكَّ في أنها كتبتها (رفعَ رأسه)، وهذه أخبار رائعة بالنسبة إليك. مع أنكَ محظوظٌ أن النار لم تأكلها.

قال ديفيد، ونصف ابتسامة مريرة تعلو وجهه:

- أديلُ المعهودة. حتى في لحظاتها الأخيرة لم تستطِع تحريري بالكامل.

بالكاد كنتُ أنصت. لا يمكنني التفكير إلا في أن ديفيد ممسكٌ يدي، ويعتصرها بشدة. لم أشعُر بذلك منذ وقتٍ طويل جدًّا. في الليلة الماضية، على الرغم من أننا كنا في اليوم الثالث من مَطهَر الشرطة، فقد مارسنا الحب وضحكنا وابتسمنا وضمَّ واحدنا الآخر بشدة. أشعرُ وكأنني في حُلم.

سألتُ والقلقُ يعتريني:

- أسيتحتم على ديفيد دخول السجن؟

- لا يمكنني التعقيب على ذلك حتى ينتهي التحقيق، وآنذاك إن رُفعَت دعاوٍ رسمية، سيجري إبلاغ محاميك. ثمة ظروف مخففة بأي حال. كانت ضعيفة في وقت وفاة السيد هويل، وكان يحاول حمايتها. على الرغم من أنه وإن كان الموت حادثًا، تظل حقيقة أن أديل خبأت الجثة وكان ديفيد شريكًا بعد الفعل قائمة.

قال ديفيد:

- أعرف. لن أقاومَ أي تُهمة في ذلك الصدد.

- وأتصورُ أنك لن تمارس الطب النفسي قريبًا أيضًا، صحيح؟

بدا باتينسُن متعاطفًا، فمن بين كل المجرمين الذين لا بدَّ شهدهُم في سنين خدمته، يجب أن يكون ديفيد الأقلُ شبهًا بهم.

قال ديفيد:

- لا، لا أتصور ذلك. هذه عاقبة أخرى سأصبر عليها. لا أمانعُ كثيرًا في الحقيقة. لعلّي في حاجة إلى تغيير محيطي.

ثم نظر إليَّ وابتسَم، ورددتُها بابتسامة عريضةٍ حدَّ أنني ظننتُ وجهي سينفتق. لا حاجة لأن نخفي مشاعرنا من الشرطي. فالعلاقة، *والحُب*، وكل ذلك مذكور في الرسالة.

وأنا الأعلم بذلك، فقد كتبتُها.

دفعتُ الشعر الأشقر غير المألوف عن وجهي ونحنُ نغادر قسم الشرطة. ما يزال جسدُ لويز -جسدي- غريبًا. فأولًا وقبل كل شيء، بطَّأتني حيازة هذا الوزن الزائد فجأة، لكنني أستمتُع بتعاريج قوامي، وإن كان ديفيد يحبها فستبقى. بيد أنها تحتاجُ إلى نظاراتٍ للرؤية البعيدة، ولا أظنها قد لاحظت ذلك بعد.

أوه يا لويز، كم كانت مثالية، وكم كان أداؤها رائعًا. وعليَّ إيفاء نفسي حقها، فقد سارَت خطتي سيرًا ممتازًا. بعد محاولتي الفاشلة لشراء الهيروين في ذلك النفق الشنيع التي أسفرت عن عين مكدَّمةٍ وخسارة حقيبتي تقريبًا، وقع أنتوني هوكينز في حجري وكان في *أتمِّ* السرور أنَّ ثمة شيئًا يمكنه إسدائي إياه. جلب لي مخدرات، والمحاقن، وأي شيء احتجت إليه.

كنتُ قد تدربتُ على الهيروين، لذا عرفتُ المقدار الدقيق الذي يمكنني حقن نفسي به -بين أصابع قدميَّ بعيدًا عن أي آثار تعاطٍ تُرى- دون أن أسقُط في غشاوة مباشرة. كنتُ أتدربُ في ذلك اليوم وقتما ظهرَت لويز وحمَّلت ذنب حالتي للأقراص. إكراميَّة غير متوقَّعة.

حضَّرتُ النار، لكنني لم أشعلها، وعندما تأخر الوقتُ حدًّا كافيًا، أرسلتُ لها نيَّتي المفصَّلة في قتل نفسي. *راقبتُها*. رأيتها تحاول رؤيتي وتستسلم. وقبل أن تتوقف سيارة الأجرة في الخارج، أشعلتُ النار وهرعتُ إلى الطابق العلوي. ومع أول رنةِ جرس، حقنتُ نفسي بكمٍّ كافٍ من الهيروين، ثم خبأتُ ما بقي من المخدرِ تحت السرير حيثُ كنتُ قد وضعتُ قبلًا زوجين من قفَّازات ديفيد الطبية. عبرتُ الباب الثاني. *رأيتها* في الخارج. وهنا كان الجزء الأصعب: اختيار الوقتِ المناسب لولوجها بعد أن يفرغ جسدها. انتظارُ الرعشة الأولى التي تعني أن شيئًا ليس على ما يرام. هزةٌ في الجو من خلفي تُعلمني أنها تدخلُ جسدي. لو أنها رجعَت لجسدِها، كلي ثقة أنني كنتُ لأُطرد.

لكن الحظَّ يمشي مع الشجاع، وصار جلدها ملكي. أخذتُ المفتاح من فوق عتبة الباب حيث خبأتُه وعدَوتُ على السلالم عبر الدخان الآخذ بالتكاثف.

كانت تئنُّ أنًّا خفيفًا على السرير، وعيناها ذاهلتان، إذ تبلغُ جرعةُ هيروين غير متوقعة بفتاة هذا المبلغ. ركَّزَتْ بعض التركيز عندما رأتني. لويز هناك، وراء عينيَّ، تنظرُ إليَّ في جسدها. كانت خائفةً في تلك اللحظة، على الرغم

من انتشائها. أظنها حاولَت قول اسمي، فقد غرغرَت شيئًا ما بأي حال، لكنني لم أتوقَّف لأودِّعها، فلا وقتَ لدينا لذلك. وضعتُ القفازات واستعدتُ بقية المحقن، وحقنته بين أصابع قدميَّ/ قدميها، ثم ليلة هانئة يا عزيزتي لقد انقضى القضاء.

رميتُ المحقنَ على الأرض، وحشرتُ القفازات في جيبي لأتخلص منها لاحقًا، ثم أنهضتُها، شاكرة نفسي على كوني بالغة النُّحل، وشاكرةً إياها على ذهابها إلى النادي الرياضي بعض الذهاب، ثم جررتُها هبوطًا على السلالم فخروجًا إلى الليل. كانت صفّارات الإنذار تعوِّل في الظلمة بحلول ذلك الوقت، والعجوز الضئيلة في المنزل المجاور واقفة في الشارع برداء نومها قابضةً على كلبها النبَّاح.

وهذا ما انتهى إليه الأمر. وقتما ظهرت سيارات الإطفاء، أخبرتهم عن الرسالة وكيف أنني حفرتُ الأصيص مخرجةً المفتاح الاحتياطي ودخلتُ وحاولتُ إنقاذها. مع أنها كانت ميتةً بحلول ذلك الأوان، إذ ماتت في الغالب في منتصف السلالم.

وداعًا أديل، ومرحبًا بلويز.

إذا أحببتَ شخصًا ما، فأطلق سراحه. يا لها من شِحنة هراء!

57

آنذاك

قالت أديل:

- كنتُ أفعلها وقتما توفي والداي (كانا ناشرين أطرافهما أمام النار، وكتابُ شكسبير الذي تقرؤه له مُهمَل بجوارهما) أهيمُ في كل مكان بلا قصد. كأنني كنتُ الريح أو شيئًا مثلها. أحلِّق فوق الطبيعة.

مرَّرَت الحشيشةَ لروب، وليس أنه في حاجة إليها، فقد كان يطارد *التنين* كما تُسمي ذلك؛ يدخِّن بعض الهيروين. ليس يحقنه على الأقل، وهذا أمرٌ يُحتَسب.

تابعَت كلامها:

- بدأت القصة عندما كنتُ صغيرة. قرأتُ عن الحلم الواعي في كتاب قديم أعطانيه ديفيد، وبعد أن أتقنته، بدأ هذا الأمر *الآخر* كله. في البداية لم أستطِع فعلها إلا في نومي. ربما كان الأمر متعلقًا بالهرمونات أو بشيء ما. ربما لم أحُز تلك القوَّة الذهنيَّة في طفولتي. لكن رباه، لطالما كانت رائعة، هذه المهارة السرية. في البداية كانت الأماكن التي يمكنني تخيلُها فقط، وفي البداية لم أقدِر على الابتعاد كثيرًا البتة، ثمَّ مع مرور السنين رحتُ أتحسن وأزداد تحسنًا. أو ربما صارت فطريةً أكثر. أما

الآن فبوسعي فعلها في طرفة عين، وأحلِّق. حاولتُ إخبار ديفيد بالأمر مرة، لكنه ضحكَ عليَّ وحسب. ظنني أمزح أو شيئًا ما. عرفتُ آنذاك أنه لن يصدقني أبدًا، ليس حقًّا. لذا أبقيتُه في سري. حتى التقيتك.

قال روب:

- لهذا كنتِ تأبين النوم.

أمسكَ بيدها واعتصرها وكان شعورًا جيدًا. شعورٌ جيد أن تتمكن من *التكلم* عن هذا مع شخصٍ ما. من مشاركته كله.

قالت بِلين:

- أجل. كان موت والديَّ ذنبي. الحريق حادث، مهما يقول أيُّهم، لكنني لو كنتُ هناك، أو حتى لو كنتُ نائمةً نومًا طبيعيًّا، لاستفقتُ. لفعلتُ شيئًا ما. لكنني لم أكُن. بل كنتُ في أعالي الأشجار أراقب البومات والغابات وكل أشكال الحياة التي تخرجُ في الليل.

قال روب:

- الأمور السيئة تحدث أحيانًا. عليكِ تركها في ثنايا النسيان والمضيُّ في حياتك.

قالت:

- أوافقك، (ثم، وبمزيدٍ من الصدق) ولا أظنُّ أن بوسعي التخلي عنها إن حاولت. إنها جزء مني، من هويتي.

فقال:

- إذن فما قصة الباب الثاني؟ لقد رأيتُه بضع مرات بالفعل، لكنه بلبلني. كتبتُ عنه في المفكرة.

- لمَ لم تخبرني من قبل؟

- لم أُرد أن تظنيني مسخًا.

ردَّت اعتصاره يدها بمثله. إنها تحبُّ روب، تحبُّه حقًّا. وربما لم يُعجَب ديفيد به أكثر الإعجاب -ترى ذلك حتى لو لم يقل شيئًا- لكنها واثقةٌ أنه سيفعل تدريجيًّا.

قالت:

- حسنًا، إن كنتَ مسخًا، فأنت مسخٌ مثلي.

ثم ضحكا. هي سعيدة. وهو سعيد. وديفيد رائع. مستقبلها يبدو مشرقًا.

- أحبُّ أنكَ قادرٌ على فعلها أيضًا. هذا مذهل.

قال روب، وهو يستديرُ ويرفع نفسه على مرفقه:

- هيه، علينا تجربة شيء. شيء مجنون جنونًا عابثًا بالعقل بحق.

58

روب

وقفنا بجوار القبر يدًا بيد. كنا نُسجِّي الماضي في مرقده بوجودنا هنا. نُلقي كلمات وداعنا. لا يوجدُ الكثير ليُرى: اسم وتاريخان وحسب. ما سوى ذلك يمكن لديفيد أن ينقش على تلك الشاهدة الرخامية؟ "زوجةٌ مُحبَّة"؟ وبأي حال، قد يكون جسدَ أديل، لكن لويز هي المدفونة فعلًا في هذه الرقعة من الأرض.

أديلُ العذبة التعِسة. حسنائي النائمة المفجوعة. بالغة العذوبة والطيبة وفي غاية البساطة مع ذلك. لكن الأمر أشبه بروميو وجولييت، فقد ظل روميو يظن أنه يحبُّ روزاليند حتى رأى جولييت. بعضُ الحبِّ جارفٌ حدَّ أنه يأخذ في طريقه كل شيء سواه.

أتذكرُ كل ما كان في أول لحظةٍ رأيتُ ديفيد فيها: أديلُ على الحصاة، كلها حماسة بنَّاتية، وأنا، أتوانى في الظلال على الدرجات، كلِّي استياء من غزوه المُحدِق جنَّتنا.

ثم خرج من تلك السيارة القديمة البالية وكان... كان *تجليًا*. وعجزتُ عن التنفس للحظة. شعرتُ أني عَميتُ واستنرتُ في آن معًا. كان حبًّا من أول نظرة، حبًّا لا يمكن أن يموت أبدًا. بهِتت أديلُ وكل طيبتها الرقيقة بالمقارنة معه، وصار ما شعرتُه ناحيتها محض هباء منثور. ضاع في ثانية. كان ديفيد

قويًّا. ذكيًّا. أحببتُ الهيئة الواثقة التي يتحلى بها. كل ذلك الوقار. فهمتُ أخيرًا لمَ أحبَّته أديل هذا الحب، لكنني رأيتُ أيضًا في تلك اللمحة كيف يمكنها أن تعيقه، فهي معطوبة أكثر مما يجب بالنسبة إلى شخصٍ متألّقٍ مثل ديفيد. كان في حاجة إلى شخصٍ يكون ندًّا له. في حاجةٍ *إليَّ*.

بالكاد قدرتُ على الكلام طيلة العطلة، أدمدمُ أجوبةً عن أسئلته وحسب، أو أظهر كأحمق تام مُحاولًا الظرافة بينما أتمنى أن تغربَ أديلُ بكلِ تدليلها في داهيةٍ عنا وتتركنا لأتمكن من التلذذ بحضوره. عرفتُ آنذاكَ أن عليَّ نيلَه. عليَّ ذلك. كان قدرًا.

اضطجعتُ صاحيًا ليلتين أنصتُ إليهما يضحكان ويتناكحان، وقد أحرقني ذلك. أردتُ الشعور بيدَي المزارع القويتين تينك على جلدي. فكرتُ بالجنس الذي منحته لأحد الممرضين لأحصل على الحشيش في ويستلاندز، وتساءَلت كم سيكون فعل ذلك رائعًا مع شخص مثل ديفيد. مع شخصٍ أهيم به. أردتُ لمس ندوب ديفيد وتذكيره أنه *لولاها* لكان ما يزال كاملًا. عبرتُ الباب الثاني ورحتُ أشاهدهما لبعض الوقت، معذبًا نفسي بمرأى ظهره القوي فوقها. أردتُ الشعور بذلك الشغف. بذلك الحب.

عندما غادر عائدًا إلى الجامعة شعرتُ وكأن روحي انتُزعت مني. شعرتُ أني فارغ. لم أُرِد العيش دون أن أحظى به. لمَ تحظى أديل به؟ أديل المتكلفة الضعيفة، التي لا تقدِّر قيمة شيء؟ التي اعتبرَت حبَّه مسلمًا به؟ التي معها كل هذا المال ولا يهمها أمره؟ لو حظيتُ بذلك، وديفيد، لحرصتُ أن تشرق حياته.

وهنا خطرَت لي... خطتي البسيطة والمخيفة.

قلت:

- أنذهب؟

وانحنيتُ أقبلهُ بشفاه لويز المكتنزة.

أومأ برأسه:

- لا بدَّ أن السأم قد نال من آدم.

تمشَّينا تحت أشعة الشمس الأخيرة عائدين إلى السيارة، ورحتُ أتأملُ روعة الحياة في حقيقتها عندما يكون المرء عاشقًا.

المرة الثانية لفعلِ شيء ما أسهل من سابقتها. وكانت أسهل مع لويز، إذ كمن كل خوفي في التخطيط. في المتغيرات. أما في حالة أديل، فكنتُ خائفًا ألا ينجح الأمر حتى بعد أن وافقَت على فكرتي المجنونة: "*فلنرى إن كان بوسعنا تبادل الأجساد! لدقيقة فقط!*"

لم تكُن لويز لتسايرَ هذا بالطبع، لكن أديل كانت صغيرة، وغباء الصغار ذائع الصيت، وكانت دائخةً انتشاءً ومسرورة لوجود شخصٍ ما يمكنها مشاركته سرها أخيرًا. وبالطبع، لقد أحبَّتني. توليفة مثالية. تعاطيتُ كمية كافية من الهيروين، لكنها لا تكفي لتلاحظَهَا إن ركزتُ، وخرجنا إلى الغابة نضحك، ما كان قولها؟ *إن كنا سننخرط في السحر الأسود فيجبُ أن نفعل ذلك في فسحة في الليل.* وهذا ما كان.

ثم تبادلنا. غادرنا جسدينا، وعددنا حتى الثلاثة، ودخل كل منا في جسد الآخر. لَم تَعرِف ما أصابها. لم يكُن التنفيخُ الهزيلُ للسيجارة إعدادًا كافيًا لقوة انتشاء الهيروين، وفي خلال ثوانٍ، كان المحقن داخلها. وجرى إيصال الجرعة الزائدة. مثلما قتلتُ لويز.

وداعًا روب، ومرحبًا بأديل.

أنهكني توصيل الجثة إلى البئر، فأجسادُ النساء واهية للغاية، ولم أتحضَّر لذلك. التصقت أوراق الأشجار الجافة والطين بسروالي الجينز، وآلمني جسدي الضعيف بعدما برد عرقي تحت الهواء الرطِب البارد. توقعتُ أن أرى العالم مختلفًا بعد ذلك، لكن لم يتغير منظر شيء. الشيء الوحيدُ المختلفُ كان أنا. كان سقوط الساعة حادثًا ميمونًا. لم يهمني ذلك كثيرًا، فقد أعطاها *لها*، لا لي، ولم يهمني كثيرًا تركُ جسدي ليتعفَّن هناك كذلك. لم أحبه عمري. لم يختصر قط ما كنتُ في باطني. كنتُ أكثر بهاءً بكثير من تلك القوقعة العجينية الرقطاء. لكنني احتفظتُ بالمفكرة. رابطي الوحيد بحياتي السابقة. مزقتُ الصفحات التي تذكر الباب الثاني –خوفًا من أن يراها ديفيد صدفة– ثم خبأتها في صندوق بقايا حياتَي والدَي أديل. ما زلتُ أحتفظُ بها، فمن كان يعرفُ أنها ستكون نافعة إلى هذه الدرجة؟ ربما ستفعل ثانية.

لم أدبِّر الانتقال إلى جسدِ أديل بإبداع بعدئذٍ. كان ينبغي لي إظهار بعض الأسف على الجثة المتكوِّمة في البئر. وأظن أن ذلك أول نذير خطرٍ أشار لديفيد. ثم بالطبع، اكتشافُ الحمل المُفزع. كنتُ أعاني المشقة في التأقلم مع كل مزايا الجسم الأنثوي ما يمنعني حتى من تذكر أنني يجب أن أحظى بدورة شهرية، وكان من المستحيل أن أكون مستعدًّا لينمو إنسان كاملٌ آخر داخلي. وأيضًا، كان طفل أديل، لا طفلي. ولم أُرِد أي جزء منها في حياتي الجديدة البديعة مع ديفيد. ولم أعرف الكثير عن أديل كذلك. لم يكن أي من تاريخهما إلى صفي عندما تعلق الأمر بأن يحبني ديفيد. اضطررتُ إلى تزييف الكثير من الانهيارات لإبقائه، ثم، بالطبع، لجأتُ إلى تهديده.

هذه المرة مختلفة. ديفيد لا يعرف لويز أحسن المعرفة، وقد راقبتُ وتعلمتُ وحفظتُ حياتها، ومزاياها، وأذواقها، وحس دعابتها. لكنه يحبني الآن، يمكنني رؤية الحب في عينيه. لقد تحرر من الماضي. ربما سأمنحه طفلًا هذه المرة، لنصير عائلة حقيقية.

سألني عندما صرنا في السيارة:

- إلى أين ترغبين في الذهاب في شهر عسلنا؟ اختاري أي مكان تريدين.

تزوجنا منذ أسبوع، كلانا فقط في مكتب الزواج. في نفس اليوم الذي دُفنت فيه أديل الساكنةُ في جسدي الأصلي في مقبرة رديئة في إدنبرة. لكننا لم نبدأ التفكير بما سيحدث لاحقًا إلا الآن بعد أن صار كلانا حرًّا رسميًّا ليفعل ما يحلو له. تظاهرتُ بدراسة سؤاله للحظة.

ثم قلت:

- قطار الشرق السريع، ثم ربما نذهب في رحلة بحرية.

- أنتِ تكرهين القوارب.

جاء الصوت الصغير من المقعد الخلفي، ولم أحتَج إلى الالتفات لأرى النظرة الكالحة في عيني آدم. هو يعرف أن ثمة خطبًا ما في أمه، لكنه لا يستطيع اكتشافه. قال بعناد:

- لطالما قلتِ إنك تكرهين القوارب.

قلتُ:

- إنه ينطق سخفًا وحسب، أظنه قلقًا أن تأخذني منه.

واعتصرتُ فخذ ديفيد، وصررتُ أسناني خلف ابتسامتي. ما يزال ثمة عقبة صغيرة نذللها لتكتمل سعادتنا. قد لا يعرفُ ديفيد لويز جيدًا، لكن إيان وآدم يعرفانها. يجبُ بتر تينك الصلتين. كان إنهاء الصداقة مع صوفي أمرًا سهلًا، فقد قام ذكرٌ بسيط لخيانات محتملة أمام زوجها بالواجب، لكن مغادرة آدم حياتي تحتاجُ إلى أن تكون أمرًا أكثر دراميةً. لا ينبغي أن يصعب تدبيره، فالأطفال معروفون بأنهم عرضة للحوادث. وبأي حال، قد يقرّب الأسى الناس من بعضهم، أليس كذلك؟

قال ديفيد:

- أحبك يا لويز مارتن.

وهو يشغّل السيارة ويقود بنا بعيدًا، تاركين الماضي خلفنا.

فقلتُ:

- أحبك أيضًا يا ديفيد مارتن، أكثر مما ستعرفُ أبدًا.



سارا بينبرو
أديبة إنجليزية حائزة على جوائز ومصنفة ضمن المؤلفين الأكثر مبيعًا بحسب صحيفة نيويورك تايمز وعالميًّا عن روايتيها وراء عينيها و13 دقيقة، تعيشُ في لندن وتبلغ من العمر تسعة وأربعين عامًا.

"إن وراء عينيها رواية أشبه بصندوقِ أحاجِيّ داهيةٍ، قصة مثيرة مُهندَسة بمهارة تُذكّر بهيتشكوك في ذروة إدهاشه، وريندل في قمة بأسها. موجزة ورذيلة، قاتمة ومُزعجة، من صنف الروايات التي تستولي على حياتك. سارا بينبرو تُزهق أرواحًا".

ـ جو هيل، مؤلف رواية رجل الإطفاء الأكثر مبيعًا بحسب صحيفة نيويورك تايمز.

"إن وراء عينيها رواية سوداء مؤثرة مُشوّقة ذات خاتمةٍ مُذهلة. توشكُ سارا بينبرو أن تصير هوسكم الجديد".

ـ هارلان كوبان، مؤلف رواية اخدعني مرة الأكثر مبيعًا بحَسب صحيفة نيويورك تايمز.

"قصة إثارة نفسيّة ملتوية... ستُبقي بينبرو حتى القُرّاء المُحنّكين يُخمنون".

ـ مجلة بابليشرز ويكلي.

"قصة حُب كئيبة على نحو لذيذ ستُبقيكَ في حالة تخمين. صادمة وبهيجة وأخّاذة، أهلًا بكم في عالم سارا بينبرو".

ـ سارا لانجان، الروائية الفائزة ثلاث مرات بجائزة بران ستوكر.



لويز

منذ أن غادر زوجها، جعلت لويز من ابنها عالمها، وراحت تعيلُ كليهما عبر عملها بدوامٍ جزئي. لكن يتغير كل ذلك وقتما تلتقي...

ديفيد

شابٌّ وناجحٌ وفاتنٌ، لا يسعُ لويز التصديق أن رجلًا مثله قد ينجذب إليها. ويبلغُ كل ذلك توقفًا ساحقًا وقتما تلتقي زوجته...

أديل

مليحةٌ وأنيقةٌ ومُحبّبةٌ، تبدو صديقة لويز الجديدة مثالية من كل النواحي. بعد أن صارت مهووسة بهذا الثنائي الخالي من العيوب، لا يمكنها منعُ نفسها من التساؤل عمَّا إذا كانا مثاليين إلى هذا الحد فعلًا؟

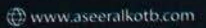
لكن لا تبدأ لويز برؤية الشروخ إلا عندما تتعرّف إلى كليهما...

تصميم الغلاف: محمود هشام









contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb